تيسير التفسير

لقطب الأئمّة

الشيخ الحاج محمد بن يوسف أطفيّش

(ت: ١٣٣٢هـ/١٩١٤م)

(الجزء السادس)

تحقيق وإخراج

الشيخ إبراهيم بن محمد طلاي

بمساعدة لجنة من الأساتذة

الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م

وضع التراجم وتخريج الأحاديث

الأستاذان: كروم أحمد وبازين عمر

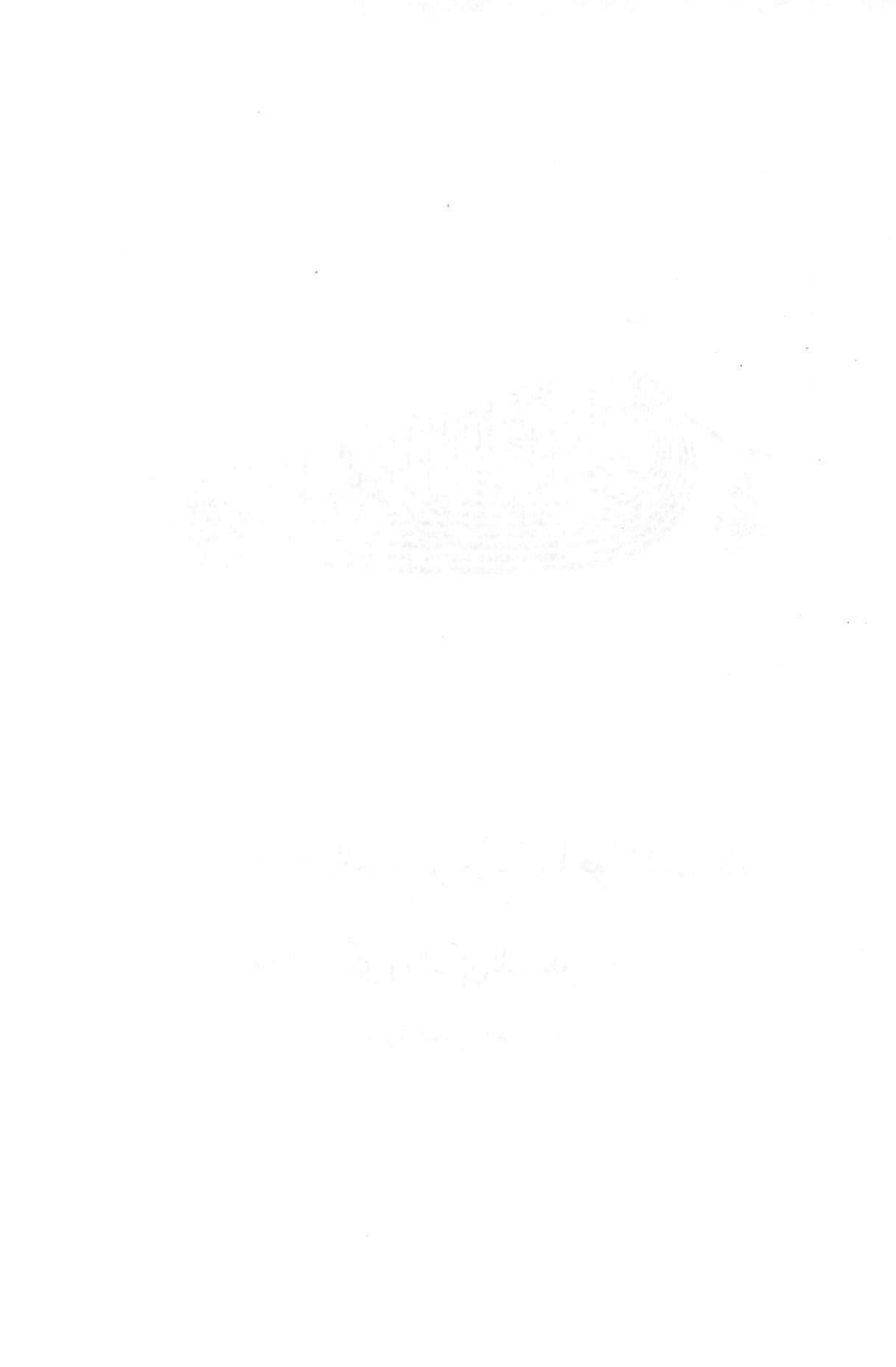
الفهرسة ومتابعة الطبع

الأستاذان: مصطفى طلاي ومحمد شريفي



﴿ قل نزّله روح القدس من ربّك بالحقّ ليثبّت الذين ءامنوا وهدى وبشرى للمسلمين ﴾ .

(سورة النحل ءاية ١٠٢)



﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ٣٥﴾

سيرة الأحبار والرهبان في معاملاتهم مع الناس

﴿**يَا أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ**﴾ ناداهم تحذيرا عن فعل الرهبان والأحبار من أكل المال بالباطل، وتعجيبا من صدِّهم عن سبيل الله وعدم اتِّباعهم لكتبهم، فإيَّاكم ومخالفة كتابكم القرآن، عاب اتِّبَاعهم باتِّخاذهم أربابا، وفيه عيب قبولهم اتِّخاذ الأتباع، وعابهم بأكل المال باطلا، وبالصدِّ، وعابهم بالحرص على المال في قوله: ﴿**إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ اَلاَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَاكُلُونَ أَمْوَالَ اَلنَّاسِ بِالْبَاطِلِ**﴾ وبالحرص على الجاه في قوله: ﴿**وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اِللهِ**﴾ يعرضون عن الحقِّ من القرآن وغيره، ليبقوا في مراتبهم محترمين، آكلين لأموال غيرهم، أو يمنعون غيرهم عن الحقِّ بإلقاء الشبه والخديعة ليبقوا أتباعا لهم منتفعين باستخدامهم وأموالهم.

ومعنى أكل أموال الناس بالباطل: أخذها بتحريف آيات التوراة والإنجيل في وصفه ﷺ، وفي بعض الأحكام، وبكتابة من عندهم مع قولهم: إنَّها من الله ﷻ، وبالرشوة في الحكم، لا خصوص أكلها في البطن، إلاَّ أنَّه خصَّ بالذكر لأنَّه المقصود الأعظم في المال، والأكل سبب للأخذ والتملُّك، وملزوم لهما، ويجوز العكس، وهو أنَّ الأخذ والتملُّك مسبِّبان للأكل ولازمان له.

أو المراد بالأموال الأطعمة أو الأكل استعارة للأخذ، شبَّه مبالغتهم في الأخذ بلا تمييز للباطل منه بالمبالغة في الأكل بلا تمييز طعام من طعام لشدَّة

الجوع، ولا يقال ببرودة هذه الاستعارة لأنَّه لا ذِكْرَ في الآية للمبالغة، لأنَّا نقول: ذكرت بذكر الباطل. وليس معنى ﴿كَثِيرًا﴾ أكثر بحسب اللغة، بل يعمُّ النصف وأكثر وأقلَّ، ولو كان الواقع في الصدِّ والأكل هو أكثرهم، وقلَّ من لم يفعل ذلك منهم على عهده ﷺ أو قبله.

﴿**وَالذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ**﴾ من الأحبار، أو من أهل الكتاب، أو من المؤمنين، أو من الكلِّ، وهو أولى. وخصَّ الذهب والفضَّة بالذكر لأنَّهما أعظم، قيل: ولأنهما الأصل الغالب في الأموال، وإلاَّ فحكم النحاس المضروب سكَّة حكمهما، وكذا كلُّ مال تلزم فيه الزكاة أو النفقة ولا تخرج.

روى أبو داود عن ابن عَبَّاس أنَّه لَمَّا نزلت الآية كبرت على المسلمين، فقال عمر: أنا أفرِّج عنكم، فانطلق فقال: يا رسول الله إنَّه كبر على أصحابك هذه الآية، فقال: «**إنَّ الله لم يفرض الزكاة إلاَّ لتطييب ما بقي من أموالكم، وإنَّما فرض المواريث لتكون لمن بعدكم**» فكبَّر عمر ثمَّ قال له: «**ألاَ أخبرك بخير ما يكنز المرء؟ المرأة الصالحة، إذا نظر إليها سرَّته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته**»[1].

وروى الترمذي عن ثوبان: لَمَّا نزلت ﴿وَالذِينَ يَكْنِزُونَ﴾ كنَّا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، فقال بعض أصحابه: نزلت في الذهب والفضَّة، فلو علمنا أيَّ المال خير اتَّخَذناه؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أفضله لسان ذاكر وقلب شاكر، وزوج صالحة تعين المؤمن على إيمانه**»[2] ولفظ الحديث:

١- رواه **أبو داود** في كتاب الزكاة، باب في حقوق المال، رقم ١٦٦٤. ورواه **التبريزي** في كتاب الزكاة، الفصل الثاني، رقم ١٧٨١ (١٠). من حديث ابن عَبَّاس.

٢- رواه **الترمذي** في كتاب التفسير (١٠) باب ومن سورة التوبة، رقم ٣٠٩٤، من حديث ثوبان.

«زوجة صالحة» بالتاء في "زوجة" لا يقول النبيء ذلك إن شاء ا لله تعالى، وإنّما يقول: «زوج»، وكذا لا يقوله الصحابي ولا نحوه، [قلت:] وهذا مِمَّا يقوِّي ما ذهبت إليه من أنَّه لا يكون الحديث حجَّة في النحو لأنَّ رواته يغيِّرونه إلى ما لا يجوز، أو يضعف جدًّا كضعف «زوجة» بالتاء، وضعف مَثْنَى مَثْنَى مرَّتين، وضعف قَرْنُ خبرِ كاد بـ«أَن»، ولم أر حديثا لم يتكرَّر فيه مثنى، ولا خبر كاد لم يقرن فيه بـ«أن»، وذلك لا يوصف به كلامه ﷺ، ولو في قليل فكيف بالملازمة؟ فعلمنا أنَّ الرواة يحرِّفون **لكنَّهم حافظوا على المعنى**.

﴿وَلاَ يُنفِقُونَهَا﴾ أفرد الضمير للتأويل بالعين أو بالورق، وهو شامل للذهب والفضَّة، أو بالدنانير والدراهم والأموال **﴿فِي سَبِيلِ اِ للهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ اَلِيمٍ﴾** كنز المال: جمعه وإبقاؤه بدفن أو بلا دفن، فذكرُ عدم الإنفاق زيادة بيان، أو استعمل الكنز بمعنى الجمع تجريدا عن بعض معناه، وذكر البعض بقوله ﴿وَلاَ يُنفِقُونَهَا﴾ في الزكاة والجهاد وأنواع البرِّ.

وذلك في أهل الكتاب وصفهم بالحرص في جمع المال، ثُمَّ بالشحِّ، ونادى المسلمين تنبيها عن أن يفعلوا فعلهم كما قال معاوية، أو في الموحِّدين المانعين للزكاة، قرنهم بأهل الكتاب الأشحَّاء الفاعلين لمثل ذلك كما قال ابن عَبَّاس، أو في الفريقين جميعا كما قال أبو ذرٍّ. وَلَمَّا نزلت أتى عمر النبيء ﷺ فيها وقد اشتدَّت عليه وعلى المسلمين، فقال له: «**إنَّ ا لله لم يفرض الزكاة إلاَّ ليطيب بها ما بقي من أموالكم**» فإذا أخرجنا الزكاة حلَّ الباقي ولو ملأ السماوات والأرضين، وقصَّة عمر هذه لا تتعيَّن في نزولها في الموحِّدين، ولو قيل به، لأنَّها إنَّما نزلت فينا وفي أهل الكتاب، فقد عمَّت أيضا، وإن نزلت فيهم، فقد حذَّرنا ا لله أن نكون مثلهم، ومن ذلك قوله

ﷺ : «**ما أدي زكاته فليس بكنز**»[١]، رواه ابن عمر. وعن ابن عمر: «**ما أديت زكاته فليس بكنز، وإن كان تحت سبع أرضين، وما لم تؤدِّ زكاته فهو الذي ذكر الله ولو كان على ظهر الأرض**».

(فقه) والتغيِّي بقوله: «وإن كان تحت سبع أرضين» معتبرٌ بالإخفاء لا بالكثرة كما هو ظاهر، وكما دلَّ له قوله: «ولو كان على ظهر الأرض» أي غير خفيٍّ، والمراد: ليس بكنز موعود عليه، قال ﷺ : «**من ترك صفراء أو بيضاء كوي بها**»[٢]، يعني تركها بلا زكاة، ووجد في إزار رجل من أهل الصفَّة دينار فقال ﷺ : «كيَّة»، وفي إزار رجل آخر ديناران فقال: «كيَّتان»[٣] وذلك قبل أن تفرض الزكاة، أو أظهرا الفقر ولهما ذلك.

وروى أنَّ أبا ذرٍّ رضي الله عنه أوجب على الناس أن لا يدَّخروا دينارا ولا درهما ولو بعد الزكاة وأداء سائر الحقوق، فأنكر الناس عليه كلُّهم بالأحاديث وآيات المواريث، وعابوه على ذلك، فإن صحَّ عنه فذلك هفوة منه غفرها الله تعالى له، ولا يوجد من لا يهفو، فقيل: إنَّ عثمان خاف أن يتبع في ذلك فنفاه إلى الربذة، وقيل: اختار العزلة فاستشار عثمان فأمره بالذهاب إليها، ونسب الرواة أنَّ لأبي ذرٍّ حدَّة، وأنَّ كعب الأحبار رضي الله عنه نهاه عن ذلك، فقال: ليس هذا في اليهوديَّة التي هي أضيق الشرائع، وكيف يكون في الملَّة السمحة؟ وأنَّه قال له: ليست المسألة من ذلك يا يهودي، وتبعه بالعصا حتَّى أوصله عثمان فكفَّه عنه، فقيل: ضربه، ووقعت العصا على عثمان، قلت: لا يصحُّ عنه أن يقول له يا يهودي

١- أورده **السيوطي** في الدرِّ، ج٣/ ص٢٣٢. من حديث ابن عمر.

٢- رواه **أحمد** في كتاب مسند الأنصار، رقم ٢٠٥٠٦، من حديث أبي ذرٍّ. (م.ح).

٣- رواه **أحمد** في كتاب باقي مسند الأنصار، رقم ٢١١٥٣، من حديث أبي أمامة الحمصي. (م.ح).

معايرة له بنسبه ولا بما تاب منه، وإن صحَّ فما هو إلاَّ قد تاب، لأنَّه ﷺ قال: «**إنَّه من أهل الجنَّة**».

و«الذِينَ» معطوف على «كَثِيرًا»، والفاء تفريع، أو منصوب على الاشتغال، أو مبتدأ والفاء صلة، أو تشبيه للمبتدإ باسم الشرط، وفي الأخير: الإخبار بالطلب. وسائر أموال الزكاة في حكم الذهب والفضة، وخصَّهما بالذكر لأنهما أعظم، ولأنَّهما أسهل للإخفاء. والتبشير استعارة تهكُّميَّة لعلاقة التضادِّ، أو مجاز مرسل لعلاقة الإطلاق والتقييد.

﴿**يَوْمَ يُحْمَى**﴾ متعلِّق بـ«عَذَابٍ»، أو بمحذوف نعت له، أو مفعول به، أي: اذكر للناس يوم يحمى، ولا يقدَّر: عذاب يوم يحمى، فيجعل «عَذَاب» بدل «عَذَابٍ» فحذف المضاف، لأنَّ «يَوْمَ» منصوب، إلاَّ إن بني لإضافته لجملة ﴿**عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ**﴾ يوم توقع شدَّة الحمي عليها، فالواقع عليها الحمي لا النار، لأنَّ النار من تحتها وجوانبها أيضا لا فوقها فقط، أو الأصل: "تحمى النار عليها" بالتاء الفوقيَّة، كما قرأ الحسن، وذلك مبالغة في حرارة النار، وَلَمَّا حذف النار ناب عنه قوله: ﴿عَلَيْهَا﴾ فكان «يُحْمَى» بالياء التحتيَّة، ولحذفه ساغ ذكر قوله: ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾.

وإفراد الضمير في «عَلَيْهَا» و«يُنفِقُونَهَا» لتأويل الكنوز، واختير ذلك لأنَّ المراد الكثير من الذهب والفضَّة، ولو صحَّ إطلاق الكنز أيضا على القليل، ولا يختصُّ بالكثير كما توهم، وإنَّما حملت الآية على الكثير لأنَّ الآية في قوم كنزوا كثيرا، وغيرهم ملحق بهم، والقليل ملحق بالكثير، وجاز رجوع الضمير إلى «الْفِضَّة» وهي أقرب، فيلحق بها الذهب بالأولى، وخصَّت بالذكر لأنَّها أكثر، ولأنَّ الناس أحوج إليها.

﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ أمَّا وجوههم فلأنَّهم يطلبون بالأموال الاحترام والوجاهة، وفي الوجه يظهر العزُّ، ولأنَّهم أعرضوا بها عن سائلهم، وأمَّا جنوبهم فلانفتاحها في الأكل والملابس الحسنة، وكذا الظهور ولأنَّه يصير بعد الإعراض عن الوجاهة إلى مجانبة، فيكوى الجنب، ثمَّ إن زيد سؤال أو لم يزد ولَّى ظهرًا فيكوى ظهره، ولأنَّ ذلك جهات أربع، ومشتمل على الدماغ المحاذي للجبهة، والقلب المحاذي للجانب الأيسر، والكبد المحاذي للظهر، ولأنَّها الجهات التي يلتفت إليها عند الدفن، قال أبو هريرة: «ما من صاحب ذهب ولا فضَّة لا يُؤَدِّي منها حقَّها إلاَّ إذا كان يوم القيامة صفِّحت له صفائح من نار، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره».

﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ﴾ مفعول لحال محذوفة صاحبها الهاءات الثلاث الأخيرة، أي مقولا لهم: هذا الذي تكوون به المال الذي كنزتم لأنفسكم صار لكم ضرًّا، أو هذا الكيُّ جزاء ما كنزتم، أو هذا الكي هو الذي كنزتم لأنفسكم بكنزكم موجبه الذي هو ذلك المال، تبسط جلودهم حتَّى تسع جميع ما كنزوا، ولو كان ميلا أو أكثر من المال. ﴿فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ «مَا» مَصدَرِيَّة، أو اسم، أي: ذوقوا جزاء كنزكم للمال أو جزاء المال الذي كنزتموه، أو جزاء مال كنزتموه.

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ

عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾

تحريم النسيء والأمر بقتال المشركين

ومهَّد لجناية أخرى جناها مشركو العرب، قيل: واليهود والنصارى، وهي النسيء بقوله ﷻ: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ﴾ أي العَرَبِيَّة القمريَّة ﴿عِنـدَ اللهِ﴾ أي في حكمه أو علمه، أو اللوح المحفوظ، وقيل: [في] القرآن لهذه الآية نفسها، وقيل: لأنَّ فيه آيات تدلُّ على الحساب ومنازل القمر لا ابتداع الناس فكيف يغيِّرونها بالنسيء كما جعل الأيَّام سبعة، وإلاَّ فالشهور والأيَّام في أنفسها متماثلة لا حصر لها هي سيَّالة لا يحدُّها حدٌّ بخلاف شهور الشمس، فإنَّها تعدُّ بقطع الفلك إلى موضع ابتدأت منه، إلاَّ أنَّ الله ﷻ قرَّب العَرَبِيَّة إليها وبنى عليها إذ حدت، وزاد بعشرة أيَّام أو أحد عشر تقريبا، وبهذه الزيادة تنتقل الشهور القمريَّة في الشمسيَّة، فيكون رمضان مثلا تارة في يناير وتارة في فبراير وهكذا...

وأمرهم الله من زمان إبراهيم بناء العبادات على القمريَّة، واعتبروا الشمسيَّة لمصالح دنياهم، فذمَّهم الله إذ أخَّروا حرمة شهر إلى آخر، وذكر قوله: ﴿عِندَ اللهِ﴾ لبيان كمال قُبْح النسيء وهو متعلِّق بـ«عِدَّةَ»، وصحَّ التعلُّق به مع أنَّه بمعنى العدد، لأنَّ الظروف معمولات ضعيفة، يكفيها أدنى رائحة الحدث.

ويدلُّ على أنَّه ليس مصدرا بمعنى العَدِّ الإخبار عنه بقوله: ﴿اِثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ ولو كان في الأصل مصدرا. و«شَهْرًا» تميز مؤكِّد لتقدُّم قوله: ﴿عِدَّةَ

الشُّهُورِ﴾ دفعا لاحتمال التجوُّز بالشهور بأن يراد بها السنة، ولو قيل: اثني عشر عاما أو يوما لصحَّ، لأنَّه قال: ﴿عِندَ ا للّهِ﴾ كما ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ﴾ (سورة الحج: ٤٧) ولذلك الدفع قيل: غير مؤكَّد.

وأوَّلها: المحرَّم وآخرها ذو الحجَّة، وهما من عام واحد، وقيل: أوَّلها رجب فهي من عامين. قال ابن عمر: خطبنا رسول ا لله ﷺ في حجَّة الوداع بمنى في وسط أَيَّام التشريق فقال: «**يا أَيُّها الناس إنَّ الزمان قد استدار، فهو اليوم كهيئة يوم خلق السماوات والأرض، وإنَّ عدَّة الشهور عند ا لله اثنا عشر شهرا، منها أربعة حرم أوَّلهنَّ رجبُ مُضَرٍ بين جمادى وشعبان، وذو القعدة وذو الحجَّة والمحرَّم**»[1]. وقيل: أوَّلها ذو القعدة، روى البخاري ومسلم: «**ألا إنَّ الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق ا لله السماوات والأرض، السنة اثنا عشر شهرا، منها أربعة حرم ثلاثة متواليات ورجبُ مُضَر**»[2] وأضيف رجب لمضر لأنَّ ربيعة كانوا يحرِّمون رمضان ويسمُّونه رجبا، وذلك مبنيٌّ على أَنَّ أَوَّل السنة المحرَّم.

وعرض على عمر تاريخ الأكاسرة بمن كان غالبا من ملوكهم، وتاريخ اليهود فاستحسن التاريخ بالهجرة، وأرَّخوا في أوَّل الإسلام بربيع الأَوَّل سنة القدوم، وبأوَّل شهر منها، وهو ربيع الأول، وأوَّل هلال المحرَّم في التاريخ الهجري ليلة الخميس بالحساب، وبالرؤية ليلة الجمعة.

(فلك) والشهر الشرعيُّ معتبر برؤية الهلال أو إكمال ثلاثين يوما،

١- أورده **السيوطي** في تفسيره، ج٥/ ص٨٨.

٢- رواه **مسلم** في كتاب القسامة والمحاربين، رقم ٣١٧٩. ورواه **البخاري** في كتاب التفسير (١٥٦) باب قوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ...﴾، رقم ٤٣٨٥. من حديث أبي بكرة.

والحقيقيُّ معتبر من اجتماع القمر مع الشمس في نقطة وعوده بعد المفارقة إلى ذلك، ولا مدخل للخروج من تحت شعاع إلاَّ في إمكان الرؤية بحسب العادة الشائعة التي عليها الشرع، ومدَّة الحقيقيِّ تسعة وعشرون يوما ومائة واحدة وتسعون جزءا من ثلاثمائة وستِّين جزء لليوم وليلته، فالسنة القمريَّة: ثلاث مائة وأربعة وخمسون يوما وخمس يوم وسدسه وثانية، وذلك أحد عشر جزءا من ثلاثين جزء لليوم وليلته، وإذا اجتمع من هذه الأجزاء أكثر من نصف يوم عدُّوه يوما كاملا وزادوا في الأيَّام، وتكون السنة كبيسة وأيَّامها ثلاثمائة وخمسة وخمسون يوما.

واصطلحوا على جعل الأشهر شهرا كاملا وشهرا ناقصا، وهذا هو الشهر الاصطلاحي، فالمحرَّم ثلاثون وصفر تسعة وعشرون، وهكذا فالأفراد ثلاثون وأوَّلها المحرَّم، والأزواج تسعة وعشرون وأوَّلها صفر، إلاَّ ذا الحجَّة من السنة الكبيسة فمن ثلاثين، لجعلهم ما زاد في أَيَّام السنة الكبيسة في ذي الحجَّة آخر السنة، ومعنى قوله ﷺ: «**شَهْرَا عيدٍ لا ينقصان رمضان وذو الحجَّة**» أَنَّ ثواب تسعة وعشرين فيهما ثواب ثلاثين، أو لا يكونان في سنة واحدة من تسعة وعشرين معا غالبا.

﴿**فِي كِتَابِ اِ للهِ**﴾ اللوح المحفوظ، أو حكمه إن فسرت «عِندَ ا للهِ» بعلمه، وهو نعت لشهر، أو اثني عشر. ﴿**يَوْمَ خَلَقَ اَلسَّمَاوَاتِ وَالاَرْضَ**﴾ متعلِّق بمتعلَّق «فِي كِتَابِ» أو بـ«فِي كِتَابِ» أو بـ«كِتَابِ» بمعنى مكتوب، أو كتابة، قيل: أو بدل من «عِندَ» وهو ضعيف، لأنَّ «عِندَ» للمكان المجازي، والزمان لا يبدَل من المكان، ولا المكان من الزمان. وذلك في علم ا لله وحكمه قبْل خلق السماوات والأرض واللوح، لَكِنَّ الظهور يحصل بخلق السماوات والأرض.

﴿**مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ**﴾ معظَّمة بالعبادة وتحريم القتال وتضعيف الحسنات

والسيِّئات فيها، أو ممنوعة عن القتال: ذو القعدة وذو الحجَّة والمحرَّم ورجب.

(فقه) [قلت:] والصحيح نسخ تحريم القتال فيهنَّ، ويدلُّ له أنَّـه ﷺ حاصر الطائف وغزا هوازن في شوَّال وذي القعدة، وقوله ﷻ: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ (سورة التوبة: ٠٥) على ما قيل: إنَّ تعميم الأمكنة تعميم للأزمنة.

﴿ذَلِكَ﴾ أي التحريم المعلوم من «حُرُمٌ»، أو كون العدَّة اثني عشر، ورجِّح بأنَّ المراد الردُّ على الكفرة في النسيء والزيادة، وأمَّا التحريم فإنَّها محرَّمة في الجاهليَّة أيضا، ويترجَّح الأوَّل بالتفريع في قوله تعالى: ﴿فَلاَ تَظْلِمُواْ...﴾. ﴿الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ القويم المستقيم، دين إبراهيم وإسماعيل، ومنهما ورثه العرب، ولو كان لا قتال لهما فإنهنَّ محترمات عندهما بالعبادة. أو ﴿الدِّينُ﴾: الحكم والقضاء، و﴿الْقَيِّمُ﴾: الدائم، أو ﴿الدِّينُ﴾: الحساب، أي الحساب المستقيم لا ما تفعله العرب من النسيء.

﴿فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ﴾ في الأربعة الحرم ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ بالذنوب وهتك حرمتهنَّ، فإنَّ السيِّئات تتضاعف فيهنَّ كما تتضاعف الحسنات، وهكذا تتضاعف حيث تتضاعف الحسنات من زمان أو مكان، كذنوب مكَّة ورمضان، أو الضمير للشهور الاثني عشر، والأوَّل أولى لأنَّه أقرب مذكور، لأنَّ النهي عن الظلم في الاثني عشر يكفي عنه مطلق النهي عن الذنب في العمر كلِّه، ويدلُّ له قول عطاء: «لا يحلُّ للناس الغزوُ في الحرم والشهر الحرام إلاَّ أن يقاتلهم العدوُّ»، إلاَّ أنَّ الصحيح نسخ تحريم القتال فيهنَّ كما مرَّ، فالظلم غير القتال الحلال، وكان الرجل من العرب يلقى قاتل أبيه أو ابنه فلا يَضُرُّه، ولو بإشارة بلسان أو عضو، وسمُّوا رجبا أصمَّ ومنصل الأسنة حتَّى أحدثوا النسيء فغيَّروا.

﴿وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ في كلِّ زمان وفي كلِّ

مكان ولو في الأشهر الحرم أو الحرَم، وقد زعم بعض أنَّ عموم الأشخاص يستلزم عموم الأحوال والأزمنة والأمكنة، و«كَافَّةً» حال، أي جميعا، من الفاعل قبله، أو المفعول في الموضعين، وهو مصدر "كفَّ" بوزن اسم الفاعل كما قيل في العافية والعاقبة، فإنّه إذا تمَّ الجمع لا يتصوَّر أن يزاد فيه، والفرض أنَّه لم يبق منه شيء خارج، فكذلك منع وكفٌّ، وقيل: «كَافَّةً» وصف، والتاء فيه للمبالغة، والمعنى: كافّين لهم وكافّين لكم، وقيل: معناه جماعة، ومن أسماء الجماعة "كَافَّة"، والتاء للتأنيث، والجماعة المخصوصة تكفُّ غيرها أن يزاد عليها، وتكفُّ عن التعرُّض لها.

وبشَّر المسلمين بالنصر مع الحضِّ على التقوى في قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّ اَ للهَ مَعَ اَلْمُتَّقِينَ﴾ بكلِّ خير بسبب تقواهم دنيا وأخرى، وأخذت العموم من إطلاق المعيَّة، إذ لم يقل: مع المتّقين لكذا، ودخل المخاطبون بالأولى، وقيل: هم المراد، أي إنَّ ا لله معكم بالنصر والإمداد.

﴿إِنَّمَا اَلنَّسِيٓءُ﴾ مصدر بمعنى التأخير لحرمة الشهر إلى آخر، أو بمعنى مفعول، أي الشهر المؤخَّر، فيقدَّر: إنّما زيادة النسيء، أو إنَّما النسيء ذو زيادة في الكفر، والأصل: "النسيء" قلبت الهمزة ياء وأدغمت فيها الياء. ﴿زِيَادَةٌ فِي اِلْكُفْرِ﴾ إذا جاءهم شهر حرام وهم في الحرب، أو أرادوا إنشاءها فيه أحلّوه وحرَّموا آخر مكانه، وقالوا: أمرنا بتحريم أربعة أشهر، وقد وفّينا بالأربعة، ولو لم تكن عين ذي القعدة وذي الحجَّة والمحرَّم ورجب، فضمُّوا إلى شركهم السابق كفرا آخر هو تحريم ما أحلَّ ا لله من الشهور وإحلال ما حرَّم منها، وأعظم من ذلك قولهم: إنَّ ا لله أمرنا بذلك، وربَّما جعلوا السنة ثلاثة عشر شهرا وذلك بجمع تلك الزيادات.

﴿يَضِلُّ بِهِ اِلذِينَ كَفَرُواْ﴾ يزيدون به ضلالا، واستعمل الفعل في الزيادة،

أو يقدَّر: يضلُّ ضلالا آخر، أو ضلالا زائدا ﴿يُحِلُّونَهُ, عَامًا﴾ أي يحلُّون النسيء، بمعنى المؤخَّر أو التأخير، والأوَّل أولى، لكن لا مانع من أن يقال: أحلُّوا التأخير أو حرَّموه، والجملة مستأنفة لبيان فعلهم، أو تفسير لقوله ﷻ: ﴿يَضِلُّ...﴾ أو حال. ﴿وَيُحَرِّمُونَهُ, عَامًا﴾ كانوا يصعب عليهم ترك الحروب والغارات ثلاثة أشهر متوالية، فيحلُّون المحرَّم ويحرِّمون صفرا مكانه، يمكثون زمانا على ذلك، ثمَّ يردُّون التحريم إلى المحرَّم.

ينادي مناديهم في ذي الحجَّة إذا اجتمعت العرب للموسم: أن أحلوه وحرِّموا مكانه شهرا آخر، وأوَّل من فعل ذلك نعيم بن ثعلبة من كنانة، إذا همَّ الناس بالصدور من الموسم خطب وقال: «لا مردَّ لِمَا قضيت أنا الذي لا أُعاب ولا أُخاب» فيقولون: لبَّيك، فيسألونه تحريم القتال في عامهم أو تحليله، وقيل: أوَّل من فعل ذلك جُنادة بن عوف الكناني بضمِّ الجيم، وكان مطاعا في الجَاهِلِيَّة ينادي على جمل في الموسم: «إنَّ آلهتكم قد أحلَّت لكم المحرَّم فأحلُّوه»، ومن قابل: «إنَّ آلهتكم قد حرَّمت عليكم المحرَّم فحرِّموه»، وتارة إذا حرَّموا صفرا بدلا من المحرَّم أحلُّوه وحرَّموا ربيعا الأوَّل، وهكذا حتَّى يصلوا المحرَّم بالتحريم، ويحجُّون في كلِّ شهر عامين. وحجَّ الصدِّيق في السنة التاسعة في ذي القعدة، وحجَّ ﷺ من قابل، وقد وصلوا المحرَّم بالتحريم، فنادى في منى: **«ألا إنَّ الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق ا لله السماوات والأرض، ووافق ما على عهد إبراهيم عليه السلام ومن قبله»**.

وتنازع «يُحِلُّ» و«يُحَرِّمُ» في قوله ﷻ: ﴿لِّيُوَاطِئُواْ﴾، والأولى تعليقها بما يعمُّهما، أي فعلوا ذلك ليواطئوا، بل هذا متعيِّن، لأنَّ معنى ﴿يُحَرِّمُونَهُ,﴾: يبقونه على تحريمه، فلا يعلَّل بقوله: ﴿لِّيُوَاطِئُواْ﴾ إلاَّ أن يُتَكَلَّف بجعل اللام في معناها الحقيقيِّ وهو التعليل، والمجازيِّ وهو العاقبة، ولكن لا مانع من أنَّهم قصدوا تحريمه من أنفسهم لا إبقائه فتكون للتعليل في الجانبين.

﴿لِيُوَاطِئُواْ﴾ يوافقوا بالتحليل ﴿عِدَّةَ﴾ عدد ﴿مَا حَرَّمَ ا للهُ﴾ راعوا وجوب أربعة و لم يراعوا أعيانها التي فرض ا لله ﷻ. ﴿فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ا للهُ﴾ من الأشهر ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ اَعْمَالِهِمْ﴾ زيَّنها ا لله بمعنى خذلهم، وخلق فيهم اشتهاءها، أو زيَّنها الشيطان فرأوها حسنة ﴿وَا للهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ لا يوفّق الأشقياء.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾

التحريض على الجهاد والتحذير من تركه ونصرة الله لرسوله

وشرع في حثّ المؤمنين على قتال المشركين بعد بيان نُبَذٍ من جناياتهم الموجبة له وفي فضيحة المنافقين بقوله: ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ﴾ توبيخ وتعجيب وإنكار للياقة في الشرع، وقوله: ﴿إِذَا قِيلَ﴾ قال ا لله أو رسوله ﷺ ﴿لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ ا للهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الاَرْضِ﴾ حال، أو الحال «اِثَّاقَلْتُم» مع خروج «إِذا» عن الشرط والصدر إن علقت بـ«لَكُمْ» قبله، أو بمتعلّقه،

والأوَّل أولى لأنه أنسب بجعل «اثَّاقَلْتُم» بمعنى مضارع التكرُّر، فإنَّ معنى ما لكم تثاقلون بصيغة التجدُّد كما يناسبه «إذَا»، أولى من معنى ما لكم تثاقلتم بدون تجدُّد. و﴿انفِرُواْ﴾: اخرجوا سراعا، وخصَّه بعض بما لا بدَّ منه كما هنا، و﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾: الجهاد فإنَّه سبيل الله، ويجوز كون «فِي» للتعليل. والأصل: تثاقلتم، كما قرأ به الأعمش، أبدلت المثنَّاة مثلَّثة فأدغمت فجيء بهمزة الوصل لسكون الأوَّل، كقوله ﷻ: ﴿فَادَّارَأْتُمْ﴾ (سورة البقرة: ٧٢) و﴿ادَّارَكُواْ﴾ (سورة الأعراف: ٣٧) بإبدال التاء دالا وإدغامها، وهمزة الوصل والتفاعل هنا للمبالغة، أو لأنَّ ثقل كلٍّ يدعو ثقل الآخر، وضمِّن معنى الميل فعدِّي بـ«إلى»، والمعنى: البطء والكسل، و﴿الأَرْضِ﴾: الدنيا، أي تركنون إلى الدنيا بحبِّ الحياة والراحة، ويجوز أن يراد أرض المدينة، أي تركنون إلى اختيار الأوطان عن الجهاد، والأوَّل أبلغ وأعمُّ.

﴿**أَرَضِيتُم**﴾ توبيخ وتعجيب وإنكار للياقة ﴿**بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ وغرورها وراحتها ولذَّاتها ﴿**مِنَ الاَخِرَةِ**﴾ بدلها وبدل نعيمها ﴿**فَمَا مَتَاعُ**﴾ تمتُّع ﴿**الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الاَخِرَةِ**﴾ أي في تمتُّعها ﴿**إِلاَّ قَلِيلٌ**﴾ تعليل لمضمون ﴿أَرَضِيتُم﴾، كأنَّه قيل: أخطأتم في رضاكم بالدنيا بدل الآخرة، لأنَّ متاع الدنيا قليل، قال المسور عن رسول الله ﷺ: «**ما الدنيا في الآخرة إلاَّ كما يجعل أحدكم إصبعه في اليمِّ ثمَّ يرفعها فلينظر بم يرجع**»[1] كما رواه مسلم والترمذي والنسائي. ومرَّ رسول الله ﷺ بذي الحليفة فرأى شاة شائلة برجلها فقال: «**أترون هذه الشاة هيِّنة على أهلها؟**» قالوا: نعم، قال ﷺ: «**والذي نفسي بيده لَلدُّنيا أهون على الله تعالى من هذه على صاحبها**»[2] ولو كانت تعدل عند الله جناح

١- رواه **الترمذي** في كتاب الزهد (١٤) باب منه، رقم ٢٣٢٢، من حديث مستورد.

٢- رواه **ابن ماجه** في كتاب الزهد (٣) باب مثل الدنيا، رقم ٤١١٠. ورواه **الطبراني** في الكبير، ج٦/ ص١٥٧، رقم ٥٨٤٠. من حديث سهل بن سعد.

بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء.

و«فِي الاَخِرَةِ» حال من المبتدإ، أي ثابتا مقابلة الآخرة، أو يقدَّر خاصّ، أي محسوبا، ويقال لـ«في» هذه ونحوها قياسيَّة، لأنَّ المعنى بالنسبة إلى الآخرة ولا يتعلَّق بقليل ولو سومح في تقديم الظرف على «إلاَّ»، لأنَّ تلك القلَّة ليست تقع في الآخرة، ومعناها صغر مدَّتها وصغر منافعها لانقطاعها، أو حقارتها كمًّا وكيْفا لتكدُّرها وانقطاعها.

(سيرة) دعاهم ﷺ في رجب من السنة التاسعة بعد الرجوع من غزوة هوازن والطائف وفتح مَكَّة إلى غزوة تبوك، وهم في قحط وشدَّة حرٍّ وقت إدراك الثمار، مع بعدها بأربع عشرة مرحلة، وكثرة عدوِّها وشدَّتهم من النصارى والروم، وتسمَّى غزوة العسرة لذلك، والفاضحة لأنَّها أظهرت حال كثير من المنافقين حتَّى زعم بعض أنَّه تخلَّف عنها عشر قبائل، ولتلك الشدَّة لم يُورِ ﷺ عنها كما يُوري عن سائر غزواته، بل أظهرها ليستعدُّوا ما يليق، وبلغه أنَّ مقدِّمة هرقل من الروم والشام بلغت البلقاء، وبعث ﷺ إلى مكَّة وقبائل العرب، وحضَّ الأغنياء على النفقة وهي آخر غزواته، وأنفق عثمان ما لم ينفقه غيره، جهَّز عشرة آلاف، وأنفق عليهم عشرة آلاف دينار، وحمل على تسعمائة بعير ومائة فرس، وأعطى من كلِّ ما يحتاج إليه من الزاد وغيره حتَّى أوكية الأسقية، وأوَّل من أنفق الصدِّيق، جاء بأربعة آلاف درهم، وهي جميع ماله يومئذٍ، والفاروق بنصف ماله، وذلك النصف أكثر من أربعة آلاف، وعبد الرحمن بن عوف بمائة أوقية، كالصدِّيق، والعبَّاس وطلحة بمال كثير، والنساء بما قدرن عليه من حليِّهِنَّ. وهم ثلاثون ألفا، أو أربعون، أو سبعون، والخيل عشرة آلاف، واستخلف على المدينة محمَّد بن مسلمة الأنصاري، أو عليًّا، ورجع عبد الله بن أُبي ومن معه من ثنيَّة الوداع، ودفع اللواء الأعظم للصدِّيق والراية

العظمى للزبير، وراية لأسيد بن خضير من الأوس، وراية للخبَّاب بن المنذر من الخزرج، ولكلِّ قبيلة أو بطن من العرب لواء وراية، ووجد ماء تبوك قليلا فاغترف من مائها غرفة فتمضمض بها فردَّها فيه ففاض، وأقام بها بضع عشرة ليلة أو عشرين، فأتاه يَحْنَةُ بن رؤبة صاحب أيلة، وعرض عليه الإسلام فأبى، وأهدى بغلة بيضاء فكساه ﷺ رداء، وعقد عليه الجزية وكتب له كتابا ليعلموا به، واستشار ﷺ الصحابة في مجاوزة تبوك فأبوا، فقفل إلى المدينة، ولَمَّا قرب منها قال لهم: «**لا تكلِّموا أحدا ممَّن تخلَّف ولا تجالسوه حتَّى آذن لكم**»، فالرجل يعرض عن أبيه وأخيه ومن يعزُّ عليه.

وبالغ في الحثِّ على القتال بقوله تعالى: ﴿**إِلاَّ تنفِرُواْ**﴾ معه ﷺ ﴿**يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا اَلِيمًا**﴾ في الآخرة، قيل: بحبس المطر، أو غلبة العدو، أو ما شاء الله، أو عذاب الدنيا والآخرة، قال ابن عبَّاس: استنفر ﷺ حيًّا من العرب فتثاقلوا، فأمسك عنهم المطر، فذلك عذابهم، وعلى هذا لم ينسخ وجوب خروج الكلِّ لأنَّها نزلت في مخصوصين، وقال عكرمة والحسن: نسخ بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُومِنُونَ...﴾ (سورة التوبة: ١٢٢).

﴿**وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ**﴾ أطوع منكم ليسوا من أولادكم ولا من أرحامكم، قيل: أبناء فارس، وقيل: أهل اليمن، وعلى الأَوَّل سعيد بن جبير، وقيل: ما يعمُّ هؤلاء وغيرهم وهو أولى، وليست نصرته متوقِّفة عليكم، وهي واقعة لا محالة.

(أصول الدين) وإذا قال الله ﷻ: إن لم تفعلوا كذا كان كذا، وقد قضى الله أن يفعلوا ونحو ذلك وقضاؤه لا يتخلَّف، ولا يخفى عنه ما يكون، وما لا يكون، فمعناه: احذروا وما يدريكم بما عند الله، وبنى الله تعالى الخلق

كلّه، بعضُهُ بلا ترتيب على شيء وبلا سبب، وبعضه على ترتيب وتسبُّب، ويقول: إن لم تفعلوا كذا كان، ولو علم أنَّهم يفعلون، ويقول: إن فعلتم، ولو علم أنَّهم لا يفعلون.

﴿وَلاَ تَضُرُّوهُ﴾ بترك نصره ﴿شَيْئًا﴾ ضرًّا مَّا، ونصره واقع لا محالة، والهاء لرسول الله ﷺ، ويدلُّ له: ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذَ اَخْرَجَهُ الذِينَ كَفَرُواْ﴾، وقيل: للدِّين المدلول عليه بالمقام، والأوَّل أولى لأنَّه المذكور، ولأنه أنسب بمتعلَّق الضرِّ نفيا أو ثبوتا، وعدم مضرَّته عدم مضرَّة دينه، أو لله وهو أولى، إلاَّ أنَّه يرجع إلى القول الثاني، لأنَّ الله لا يتضرَّر بشيء، فالمراد: لا تضرُّوا دينه ﴿وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو قادر على نصره ونصر دينه ولو بلا واسطة، وعلى الاستبدال، وزاد تأكيدا وزجرا عن الكسل بقوله:

﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ﴾ إن لا تنصروه ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ﴾ تعليل للجواب المحذوف، أي فالله ينصره، أو فسينصره، أو فلن يخذله، لأنَّ الله قد نصره، لأنَّ الله قد قضى نصره فيما مضى. والنصرة ولو كانت لا توجب نصرة بعدها ـ لأنَّ الله فعال لِمَا يريد ـ إلاَّ أنَّ الكلام يحمل على عوائد كرمه، وعلى استصحاب كرمه والقياس عليه، والخطاب للمتثاقلين، والهاء للنبيء ﷺ، وإنَّما لم نجعل «قَدْ نَصَرَهُ» جوابا لأنَّ نصره السابق أو الوعد بنصره اللاحق لا يتوقَّف على عدم نصرهم إيَّاهُ، ولأنَّ السابق لا يكون جوابا مستقبلا، والجواب مستقبل.

﴿إِذْ﴾ متعلّق بـ«نَصَرَ» ﴿اَخْرَجَهُ﴾ أهل مَكَّة ﴿الذِينَ كَفَرُواْ﴾ ضيَّقوا عليه حتَّى خرج، لأنَّهُ سمع عنهم ما ذكر الله عز وجل بقوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ اَلذِينَ كَفَرُواْ...﴾ (سورة الأنفال: ٣٠) فذكر المسبَّب وهو الإخراج والمراد السبب وهو التضييق، وما خرج إلاَّ بأمر الله. ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ والآخر الصدِّيق إجماعا رضي الله عنه لا

ثالث لهما من الناس، فكيف لا ينصره الآن ومعه جنود من النـاس، وهـذا بحسـب العادة، والأمر سـواء عنـد ا لله، أو المعنـى: نصـره حـين أخرجـوه لأنَّـه مـا أذن لـه بالخروج إلاَّ لينصره من خارج مَكَّة، والخروج إنَّما هو للنصرة فكيف تـتخلَّف؟ والمراد بعض اثنين، لأنَّه أضيف لِمَا هو من مادَّته لا لِمَا تحته نحو ثالث اثنين.

﴿إِذْ هُمَا فِي اِلْغَارِ﴾ «إِذْ» بدل من الأولى بدل مطـابق، بـأن نجعـل وقـت الخروج والذهاب إلى الغار واللبث فيه واحدا، لا بدل بعـض لعـدم الرابـط، ولا يقـدَّر هـذا منـه أو مـن ذلـك الوقـت ربـط بالضمـير في منـه عـائدا إلى «إِذْ» أو بالإشارة لأنَّه لم يسمع عـود الضمـير أو الإشـارة إلى «إِذْ» مـع ضعـف رجـوع الضمير من الجملة إلى الظرف المضاف إليها.

(سـيرة) وهو غار في أعلى ثَوْر ـ بفتح المثلَّثة وإسكان الواو ـ وهو جبل في يمين مَكَّة، ويمينها الجنوب، وهو على سير ساعة من مَكَّة، دخله الصدِّيق قبله ﷺ ليلاقي هو ما فيه من ضرٍّ، ثمَّ لَمَّـا دخلـه سـدَّ جُحـره بثوبـه خِرقـا، وبقـي جحرة فسدَّها بقدمه فنهشته حيَّـة، وَلَمَّا جاء أجل موته انبعث عليه سمُّها فمـات به ليكون قد مات موت شهيد، وشهر أنَّـه انبعث إليه سـمٌّ أكلـه في الطعـام مـع رسول ا لله ﷺ .

﴿إِذْ﴾ بدل من الثانية، أو من الأولى على جواز الإبدال من البدل، أو تعدُّد البدل، وعلى المنع يقدَّر له: "اذكر"، أو يقدَّر له "نَصَرَ" لا على طريـق البـدل، أو يعلّق «إِذْ» الثانية بـ«ثَـانِيَ» لكـن بضعـف، قيـل: لإيهامـه تطفُّلـه ﷺ على الصدِّيق في اللبث في الغار ومقدِّماته، من تقـدُّم الصدِّيـق بـالدخول للتمهيـد فيـه واختبار هل فيه من دَابَّـة، وليـس كذلـك، فـإنَّ معنـى ﴿ثَـانِيَ اثْـنَـيْنِ﴾: بعـض اثنين، والإخبار بأنَّه ثان في الغار لا يوجب أن لا يكون ثانيا في الذهاب إليه، بل لا مانع من معنى قولك: إنَّـه ثان لتكريمـه بتقـدُّم الصدِّيـق لإصـلاح الغـار، ومـا

دخل ﷺ إلاَّ بعد إصلاح الغار بخرق الثوب وبالقدم. ﴿يَقُولُ﴾ ﷺ ﴿لِصَاحِبِهِ﴾ أبي بكر رضي الله عنه، إذ قلق وحزن وقال: إن متُّ أنا مات رجل واحد، وإن متَّ أنت مات الدين وهلكت الأمَّة، وقال: لو نظر أحد تحت قدمه ـ أي جعل خدَّه في موضعها ـ لأبصرنا، أو طلعوا فوق الغار فلو نظر أسفله لأبصرنا، ويروى أنَّ أحد الفتيان المتَّبعين بال في مقابلة الغار، فقال الصدِّيق رضي الله عنه: يرانا، فقال ﷺ: لا إنَّ الملائكة تسترنا ولو كان يرانا ما كان يبول هناك. والمضارع لحكاية الحال الماضية.

﴿لاَ تَحْزَنِ اِنَّ اَ للهَ مَعَنَا﴾ بالنصر والولاية الدائمة، و«مَعَ» هنا دخلت على التابع والأصل دخولها على المتبوع، أو يعتبران المباشرة تليق بالخلق فدخلت عليه «مَعَ»، ولا بأس باعتبار خواصِّ المعاني الحقيقيَّة في المعاني المجازيَّة، وهنا مجازيَّة واعتبرنا فيها خَاصَّة المعيَّة.

(سيرة) قال الصدِّيق رضي الله عنه: لو أنَّ أحدهم رفع قدمه لأبصرنا تحت قدمه، وقصدت فتيان الغار فسبق أحدهم ورأى حمامة على فم الغار، وبينه وبين الغار قدر أربعين خطوة فرجع، وقال: ارجعوا لو كان فيه أحد ما كانت هناك حمامة، ويروى أنَّهم رأوا بيضها في فم الغار، ورأوا نسج العنكبوت، فرجعوا قائلين: لو كان فيه ما باضت في فم الغار ولا نسج العنكبوت، وإنَّه لأَقْدَمُ من ميلاد محمَّد. ويروى: على فمه حمامتان، وخرق الصديق كساءه فألقمه الجحر، وبقي جحر فألقمه قدمه فلدغ، وحيث الذهاب من مَكَّة يكون الصدِّيق أمامه وخلفه ويمينه ويساره، فقال ﷺ: «**ما هذا؟**» قال: أذكر الرصد فأتقدَّم، والطلب فأتخلَّف، وأكون جانبا لآمن عليك، قال ﷺ له: «**ما ظنُّك باثنين ثالثهما ا لله بالحفظ**

والنصر»، قال رسول ا لله ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه : «**أنت صاحبي في الغار أنت صاحبي على الحوض**». وعن أنس قال رسول ا لله ﷺ لحسَّان: «**هل قلت في أبي بكر شيئا؟**» قال: نعم، قال: «**قل وأنا أسمع**» فقال:

وثاني اثنين في الغار المنيف وقد ... طاف العدوُّ به إذ صاعد الجبَلا
وكان حِبَّ رسول ا لله قد علموا ... من البريَّة لم يعل به رجلا

فضحك رسول ا لله ﷺ حتَّى بدت نواجذه، قال: «**صدقت يا حسَّان هو كما قلت**». وروي أنَّ أبا بكر قال:

قال النبيء و لم يجزع يوقِّرني ... ونحن في سدف في ظلمة الغار
لا تخش شيئا فإنَّ ا لله ثالثنا ... وقد تكفَّل لي منه بإظهار
وإنَّما كيد من تخشى بوادِرَهُ ... كيد الشياطين قد كادت لكفَّار
وا لله مُهلكُهُم طُرًّا بما صنعوا ... وجاعل المُنتهى منهم إلى النار

ومن فضائله أنَّه أسلم على يده عثمان وطلحة والزبير وغيرهم، ومنها أنَّه حضر معه في جميع مشاهده و لم يغب عنه في سفر ولا حضر، قيل ومنها أنَّه عاتب ا لله تعالى أهل الأرض إلاَّ إيَّاهُ في قوله: ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ا للهُ﴾ ويبحث بأنَّ الخطاب لمن تثاقل عن الخروج فقط.

﴿**فَأَنزَلَ اَ للهُ**﴾ عطف على «يَقُولُ»، والترتيب ذكريٌّ. ﴿**سَكِينَتَهُ**﴾ طمأنينته التي تسكن معها القلوب ويحصل بها اليقين ﴿**عَلَيْهِ**﴾ على رسول ا لله ﷺ الثاني في الغار القائل لصاحبه، فالضمائر له، ولو عاد هاء «عَلَيْهِ» إلى الصدِّيق لتفكَّكت الضمائر، فإنَّ الهاء أيضا في قوله: ﴿**وَأَيَّدَهُ, بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا**﴾ للنبيء ﷺ أولى من أن تكون للصدِّيق رضي الله عنه، ولو كان أنسب بإنزال السكينة، لأنَّه هو الذي قلق لا رسول ا لله ﷺ، إلاَّ أنَّه لا مانعًا من أن يراد

بإنزال السكينة عليه ﷺ زيادتُها في محلٍّ يقلق فيه غيره، أو دوامها، ففي آية أخرى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ا للهُ سَكِينَتَهُ, عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُومِنِينَ﴾ (سورة التوبة: ٢٦) لكن لا يضرُّ تفكيك الضمائر، وعن أنس أنَّه ﷺ قال للصدِّيق رضي الله عنه : «**إنَّ ا لله تعالى أنزل سكينته عليك وأيَّدك**».

والمراد أنَّه أنزل ملائكة ليحرسوه في الغار ويصرفوا وجوه الكفَّار عنه ويرعبوهم حين رجعوا، أو ليعينوه في بدر وأُحد وحُنين وغيرهنَّ، وليس المراد لم تروها حين الغار فإنَّهم لم يحضروه، اللهمَّ إلاَّ باعتبار المجموع فإنَّ الصدِّيق والرسول ﷺ حضراه. والعطف على «نَصَرَهُ ا للهُ» إذا قلنا أنزلها ليعينوه في بدر...الخ، وعلى «أَنزَلَ ا للهُ» إذا قلنا أنزلها للحرس في الغار، تردَّدُوا حول الغار وصرفهم عن أن يروه، وقال قائفهم: انتهت هنا فصعدا إلى السماء أو نزلا في باطن الأرض، يعني الجبل.

(سيرة) أمره ا لله عز وجل بالهجرة فجاء إلى دار الصدِّيق رضي الله عنه في الظهيرة فرأته امرأة منها، فقالت له: هذا رسول ا لله ﷺ جاء، فقال: بأبي وأمي ما جاء به في وقت لا يعتاده؟ فدخل بإذن فقال: «**أمرت بالهجرة**» فقال: الصحبة يا رسول ا لله، فقال: «**نعم**» فقال: خذ إحدى الراحلتين، فقال: «**بالثمن**»، فأخذ القصوى بثمان مائة درهم، وهي التي يخرج عليها للجهاد والحجِّ وماتت في زمان الصدِّيق، وزوَّده الخبز واللحم والتمر وخرجا أوَّل الليل إلى الغار، وخلَّف عليًّا في فراشه ليظنَّه المشركون رسول ا لله، واستأجر الصدِّيق عبد ا لله بن أريقط ودفع له الراحلتين، وواعده أن يجيء بهما بعد ثلاث ليال يلبثان في الغار، وكان عامر بن فهيرة يختلف إليهما بالطعام وعليٌّ يجهِّزهما، واشترى ثلاثة أباعر من إبل البحرين واستأجر لهما دليلا وأتاهما عليٌّ في الليلة الثالثة بالإبل والدليل، وكان عبد ا لله بن أبي بكر غلاما ثقفا لقنا يبيت معهما ويخرج

سحرا فيصبح في مكّة كبائت، ويأتيهما بأخبار قريش إذا اختلط الظلام، ويأتيهما عامر بن فهيرة بلبن غنم ليلاً.

(سيرة) ويروى أنّه ﷺ استأجر مشركا من دبل من بني عبد بن عدي، وهو خريث، ودفعا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث، فأتاهما براحلتيهما صبح ثلاث فأخذ بهم طريق الساحل، ويسمّى طريق أذاخر، ورجع الرصد سُود الوجوه حزنين هم ومن أرسلهم إذ لم يجدوه، وبكى الصدّيق رضي الله عنه في الغار حين أحسَّ بالرصد فقال ﷺ له: «**ما يبكيك؟**» قال: بكيت للدين ينقطع بموتك لا لموتي، وكذا بكى حين لحقهم سراقة فقال: «**ما يبكيك؟**» فأجابه بذلك، وبسطت القصّة في "الهميان" وغيره.

﴿**وَجَعَلَ كَلِمَةَ اَلذِينَ كَفَرُواْ**﴾ كفّار قريش ﴿**السُّفْلَى**﴾ وهي دعوة الشرك، أو الكفّار مطلقا والشرك مطلقا، كقول النصارى: ثالث ثلاثة، أو الكلمة اعتقاد الشرك ﴿**وَكَلِمَةُ ا للهِ هِيَ اَلْعُلْيَا**﴾ وهي الدعاء إلى الإيمان أو اعتقاده، برفع «كَلِمَةُ» لا بالنصب ليكون اللفظ في معنى أَنَّهَا عليا في نفسها لا بالجعل، وإن كان النصر بها بالجعل، وحصر العلوّ فيها بضمير الفصل وبتعريف الطرفين، وكلمة السفلى بجعل ا لله إيَّاهَا نفسها السفلى، فهي مغلوبة لخسّتها، ولو غلب أهلها حينا فإنَّ غلبتها كلا غلبة ﴿**وَا للهُ عَزِيزٌ**﴾ في ملكه، فيعزُّ من والاه ويذلُّ من عصاه ﴿**حَكِيمٌ**﴾ في صنعه، أو لا يفعل إلاّ الصواب.

﴿**اِنفِرُواْ خِفَافًا**﴾ شبابا ونشاطا وركبانا وفقراء، إذْ لا يُعطّلهم المال، أو أغنياء إذا وجدوا ما يسرعون به، ومُقلّلين السلاح وغير مشغولين، وأصحّاء وعزّابا ومتجرّدين من الأتباع، ومسرعين حال سماع الهَيْعَةِ بلا تفكّر ﴿**وَثِقَالاً**﴾ عكس ذلك، انفروا على أيّ حال ثمَّ نسخ عن المرضى والزمنى والعمي ومن لا

يقدر، أو لعدم المال بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ...﴾ (سورة التوبة: ٩١)، وقيل: بقوله: ﴿مَا كَانَ الْمُومِنُونَ...﴾ (سورة التوبة: ١٢٢). لم يتخلَّف أبو أيُّوب عن غزوة على عهد رسول ا لله ﷺ ولا بعده، فقيل له، فقال: «استنفر ا لله الخفيف والثقيل، ولا أجدني إلاَّ خفيفا أو ثقيلا». وخرج سعيد بن المسيّب وهو أعور فقيل: إنَّك معذور، فقال: «استنفر ا لله الخفيف والثقيل، فإن لم يمكنني الحرب كثَّرت السواد وحفظت المتاع». وقال صفوان بن عمرو والي دمشق لشيخ من أهل دمشق خرج على راحلته: إنَّك يا عمُّ معذورٌ، فرفع حاجبيه وقد سقطا على عينيه فقال: «يا ابن أخي استنفرنا ا لله خفافا وثقالا، إلاَّ أنَّه يبتلي من أحبَّ». وقال ابن أمِّ مكتوم: يا رسول ا لله أعليَّ أن أنفر؟ فقال: «**نعم، ما أنت إلاَّ خفيف أو ثقيل**» فتقلَّد بسلاح ووقف بين يديه، فأنزل ا لله ﷻ: ﴿لَيْسَ عَلَى الاَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ (سورة الفتح: ١٧).

﴿**وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ**﴾ بما أمكن بهما أو بأحدهما، وقد قيل: الآية على الندب، أو هي من أوَّل الأمر في من أمكن له القتال. ﴿**فِي سَبِيلِ اِ للهِ**﴾ في إعلاء دينه ﴿**ذَالِكُمْ**﴾ أي الجهاد ﴿**خَيْرٌ لَّكُمْ**﴾ نفع وحسن في الدنيا والآخرة، وتركه ضرٌّ وقبيح، أو أفضل ممَّا تعدُّونه نفعا وحسنا من عدم الخروج له ﴿**إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ أنَّه خير وأنَّه من ا لله، فبادروا إليه.

﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُومِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْاخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُومِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْاخِرِ وَارْتَابَتْ

﴿قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾

تخلُّف المنافقين عن غزوة تبوك وقضية الإذن لهم

وعاب المتخلّفين المنافقين وقرَّر تثاقلهم في قوله: ﴿لَوْ كَانَ﴾ أي الجهاد الذي دعوتهم إليه بقطع النظر عن كونه في تبوك، فكأنَّه عاد الضمير إلى الجهاد على طريق التجريد، لأنَّ الجهاد مع فرض أنَّه في تبوك لا يتصوَّر أنَّه دونها، أو يقدَّر مضاف، أي لو كان بدله ﴿عَرَضًا﴾نفعا أي ذا نفع من منافع الدنيا ﴿قَرِيبًا﴾سهل التناول، شبَّه سهولة التناول بقرب المكان على التجوُّز الاستعاري، وقرب المكان سبب للسهولة على التجوُّز الإرسالي ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ ذا سفر قاصد أي ذا قصد، كلابِن وتامر بمعنى ذي لبن وذي تمر، فقاصد للنسب، أي متوسطا بين القِلَّة والكثرة، يقصده كلُّ أحد، تسمية للمتعلَّق بالفتح باسم المتعلّق بالكسر، أو القصد بمعنى التوسُّط حقيقة لا مجازا، وعلى كلِّ حال ليس بمعنى الإرادة، سُمِّي المتوسِّط بين طرفي الإفراط والتفريط ذا قصد ﴿لاَّتَّبَعُوكَ﴾ إليه ليأخذوا العرض القريب من الغنيمة ﴿وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ﴾ منهم، أو الاستعلاء للمضرَّة ﴿الشُّقَّةُ﴾ أي المسافة التي تقطع بمشقَّة، ولذلك سمِّيت بالشقَّة، ومن باب أولى أن يتَّبعوك لو قربت المسافة.

﴿وَسَيَحْلِفُونَ﴾ لكم أي المتخلّفون عن اتِّبَاعك ﴿بِاللهِ﴾ إذا رجعت من تبوك، وهو موضع قرب دمشق فيما قيل، سُمِّيَ باسم عين فيه، وهي العين التي أمر ﷺ أن لا يمسُّوا منها حتَّى يأتي، فسبق إليها رجلان وفيها ماء قليل فجعلا يوسِّعانها بسهم، فقال ﷺ: «**ما زلتما تبوكانها**» أي تحفرانها فسميت تبوك لذلك، والآية نزلت قبل الرجوع من تبوك فهي إخبار بالغيب على تقدير القول، أي قائلين: وا لله ﴿لَوِ اسْتَطَعْنَا﴾ ويجوز أن لا يقدَّر القول على تضمين

«يَحْلِفُونَ» معنى يقولون، فلا يتعلّق «با للّهِ» حينئذٍ بـ«يَحْلِفُونَ» بل بفعل القسم محذوفا، أي: يقولون با لله لو استطعنا.

﴿لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ أي لو استطعنا الخروج معكم لخرجنا معكم، أو لو استطعنا قُوَّة بدن أو مال لخرجنا معكم، و«لَوْ» وشرطها وجوابها جواب القسم، أو «لَخَرَجْنَا» جواب القسم وجواب «لَوْ» أغنى عنه جواب القسم ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ بدل مِن «يَحْلِفُونَ» بدل اشتمال لا بدل مطابق، كما قيل، فإنَّ الحلف سبب الإهلاك لا نفس الإهلاك، وقد يقال: إِنَّهُ هو لأنَّ إيقاعه إيقاع للهلاك؛ أو حال من واو «يَحْلِفُونَ» أو من الفاعل في «خَرَجْنَا». وإهلاك أنفسهم بالكذب، قال ﷺ: «**من حلف بـا لله كاذبا تبوّأ مقعده من النار**» وقال: «**اليمين الكاذبة تذر الديار بلاقع**»[1].

﴿وَا للهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في نفيهم الاستطاعة إذ قالوا: «لَوِ اسْتَطَعْنَا» لأنّهم مستطيعون، وفي دعوى أنّهم مؤمنون، وليس المراد تكذيبهم بأنّهم لو استطاعوا لم يخرجوا لأنّ في هذا إثبات عدم استطاعتهم وهم مستطيعون.

(سبب النزول) واعتذرت طائفة من المنافقين وطلبوا أن لا ينفروا فأذن لهم في التخلُّف اجتهادا منه بلا نوع مصلحة من الدنيا، فعاتبه ا لله بلطف في قوله: ﴿عَفَا ا للهُ عَنكَ﴾ بتقديم العفو عن العتاب تعظيما له لم يقع لغيره وتطييبا لقلبه، والعفو مؤذن بالإساءة ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ في التخلُّف عنك بقول كاذب، وهذا بيان لِمَا فيه العفو وهو الإذن لهم، ويجوز أن لا يكون قوله: ﴿عَفَا ا للهُ عَنكَ﴾ مشعرا بالإساءة، بل بدْءُ كلام بخير إعظاما له، كما تقول لمن

١- رواه **البيهقي** في كتاب الأيمان (١٩) باب ما جاء في اليمين الغموس، رقم ١٩٨٧١. من حديث يحيى بن أبي كثير.

لم يسئ إليك: عفا الله عنك افعل لي كذا أو لا تفعل كذا، وعفا الله عنك ما فعلت في أمري؟ ورضي الله عنك ما قلت في جوابي؟ قال ابن الجهم للمتوكّل حين أمر بنفيه:

عفا الله عنك، ألا حرمة تجود بفضلك يا ابن الندى
ألم تر عبدا عدا طوره ومولىً عَفُوًّا أو رشدًا هدى
أقلني أقالك من لم يزل يقيك ويصرف عنك الردى

(أصول الدين) فلا دليل في الآية على أنَّه ﷺ اجتهد وأخطأ، وأنَّ له الاجتهاد مطلقا، أو في مصالح الدنيا، ولا على أنَّه صدر منه الذنب بذكر العفو وبالاستفهام الإنكاري، فإنَّا نقول: الآية أمر له بالأولى، ولو أبقينا العفو مشعرا بالإساءة، وأيضا ذلك إساءة لم تصل الذنب، وعاتبه على شيئين: الإذن لهؤلاء وأخذ الفداء، وقد يزاد إليهما في غير الجهاد قصَّة ابن أمِّ مكتوم في "عبس"، وما في "التحريم" [في بدايتها]، ثمَّ إنَّه إن اجتهد فغايته أنَّه اجتهد و لم يصب فله أجر واحد لا ذنب ولو أصاب لكان له أجران.

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ اَلذِينَ صَدَقُواْ﴾ في اعتذارهم بأن يكون لهم عذر صحيح ﴿وَتَعْلَمَ اَلْكَاذِبِينَ﴾ فيه غاية لقوله: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ لأنَّ المعنى: لا ينبغي لك الإذن حتّى يتبيَّن...الخ وأذن له في سورة النور أن يأذن لمن شاء من المؤمنين، ﴿فَاذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ (سورة النور: ٦٢) و لم يعرف ﷺ المنافقين حتّى نزلت سورة براءة، كذا قيل، ويجوز أن يقدَّر لا تأذن لهم حتّى يتبيَّن لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين، و لم يقل: وتعلم الذين كذبوا كما قال: ﴿الذِينَ صَدَقُواْ﴾ للفاصلة، و لم يقل: ويتبيَّن الكاذبون للتفنُّن. قال عمرو بن ميمون الأودي: اثنتان فعلهما رسول الله ﷺ لم يؤمر بشيء فيهما، إذنه للمنافقين وأخذه الفداء من أسارى بدر، فعاتبه الله كما تسمعون.

﴿لاَ يَسْتَاذِنُكَ اَلذِينَ يُومِنُونَ بِا للهِ وَالْيَوْمِ اِلاَخِرِ﴾ في ترك الجهاد أو بذكر الجهاد طمعا في أن ترخّص لهم في تركه، وإنّما ذلك حال المنافق أو من له عذر، والنفي متوجّه للاستئذان والكراهة معا، أو للكراهة، بل يستأذنك المؤمن المخلص لعذر صحيح، أي تحقّق إيمانهم با لله واليوم الآخر **﴿أَنْ يُّجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾** بل يتبعونك ويجاهدون بأموالهم وأنفسهم، ويكرهون التخلُّف ولو أبحته لهم لخلوص إيمانهم، ورجاء الثواب وخوف العقاب، وذلك شأنهم، فهلاّ ارتبت فيمن استأذنك وتمهَّلت في شأنهم.

ومن شأن المؤمن أن يسارع في الخير، قال أبو هريرة: قال رسول ا لله ﷺ : «**مِن خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل ا لله، يطير على متنه، كلّما سمع هيعة أو فزعا طار على متنه يبتغي القتل أو الموت مظانه**»[1] أي في مواطن يعلم أنَّ الموت فيها شريف كالموت في الغزو ولو بلا قتل، كمرض وجوع وعطش.

ونفي الاستئذان نفي لسببه وملزومه وهما حبُّ التخلُّف، ويجوز أن يقدَّر: كراهة أن يجاهدوا. [قلت:] أكبُّ على التأليف إذ لم أجد لنا بنا غازيا يوما ولا من به أغزو، ولو كنت في زمان الأمير يوسف بن تاشفينت[2] لكنت أطوع له

١- رواه المنذري في كتاب الترغيب في الرباط في سبيل ا لله، ج٢/ ص٢٤٧، رقم٢٠. من حديث أبي هريرة.

٢- يوسف بن تاشفين بن إبراهيم المصالي الصنهاجي اللمتوني أمير المؤمنين وملك الملثمين ومؤسّس دولة المرابطين بمراكش ولدسنة سنة ٤١٠هـ قوي أمره في المغرب الأقصى فاستنجد به المعتمد بن عباد بإشبيلية على قتال الفرنجة فزحف بجموعه فكانت واقعة زلاقة المشهورة وقد غيَّرت ميزان القوى في الأندلس لفترة طويلة، وبايعه ملوك الأندلس وأمراؤها وكانت له =

من سائر أعوانه إن شاء الله، ولعلَّ الله يجعل لي ثوابا لقصدي.

﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ أراد المتّقين مطلقا، فيدخل هؤلاء الذين لا يستأذنونك أوّلا، أو هم المراد وشهد لهم بالتقوى ووعد لهم الثواب، فمقتضى الظاهر: والله يحبُّهم، فوضع الظاهر موضع المضمر ليمدحهم بالتقوى وللفاصلة، وفي "أخبار الملوك": [ليمدّهم] بالإحسان عدَة لجزاء المحسنين.

﴿إِنَّمَا يَسْتَاذِنُكَ﴾ في ترك الجهاد بلا عذر ﴿اَلذِينَ لاَ يُومِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الاَخِرِ وَارْتَابَتْ﴾ شكّت ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ عطفت هذه الجملة على جملة الصلة «لم يومنوا» تحقيقا فلم يرجوا ثوابا ولا خافوا عقابا، ولم يقل: وترتاب بصيغة المضارع لأنَّ الريبة ماضية في قلوبهم راسخة سابقة، وعدم الإيمان مترتّب عليها فكان بصيغة المضارع، وربّما أفاد التجدُّد بأن يتخيَّل لهم أنَّ الإيمان حقٌّ ثمَّ ينفونه، ويتخيَّل لهم ثمَّ ينفونه وهكذا... وأمَّا من له عذر من المؤمنين فمعذور في طلب التخلّف، فقيل: ككعب بن مالك، وهلال بن أميَّة، ومرارة بن الربيع من المخلصين.

وعدم الاستئذان علّة مستمرَّة في المخلصين إلاَّ لعذر صحيح، ثمَّ إنّه إذا جاز فإنّما يقال: استأذن في ترك الخروج لا في الخروج، لأنَّ الخير لا يستأذن فيه، كما لا تستأذن أخاك في أن تسدي إليه معروفا، وكما لا تقول للضيف: هل أقدّم لك الطعام؟ أو هل أقدّم الشراب؟ أو هل أعلف دابّتك؟ كما راغ الخليل في قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ﴾ (سورة الذاريات: ٢٦) أي ذهب خفية

=

جولة ثانية إلى الأندلس فشمل سلطانه المغرب الأقصى والأوسط وجزيرة الأندلس وتوفي بمراكش سنة ٥٠٠هـ. الأعلام للزكلي، ج٨/ ص٢٢٢.

﴿فَجَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾، فإنَّ الاستئذان في نحو ذلك يفهم التكلُّف والكراهة، وقد يسوغ الاستئذان لداع فيتبيَّن له وجه الاستئذان إذا كان يخاف على فساد الطعام بنحو صومه، أو شغل قلبه.

﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ يتحيَّرون، والتردُّد: الذهاب والمجيء، فهذا استعارة تمثيليَّة، أو مجاز عن التحيُّر بعلاقة السَّببيَّة، فعادة المتحيِّر التردُّد. و«فِي رَيْبِهِمْ» حال من واو «يَتَرَدَّدُونَ» لا متعلِّق بـ«يَتَرَدَّدُونَ»، وقدِّم للفاصلة والحصر. وروي أنَّ ذلك في تسعة وثلاثين رجلا من المنافقين.

وزعم بعض أنَّ قوله تعالى: ﴿لاَ يَسْتَاذِنُكَ...﴾ منسوخ بقوله تعالى في سورة النور: ﴿إِنَّمَا الْمُومِنُونَ الذِينَ ءَامَنُواْ بِا للهِ وَرَسُولِهِ...﴾ إلى ﴿...غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (سورة النور: ٦٢) فخيَّر ا لله تعالى رسوله ﷺ: من غزا فله الثواب ومن قعد فلا حرج عليه.

﴿وَلَوْ أَرَادُواْ الْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌۢ بِالظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ابْتَغَوُاْ الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾

تخلُّف المنافقين بغير عذر وخطر خروجهم للقتال

﴿وَلَوَ اَرَادُواْ الْخُرُوجَ﴾ معك إلى الجهاد ﴿لَأَعَدُّواْ﴾ هيَّأوا ﴿لَهُۥ﴾ للخروج ﴿عُدَّةً﴾ وخرجوا، والعدَّة: المؤونة، أي مؤونة تليق به من سلاح ومركوب وزاد ونحو ذلك ﴿وَلَكِن كَرِهَ ا للهُ انبِعَاثَهُمْ﴾ هذا الاستدراك متعلِّق

بقوله: ﴿لَأَعَدُّواْ﴾ باعتبار إثباته بإثبات إرادة الخروج لو ثبتت، أي لو أرادوها وأعدُّوها لخرجوا في زعمهم، لكن لا يخرجون في قضاء الله، وكراهة الله انبعاثهم سبب وملزوم لعدم خروجهم، أو متعلّق بقوله: ﴿وَلَوَ اَرَادُواْ الْخُرُوجَ﴾ أي لكن ما أرادوه، فعبَّر عن قوله: لكن ما أرادوه بقوله: ﴿وَلَكِن كَرِهَ اَ اللَّهُ﴾ لأنَّ كراهته سبب وملزوم لعدم إرادتهم، أو المعنى: ما تركوا العدَّة بأنفسهم تحقيقا بل بخذلان الله تعالى وكراهته فلم تقع، لكن بين متّفقين، فإنَّها لا تقع بينهما بل بين ضدَّين، أو نقيضين أو مختلفين، والانبعاث انفعال عن بعث النبيء ﷺ لهم، أي ولكن كره الله توفيقهم إلى المطاوعة.

﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ حبسهم عن الخروج بالجبن والركون إلى الراحة، والتخويف من شدَّة قتال الروم، وذلك خذلان لا إجبار، ويجوز أن يكون محطُّ الاستدراك هو قوله: ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ أي لأعدُّوا له عدَّة ولكن ثبَّطهم عن الإعداد بخذلانهم عن إرادة الخروج، وذلك كما يفيد الخبر بتابعه، نحو: زيد رجل صالح، وأيضا كأنَّه قيل: ما خرجوا أو ما أعدُّوا لكن تثبَّطوا، كما تقول: ما قام زيد لكن قعد، وما أحسن زيد لكن أساء، واتِّفاق ما بعد «لَكِن» وما قبلها جائز، إذا اختلفا نفيا وإثباتا، وانتفاء إرادة الخروج يستلزم انتفاء خروجهم، وكراهة الله انبعاثهم تستلزم تثبُّطهم عن الخروج.

وأيضا أنت خبير بأنَّ قضاء الله لا يردُّ، وقد قضى أن لا يريدوا، فكراهته نفي لإرادتهم ونائبة عنه، فكأنَّه قيل: ولو أرادوا الخروج لأعدُّوا له عدَّة ولكن ما أرادوا، لأنَّ الله كره انبعاثهم لِمَا فيه من المفاسد. [قلت:] وإنَّما عاتب رسولَ الله ﷺ على إذنه في التخلُّف لهم مع أنَّ خروجهم مفسدة لأنَّه مكلَّف بالظاهر، ولا يدري غَيب مفسدتهم وهي الخبال والإيضاع بالنميمة، وإظهار العدوِّ على الأسرار، ولأنَّه أذن لهم بلا

إذن من ا لله ﷻ .

﴿وَقِيلَ﴾ أي قال بعضهم لبعض، أو قال لهم رسول ا لله ﷺ، أو قال لهم ا لله بالخذلان، أي قدَّر عدم الخروج، أو قال الشيطان ﴿اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ من الصبيان والمجانين والبلّه والنساء والمرضى والهرمى، أو ذلك قول من ا لله أمر توبيخ، كقوله تعالى: ﴿وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (سورة الكهف: ٢٩) وقوله: ﴿اعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ﴾ (سورة فصّلت: ٤٠) ولا ضعف في قولك: أراد ا لله عدم خروجهم فقضى على رسوله أن يأذن لهم، أو سلّط عليهم الشيطان فوسوس لهم. والقاعدون: هم من جاز له القعود، وأمَّا من لم يجز لهم فهم هؤلاء المنافقون الذين تخلّفوا، وفي القاعدين نقص مع أنه أبيح لهم ولكن لا مؤاخذة ولنقصهم ذمَّ المنافقين المتخلّفين بمعيَّتهم.

﴿لَوْ خَرَجُواْ﴾ إلى الجهاد ﴿فِيكُم﴾ أي معكم أو حال من الواو ﴿مَا زَادُوكُم﴾ شيئا من الأشياء ﴿إِلاَّ خَبَالاً﴾ أي إلاَّ شيئا هو خبال، ولا يلزم من زيادة أنَّه قد كان فيهم خبل من قبل ثمَّ زيد خبل آخر، فإنّه لا خبال في الخارج، ولا يلزم من الزيادة أن تكون على شيء من جنسه، وقيل: إنَّ فيهم بعضا، فالزيادة على ظاهرها.

ويدلُّ له ما روي أنَّه قلَّ عنهم الماء فدعا رسول ا لله ﷺ فجاءت سحابة فأمطرت، فقيل لرجل: ويحك أسلم ألا ترى؟ فقال ما ذاك إلاَّ سحابة مرَّت فأمطرت. ولا يصحُّ ما قيل: إنَّ التقدير: ما زادوكم خيرا إلاَّ خبالا، لأنَّ الاستثناء المنقطع لا يكون في التفريغ، إذ لا دليل عليه، إلاَّ أن يقال: لَمَّا كان المقام مقام طمع المؤمنين أن يفعل هؤلاء خيرا كفى ذلك دليلا. والخبال: الفساد بتخذيل المؤمنين وتجبينهم، وتعظيم أمر الروم، والتردُّد في الرأي، وتزيين أمر لفريق وتقبيحه لآخرين ليختلفوا. ﴿وَلأَوْضَعُواْ﴾ بلام ألف بعدها ألف [اتباعا

لخطّ المصحف] ﴿خِلاَلَكُمْ﴾ أسرعوا.

(لغة) وأصله للإبل ونحوها من الركائب ويستعمل لازما، يقال: أوضعت دَابَّة زيد أي أسرعت، وأوضعتها: أسرعتها، وعلى التعدية يقدَّر: أوضعوا النمائم، واستعير لهم شبه سرعتهم بسرعة الإبل، أو شبَّه شدَّة انتقال قلوبهم في الشرور بسرعة نحو الإبل، وكأنَّه قيل: أسرعوا بإبلهم، ويستعمل أيضا متعدِّيا، أي أسرعوا إبلهم في عمل.

و«خِلاَلَكُمْ» بينكم، فهو ظرف مكان، جمع لخلل وهو الفرجة، ويجوز أن يكون الكلام استعارة بالكناية، وإثبات الإيضاع تخييليَّة، والأولى أن يكون استعارة تمثيليَّة، شبه فسادهم وسرعتهم فيه من النميمة ونحوها بسير الإبل وسرعتها، والجامع مطلق الإسراع وعدم التحرُّز عن عاقبة.

﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ أي يطلبون لكم الفتنة، فحذف الجارَّ، والأخفش يقيس ذلك، أو ضمِّن معنى التصيير، أي يطلبون أن يكون أمركم الفتنة، أي يصيِّرون أمركم الفتنة، أو يصيِّرونكم ذوي فتنة. والفتنة هنا: الشركُ، وصُحِّحَ أنَّها اختلاف الكلمة، وقيل: الفتكُ برسول الله ﷺ ليلة العقبة، اجتمع اثنا عشر رجلا فوقفوا على الثنية ليقتلوه، فخيَّبهم الله تعالى. والجملة حال من واو «أَوْضَعُوا».

﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ﴾ كلامكم ﴿لَهُمْ﴾ أي لأجلهم، ينقلون أخباركم أَيُّهَا المسلمون إلى المنافقين، أو هم يسمعون كلامكم لهم، يعني لنفعهم، فاللام متعلِّق ب«سَمَّاع»، أو بمحذوف نعت لـ«سَمَّاعُونَ» باعتبار نيابة «سَمَّاعُونَ» عن رجل. ﴿سَمَّاعُونَ﴾: ثابتون لهم كأنَّهم منهم فينقلون، ويجوز أن يكون السمع بمعنى القبول، أي رجال يقبلون كلام المنافقين مطيعين لهم لشبهات يلقونها إليهم مع أنَّهم كبراء، واللام في هذا للتقوية، والجملة حال من واو

«يَبْغُونَكُم»، أو كَافَّة.

﴿وَا للهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ أي بهم وبأحوالهم، وهم السمَّاعون، وعبَّر عنهم بالظاهر ليصفهم بالظلم، أو مطلق الظالمين فيدخل هؤلاء السمَّاعون بالأولى، فهو يجازيهم على ظلمهم ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ﴾ افتراق أمركم أو كلمتكم وخذلانكم، لتضعفوا فيغلبوكم ﴿مِن قَبْلُ﴾ يوم أحد.

(سيرة) كما انصرف ابن أُبَيّ لعنه ا لله يوم أحد من ثنية الوداع بأصحابه وهم ثلاثمائة، وبقي من المسلمين من هو مخلص وهم سبعمائة، وقيل: رجع بهم قبل الثنية لعنه ا لله من ذي جدَّة، وكما قالوا يوم الخندق: يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا، وكما وقف له اثنا عشر رجلا على ثنية الوداع ليلة العقبة ليفتكوا به ﷺ كذلك، قيل: من ذي جدَّة، والصواب من ذي جدر، وهو موضع قريب من المدينة، وكذا قيل: انصرف لعنه ا لله في هذه الغزوة قريبا من ثنية الوداع ﴿وَقَلَّبُواْ لَكَ الأُمُورَ﴾ ردَّدوا فكرهم لأجل مضرَّتك، ومضرَّة دينك وأصحابك، كمن يقلب شيئا ظهرا لبطن وبطنا لظهر ليظهر له ما يظهر ﴿حَتَّى جَآءَ الْحَقُّ﴾ النصر ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ ا للهِ﴾ عزُّه وعزُّ دينه وأهله، أو قضاؤه الأزليُّ وقدره ﴿وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ لذلك، فأظهروا الدخول فيه أكثر مِمَّا أظهروه قبلُ، وماتوا على نفاقهم إلاَّ من شاء ا لله، وإنَّما صحَّ التغيِّي بـ«حَتَّى» لتأويل ﴿ابْتَغَوْا﴾ و﴿قَلَّبُوا﴾ بالبقاء على ابتغاء الفتنة والتقليب، أو لتقدير: استمرُّوا على ذلك.

وسلَّى ا لله بالآيتين نبيئه ﷺ والمؤمنين على تخلُّف المنافقين، فإنَّه ضاق صدره بتخلُّفهم ولو أذن لهم لأنَّه أذن لهم بلا طيب من نفسه، وبيَّن له أنَّه ثبَّطهم لفسادهم وهتك أستارهم، وأنَّه لا عذر لهم.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾

انتحال المنافقين لأعذار وابتهاجهم بسوء يصيب المسلمين

﴿وَمِنْهُم مَّنْ يَّقُولُ ايذَن لِّي﴾ في التخلُّف عن الخروج **﴿وَلاَ تَفْتِنِّي﴾** لعدم الإذن لي، فإنِّي إن لم تأذن لي وتخلَّفت كنت مفاتنا لك بالتخلُّف، أو لا تكلِّفني بالخروج في هذه الشدَّة، أو أراد فتنة الدين للنبيء ﷺ وهو معصية الله بمخالفتك، لأنَّهم قَدْ يُراعون أمر الله في بعض الأحيان، أو ذلك من لسانه لا من قلبه، وفي قوله تلويح بأنَّه قاعد أذن له أو لم يأذن، إلاَّ أنَّه أحبَّ أن يكون قعوده بإذن، أو الفتنة: ضياع المال والعيال إذ لا كافل لهما بعدي، أو الفتنة: ببنات الروم فتنة المعصية أو فتنة القلب بأن يزني بهنَّ قبل القسمة.

وإسناد الفتنة في ذلك كلِّه إلى النبيء ﷺ لعلاقة السببيَّة، أي لا تكن سببا لوقوعي في الفتنة بعدم الإذن، والمراد في ذلك كلِّه الجد بن قيس، وروي أنَّ رسول الله ﷺ قال له: «**يا أبا وهيب هل لك في حلاوة بني الأصفر؟ أو في جلاد بني الأصفر** ـ أي جهادهم يعني الروم ـ **تتَّخذون منهم سراري بيضا لعسا لم تر مثلهنَّ؟**» فقال: إيذن لي في القعود لا تفتنِّي ببنات الأصفر، قد علمت الأنصار أنِّي رجل مفرط في التعلُّق بالنساء، فأخشى أن أفتن ببنات

الأصفر بالزنى بهنَّ قبل القسمة، أو خرج عن محلِّ الكلام فقال: إنَّهنَّ يفتنّني عن الكسب والجهاد، فإنَّ هذا قبل الخروج والقسمة لا يتمُّ اعتذارا، والأصفر رجل من الحبشة ملك الروم، فولد له بنات لعس، واللعساء: التي شفتها إلى السواد، وذلك ملاحة، أو وقع جيش من الحبشة على نساء الروم فولدن أولادا صفرا بين البياض والسواد، ويقال: بنو الأصفر ملوك الروم، أولاد أصفر بن روم بن عيص بن إسحاق.

وردَّ الله عليه قوله: ﴿أَلاَ فِي اِلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ﴾ فتنة الدين، أو مفاتنة الرسول، سواء أراد الجد النساءَ أو غيرهنَّ ممَّا مَرَّ، أو فتنة التخلُّف أو إظهار النفاق. ذكر الفتنة فقابله الله بذكرها، سواء أكانت التي أراد أم غيرها، والله عالم بمراده، و«أَلاَ» تنبيه وتأكيد لكونه وقع في الفتنة التي فرَّ منها مِمَّا مرجعه إلى الدين، أو في الفتنة الكاملة وهي ما مرجعه إلى الدين. و«الـ» للكمال ومراده غيرها، أو عدَّ الله ﷻ عليه ما وعده فتنة كلا فتنة بالنسبة إلى فتنة الدين إذ أراد هو غيرها. والتقديم للحصر. وضمير الجمع له ولأتباعه، أو للمنافقين مطلقا، ذكرهم لذكر واحد منهم، وعلى هذا فالفتنة فتنة الدين بأيِّ وجه كانت، مثل أن يقال: سقطوا [في الفتنة] بالتخلُّف.

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِالْكَافِرِينَ﴾ بالكافرين المصرِّين، لا محيد لأحدهم عنها. والعطف على «سَقَطُوا» عطف اسمِيَّة على فِعلِيَّة، فينسحب على المعطوفة ما جرى على المعطوف عليها من التنبيه والتأكيد بـ«أَلاَ»، ففي المعطوفة تأكيد بـ«أَلاَ» وبـ«إِنَّ» واللام والجملة الاِسمِيَّة مع ذكر الإحاطة، ففيها ما ليس في قولك: لهم جهنَّم، ولا سيما إن قلنا: محيطة بهم من الآن لإحاطة أسبابها بهم، فإنَّه آكد من أن يقال: محيطة يوم القيامة، فيجوز أن يراد بجهنَّم أسبابها وملزوماتها، تسمية باسم المسبّب اللازم لاسم السبب الملزوم، فيكون

اسم الفاعل للحال كما قيل: هو حقيقة، وإن أريد أنَّ جهنّم ستحيط بهم فهو للاستقبال، وإن قيل: أحاطت بهم بنفسها لتحقُّق الوقوع فهو للحال، وكذا ما قيل: إنَّ أعمالهم في الدنيا هي نار جهنَّم نفسها، ويوم القيامة تظهر صورة هذه النار، وهو وجه في قوله تعالى: ﴿يَاكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ (سورة النساء: ١٠). والكافرون على العموم، فيدخل هؤلاء بالحجَّة، وهي وجود الكفر فيهم، أو المراد هؤلاء، ذكرهم باسم الكفر تشنيعا عليهم في دعواهم الإسلام وللفاصلة.

﴿**إن تُصِبْكَ**﴾ يا محمَّد في الغزو أو غيره ﴿**حَسَنَةٌ**﴾ ما يستحسن بالطبع كالظفر والغنيمة ودخول الناس في الإسلام والهدايا، وكون الكلام في الغزو لا يمنع التعميم في الحسنة وَالسَّيِّئَة ﴿**تَسُؤْهُمْ**﴾ بالحزن لشدَّة بغضهم وحسدهم ﴿**وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ**﴾ فعلة مصيبة هذا هو الأصل، ثمَّ استعملت لفظة مصيبة اسما غير وصف، وفي الشرِّ دون الخير، وذلك كالقتل والشدَّة يوم أحد، وكلِّ ما يكره ولو مرضا أو شتما، وذلك في نفس الأمر، وأما الآية فالمصيبة في الغزو لقوله تعالى: ﴿**يَقُولُواْ قَدَ اَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ**﴾ جملة «هُمْ فَرِحُونَ» حال من واو «يَتَوَلَّواْ» وكفى، لا منها ومن واو «يَقُولُوا»، إذ لا يعمل في الحال عاملان، وكذا غيرها.

وقابل الحسنة بالمصيبة ولم يقابلها بالسيِّئة كما في آل عمران: ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا﴾ (سورة آل عمران: ١٢٠) لأنَّ ما هنا للنبيء ﷺ وما أصابه من سوء هو مصيبة يثاب عليها، وما في آل عمران للمؤمنين وهم قد تصيبهم سيِّئة لذنبهم. ومعنى أخذهم أمرهم من قبل: هو حذرهم كالتخلُّف يوم أحد قبل المصيبة، وإذا سمعوا أنَّ سلطانا أوعد رسول الله ﷺ كتبوا إليه، أو أرسلوا إليه نحن معك تحرُّزا وأخذا للحذر.

وتوليهم: ذهابهم عن موضع اجتماعهم وتحدُّثهم، ويضعف أن يفسَّر بالتولّي عن رسول الله ﷺ، لأنَّه لم يجر ذكر لاجتماعهم معه حين أصيب، وحذف من الأَوَّل: «يا ليتنا كنَّا معه فنفوز فوزا عظيما» لأنَّ المقام بيان لقسوتهم، وحذف من الثاني ذكر شماتتهم بما أصابهم من ضرٍّ ومشقَّة وذلك احْتِبَاك.

وَلَمَّا جعل المنافقون المتخلِّفون يخبرون أخبار السوء عن رسول الله ﷺ وأصحابه بأنَّهم لقوا مشقَّة السفر وهلكوا، كذَّبهم الله تعالى بقوله: ﴿**قُل**﴾ يا محمَّد ردًّا لفرحهم بمصيبتك: ﴿**لَّن يُّصِيبَنَآ إِلاَّ مَا كَتَبَ اَللهُ لَنَا**﴾ في اللوح المحفوظ أن يصيبنا، أو ﴿مَا كَتَبَ﴾: قضى، أو ما خصَّ لنا من خير الدنيا والآخرة مثل النصر والشهادة، ومن سوء الدنيا ونثاب عليه، والياء عن واو مكسورة نقل كسرها للصاد فقلبت ياء، من الصواب بمعنى وقوع الشيء فيما قصد به، أو من الصوب وهو النزول.

قال كعب الأحبار: سبع آيات في كتاب الله إذا قرأتهنَّ لا أبالي ولو انطبقت السماوات على الأرض لنجوت: ﴿قُل لَّن يُّصِيبَنَا...﴾ إلى: ﴿...الْمُومِنُونَ﴾، ﴿وَإِنْ يَّمْسَسْكَ اَللهُ بِضُرٍّ...﴾ إلى: ﴿...الرَّحِيمُ﴾ (سورة يونس: ١٠٧) ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الاَرْضِ...﴾ إلى: ﴿...مُبِينٍ﴾ (سورة هود: ٠٦) ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اَللهِ...﴾ إلى: ﴿...مُسْتَقِيمٍ﴾ (سورة هود: ٥٦) ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ...﴾ إلى: ﴿...السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (سورة العنكبوت: ٦٠) ﴿مَا يَفْتَحِ اِللهُ لِلنَّاسِ...﴾ إلى: ﴿...الْحَكِيمُ﴾ (سورة فاطر: ٢) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ...﴾ إلى: ﴿...الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (سورة الزمر: ٣٨).

﴿**هُوَ مَوْلاَنَا**﴾ متولِّي أمرنا بالنصر ومصالحنا كلِّها ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لاَ مَوْلَى لَهُمْ﴾ (سورة محمَّد: ١١) ﴿**وَعَلَى اَللهِ**﴾ لا على غيره ﴿**فَلْيَتَوَكَّلِ**﴾ الفاء للتأكيد والربط، فلا تمنع تعلُّق ما قبلها فيما بعدها، وعبارة بعض: إنَّها للاستجابة، ولا

يظهر ذلك، وإذا كانت للتأكيد والربط لم يجتمع عاطفان: الواو والفاء، ويجوز تعليقه بمحذوف عطف عليه بالفاء، أي وعلى الله توكّلنا فليتوكّل عليه سائر المؤمنين، وقيل: الفاء في جواب شرط، وإنّما قدّم معمول ما بعد الفاء عليها ليبقى شيء قبلها، أي وإذا كان الأمر كذلك فليتوكّل المؤمنون على الله ﷻ ﴿الْمُومِنُونَ﴾ إذ لا يليق بإيمانهم أن يتوكّلوا على غيره، ثمّ إن كان قوله: ﴿وَعَلَى اَ للهِ فَلْيَتَوَكَّلِ اِلْمُومِنُونَ﴾ من مقول القول فإظهار اسم الجلالة للتلذّذ والتعزُّز، وإلاّ فالمقام للإضمار.

ثمَّ بعدما ردَّ فرحهم بما يسوءه ﷺ بقوله: ﴿قُل لَّنْ يُّصِيبَنَا...﴾ ردَّه أيضا بقوله: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ﴾ تتربَّصون أي تنتظرون، وأيضا في هذا بيان لقوله تعالى: ﴿قُل لَّنْ يُّصِيبَنَآ إِلاَّ مَا كَتَبَ اَ للهُ لَنَا﴾. والتربُّص يقع في الخير كما يقع في الشرِّ، والأصل: تتربَّصون، حذفت إحدى التاءين. ﴿بِنَا﴾ يقال: انتظر به، ولا يلزم أن يقدَّر: هل تربَّصون أن يقع بنا، بل لو قدِّر لكان مفعولا به لـ«يتربَّص»، ولَكَانَ التفريغ في الإثبات لأَنَّ النفي بـ«هَلْ» حينئذ تسلَّط على قوله: أن يَقَعَ بِنَا.

﴿إِلاَّ إِحْدَى اَلْحُسْنَيَيْنِ﴾ الخصلتين، أو الفعلتين، أو العاقبتين الحسنيين، وقد تغلبت الاِسمِيَّة على العاقبة، وهما النصر والشهادة، قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ : «**تكفَّل الله تعالى لمن جاهد في سبيله، لا يُخرجه من بيته إلاَّ الجهاد في سبيله وتصديق كلمته أن يدخله الجنَّة، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر وغنيمة**»[1] أي أو مع ما نال من أجر.

١- رواه **البخاري** في كتاب التوحيد (٢٨) باب قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا اَلْمُرْسَلِينَ﴾ رقم ٧٤٥٧. ورواه **مسلم** في كتاب الإمارة (٢٨) باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله، رقم١٠٤ (...). من حديث أبي هريرة.

(لغة) ولا يلزم أن يقال: النصرة بالتاء لأنّـه يقـال النصـر فعلـة حسـنة ويقال الكرم خصلة حسنة وكذا فعلة، وتربُّص الكافرين يتحقّق في الشهادة مـن حيث إنّها قتل لا من حيث إنّها شهادة، وأمّا في النصر للمؤمنين فلا تربُّص لهـم فيه إلاّ باعتبار المآل، كلام الصيرورة، وذلك بالنظر إلى ما في نفس الأمر، لأنّهـم لا يحبُّـون النصـرة للمؤمنـين ولا ينتـظرون، فـأطلق الـتربُّص فيهمـا تغليـبـا، أو استعمالا للكلمة في المجاز والحقيقة. والحسنى: تأنيث الأحسن، وهما للتفضيـل، فكلاهما أحسن معًا من غيرهما، وليس المراد أنَّ إحداهما أحسن من الأخـرى، اللهمَّ إلاّ أن يقال: كلٌّ أحسن من الأخـرى مـن وجـه، فباعتبـار أنَّ النصـر قتـل لأعداء الله ﷻ وإذلال لهم وإقامة للدين في الحين وما بعد الحين يكون أفضـل، وباعتبار أنَّ الشهادة إفضاء إلى الحبيب سبحانه تكون أفضل.

وعنه ﷺ : «**يضمن الله ﷻ لمن خرج في سبيله لا يخرج إلاّ إيمانا بـا لله وتصديقا لرسوله أن يدخله الجنّة، أو يرجعه إلى منزله الذي خرج منه نائلا مـا نال من أجر أو غنيمة**»[1] فـ«إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ»: المغفرة أو الجنّة، والأخـرى: الأجر أو الغنيمة على منع الخلوِّ لا على منـع الجمـع، [قلـت:] ولا مـانع مـن أن يكون قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ...﴾ تهكُّما بهم بـأنَّ مـا ننـال هـو مـا تحبُّون لنا وهو إحدى الحسنيـين جعلهم كأنّهم يحبُّون الخير للمسلمين.

﴿وَنَحْنُ﴾ معشر المؤمنين **﴿نَتَرَبَّصُ بِكُمُ أَنْ يُّصِيبَكُمُ اللهُ بِعَـذَابٍ مِّنْ عِنـدِهِ﴾** داهيـة كصاعقـة ثمـود وريـح عـاد، وخسـف قـارون وغـيره، وقولـه: ﴿نَحْنُ﴾ للحصر فيما زعم أهل المعاني، أو للتأكيد إذ لم يقل: ونتربَّص، ولذلك

١- رواه **مسلم** في كتـاب الإمـارة (٢٨) بـاب فضـل الجهـاد رقـم ١٠٣ (١٨٧١). مـن حديث أبي هريرة.

غيَّره عن أسلوب قوله: ﴿تَرَبَّصُونَ﴾. ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ بأن يأذن لنا في قتالكم، لأنَّه ﷺ لا يقاتل المنافقين لأنَّهم لم يظهروا الشرك والعناد، ولو فعلوا لقاتلهم وإنَّما يقاتلهم بالحجَّة لا بالسيف، قال الله ﷻ: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ﴾ أي بالسيف ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ أي بالحجَّة. ولم يقل: أن يصيبكم بإحدى السُّوأَيَيْن كما قال: ﴿إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ لأنَّ المقام لبيان ما يصيبهم وإرهابهم به. والعطف على «بِعَذَابٍ» أو على «مِنْ عِندِهِ»، وهو نعت «عَذَابٍ»، أي ثابت من عنده، أو «بِأَيْدِينَا» أي أو ثابت بأيدينا.

﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾ بنا ما تربَّصون، أو ما هو عاقبتنا، أو مواعد الله تعالى لنا بمعنى أنَّها العاقبة، ولو لم تكن في حسبان الكفَّار، والعطف عطف إنشاء على إخبار، أو الفاء في جواب شرط أي إذا كان الأمر كذلك فتربَّصوا، والأمر للتهديد ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ ما يقع بكم، أو ما هو عاقبتكم، أو مواعد الشيطان من المهالك، أو تربَّصوا مواعد الشيطان إنا معكم متربِّصون مواعد الله ﷻ، وحذف متعلَّق المتربصين للعلم به مِمَّا مرَّ، ويحتمل العموم. وعلى كلِّ حال إذا وقع ما يُتربَّص فُزْنَا وخبتم وشاهدنا ما يسرُّنا، أو شاهدتم ما يسوءكم إن عذِّبتم بعذاب من عند الله أو بأيدينا.

ونزل في الجد بن قيس إذ قال: لا أخرج معك لأنِّي لا أصبر عن النساء، ولكن أعينك بمالي وفي غيره مِمَّن على رأيه، أو في المنافقين مطلقا قوله تعالى:

﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا

﴿أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾

إحباط ثواب المنافقين وعلّة ذلك

﴿قُلَ اَنفِقُواْ طَوْعًا اَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمُ, إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ قل يا محمَّد لهم: أنفقوا أموالكم طائعين لرسول ا لله ﷺ في أمره لكم بالإنفاق، أو لله تعالى في أمره به، أو كارهين، أو ذوي طوع أو كره، أو إنفاق طوع أو كره لن يتقبَّل ا لله إنفاقكم في طاعة ا لله على زعمكم أو برضاكم لا يثيبكم عليه، أو لن يأخذه عنكم رسوله، كما يُقوِّيه قصَّة ثعلبة لأنَّكم كنتم خارجين عن الطاعة بالعناد.

ونائب «يُتَقَبَّلَ» عائد إلى الإنفاق المعلوم من قوله: ﴿أَنفِقُوا﴾ أو إلى المال المعلوم منه، ومعنى الطوع: عدم الإلزام والقهر من رسول ا لله ﷺ، لا الرغبة في الطاعة لقوله تعالى: ﴿وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ أي كارهون بقلوبهم، ولا بأس بإبقاء الطوع على رضا النفس أو طاعة ا لله، لأنَّ الأمر تهديد لا يقبل عنهم ولو على تقدير قصد وجه ا لله.

وفي قوله ﷻ: ﴿لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنكُم﴾ استعارة تمثيليَّة، شبِّهت حالهم في النفقة وعدم قبولها بوجه من الوجوه بحال من يؤمر بفعل ليجرِّبه، فيظهر له عدم جدواه، وإنَّما لا يقبل إن أنفقوا لأنَّهم لم يقصدوا به وجه ا لله ﷻ، وإنَّما علَّل عدم القبول بالفسق مع أنَّه علَّله بقوله: **﴿وَمَا مَنَعَهُمُ, أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمُ, إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِا للهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَاتُونَ اَلصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾** لأنَّ هذا أعمُّ من الأوَّل، أو أراد بقوله: ﴿فَاسِقِينَ﴾ ما ذكره هنا، فهذا تفسير له.

وحاصل الكلام الإخبار، أي سواءٌ إنفاقكم طوعا وإنفاقكم كرها في عدم قبوله، فإنّهم إذا أنفقوا طوعا إنّما ينفقون رياء أو لغرض من الدنيا، شبّه النسبة الخبريّة بالنسبة الإنشائيّة في اللزوم ثمّ استعير للنسبة الخبريّة لفظ الأمر، وقلنا: الأمر في معنى الخبر كقوله: ﴿لَنْ يُتَقَبَّلَ﴾ وفائدة التعبير عن الخبر بالأمر التأكيد والمبالغة في تساوي الأمرين، وكأنّه قيل: أنفقوا على أيٍّ حال أردتم ثمّ انظروا هل يتقبّل منكم.

(بلاغة) شبّه الهيئة المنتزعة من إنفاقهم طوعا أو كرها وعدم قبوله لانتفاء شرطه بحال من أمروا بالإنفاق لا لطلب الفعل منهم بل ليمتحنوا فينفقوا أيتقبّل منهم أو لا ؟ والجامع عدم الفائدة مع الاشتغال بأفضل القربى، وفاعل «مَنَعَ» «أَنَّهُمْ كَفَرُواْ»، أي وما منعهم من أن تقبل نفقاتهم إلاّ كفرهم با لله...إلخ، أو فاعله ضمير يعود إلى ا لله، أي وما منعهم ا لله، فيقدّر إلاّ لأنّهم، ويجوز أن لا يقدّر «مِنْ» على تعدية «مَنَعَ» لمفعولين ثانيهما غير صريح، أو على بدل الاشتمال من الهاء. والكسل: التثاقل، وإنّما ينفقون كرها لا طوعا لأنّهم مشركون بالباطن، لا يرجون ثوابا ولا عقابا لكفرهم بالبعث، والمراد: كارهون للإنفاق لأنّهم يعدُّونه خسارة، وأنّه لا ثواب عليه لأنّهم منكرون للبعث، أو شاكّون فيه.

(أصول الدين) وإنّما علّل منع القبول بالعناد، والكفر با لله ورسوله، والكسل عن الصلاة وكراهة الإنفاق، مع أنّه إذا منع بواحد من ذلك لم يبق ما يمنع بالآخر لأنّا والأشعريّة نقول: هذه أسباب غير موجبة لثواب ولا عقاب، فلا يضرُّ اجتماعها ولا واجب على ا لله، لا كما قال المعتزلة بأنّ العلل مؤثّرة، وأنّه يجب على ا لله الأصلح، وأنّ الكفر لكونه كفرا يؤثّر في الحكم.

﴿فَلاَ تُعْجِبْكَ﴾ يا محمَّد، أو يا من يصلح، على حدٍّ: ﴿لاَ تُشْرِكْ بِا للّهِ﴾ (لقمان: ١٣)[1]، ﴿أَمْوَالُهُمْ وَلآ أَوْلاَدُهُم﴾ الفاء تفريع وسَبَبِيَّة نهاه عن الإعجاب بأموالهم وأولادهم وعن أن يفتتن بها لفسقهم، وخصالهم القبيحة المذكورة، فإنَّهم لم يرادوا فيها بخير، وإنما هي استدراج، ونهيه المطلق نهي لأمَّته ﷺ. والإعجاب بالشيء: استحسانك إِيَّاهُ سواء أكان لك أو لغيرك، سواء مع الافتخار به أو دون الافتخار به، وسواء خصِّصت به أم كان مثله لغيرك أيضا، فلا تَهِم، خلافا لمن خصَّه بما إذا افتخرت به أو خصِّصت أنت مثلا به، فإنَّه يقال مطلقا: أعجبني الشيء وهو معنىً عرفيٌّ في اللغة، لا كما قيل: إنَّ أصل التعجُّب: حيرة للجهل بسبب الشيء، وإذا صحَّ فقد خرج عن ذلك الأصل خروجا شائعا.

واللفظ نهي للأموال والأولاد عن أن تعجبه، وهو من نهي الغائب والإسناد إلى السبب، والمراد: لا تكترث بها فضلا عن أن تعجبك، كقولك: لا أرينَّكَ هنا، أي لا تكن هنا، فضلا عن أن أراك.

وبيَّن الاستدراج بقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ا للّهُ﴾ مفعوله محذوف أي يريد ا لله أن يعطيهم الأموال والأولاد واللام للتعليل في قوله تعالى: ﴿لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ويجوز جعل مصدر «يُعَذّب» مفعولا به لـ«يُرِيدُ»، على أنَّ اللام صلةٌ.

١- هَذِهِ الآية التي ساقها الشيخ رَحِمَهُ ا للّهُ وردت في خطاب لقمان لابنه وَهُوَ يعظه، ولَعَلَّ الآيَة المتعلّقة بالشرك والأنسب للاستشهاد بها في هَذَا المقام هي قوله تَعَالَىَ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الزمر: ٦٥) لأَنَّ الخطاب فيها للنَّبيء ﷺ والمراد أمَّته. ينظر مثلا: تفسير القرطبي للآية.

أمَّا تعذيبهم بالأولاد فلاشتغال قلوبهم بهم، والاجتهاد فيما يسرُّهم ويليق بهم، وفي إزاحة ما يسوءهم، والحميَّة عليهم من كلِّ وجه، وجمع المال لهم، ولجزعهم بموت الأولاد في القتال إذ لا يرجون لقاءهم بالبعث لإنكارهم البعث، ولا يرجون لهم ولا لأنفسهم على موتهم وعلى المصيبة [أجرا]، بخلاف المؤمن فإنَّه يرجو ثواب ذلك، والشهادة لولده.

وأمَّا تعذيبهم بالأموال فلاشتغالهم بجمعها، والمحافظة عليها، واهتمامهم وتعبهم فيها، وما يلاقون من الشدائد فيها، والمؤمن ولو كان يحصل له ذلك كلُّه بالأولاد والأموال لكن لا يرغب فيها لذاتها، بل ليتوصَّل بها للآخرة، وإن زلَّ فيها تاب وله الثواب على ما يصيبه ممَّا يكره، وتخرج نفسه غير كافرة، ومن تعذيبهم بالأموال والأولاد خوفهم من سبيها لو أظهروا شركهم، وإعطاء مالهم في الزكاة، ونفقات الجهاد بدون أن يرجوا لها ثوابا، ولهم مزيد حبٍّ في الأموال والأولاد وأمور الدنيا، وبدأ بها ليكون لهم مزيد حزن وشدَّة ضيق، وما أصدق قول بعض:

ومن سرَّه أن لا يرى ما يسوءه فلا يتَّخذ شيئا يخاف له فقدا[1]

و«في» متعلِّق بـ«يُعَذِّبَ» لقربه لا بـ«تُعْجِبْكَ» لبعده والفصل.

﴿**وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ**﴾ أرواحهم، تخرج بصعوبة ﴿**وَهُمْ كَافِرُونَ**﴾ فيعذَّبون بعذاب الآخرة لكفرهم وعدم الاستعداد للآخرة كما عذِّبوا في الدنيا.

﴿**وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ** (٥٦) **لَوْ يَجِدُونَ**

١- وأصدق منه قول المتنبي:

فضول العيش أكثرها هموم وأكثر ما يضرُّك ما تحبُّ

مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾

حلف المنافقين الأيمان الكاذبة والطعن في رسول الله ﷺ

﴿**وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ**﴾ من جملتكم في الإيمان ﴿**وَمَا هُم مِّنكُمْ**﴾ بل من المشركين باطنا، أظهروا الإيمان خوفا منكم أن تفعلوا بهم ما تفعلون بالمشركين، ويؤكّدونه بالأيمان الكاذبة كما قال: ﴿**وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ**﴾ يخافون أن تقتلوهم وتسبُوهم، وتغنموا أموالهم كما تفعلون بسائر المشركين، والفرق بمعنى الخوف، قيل: مأخوذ من المفارقة، لأنَّ الخائف فارق الأمن.

﴿**لَوْ يَجِدُونَ**﴾ لو كانوا يجدون فالمضارع للتجدُّد، أي يتولّون إلى الملجأ، أو المغارة أو المدخل كلّما وجدوه، ويجوز أن يكون المعنى إنَّ امتناع تولّيهم إلى ذلك سبب امتناع استمرار وجدانهم ذلك ﴿**مَلْجَأً**﴾ موضع لجإ أي هروب إليه، وتحصُّن به، وانحياز إليه، كرأس جبل، وقرية في جبل، أو جزيرة، أو سلطان، ويجوز أن يكون زمانا أو مصدرا، وما تقدَّم أولى. ﴿**أَوْ مَغَارَاتٍ**﴾ جمع مغارة أي موضع غور أي استتار، وكلُّ ساتر مغارة في السهل أو الجبل، وقيل: المغارة السرب في الأرض والغار في الجبل. وأصل مغارة "مَغْوَرَة" بإسكان الغين نقلت إليها فتحة الواو وقلبت ألفا ﴿**أَوْ مُدَّخَلًا**﴾ موضع إدخال بشدِّ الدال فيهما، والأصل "مُدْتَخَل" بوزن مفتعل، قلبت التاء دالا وأدغمت في الدال، والمراد: منفذ جوف الأرض يدخلون فيه كجحر اليربوع، ويجوز أن يراد ما يشمل البناء الذي يستترون فيه، ولا يحتاجون إلى الخروج. وعطف «مَغَارَاتٍ»

و«مُدَّخَلاً» على «مَلْجَأً» عطف خاصٍّ على عامٍّ، ولا يصحُّ ما قيل: إنَّ الملجأ رأس جبل أو قلعة أو جزيرة.

﴿لَّوَلَّواْ اِلَيْهِ﴾ يتحصَّنون فيه ويظهرون شركهم، فيقاتلونكم متى وجدوا، ويتحصَّنون فيه بعد القتال، أو يظهرون شركهم بلا قتال ولا تصلون إليهم، أو لَوَلَّوا إليه لئلاَّ يروكم لشدَّة بغضهم لكم حتَّى لا يستطيعون النظر إليكم ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ يسرعون، شبَّه سرعتهم بإسراع الفرس في نفاره، واستعار له الجموح، واشتقَّ «يَجْمَحُ» منه، أو شبَّههم بالأفراس النافرة فرمز لذلك بإثبات ما يوصف به الفرس وهو الجُموح.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَّلْمِزُكَ فِي اِلصَّدَقَاتِ﴾ يعيبك في قسمها، وهي الغنائم والزكوات، وقيل: اللمز في الوجه والغمز في الغيب، وقيل: بالعكس وهو أظهر، والواضح ترادفهما ﴿فَإِنُ اعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ﴾ عنك وأثنوا عليك ﴿وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَا﴾ أو أعطوا دون ما يرضيهم ﴿إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ عليك ويذمُّونك لحرصهم على الدنيا.

(سبب النزول) قيل: نزلت في أبي الجواظ المنافق إذ قال: «ألا ترون إلى صاحبكم؟ إنَّما يقسِّم صدقاتكم في رعاة الغنم!» فقال ﷺ : «**لا أبا لك، أما كان موسى راعيا أما كان داود راعيا؟**» ولَمَّا ذهب قال: «**احذروا هذا وأصحابه فإنَّهم منافقون**» رواه الكلبي، وروي أنَّه قال: «لم تقسم بالسويَّة».

وقال قتادة: قائل ذلك بدويٌّ حديث عهد أتاه يقسم ذهبا أو فضَّة، فقال: «يا محمَّد لئن كان الله أمرك أن تعدل فما عدلت هذا اليوم» فقال ﷺ : «**ويحك فمن يعدل عليك بعدي؟**» ثمَّ قال: «**احذروا هذا وأشباهه، فإنَّ في أمَّتي أشباهه، قوما يقرؤون القرآن ولا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما**

يمرق السهم من الرميّة»[1]، وكان يابس الحاجبين، مشرف الحاجبين، غائر العينين، وذلك في غنيمة هوازن أو [في تقسيم] الصدقات، وهو أنسب بذكر الصدقات بعدُ وهنا وبذكر الصدقات في كلام أبي الجواظ، وروي أنَّه قال: «**لقد شقيت إن لم أعدل**». وقيل: قائل ذلك من الأنصار، وقال ابن زيد: هم بعض المنافقين يقولون: «وا لله ما يعطي محمَّد إلاَّ من أحبَّ ولا يؤثر إلاَّ هواه». وقيل: هم المؤلَّفة قلوبهم إذا لم يعطوا آمالهم.

وأمَّا حرقوص بن زهير فمرضيٌّ شهد له رسول ا لله ﷺ بالجنَّة، قالت عائشة رضي ا لله عنها: أشهد أنَّ محَمَّدًا رسول ﷺ في بيتي وقال: «**يا عائشة أوَّل من يدخل من هذا الباب من أهل الجنَّة**» فقلت في نفسي أبو بكر، عمر، فلان، فبينما أنا كذلك إذ أقبل حرقوص بن زهير، وقد توضَّأ وإنَّ لحيته تقطر ماء، ثمَّ قال ذلك في اليوم الثاني والثالث ودخل حرقوص فيهما، وقال أبو موسى الأشعري: والذي نفسي بيده لو اجتمع أهل المشرق والمغرب على الرمح الذي طعن به حرقوص لدخلوا به النار، وذلك في أهل النهروان، وهو الذي دفن دانيال عليه السلام، سأل ا لله أن يدفنه رجل من أهل الجنَّة فلم يزل في تابوت في أيدي ضُلاَّل أهل الكتاب يستسقون به إذا أمسك عنهم المطر، حَتَّى فتح أبو موسى الأشعري السوس[2]، أي سوس الشرق، فوجده في تابوت فكتب إلى عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه فكتب إلى أبي موسى أن مر من يدفنه ولا

١- رواه **الربيع** في مسنده: (٥) باب ما جاء في طلب العلم لغير ا لله عز وجل وعلماء السوء، ج١/ص٣٤، رقم ٣٦. وأوَّل الحديث عنده: «يخرج فيكم قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم...». ورواه **مالك** في كتاب القرآن (٤) باب ما جاء في القرآن، رقم١٠. من حديث أبي سعيد الخدري.

٢- مدينة في إيران وتسمَّى خوزستان فتحها المسلمون زمن عمر رضي الله عنه، خرِّبت في القرون الوسطى.

يشعر به أحد، فبعث أبو موسى حرقوصا ليدفنه فوجد في التابوت حلّة فكساها عمر حرقوصا.

﴿وَلَوَ انَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ,﴾ من الغنيمة وغيرها، والمعطي رسول الله ﷺ ويأخذون من يده، ولكن ذكر الله نفسه لتعظيم رسوله، والتنبيه على أنَّ الإعطاء جرى على يد رسول الله ﷺ بقضاء الله وأمره، فما فعله حقٌّ لا ريبة فيه ولا اعتراض عليه. ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا اَللهُ﴾ كافينا الله في أمورنا كلّها، كما دلَّ عليه عدم ذكر ما فيه الكفاية، ودخل العطاء بالأولى.

﴿سَيُوتِينَا اللهُ مِن فَضْلِهْ وَرَسُولُهُ,﴾ من غنيمة أخرى أو صدقة أخرى، أو ما شاء الله عز وجل ﴿إِنَّآ إِلَى اَللهِ رَاغِبُونَ﴾ في أن يعطينا ما يكفينا أو يقينا عن أموال الناس، أو إنّا راغبون في أن نكون من أولياء الله وأهل السعادة لا في المال.

(قصص) مرَّ عيسى عليه السلام بقوم يذكرون الله، قال: ما الباعث لكم؟ فقالوا: الرغبة في ثوابه، قال: أصبتم، ومرَّ بقوم مشتغلين بالذكر فسألهم، فقالوا: الخوف من عقابه، قال: أصبتم، ومرَّ بقوم مشتغلين بالذكر فسألهم، فقالوا: لا للجنَّة ولا للنار بل لإظهار عبوديَّتنا، وعزَّة الرُّبُوبيَّة، وتشريف القلب بمعرفته، واللسان بذكره وذكر صفاته، فقال: أنتم المحقُّون المحقّقون.

وجواب «لَوْ» محذوف، أي لكان خيرا لهم، وحذفه ليذهب السامع فيه كلَّ مذهب ممكن، كأنّه لا يحاط بمضمونه، وردَّ الله عليهم سخطهم في أمر الزكاة وصوَّب فعل رسول الله ﷺ بأنّهم ليسوا أهلا، وإنّما هي لإصلاح الدين وأهله.

وإنّما أهلها مَن في قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦٠﴾

مصارف الزكاة الثمانية

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ﴾ الزكوات **﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾** ما الصدقات ثابتات أو مصروفات إلاَّ للفقراء، والقصر قصر موصوف على صفة قصر إفراد، لأنَّ هؤلاء المنافقين يشركون أنفسهم في الزكاة فأفردها الله عَجَّلَ عنهم إلى الثمانية.

(فقه) ويجوز صرفها فيهم أو في بعضهم، ولو إنسانا واحدا، وإن قلَّ المال صرف في نوع واحد أو في فرد واحد، وما فوق ذلك بحسب الصلاح، ويقدَّم الأهمُّ فالأهمُّ، وقيل: لا بدَّ من صرفها فيهم كلِّهم في ثلاثة فصاعدا من كلٍّ، ويدلُّ للأوَّل أنَّه ﷺ أتاه مال من الصدقة فجعله في المؤلَّفة قلوبهم، وأتاه مال آخر فجعله في الغرماء.

وكان حرف الجرِّ لامًا في الأربعة الأولى لمجرَّد الاختصاص ولأنَّهم يأخذون تملُّكا، وفي الأربعة الأخرى [حرف] «في» للإيذان بأنَّهم أرسخ في الاحتياج، ولأنَّ ما يأخذونه للصرف في غيرهم لا لمطلق التملُّك، حتَّى قال بعض: إنَّه يعطى السَّيِّد لا المكاتب، ولعلَّه قول من قال: إنَّه عبد ما لم يقض، وفي أبي داود عن زيَّاد بن الحرث الصدائي: أتيت رسول الله ﷺ فبايعته، فأتاه رجل فقال: أعطني من الصدقة، فقال رسول الله ﷺ : **«إنَّ الله تعالى لم يرض بحكم نبيء ولا غيره في الصدقة حتَّى حكم هو فيها، فَجَزَّأَهَا ثمانية أجزاء فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك حقَّكَ»**[1].

١- رواه **أبو داود** في كتاب الزكاة، باب من يعطى من الصدقة؟ وحدُّ الغنى. رقم ١٦٣٠. ورواه =

﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾ أمَّا الفقير فمن ليس له شيء يصرفه فيما يحتاج إليه، كأنَّه كسرت فِقَار ظهره في الشدَّة والكرب، ولم يكسب مالا كما لا يكسبه من كسرت فقاره، والمسكين: من له مال أو كسب لا يكفيه، ومع ذلك كأنَّه ساكن لا يتحرَّك للعجز، أو السكون معنويٌّ، ويدلُّ لذلك قوله تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ (سورة الكهف: ٧٩) سمَّاهم مساكين مع أنَّ لهم سفينة، وأنَّه ﷺ يسأل المسكنة في قوله: «**اللهمَّ أحيني مسكينا، وأمتني مسكينا، واحشرني في زمرة المساكين**»[1] أي من قلَّ ماله وتواضع لله ﷻ، وأنَّه يتعوَّذ من الفقر في قوله: «**اللهمَّ إنِّي أعوذ بك من الفقر**»[2] وقوله «**كاد الفقر أن يكون كفرا**»[3] فكيف يتعوَّذ من الفقر ويسأل ما دونه؟ فهو أشدُّ حالا من المسكين، ويقال: قيل لهم "مساكين" ترحُّما.

وقيل بالعكس: المسكين من ليس له شيء إلى آخر ما مرَّ، والفقير من له مال...الخ، لقوله تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ (سورة البلد: ١٦) أي كملتصق بالتراب من شدَّة الحاجة، قيل: أو ستر جسده في التراب لعدم ما يلبسه، وأجيب

=

البيهقي (الكبرى) في كتاب الزكاة (١٦٦) باب من قال: قسم زكاة الفطر على من تقسَّم عليه زكاة المال... رقم٧٧٣٣. من حديث زيَّاد بن الحارث الصدائي.

١- رواه **الترمذي** في كتاب الزهد (٣٧) باب ما جاء في أنَّ فقراء المهاجرين يدخلون الجنَّة قبل أغنيائهم، رقم٢٣٥٢، من حديث أنس. ورواه **ابن ماجه** في كتاب الزهد (٧) باب مجالسة الفقراء، رقم٤١٢٦، من حديث أبي سعيد الخدري، مع زيادة في آخره.

٢- رواه **النسائي** في كتاب الاستعاذة (١٤) باب الاستعاذة من الذلَّة، رقم٥٤٧٥. ورواه **أبو داود** في كتاب الصلاة، باب في الاستعاذة، رقم١٥٤٤. من حديث أبي هريرة.

٣- رواه **التبريزي** في كتاب الآداب (١٧) باب مانهي عنه من التهاجر والتقاطع واتباع العورات رقم٥٠٥٠. ورواه **أبو نعيم** في الحلية: ج٣ ص٥٣. من حديث أنس.

لهذا القول بأنَّ السفينة بالعارية أو بالأجرة لا بالملك، ومن في يده شيء نسب إليه ولو لم يملكه، وكونها ملكا لهم يوجب أنَّهم أغنياء، ومن له النصاب غنيٌّ لقوله ﷺ : «**أمرت أن آخذ الزكاة من أغنيائهم**»[١] وقد يقال بكثرتهم أو بقلَّة ثمنها فليسوا بأغنياء ولو ملكوها، وأيضا هي آلة ولا زكاة في الآلة، ولو عظمت قيمتها ما لم يجعلها للبيع، كما لا زكاة في ديار تكرى ولو عظم كراؤها، وإنَّما يزكَّى الكراء. وإذا صرنا إلى الاشتقاق فإنَّه يقال: فقرته له أي فرضت له قطعة من المال. وأجيب عن الاستعاذة من الفقر أنَّ المراد به فقر النفس، وقد قال ﷺ : «**إنَّما الغنى غنى النفس**»[٢].

(فقه) وقيل: هما سواء، فكأنَّه قيل: إنَّما الصدقة لمن اتَّصَفَ بالفقر والمسكنة، فإن أوصى لزيد والفقراء والمساكين فلزيد النصف ولهما النصف، وعلى القولين الأوَّلين فله الثلث ولهما الثلثان، ويقال: لا تحلُّ الزكاة لمن لا يحلُّ له السؤال وهو من له خمسون درهما، فقد عدَّه ﷺ غنيًّا كما في حديث ابن مسعود، أو من له أربعون درهما كما في حديث أبي سعيد أنَّه غنيٌّ، ويجمع بينهما بأنَّ المراد التمثيل لِمَا يكفي.

(فقه) والأكثرون على أن لا يعطاها من له ما يكفيه وعياله سنة، وقيل: لا يعطاها من له مئتا درهم، قال ابن مسعود: قال رسول الله ﷺ : «**من سأل الناس وله ما يغنيه جاء يوم القيامة ومسألته في وجهه خموش**» أو خدوش أو كدوح، قيل: يا رسول الله وما يغنيه؟ قال: «**خمسون درهما أو**

١- تقدَّم تخريجه، انظر ج٦/ ص٣.

٢- رواه **أحمد** في مسنده: ج٢، رقم٩٣٤١. ورواه **الحميدي** في مسنده: ج٢/ ص٤٥٨ رقم ١٠٦٣. وأوَّل الحديث عندهم: «ليس الغنى عن كثرة العرض...»، من حديث أبي هريرة.

قيمتها من الذهب»[1]. وعن أبي سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ : **«من سأل وله قيمة أوقية فقد ألحف»**[2].

﴿**وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا**﴾ من يجمعونها من أصحاب الأموال، ومن يقسمها، ومن يكتبها، ومن يحرزها، ومن يحسب، ومن يحشر من يستحقُّها، ومن يسعى فيها بوجه، سواء دخل القرى أو البدو، أو رصد أصحاب الأموال على الطرق. وعداه بـ«عَلَى» لتضمين معنى القائمين عليها بأخذها من ذوي الأموال ويعطونها ـ ولو كانوا أغنياء ـ بقدر تعبهم، وإن استغرقها عناؤهم قيل أخذوا النصف أو أقلَّ. ولا يستعمل فيها مشرك، ولا خائن، ولا عبد، ولا هاشميٌّ، وقيل: يجوز الهاشميُّ ويأخذ من غير الزكاة عناءه، وأجيز منها على كراهة، [قلت:] والصحيح أنَّ الهاشميَّ أو المطَّلبيَّ لا يكون عاملا على الصدقات لِمَا روي عن أبي رافع أنَّ رسول الله استعمل رجلا من بني مخزوم على الصدقة، فأراد أبو رافع أن يتبعه، فقال رسول الله ﷺ : **«لا تحلُّ لنا الصدقة»** وإنَّ مولى القوم منهم.

(فقه) ﴿**وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ**﴾ الذين أريد تأليف قلوبهم إلى الإسلام، ضعف إيمانهم فيعطون ولو أغنياء ليقوى، أو أشركوا فيعطون ليسلموا، قيل: أو أسلموا وقوي إسلامهم فيعطون ولو كانوا أغنياء ليسلم نظراؤهم، قلت: هذا

١- رواه **الترمذي** في كتاب الزكاة (٢٢) باب ماجاء في من تحلُّ له الزكاة، رقم٦٥٠. ورواه **أبو داود** في كتاب الزكاة، باب من يعطى من الصدقة، رقم ١٦٢٢. من حديث ابن مسعود.

٢- **رواه** النسائي في كتاب الزكاة (٩٠) باب إذا لم يكن عنده دراهم وكان له عدلها، رقم ٢٥٩٥. ورواه **أبو داود** في كتاب الزكاة باب من يعطى من الصدقة وحدُّ الغنى، رقم١٦٢٧. وأوَّل الحديث عنهم هو: «نزلت وأهلي ببقيع الغرقد، فقالت لي أهلي: اذهب إلى رسول الله ﷺ فسله لنا شيئا...». من حديث عطاء بن يسار.

جائز، لكن لا يصدق عليهم أنَّهم مؤلَّفة قلوبهم، قيل: من أسلم وكان يذبُّ على الإسلام في أطراف بلاد الإسلام يعطون ولو أغنياء، قلت: هذا جائز لكن لا يصدق عليهم أنَّهم مؤلَّفة قلوبهم، وأشراف يُترقَّب إسلامهم فيعطون ليسلموا فيسلم نظراؤهم أو أتباعهم، وقوم من منعوا الزكاة لا يقدرون بلا مال على قتال من مَنَعها، وفي ذهاب الجيش إليهم مؤونة، فيعطون ليقاتلوهم حتَّى يعطوها.

ويعطى المشركون ليقاتلوا المشركين، وقد أعطى ﷺ صفوان بن أميَّة لِمَا رأى فيه من الميل إلى الإسلام، وقد عُدَّ من المؤلَّفة، ومن يؤلِّف قلبه بشيء على قتل الكفَّار، وأعطى عيينة والأقرع والعبَّاس بن مرداس، ولا يعطى كفَّار يخافون شرَّهم لو أعطوا لانكفوا، وقيل: لا يعطى بعده ﷺ كافر، ليسلم أو يذبَّ عن الإسلام، وقيل: فيمن ضعف إسلامه ومن يؤلِّف ليسلم نظراؤه وهو شريف في قومه لا يعطون، وقيل: يعطون من سهم المصالح، وقيل: يعطى من يميل إلى الإسلام أو يخاف شرُّه من خمس الخمس من الغنيمة، وقيل: فيمن يجاهد من يليه من الكفَّار أو من مانعي الزكاة يعطى من خمس الخمس، قيل: أو من سهم المؤلَّفة، وقيل: من سهم الغزاة.

وقيل: بطل سهم المؤلفة لَمَّا قوي الإسلام، كما روي عن عمر أنَّه أبطل كتابة الصدِّيق إليه بإعطاء الأقرع والعبَّاس بن مرداس، وقال: قوي الإسلامُ اثبتوا على الإسلام أو تقتلوا، ورجع إلى قوله الصديق فأوَّلاً كان إعزاز الإسلام بتأليفهم، وفي الوقت إعزازه بمنعهم إظهارا لاستغناء الإسلام عنهم، ولم يبطل الإرمال [في الطواف] بعد زوال خوف أن يظنَّ المشركون الضعف بالمؤمنين، لأنَّه ﷺ أبقاه، وقيل: بطل، فانظر "وفاء الضمانة"[1].

١- راجع الكتاب ج١/ ص٤٦٦-٤٦٧. ط.ح.

﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ أي ومصروفة في الرقاب، وبهذا يترجَّح أن يقدَّر "مصروفة" في قوله: ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾، فيناسب ما هنا، لكن لا مانع أن يقدَّر هنا ثابتة كما هنالك، لأنَّ الرقاب وما بعدهم محلٌّ لها، فهي ثابتة في محلِّها هذه الأربعة.

ومعنى كونها في الرقاب أن يعطى منها المكاتبون، ويفدى الأسرى، ويشترى بها عبيد ليسلموا، ويعينوا المسلمين في القتال أعتقوا أم لم يعتقوا، أو يشترى عبيد موحِّدون فيعتقوا.

(فقه) وقال أبو حنيفة وأصحابه: لا يعتق بها رقبة كاملة بل يعطى في بعضها، ولا في مكاتب بل يعان، ويعطَى المكاتبُ لا سيِّده، فيؤدِّي لسيِّده، لأنه حرٌّ من حينه على الصحيح، وقيل: هو عبد ما لم يقض، وعن ابن عَبَّاس: لا بأس أن يعتق الرجل من الزكاة، وقال أصحاب الشافعي: الأحوط أن تعطى سيِّدَه.

وكانت الأربعة الأولى باللام والأخرى بـ«في» لأنَّ الأَوَّلِينَ استحقُّوها لذواتهم الموصوفة، والآخرين استحقُّوها لجهة حاجتهم، فالرقبة لتقضي دين الكتابة أو لتحصل عقد الكتابة، والغارم ليقضي ما عليه، وابن السبيل ليصل بها لأهله، أو للإعلام بأنَّهم أحقُّ فهي راسخة فيهم.

(فقه) ﴿وَالْغَارِمِينَ﴾ الذين عليهم ديون لأنفسهم في غير معصية ولا إسراف، إذا لم يكن لهم وفاء من مال، أو لإصلاح بين الناس ولو كانوا أغنياء، قال بعضهم: أو لمعصية أو إسراف إن تابوا نصوحا، وبه قال النووي، ووجه المنع أنَّه متَّهم في إظهارها، ويبحث بأنه قد لا يراب ولا يعطى هذا أكثر مِمَّا عليه، وقيل: يعطى ما لا يكون به غنيًّا، وقيل: إن ملك نصابا زائدا عن دَينه لم يعطَ. ويقدَّم الغريم على الفقير، وفي الحديث: «**لا تحلُّ الصدقة لغنيٍّ إلاَّ لغاز في**

سبيل ا لله»[1] أو لغارم، أو لرجل اشتراها بماله، أو رجل صارت إليه مِمَّا حلَّت له بالصدقة، أو الهديَّة، أو القرض، أو بالإرث، أو الهبة أو مثل ذلك، أو لعامل لأنَّها له أجرة، وقيل: المراد بغنى الغازي صحَّة بدنه.

(فقه) والواضح جوازها لغاز له مال لدخوله في سبيل ا لله، وتعطى المرأة الزكاة ولو كان زوجها غنيًّا إذا كان عليها دين إذ لا تدرك عليه قضاءه، وتبيع من حليِّها وتبقي قليلا تتزيَّن به لزوجها، وإن لم يف ما باعت بالدَّين أخذت زكاةً لتقضيه، وهي داخلة في الغارمين، ويعطيها زوجها زكاة ماله إذا كان عليها دَين ولا مال لها.

﴿وَفِي سَبِيلِ اِ للهِ﴾ الجهاد ولو لغنيٍّ، يعطى منها زادا أو مركبا وسلاحا وما يحتاج إليه، ولو كان له مال كما قال ﷺ : « **الصدقة تحلُّ للغازي الغنيِّ**» وأعاد «في» تعظيما للجهاد، وقيل: سبيل ا لله شامل لإصلاح الطرق وبناء القناطر ومواضع الماء كالسكَّة، والأَولى تفسيره بالسعي في طاعة ا لله تعالى وسبل الخير، **ولا بدَّ أن يكون فقيرا، فذكره تخصيص بعد تعميم للمزيَّة.**

﴿وَابْنِ اِلسَّبِيلِ﴾ المنقطع عن ماله بسفره في حجٍّ أو عمرة أو طلب علم أو غير ذلك من أنواع الطاعات، أو في المباح، قيل: أو في المعصية إن تاب نصوحا، ولو كان ابن السبيل غنيًّا في بلده ومثله من هو في بلده وله ديون لم يحلَّ أجلها، أو حلَّ أجلها لكن على مفلس، أو على مُنكر ولا بيان له، أو على من لا يقدر عليه، ولا تحلُّ له حتَّى يحلف منكره، وكذا لو كانت له بيِّنة غير عادلة وأنكر.

(فقه) وأجيزت للمرأة إن كان لها على زوجها و لم يقبل أن يعطيها إلاَّ بعد الارتفاع إلى القاضي فتأخذ ولا ترفعه سواء مهرها أو غيره، وذكر بعض

١- أورده **البغوي** في كتابه شرح السنَّة: ج٦/ ص٨٩، بدون ذكر لفظ «الغني».

أنَّ لمن له دين أن يأخذ ما يوصله إلى حلول أجله فقط، إن كان يصل إلى أخذه بعد حلوله، وقيل: من له دين لا يأخذها إن كان يصل إلى أخذه إذا حلَّ.

﴿فَرِيضَةً مِّنَ اَ للهِ﴾ فرضها ا لله فريضة وهي بمعنى المصدر، أو منصوب بمعنى إنَّما الصدقات... لأنَّ معناه: فرض ا لله الصدقات لهؤلاء، أو حال من المستتر في «لِلْفُقَرَاءِ» ﴿وَا للهُ عَلِيمٌ﴾ بالصواب والمصالح وكلِّ شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ في صنعه لا يجور ولا يسفه، يضع الزكاة في مواضعها، واتَّبِعوا ما وضعه للزكاة من محالِّها فلا تصرف في غير ما ذكر من محالِّها.

(فقه) والمذهب أن لا يجب صرفها في الثمانية كلِّها بل في الموجود منهم، ولا تخبَّأُ لغائب مخصوص، ويجوز تفضيل بعض على بعض، والعامل قد عمل فله أجرته إن غاب بعد عمله. و«الـ» للحقيقة، فلا يجب إعطاء ثلاثة من كلِّ صنف، كما لا يجب استغراق كلِّ صنف، وإنَّما أوجبت الآية أن لا تخرج عن الأصناف الثمانية لا أن تعمَّ أو تستغرق، والنظر إلى الإمام في ذلك، ولا تعطى لبني هاشم ولا لبني المطَّلب، وأمَّا بنو عبد المطَّلب فمن بني هاشم، والمطَّلب وهاشم أخوان، وقيل: إن تعطَّلت الغنائم أعطي من الزكاة محتاجو بني هاشم وبني المطَّلب.

﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّءَ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١)﴾

إيذاء المنافقين النبيء ﷺ والردُّ عليهم

﴿وَمِنْهُمُ الذِينَ يُوذُونَ اَلنَّبِيءَ﴾ بكلام السوء كالجُلاس بن عمرو بالضمِّ والتخفيف، ووديعة بن ثابت أخو أميَّة بن زيد بن عمرو بن عوف، وقيل:

الجلاس بن سويد بن صامت، ورفاعة بن عبد المنذر، ونبتل بن الحرث، وكان آدَمَ أحمرَ العينين أسفع الخدَّين مشوَّه الخلقة نمّاما عنه ﷺ إلى المنافقين، قال ﷺ : «**من أراد أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نبتل بن الحرث**». يؤذونه ﷺ بما يكره من القول، مثل أن يقولوا: يعطي قريشا ويتركنا ولو لم يفعل، أو فعل لحكمة، أو جاء هو وأصحابه فعزُّوا بنا، ولا يعرف لنا حقًّا، وهم كاذبون.

وكقول وديعة بن ثابت: إن كان ما يقول محمَّد حقًّا فنحن شرٌّ من الحمير، وَلَمَّا قال هذا قال له عامر بن قيس وهو غلام: «والله إنَّه لصادق وأنت شرٌّ من حمارك» فأخبر الغلام بذلك فقالوا: لم نقل إنَّه غلام لم يعرف ما يقول، فجعل الغلام يبتهل: «اللهمَّ صدِّق الصادق وكذِّب الكاذب» فنزلت الآية.

ومن ذلك قولهم: «سمِّن كلبك يأكلك»، بمعنى أنَّهم قاموا به ﷺ فرجع عليهم، وقولهم: لو كان نبيئا لعلم أين ناقته، فإذا قال بعض لبعض: لا تقولوا فإنَّه يصله الخبر فيقع بنا، قال الجلاس ـ بالجيم، وقيل: نبتل أو غيره ـ : نقول ما شئنا فنحلف بالله وننكر القول فيصدِّقنا، فإنَّه يقبل إنكارنا ويصدِّق لقلَّة رأيه أو كثرة كرمه واحتماله، كما قال الله ﷻ : ﴿**وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ**﴾ كثير السماع أي القبول لاعتذار المعتذر، ولو كان المعتذر كاذبا حتَّى كأنَّه نفس الأذن، كما يسمَّى الجاسوس عينا لكثرة مراقبته بعينه. نكذِّب ونعتذر ويقبل اعتذارَنا، خاف بعض المنافقين أن يخبر الله تعالى رسوله ﷺ بما يقولون فيعاقبهم، فأجابه الباقون بأنَّه أُذْنٌ يقبل اعتذارنا ولو كذبنا فيه.

(بلاغة) ويقال: قالوا هو أذن سامعة، من إطلاق اسم الجارحة على صاحبها لكثرة فعله بها، لكن المراد هنا القبول، وفي هذا نكتة زائدة على مطلق تسمية الكلِّ باسم الجزء، وقيل: شُبِّه بالأذن في أنَّه ما فيه تمييز بين الحقِّ

والباطل، بل سَمْعٌ فقط ما يليق وما لا يليق. وقدَّر بعضهم مضافـا، أي ذو أذن، ويجوز أن يكون «أُذْنٌ» مصدر "أَذِنَ" بفتح الهمزة وكسر الذال، أي سمع وكأنَّه نفس السماع.

﴿قُلُ ٱذْنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ أي هو أي النبيء، أي أنا أذن خير لكم يسمع الوحي لكم، وهو منفعة لكم، ويصدِّق المؤمنين المخلصين، أو الإضافة بمعنى في، أي أُذن في الخير، ولوَّح بأنَّ المنافقين أذن شرٍّ يسمعون كلام الله تعالى وكلام المؤمنين ويكذِّبون بما سمعوا، ويدُلُّ على معنى «فِي» قراءة حمزة بجرِّ ﴿رَحْمَةٌ﴾، فإنه لا معنى لها سوى أنَّه أذن في الرحمة، كذا قيل، ويبحث بجواز أنَّه أذن رحمة على حكايتها عن الله ﷻ.

أثبت الله أنَّه أذن خيرٍ لا على ما قالوا مُجَرَّد كرم أو قلَّة رأي وتجربة، فذلك قول بالموجب، وهو حمل لفظ على خلاف مُرادِ لاَفِظِه، كبيت البديع:

فَقُلت: ثقلتُ إذ أتيت مرارا   قال: ثقَّلت كاهلي بالأيادي

وقول القَبَعْثَرى: «مِثْلُك يحمل على الأدهم والأشهب»، أراد الفرس لَمَّا قال له الحجَّاج: «لأحملنَّك على الأدهم»، أي القيد من الحديد، فقال: «ويلك أردتُ الحديد!»، فقال: «لأن يكون حديدا خير من أن يكون بليدا»[1].

وبيَّن ذلك بقوله: ﴿يومِنُ﴾ يُصدِّق ﴿با لله وَيُومِنُ لِلْمُومِنِينَ﴾ يذعن، ويُسَلِّم ـ بضمِّ الياء وفتح السين وكسر اللام مشدَّدا ـ كقوله تعالى: ﴿أَنُومِنُ لَكَ﴾ (سورة الشعراء: ١١١) وقوله: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُ, قَبْلَ أَنَ ـاذَنَ لَكُمْ﴾ (سورة طه: ٧١، وسورة الشعراء: ٤٩) أي يذعن لِمَا قال المؤمنون بالتصديق، وأمَّا قبوله عذركم فاحتمال ومعاملة بالحسنى لكم، واللام للتعدية ولا وجه لكونها زائدة سوى أنَّها

١- راجع شرح أرجوزة الخضري في فنِّ البلاغة للشيخ الدمنهوري، ص٧٣.

زيدت على «يُومِنُ» الأَوَّل، بمعنى أنَّها ليست فيه، وإضافة الأذن للخير لأنَّ السماع للخير يكون بالأذن، أو من إضافة الموصوف إلى الصفة، كقولك: رجل عدل، إذا أضفت رجلا للعدل، وأردت بالعدل الوصف لا المصدر.

﴿وَرَحْمَةٌ لِّلذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ عطف على «أُذْنُ» أي هو رحمة لمن أظهر الإيمان، يأخذ بظاهر قوله ولا يفتِّش عن سرِّه، ولو كان كاذبا لرفقه بهم لعلَّهم يخلصون الإيمان. و«مِنْ» للبيان، والمراد: ورحمة لكم، أو للتبعيض العامِّ لهم كلِّهم على سبيل البدليَّة. وَسَمَّى حالهم إيمانا مجاراة لهم، إذ زعموا أنَّهم آمنوا، أو المراد: أظهروا الإيمان، وقيل: المراد: المخلصون، على أنَّ «مِنْ» للتبعيض، بمعنى أَنَّ المنافقين يزعمون أنَّهم مؤمنون، ولا يتبادر هذا.

﴿وَالذِينَ يُوذُونَ رَسُولَ اَللهِ﴾ بألسنتهم كغيرها ﴿لَهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ﴾ لإيذائهم إيَّاهُ مع إحسانه إليهم، بالستر لهم وبتبليغ الوحي، وقد يُؤذى ﷺ بمخالفة الكتاب أو السنة، وبإيذاء أهل بيته بما لم يفعلوا، وبمجاوزة الحدِّ فيما فعلوا.

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُۥ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ الْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾

بيان أحوال المنافقين الذين تخلَّفوا عن غزوة تبوك

﴿يَحْلِفُونَ بِا للهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ لإيهام الصدق، الخطاب للمؤمنين، لأنَّ الرسول مذكور في قوله: ﴿وَا للهُ وَرَسُولُهُ...﴾ أو للمؤمنين ورسوله ولو ذكر بعدُ، لأنَّ الكلام في إرضائه لا في إرضاء المؤمنين فقط، يقولون: وا لله ما قلنا ما ذكر لك عنَّا، ولا نقول فيك إلاَّ خيرا.

(سبب النزول) سمع غلام اسمه عامر بن قيس وديعة بن ثابت يقول: إنَّ هؤلاء لخيارنا وأشرافنا إن كان ما يقول محمَّد حقًّا فنحن شرٌّ من الحمير!، فأخبر به النبيء فدعاه فحلف هو ومن معه ما قالوا، وجعل الغلام يقول: اللهمَّ صدِّق الصادق وكذِّب الكاذب، فنزلت ﴿يَحْلِفُونَ بِا للهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾.

﴿وَا للهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾ بالاتِّباع والإخلاص ﴿إِن كَانُواْ مُومِنِينَ﴾ وخصَّ الإرضاء للمؤمنين بالذكر تلويحا ببعدهم عن إرضاء ا لله ورسوله، لأنَّ ا لله علاَّم الغيوب ومخبر لنبيئه .

(نحو) وفي الكلام حذف، إذ لم يقل: أن يرضوهما، والتقدير: وا لله أحقُّ أن يرضوه ورسوله أحقُّ أن يرضوه، فحذف من أحدهما، واختار سيبويه الحذف من الأوَّل والمبرِّد من الثاني، أو اقتصر على إرضاء الرسول أو إرضاء ا لله تعالى لأنَّ إرضاءه إرضاء رسوله، وإرضاء رسوله إرضاء له، ﴿مَنْ يُّطِعِ الرَّسُولَ فَقَدَ اَطَاعَ ا للهَ﴾ (سورة النساء: ٨٠) ، فرُدَّ إلى ا لله والرسول ضمير واحد لذلك.

أو المعنى: مَن ذكر، ولم يُثَنِّ لئلاَّ يعود ضمير واحد إلى ا لله تعالى ورسوله ، وجعل «أَحقُّ» خبرا للرسول أولى لقربه وعدم الفصل، ويكون الكلام في إيذائه، ولو كان جعله خبرا لله أولى من حيث إنَّهُ هو المقصود بالذات في

العبادة، وإذا أريد الرسول فذكر الله تعظيم لـه، كقولـه تعـالى: ﴿يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ (سورة المائدة: ٣٣) في أحـد أوجـه، ولا وجـه لإلغـاء لفـظ الجلالـة عـن الإخبار لمجرَّد أنَّ طاعة رسوله طاعته لأنّه مبدوء به. وجواب «إنْ» محذوف، أي فليخلصوا في الإرضاء، أو ظهر لهم أنَّ الله ورسوله أحقُّ أن يرضوه.

﴿**أَلَمْ يَعْلَمُواْ**﴾ أي المنافقون، توبيخٌ ﴿**أَنَّهُ,**﴾ أي الشأن ﴿**مَنْ يُّحَادِدِ اللهَ وَرَسُولَهُ,**﴾ من يعاند الله ورسوله، كأنّه يجعل الله ورسوله في حدٍّ ونفسه في حدٍّ، والحدُّ: الجانب، وقيل: من الحدِّ بمعنى المنع، و«أَنَّ» هذه لتأكيد الشرط والجواب، وفي قوله: ﴿**فَأَنَّ لَهُ, نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا**﴾ لتأكيد الجملة بعدها، وهي وما بعدها جواب الشرط مع ما حذف، أي فالواجب، أو فالأمر، أو فحقَّ ثبوت نار جهنّم له.

وأجاز بعضهم حذف الجواب ولو كان الشرط مضارعا مجرَّدا من «لَمْ»، كما في المغني، فيجوز عطف ﴿فَأَنَّ لَهُ, نَارَ جَهَنَّمَ﴾ على ﴿أَنَّهُ, مَنْ يُّحَادِدِ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ ويقدَّر الجواب لفظ: "يهلك"، لَكِنَّ المعنى بعيد، وهو توبيخهم على عدم العمل بعلمهم بهلاك من شاقَّ الله ورسوله وبأنَّ له نار جهنَّم، لأنَّهم ليسوا عالمين بذلك بل هم منكرون له أو متردِّدون، اللهمَّ إلاَّ أن ينزَّلوا منزلة من علم، لظهور الدلائل على أنَّه رسول الله وأنَّ مخالفه هالك.

(لغة) وأما تكرير التأكيد فلا بأس به، فكلُّ واحدة أكَّدت ما بعدها، كقولك: ألم تعلم أنَّ زيدا وأنَّ عمرا قائم؟ فكلُّ واحدة أكَّدت القيام، نعم يقال لأيِّهما الخبر ؟ فيجاب بأنَّه للأوَّل. والتأكيد معنويٌّ لا صناعيٌّ فلا يضرُّ الفصل، قال الشاعر:

لقد علم الحيُّ اليمانيُّون أنَّني إذا قلت "أمَّا بعدُ" أنِّي خطيبها

و«خَالِدًا» حال من الهاء.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ما ذكر من ثبوت نار جهنَّم الدائمة له، أو ذلك الخلود فيها ﴿الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ موجب الخزي العظيم، لأنَّ الخزي الذُّل الذي يُستحَى منه، وأمَّا تفسيره بالعذاب الدائم أو الهلاك الدائم فيغني عنه قوله: ﴿خَالِدًا فِيهَا﴾ ولا يفسَّر بالإهلاك، لأنَّ الإهلاكَ فعلُ الله، والخزيَ وصفٌ لهم.

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الإنكار والاستهزاء. و«عَلَى» بمعنى في، أي في شأنهم، أو في سرِّهم، أو تبقى على ظاهرها لأنَّ تنزيل السورة مضرَّة لهم لافتضاحهم بها، والهاء لهم لا للمؤمنين لأنَّه المتبادر، ولئلاَّ يلزم تفكيك الضمائر لو أعدناها للمؤمنين، لكن يجوز التفكيك مع ظهور المعنى، وعليه فالمعنى: يحذر المنافقون أن تنزَّل سورة على المؤمنين تنبِّئهم بأسرارهم، ويجوز عود الهائين من الأُولَيَيْن للمؤمنين.

(بلاغة) وهذه التنبئة من لازم الفائدة يخبرهم بما في قلوبهم، لا ليعلموا به لأنَّهم عالمون به بل ليعلموا أنَّ الله عالم به. والمنبئ الله لكن أسند التنبئة إلى السورة لأنَّها بالسورة ولأنَّها في سورة. وإذا اعتبرنا أنَّ النازل في شأنهم كالنازل عليهم كان في الكلام استعارة تمثيليَّة، شبَّه الهيئة المنتزعة من النازل فيهم بالهيئة المنتزعة من النازل على النبيء ، فاستعمل الموضوع للهيئة المشبَّه بها في الهيئة المشبَّهة. ولَمَّا سمعوا من النبيء والصحابةِ ذِكْرَ ما في قلوبهم بألفاظ السورة حاروا، كأنَّهم أخبروا بما لم يعلموا وهم عالمون بما في قلوبهم، كما علمت أنَّ ذلك من لازم الفائدة.

ويجوز أن يكون اللفظ إخبارا والمعنى أمر، أي ليحذر المنافقون، واللام للأمر.

[قلت:] والإبقاء على الظاهر أولى، ووجهه أنَّهم غير جازمين في أمره بل تردَّدوا في صدقه، ألا ترى أنَّهم أثبتوا أَنَّ السورة تنزل، إلاَّ أن يقال: أثبتوها

استهزاء إذ رأوه يذكر أحوالهم ويقول أنَّه أوحي إليه بها، أو أرادوا أنزل على زعمه، أو تنزل من غير الله.

قال الله : ﴿قُلِ اسْتَهْزِءُواْ﴾ تهديد ﴿إِنَّ اللّهَ مُخْرِجٌ﴾ مظهر ﴿مَّا تَحْذَرُونَ﴾ من تنزيل السورة في مساوئكم، أو ما تحذرون مطلقا بسورة أو غيرها، قال ابن عَبَّاس رضي الله عنهما: أنزل الله ذكر سبعين رجلا من المنافقين بأسمائهم وأسماء آبائهم في هذه السورة، ثمَّ نسخ لفظ ذلك رحمة عَامَّة ورحمة لأولادهم وآبائهم وأقاربهم، لأنَّه قد يكون أبو المنافق أو ولده أو أخوه مؤمنا فيعيَّر به.

(سيرة) واجتمع اثنا عشر رجلا أن يفتكوا به ليلا في العقبة [بالأردن] حين رجع من تبوك، وتلثَّموا فأخبره الله بهم، وأمره بأن يأمر من يصرف وجوه دوابِّهم عنه، فأمر حذيفة فصرفها، فقال: «هل عرفت منهم أحدا؟» فقال: لا، فقال : «فلان وفلان أخبرني بهم جبريل»، فقال حذيفة: ألا تقتلهم؟ فقال: «لا، لئلا يقول العرب ظفر بأصحابه فقتلهم، بل يكفينا الله »، وقال: «إنَّ ناسا اجتمعوا على قتلي فليقوموا ويعترفوا لأستغفر لهم»، فلم يعترفوا، فقال: «قم يا فلان، قم يا فلان» فقالوا: نقوم ونعترف، قال: لا إنَّما ذلك أوَّل، أخرجوا عنِّي، أخرجوا عنِّي!» فخرجوا كلُّهم، قال حذيفة: قال رسول الله : «**إنَّ في أمَّتي اثني عشر منافقا لا يدخلون الجنَّة ولا يجدون ريحها حتَّى يلج الجمل في سمِّ الخياط، ثمانية تكفيهم الدبيلة، خراج من النار يظهر في أكتافهم حتَّى تنجم من صدورهم**»[1].

١- رواه **مسلم** في كتاب صفات المنافقين (المقدمة) رقم١٠. ورواه **البغوي** في كتاب شرح السنة: ج٣ ص١٧٧. من حديث قيس بن معاذ.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ﴾ وا لله لئن سألتهم سؤال تقرير عن استهزائهم بك وبالقرآن، إذ قالوا في سيرهم معك إلى تبوك: «انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتح حصون الشام والروم وقصورها، هيهات هيهات!» وقالوا: «يزعم محمَّد أنَّه نزل في أصحابنا قرآن وإنَّما هو كلامه»، فأخبر ا لله نبيئه بما قالوا، فقال: «**هل قلتم كذا وكذا؟**» فقالوا: «إنَّا كُنَّا نخوض ونلعب».

كما قال ا لله : ﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ ليخفَّ عنا السير ومشاقُّ السفر، ولا تكذيب في قلوبنا. وأصل الخوض: المشي في مائع أو مبلول كماء وطين وتلطيخ، سواء أكان فيه أذى أم لا، ثمَّ استعمل لكلِّ دخول فيما يكره أو يحرم. ويبعد أن يراد بالسؤال القول بدون صيغة استفهام، بمعنى: قلتم كذا وكذا، لأنه خلاف الظاهر، والسؤال بعد نزول الآية، فهم من قوله : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ﴾ الأمر بالسؤال ضِمْنًا فسألهم: هل قلتم كذا؟ فقالوا: كُنَّا نخوض ونلعب.

فنزل بعد ذلك قوله : ﴿قُلَ اَبِاللهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ لأنه لو سألهم قبل نزول الآية لا يقال: إن سألتهم، اللهمَّ إلاَّ أن يقال «إِنْ» بمعنى "إذا" على معنى التجدُّد، وَأَنَّ ذلك عادتهم، وحكمة التعبير بها عن "إذا" تلويح بأنَّ جوابهم قبيح ينبغي أن لا يكون، حتَّى إنَّ العاقل يشكُّ هل وقع؟ وهل وقع السؤال عنه؟ فجيء بـ«إِنْ» التي لا تدلُّ على الوقوع ولا على عدمه، لا بـ"إذا" التحقيقيَّة، وكأنَّه لم يقع سؤال فقيل: إن وقع. وقدَّم «بِا للهِ [وَءَايَاتِهِ] وَرَسُولِهِ» للفاصلة، وعلى طريق الاهتمام والتعظيم وللحصر، ولِيَلِيَ أداة الاستفهام الإنكاري ما به تعلَّق الإنكار وهو ا لله وما بعده، لا مطلق الاستهزاء.

والمعنى: أيحسن بكم أن لا تكون همَّتكم إلاَّ الاستهزاء با لله ورسوله؟ على طريق قصر القلب، أي يجب عليكم أن تستهزئوا بالباطل ولا تستهزئوا بالحقِّ

فصحَّ الحصر، لا كما قيل: لا يصحُّ، والاستفهام توبيخ وإنكار للياقة. ﴿وَءَايَاتِهِ﴾: القرآن، ﴿وَرَسُولِهِ﴾: سيِّدنا محمَّد ، ووجه ذلك أنَّ القرآن صريح في قدرة الله على كلِّ شيء، فتح الروم وغيره، وفي نصره ، وأنكروا ذلك، وقولهم: «إِنَّمَا كُنَّا...» تصديق لقوله تعالى: ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ فهو معجزة، والإخبار بما قالوا معجزة، كما أنَّ فتح فارس والروم يكون تصديقا لأخباره وإعجازا، كما روي أنَّهم قالوا: ما أبعد مُحَمَّدًا عن فتح الروم!. وروي أنَّ اثنين يستهزئان بالقرآن والرسول، والثالث يضحك، وأسلم بعدُ.

كما روي عن عبد الله بن عمر أنَّه قال رجل في غزوة تبوك: ما رأيت مثل قُرَّائنا هؤلاء: أرغبَ بطونا، ولا أكذب ألسنة، ولا أجبن عند اللقاء، فقال رجل: كذبت ولكنَّك منافق، لأخبرَنَّ رسول الله ، فبلغ ذلك رسول الله ، ونزل القرآن. وروي أنَّ القرآن نزل في ذلك قبل بلوغ المخبر إليه ، قال فأنا رأيت الرجل يتعلَّق بحقب ناقة رسول الله والحجارة تنكبه وهو يقول: يا رسول الله إِنَّا كُنَّا نخوض ونلعب.

﴿لاَ تَعْتَذِرُواْ﴾ فإنَّ اعتذاركم كاذب لا يقبل، وأصل الاعتذار الدروس والقطع، فإنَّ المعتذر يحاول زوال أثر ذنبه، يقال اعتذرت المنازل أي درست، والاعتذار سبب لقطع اللوم، والقلفة عذرة لأنَّها تقطع بالختن، والبكارة عذرة لأنَّها تقطع بالاقتراع، واعتذرت المياه انقطعت، ومن ذلك قول الشاعر: «حشاي إنِّي مسلم معذور» أي مختون.

﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُم﴾ أظهرتم كفركم في ذلك الخوض وغيره بعد إظهار الإيمان، ولم يتحقَّق إيمانهم قبل، وفي معنى ذلك: قد كفرتم عند المؤمنين بعد كونكم عندهم مؤمنين، **واللعب والجدُّ في أمر الكفر سواء.**

﴿إِنْ يُّعْفَ عَنْ طَآئِفَةٍ مِّنْكُمْ﴾ بالتوبة لتوفيق الله إليها، ومنهم مخشي بن حُمَيْر ـ بضمِّ الحاء وفتح الميم ـ تاب وحسن إسلامه، ومات شهيدا في وقعة اليمامة، ويقال: جحش بن حمير الأشجعي، وهو من جملة من يخوض ويلعب، وقيل: كان يضحك من كلام من يخوض ويلعب، وَلَكِنَّ الضحك عند المعصية بلا بغض لها رضًى بها كفرٌ إن كانت كبيرة، وكان يمشي مجانبا لهم وينكر عليهم بعض ما يقولون، وَلَمَّا نزلت الآية تاب من نفاقه، وقال: «اللهمَّ إنِّي لا أزال أسمع آية تُقرأُ تقْشَعِرُّ منها الجلود تخفق منها القلوب، اللهمَّ اجعل وفاتي قتلا في سبيلك لا يعلم مقتلي، لا يقول أحد إنِّي غسلته أو كفَّنته أو دفنته»، فأصيب يوم اليمامة و لم يعرف أحد من المسلمين مصرعه، وكأنَّهم رأوه ميِّتا ثمَّ لم يُرَ، أو رَجَّحوا موته لدعائه [بذلك] مع نصوح توبته ولو كان في حكم المفقود **ولا يعمل بهذا**. والطائفة تطلق على القطعة من جملة، فصدق على الواحد فصاعدا، قال مجاهد: إلى الأَلْف، ويجوز أن يراد بالعفو عن طائفة توفيقها للإسلام دون أن يتقدَّم لها نفاق.

﴿تُعَذَّبْ طَآئِفَةٌ﴾ عذاب الدنيا والآخرة، أو عذاب الآخرة ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنَّهم ﴿كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ مصرِّين على النفاق، أو مقْدِمين على الإيذاء والاستهزاء، ويجوز أن يراد بالعذاب عذاب الدنيا، وعذاب الآخرة لا بدَّ منه، لكن يعفو عن طائفة فلا تعذَّب في الدنيا وتعذَّب طائفة، فالعفو: ترك العذاب. ويقال: هم ثلاثة، اثنان يتكلَّمان بالسوء والثالث يضحك لكلامهما، وهو جحش بن حمير وهو الذي تاب ومات شهيدا.

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ

عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَاسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾

أوصاف المنافقين وجزاؤهم الأخروي

﴿الْمُنَافِقُونَ﴾ ثلاث مائة ﴿وَالْمُنَافِقَاتُ﴾ مائة وسبعون، قلَّ في النساء لقلَّة ملاقاتهنَّ للنبيء والناس وإلاَّ فهنَّ ناقصات عقل ودين، أو كثر فيهم حتَّى كان في النساء اللاتي من شأنهنَّ أن لا يلاقين ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ كأنَّه خلق كُلُّ واحد من الآخر، وهذا لا يتصوَّر إلا أنَّ المراد لازمه وهو التشابه في النفاق، يقال: أنا منكَ وأنت منِّي، أي أمرنا واحد، وأيضا كأنَّهم أعضاء إنسان يشبه بعضها بعضا، أو كأنَّه خلق ذاك من ذلك، لا ذلك من ذاك بمعنى أنَّ القويَّ في النفاق خلق منه من هو دونه فيه، أو دين بعض مأخوذ من بعض، وَالاِتِّصَال الدَّالَّة عليه «مِنْ» الابتدائيَّة معتبر بالنفاق، وما في بعض منه ناشئ من بعض وذلك نقض لقولهم: «إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ»، فإنَّهم مضادُّون للمؤمنين الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر كما قال:

﴿يَامُرُونَ بِالْمُنكَرِ﴾ الشرك وسائر الذنوب الكبار والصغار، وذكر بعض أنَّ كلَّ منكر ذكر في القرآن فهو عبادة الأوثان والشيطان، [قلت:] وليس كذلك بل أعمُّ وقد يقتضي المقام خصوصا.

﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ التوحيد وسائر الطاعات الواجبة وغير الواجبة، وحذف المفعول للعموم أي يأمر بالمعصية بعضهم بعضا، ويأمرون من ضعف إيمانه، ومن غفل من أهل الشرك أو المعاصي، ومن خافوا منه التوبة، وكذا في النهي عن المعروف. والضمائر للرجال والنساء، المنافق من المنافق ومن المنافقة، والمنافقة من المنافقة ومن المنافق، وتأمر وتنهى غيرها من الذكور والإناث، ويأمر غيره كذلك وينهى.

﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ لا يمدُّونها بالإنفاق الواجب والمستحبِّ، وذلك كناية عن الشحِّ كما أنَّ بسطها كناية عن الجود مطلقا، لأنَّ الإنفاق يتصوَّر أيضا بلا مدِّ يد، مثل أن تقول: خذ من مالي كذا أو هو لك.

﴿نَسُواْ اللهَ﴾ تركوا توحيده وطاعته، وضع النسيان لترك الشيء ولذهابه عن الحافظة بعد كونه فيها، وعلى فرض أنَّه موضوع لذهابه عنها يكون هنا مجازًا استعمالا في اللازم، فإنَّ من ذهب عن حافظته شيء يتركه، ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ ترك رحمتهم والإحسان إليهم لاختيارهم الخذلان.

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ بإضمار الشرك وتوابعه، ودخلت المنافقات في المنافقين، أو حذف لفظ المنافقات للعلم به ﴿هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الكاملون في الخروج عن الطاعة، فإنَّ غيرهم من أصحاب الكبائر غير الشرك ومن المشركين صراحا دونهم في الكمال، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الاَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ (سورة النساء: ١٤٥) أي إنَّ المنافقين بإضمار الشرك. والحصر باعتبار الكمال، وإلاَّ فقد كثر الفاسقون غيرهم، وأمَّا المؤمنون فلا يتّصفون بالفسق، وفسق غير هؤلاء المنافقين دون فسقهم.

ومقتضى الظاهر: "إنَّهم هم الفاسقون" وأظهر لزيادة التقرير وللإهانة، فإنَّ في ذكرهم بالنفاق ما ليس في ذكرهم بالضمير، أو المراد: مطلق المنافقين، وعلى

كلِّ حال المراد: ما يشمل المنافقات.

﴿وَعَدَ ٱللهُ ٱلْمُنَافِقِينَ وَٱلْمُنَافِقَاتِ وَٱلْكُفَّارَ﴾ المشركين صراحا وأصحاب الكبائر، واعلم أنَّ وَعَدَ والوَعْدَ يستعملان في الخير والشرِّ، وأوْعد والوعيد في الشرِّ، وقيل: يستعمل أوعد في الخير والشرِّ.

﴿نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ حال من المنافقين والمنافقات والكفَّار مقدَّرة، لكن على معنى مقدَّرًا خلودُهم بفتح دال مقدَّرًا، والمقدِّر ــ بكسرها ــ ا لله، وأمَّا أن يقال: مقدِّرين ـ بكسر الدال ـ فلا يصحُّ، لأنَّ الوعد أزليٌّ، وكذا إن أريد ما كتب في القرآن، أو في اللوح لأنَّهم لم يكونوا ناوين الخلود في الأزل ولا فيما بعد، وإنَّما ينوونه إذا شاهدوا أمارته بعد الموت، ويجوز أن يكون المعنى: يقدِّرون الخلود فيما بعد، وكذا قُلْ في مثل هذا، أو يقدَّر: يعذِّبهم ا لله خالدين فيها فالحال مقارنة.

﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ حسابا وعقابا كافية في أنَّها شديدة طبق عنادهم، ولو شاء ا لله لزاد شدَّة أو شدَّات على شدَّتها، ومن رحمته أنَّه لم يزد ولو زاد لكان عدلا، وبطل القول بأنه لا تمكن الزيادة عليها، وذلك كما صحَّ أنَّ نعم الجنَّة لا تزال تزداد كمًّا وحلاوة ولذَّة، بل ثبت في الأثر أنَّ شدَّة جهنَّم لا تزال تزداد على أهلها.

واللعنة والعذاب المقيم المذكوران في قوله : ﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللهُ﴾ أبعدهم عن رحمته تعالى ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ هما مما تضمَّنته جهنَّم والخلود فيها، فإنَّها تتضمَّن شدائد العذاب من اللعن والذمِّ والإهانة بالسلاسل والأغلال، بسم ا لله الرحمن الرحيم ننجو منها ومن سخطه [آمين]، ولا تكرير مع أنَّه لا مانع من التكرير للتأكيد.

ويجوز أن يراد بالعذاب المقيم ـ أي الدائم ـ ما يقاسونه من وقوع الفضائح ومن الخوف من الافتضاح من اطّلاع الرسول على بواطنهم، ونزول الآية فيهم. واللعن أزليٌّ، أو إبعاد لهم وفِعْل كالشتم لهم، وفي الآية عطف الفِعلِيَّة على الاِسمِيَّة، والاِسمِيَّة على الفِعلِيَّة.

﴿كَالذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي أنتم أَيُّهَا المنافقون والمنافقات وَالكُفَّار كالذين من قبلكم، أو فعلتم كفعل الذين من قبلكم على طريق الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، أي أشبهتم مَن قبلكم في الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف والشحِّ كما قال: ﴿كَانُواْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا فَاسْتَمْتَعُواْ بِخَلاَقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاَقِكُمْ كَمَا اَسْتَمْتَعَ اَلْذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاَقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالذِي خَاضُواْ﴾ إلاَّ أنَّه زاد في المشبَّه به بيان أَنَّهُ أَشَدُّ قُوَّة وأكثر مالا وولدا، وصرَّح بالخوض في التشبيه مراعاة لقوله: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [في آية رقم ٦٥] وذلك لبعد ذكره.

ويجوز أن يكون محطُّ التشبيه هو قوله: ﴿فَاسْتَمْتَعُواْ﴾ وقوله: ﴿وَخُضْتُمْ﴾ كقولك: أنت كزيد يقتل الأعداء وتقتلهم وتجود كما يجود، والمراد بالقُوَّةِ قُوَّة الأبدان، والاستمتاع: التمتُّع العظيم، فالاستفعال هنا للمبالغة لأنَّ أصله العلاج والطلب، وخَلاَقهم: نصيبهم من ملاذِّ الدنيا، من الخَلْق بمعنى التقدير، فإنَّ نصيب كلِّ أحد مقدَّر له.

والآية ذمٌّ لهم باتخاذهم طريق من اختار الدنيا وركن إليها عن الآخرة، ذكر بعض أنَّ قوله: ﴿كَمَا اَسْتَمْتَعَ اَلذِينَ مِن قَبْلِكُم﴾ مغن عن قوله: ﴿فَاسْتَمْتَعُواْ﴾ وإنَّما ذكر الأوَّل والثاني معا للتأكيد، ولبيان أنَّ محطَّ التشبيه الاستمتاع، ثمَّ زيد بيان بقوله: ﴿كَمَا...﴾ وفي هذا إشارة إلى أنَّ الأصل: وخاضوا وخضتم كالذي خاضوا، كما في ما قبله، فالأصل:

استمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم، دون ذكر «بِخَلاَقِهِمْ»، وبإسقاط فاء «فَاسْتَمْتَعْتُمْ» وكذلك أظهر «الذِينَ» للتأكيد، والأصل: كما استمتعوا بخلاقهم، بل كما استمتعوا به، بالإضمار للخلاق، ولا مانع من أن يقال بأن يكفي الأوَّل عن الثاني وجُمِعَا تأكيدا.

(لغة) ثمَّ إنَّ الفاء في قوله: ﴿فَاسْتَمْتَعُواْ﴾ ظاهرة السَّبَبِيَّة دون الفاء في قوله ﴿فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاَقِكُمْ﴾ لأنَّ كون من قبلهم أقوى وأكثر أموالا وأولادا لا يكون سببا لاستمتاع من بعدهم، فالثانية إمَّا بمعنى الواو، أو لمجرَّد الترتيب الذكري، وهذا لا يتمُّ، لأنَّ ما عطف على المسبَّب يكون مسبَّبا، وإمَّا للسَّبَبِيَّة باعتبار أنَّ لهم أموالا وأولادا وقُوَّة، ولو كانت لمن قبلهم أقوى وأكثر، فكانت قواهم وأموالهم وأولادهم سببا للاستمتاع لهم، كما للذين من قبلهم، وقد يقال بالسَّبَبِيَّة في الثانية بلا تقدير على معنى اقتدائهم في الاستمتاع بالأوَّلين.

والآية تنبيه على أنَّه عوقب من هو أشدُّ وأكثر منهم فكيف هم، والأمر في قدرة الله سواء، والمراد بالخوض: الخوض في الباطل. و«الذِي» واقع على الفريق باعتبار لفظه، وجمع في «خَاضُوا» لاعتبار معناه، والرابط الواو، أو على الخوض فالرابط ضمير "هو" مفعول مطلق محذوف، أي وخضتم كالخوض الذي خاضوه، فَلاَ تَهِم أنَّ الهاء مفعول به، ولا أنَّ التقدير فيه، وإنَّما هي كهاء قولك القيام قمته، [قلت:] وذلك أولى من أن يقال: الأصل "كالذين" حذفت النون تخفيفا، وأولى من أن يقال «الذِي» حرف مصدريٌّ، أي خوضا كخوضهم.

﴿أُوْلَئِكَ﴾ الخطاب له أو لِكُلٍّ من يصلح ﴿حَبِطَتَ اَعْمَالُهُمْ﴾ الإشارة إلى المشبَّهين الآخرين، والمشبَّه بهم الذين من قبلهم، وقيل: إلى المشبَّه بهم فيكون حكم المشبَّهين مفهوما ضمنا، وفيه أنَّ الأنسب حينئذ أن يقال:

أولائكم. والمراد بالأعمال ما يثابون عليه لو أسلموا من الصدقة ومكارم الأخلاق ﴿فِي اِلدُّنْيَا﴾ لم تنفعهم في الدنيا إذ لا تمنعهم من الذمِّ والخزي والقتل والسبي فيمن يقتل ويسبى، وأمَّا ما أعطوا من الخير الدنيويِّ فإمَّا استدراج لهم وإمَّا ثواب لهم، فقد بطلت في الدنيا ولم يوافوا بها الآخرة، ﴿وَالاَخِرَةِ﴾ لا يثابون عليها فيها لكفرهم.

﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ لم يستفيدوا من أبدانهم وما أعطاهم الله في الدنيا فائدةً في الآخرة، بل زادوا بذلك عذابا فخسروا دنياهم وأخراهم.

(بلاغة) والحصر بالنسبة للمؤمنين، أي إنَّما خسروا هم لا المؤمنون، أو بالنظر لِمَا في الدنيا، وأمَّا غيرهم فلم يخسر في الدنيا خسرانهم، ولو خسر في الآخرة؛ أو الحصر للكمال، أي الكاملون في الخسران، والمؤمنون لا خسران لهم البتَّة، وخسران غيرهم دون خسران هؤلاء.

﴿أَلَمْ يَاتِهِمْ﴾ أي المنافقين ومن ذكر معهم، ولا التفات هنا كما قيل، بل هذا تبع للالتفات في قوله: ﴿أُوْلَئِكَ حَبِطَت...﴾ إلى ﴿...الْخَاسِرُونَ﴾ من الخطاب إلى الغيبة الملتفت عنها إلى الخطاب في قوله: ﴿مِن قَبْلِكُمْ...﴾، ﴿نَبَأُ الْذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ هدَّدهم بأخبار من قبلهم، وهلاكهم لأفعالهم لينزجروا، حَذَرًا من أن يقع بهم ما وقع بمن قبلهم.

﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ بدل مطابق باعتبار ما يعطف عليه والمبدل منه «الذِينَ»، والمراد به الستَّة هنا فلا ينافي بدل المطابقة أنَّ المهلكين أكثر منها، وإنَّما اقتصر عليها لقربها من أرض العرب، يرون أثرها بالشام واليمن والعراق، ويعرفون أخبارها أغرق قوم نوح وأحرقوا أيضا بالنار في الماء ﴿وَعَادٍ﴾ قبيلة سمُّوا باسم أبيهم أهلكوا بالصيحة، والريح المتضمِّنة للنار يراها في الريح هودٌ نبيئهم

ومَن معه من المؤمنين ﴿وَثَمُودَ﴾ قوم صالح، وهم قبيلة سمُّوا باسم أبيهم أهلكوا بالزلزلة أوَّلاً والصيحة من السماء، أو بالصيحة أوَّلاً، أو بهما معًا دُفعةً، وتقطَّعت قلوبهم، ولم يقل: وقوم هود وقوم صالح لأنَّهم لم يشهروا عند النزول باسمي هود وصالح، وقيل: لأنَّه آمن منهم الكثير.

﴿وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ﴾ سلطانهم نمروذ ـ بفتح النون وضمِّها وإعجام الذال ـ أهلكه الله ببعوضة، وأهلك القوم الكُفَّار معه بالبعوض، تأكل طعامهم ودوابَّهم وأجسادهم فماتوا بها وبالجوع، أهلكته بعوضة واحدة دخلت دماغه عكسا وإذلالا لطغيانه، وأبوه كنعان.

﴿وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ﴾ أهل قرية تسمَّى مدين باسم جدِّهم مدين بن إبراهيم، وهم قوم شعيب، أهلكوا بالنار إذ نصبت لهم سحابة في صحرائهم وقد اتَّقد مَا سواها حرارة، وغلت مياههم سبعة أيَّام، حتَّى اجتمعوا تحتها لبرد تحتها، فأحرقوا منها، هذا قول ابن عَبَّاس رضي الله عنهما، وقال قتادة: أهلكوا بالصيحة، وأصحاب الأيكة بالنار، قيل: وهم قوم شيت، ولا يصحُّ.

﴿وَالْمُوتَفِكَاتِ﴾ أي وأهل القرى الموتفكات، أي المنقلبة، مطاوع "أفكَها" أي قلَبها فانقلبت، صار أعلاها أسفلها، وهنَّ قرى قوم لوط، قلبت وضربوا بالحجارة من سجِّيل، وقيل: المراد قرى المكذِّبين المتمرِّدين انقلبت أحوالهم من الخير إلى الشرِّ، فالاِئتِفَاكُ في هذا مجاز، قال ابن الرومي:

وما الخسف أن تلقى أسافل بلدة أعاليَها بل أن تسود الأراذلُ

أي بل الخسف رئاسة الأراذل.

﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بيان لـ«نَبأ»، فإنَّ خبرَهم أنَّهم أتتهم رسلهم بالمعجزات فكذَّبوهم فأهلكوا.

﴿فَمَا كَانَ ا للهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ عطف على أهلكوا، أي لا يليق به أدنى ظلم ولم يَعْتَد الظلمَ، أو استمرَّ نفيُ الظلم عنه ﴿وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ﴾ مفعول لقوله: ﴿يَظْلِمُونَ﴾ إذ عرَّضُوها للعقاب بكفرهم، وقدَّم على طريق الاهتمام وللفاصلة، والحصر، لا يقال ظلمهم ا لله حاشاه، ولا ينال عقابهم المؤمنين.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢)﴾

أوصاف المؤمنين وجزاؤهم الأخروي

وبعد ما عاب المنافقين والكافرين بقبائحهم وعقابها مَدَحَ المؤمنين بأضدادها وثوابها: ﴿وَالْمُومِنُونَ وَالْمُومِنَاتُ بَعْضُهُمْ, أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ قال هنا: ﴿أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ وهنالك: ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ لأنَّ اتِّصَال هؤلاء بمقتضى الطبع، واتِّصَال المؤمنين بالدين الوَاحد المنافي للمخالفة المقتضي للمعاونة والتناصر ﴿يَامُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ الواجب وغير الواجب، وهو مقابل للأمر بالمنكر ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ الكبير والصغير، وهو مقابل للنهي عن المعروف.

(أصول الدين) وكذلك يجب على الفاسق الأمر بالمعروف ولو كان لا يفعله، والنهي عن المنكر ولو كان يفعله، والممتثل يكون أمره ونهيه أشدَّ تأثيرا في غيره، قال بعض المغاربة:

أخذت بأعضادهم إذ نأَوْا وخَلَّفكَ القوم إذ وُدِعُوا
فكم أنت تنهى ولا تنتهي وتسمع وعظا ولا تسمعُ
فيا حجر السَّنِّ حَتَّى متى تَسِنُّ الحديد ولا تقطع

﴿وَيُقِيمُونَ اَلصَّلاَةَ﴾ الواجبة وغير الواجبة، وهو مقابل لنسيان ا لله ﴿وَيُوتُونَ اَلزَّكَاةَ﴾ مقابل لقبض الأيدي ﴿وَيُطِيعُونَ اَ للهَ وَرَسُولَهُ,﴾ في كلِّ أمر ونهي، وهو مقابل لكمال الفسق والخروج عن الطاعة.

﴿أُوْلَئِكَ﴾ المتّصفون بصفات الخير ﴿سَيَرْحَمُهُمُ ا للهُ﴾ مقابل لقوله تعالى: ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾، السين للتأكيد والقطع، وهو من معاني السين كما تشعر به عبارات الفصحاء، لا كما قيل: إنَّ ذلك مستفاد من المقام، أمَّا إذا أريد بالرحمة ما حضر منها دينا ودنيا لأنَّه غير مستقبل وقد ذكر خير الآخرة في قوله: ﴿وَعَدَ ا للهُ﴾ فالمضارع للحال المستمرِّ، وأمَّا إذا أريد رحمة الآخرة والمقام مقام تبشير فالاستقبال غير مراد بالسين، فهي لمجرَّد التأكيد، ويجوز جمع الوجهين فهي كذلك للتأكيد، فالرحمة حاضرة مستمرَّة متّصلة بعضها في الحياة وبعضها في الموت وما بعده، ولا مانعا من إبقاء المضارع والسين على الاستقبال، والرحمة رحمة الآخرة.

﴿إِنَّ اَ للهَ عَزِيزٌ﴾ لا يغلب عمَّا أراد، فهو منجز لوعده ووعيده لأهلهما ﴿حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء في مواضعها.

﴿وَعَدَ اَ للهُ الْمُومِنِينَ وَالْمُومِنَاتِ﴾ مقتضى الظاهر: "وعدهم" بالإضمار لكن أظهر ليشعر بأنَّ الإيمان علّة للوعد، وهذا وما بعده مقابل لوعيد المنافقين المعبَّر عنه بالوعد تهكُّما، على تبادر الخير من لفظ الوعد، وإلاَّ فالوعد يكون في الخير ويكون في الشرِّ.

﴿**جَنَّاتٍ**﴾ نخلا وأشجارا من كلِّ نوع ﴿**تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ**﴾ بيوتا ودورا وقصورا ﴿**طَيِّبَةً**﴾ من اللؤلؤ والزبرجد والياقوت الأحمر، كما في الحديث، طيِّبة في نفسها، ويطيب العيش فيها لسكَّانها، لا يلحقهم كدر كما في الدنيا.

﴿**فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ**﴾ هنَّ ثمان كما أنَّ النار سبع، وكلُّهنَّ للعَدَن، أي للإقامة لا خروج عنهنَّ، كما يخرج عمَّا في الدنيا، كما قال الله ﷻ: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ وقال تعالى: ﴿لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾ (سورة الكهف: ١٠٣) وقد تخصُّ جنَّة عدن بواحدة من الثمان، قال رسول الله ﷺ: «**عدن دار الله التي لم ترها عين قطُّ، ولم تخطر على قلب بشر، لا يسكنها غير ثلاثة: النبيئون والصدِّيقون والشهداء، يقول الله: طوبى لمن دخلكِ**»[1] رواه أبو الدرداء وزاد عبد الله بن عمرو بن العاص: «**حولها البروج والمروج، لها خمسة آلاف باب**».

ولفظ الطبراني عن عمران بن حصين وأبي هريرة: سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ قال: «**قصر من لؤلؤة فيه سبعون دارا من ياقوتة حمراء، في كلِّ دار سبعون بيتا من زمردة خضراء، في كلِّ بيت سبعون سريرا على كلِّ سرير سبعون فراشا من كلِّ لون، على كلِّ فراش زوجة من حور العين**» وفي رواية: «**في كلِّ بيت سبعون مائدة على كلِّ مائدة سبعون لونا من الطعام، وفي كلِّ بيت سبعون وصيفة ويعطى المؤمن من القُوَّة ما يأتي على ذلك كلِّه**»[2]. وعن الحسن: سألت عمران بن

١- أورده **السيوطي** في الدر، ج٣/ ص٢٧٨. من حديث كعب.

٢- رواه **الطبراني** في المعجم الكبير، ج١٨/ ص١٦٠، رقم٣٥٣. ورواه **الهيثمي** في المعجم، ج١٠/ص٤٢٠. من حديث أبي هريرة.

حصين وأبا هريرة فقالا على الخبير سقطت، سألنا عنها رسول الله ﷺ فقال: « **قصر من لؤلؤة**» إلى آخر ما مرَّ.

ويجوز أن يكون ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ والمساكن الطيِّبة شيئا واحدا هو دار أولياء الله المتَّصفة بأنَّها مشتملة على البساتين وعلى المساكن الطيِّبة، وكلُّها عادنة أي مقيمة، يقال: إبل فلان عادنة بموضع كذا، أي لازمة له، رغبة فيه، وعدن الجنَّة عدم فنائها، وعدن أهلها عدم خروجهم عنها، ويجوز أن يراد أنَّ لبعضهم بساتين ولبعضهم مساكن وهو ضعيف، لأنَّ أهل المساكن يحتاجون أيضا إلى البساتين، ولو لم يحتج أهل البساتين إلى المساكن المبنية بأن تكون أشجارهم مظلَّلة عليهم كالبيوت، ويجاب بأنَّ أهل المساكن يؤتون من الله ﷻ بالثمار، والوصف بالخلود في البساتين غير الوصف بخلود دار أولياء الله، فلا تكرار.

﴿وَرِضْوَانٌ﴾ نكَّره للتعظيم لا للتبعيض، لأنَّ رضوانه لا يتبعَّض، لأنَّه هنا صفة ذات فلانهم ﴿مِّنَ اَللهِ أَكْبَرُ﴾ نفعا وشأنا من الجنَّات والمساكن، والرضوان أزليٌّ. ذكَّرهم ما قد يغفلون عنه، وقد يغفلون عن أنَّه يدوم مع أنَّهم عارفون به وبدوامه، وكأنَّه قال: رضواني ألذُّ لكم وأنفع ممَّا فرحتم به من الجنَّات والمساكن لدوامه، وكونه سببا لكلِّ خير، ومنشأ لتلك الجنَّات والمساكن ولقائه.

يقول الله ﷻ : «**هل رضيتم؟ فيقولون: يا ربَّنا ما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك؟ فيقول: لكم عندي أفضل، فيقولون: وأيُّ شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبدا**»[1] رواه

١- رواه **البخاري** في كتاب الرقاق (٥١) باب صفة الجنَّة والنار، رقم٦١٨٣. ورواه **مسلم** في كتاب الجَنَّة وصفة نعيمها وأهلها، رقم٥٠٥٧. من حديث أبي سعيد الخدري.

البخاري ومسلم وأحمد والترمذي عن أبي سعيد الخدري، ومعنى «أحلُّ عليكم رضواني» أخبركم به أو بدوامه، فإنَّ الصفة الذَّاتيَّة ولو كانت لا تقبل الفناء لكن في الإخبار تلذيذ، ويجوز أن يراد بالرضوان شيء من نعم الله على أنَّه غير الصفة، وقوله: «لا أسخط عليكم أبدا» يناسب غير هذا.

وعن بعض المعتزلة: لا تطمح عيني ولا تنازع نفسي إلى شيء مِمَّا وعد الله به في دار الكرامة كما تطمح وتنازع إلى رضاه عنّي، وأن أحشر في زمرة المهديِّين المرضيِّين عنده، وإنَّما لم يقل: "ورضوانا أكبر" بنصبهما عطفا على «جَنَّاتٍ تَجْرِي» لأنَّ الرضوان في ضمن كلٍّ ما ذكر.

﴿ذَالِكَ﴾ المذكور من الرضوان والبساتين والمساكن، أو ذلك الرضوان، قيل: أو الدنيا ونعيمها والجنَّة وما فيها ﴿هُوَ الْفَوْزُ﴾ أي المفوز به فهو مصدر بمعنى المفعول، أو يقدَّر المضاف أي نيل ذلك هو الفوز ﴿الْعَظِيمُ﴾ الذي تحقر في مقابلته نعمُ الدنيا كلُّها.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيءُ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوِيهُمْ جَهَنَّمُ وَبِيسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنِيهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾

الأمر بجهاد الكفَّار والمنافقين

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيءُ جَاهِدِ الْكُفَّارَ﴾ بالقتال ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ بإقامة الحجَّة والوعظ وإقامة الحدود، كالجلد والرجم والقطع، ومن لم يطق فبالقلب، فالجهاد

مستعمل في حقيقته الشَّرعِيَّة وهي القتال، ومجازه الشرعيِّ وهو مطلق الدفع عمَّا لا يرضى بإقامة الحجَّة وما بعدها، وعلى منع الجمع بينهما يفسَّر بمطلق المعنى الموجود فيهما الصادق بهما، وهو بذل الجهد في دفع ما لا يرضى بالقتال لِلْكُفَّارِ، وإقامة الحجَّة وما بعدها في المنافقين، فالآية على **العموم، وبيَّنت السنة من يقتل**، وهو مظهر الشرك، **ومن يقتصر فيه على ما دون القتل وهو مظهر الإسلام مضمر الشرك وكذا من لم يضمره.**

(أصول الدين) وزعم بعض أنَّ الجمع بين الحقيقة والمجاز جائز إجماعا إذا كان المجاز عقليًّا، وهو باطل. وعن الحسن: جاهد المنافقين بإقامة الحدود، ولا حصر لها فيهم، ولكن هم أكثر من يعمل موجبها على عهده ﷺ، فالحسن كأصحابنا يطلق النفاق على فعل الكبيرة، وهو حقٌّ إلاَّ أنَّ التعميم فيهم بإقامة الحجَّة والحدود أولى في الآية.

(أصول الدين) ولا دليل في قوله ﷺ: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان**»[1] ويروى أربع: «**إذا خاصم فجر**» لأنَّه ﷺ لم يجعلهنَّ نفاقا بل علامة نفاق، هو إضمار شرك إلاَّ أنَّ الأمر سهل لأنَّا نسمِّيهنَّ نفاقا ولو لم يضمر شركا، وقومنا يقولون: المراد أنَّه شبيه بمضمر الشرك، وقال بعض قومنا: إن غلبت عليه و لم يكترث سمِّي منافقا، ولو لم يضمر شركا لأنَّه غير بعيد أن يضمره، وزعموا أنَّ الحسن رجع إلى أنَّ المنافق من أضمر الشرك.

١- رواه **مسلم** في كتاب الإيمان، رقم٨٩. ورواه **الترمذي** في كتاب الإيمان، رقم٢٥٥٥. من حديث أبي هريرة. (م.ح)

﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ بكلام السوء والانتهار وسوء النظر، والتعبيس في وجوههم ولا تلن لهم ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِيسَ اَلْمَصِيرُ﴾ هي.

﴿يَحْلِفُونَ﴾ أي المنافقون ﴿بِاللَّهِ مَا قَالُواْ﴾ فيك ما بلغك عنهم من التكذيب لك والسبِّ ﴿وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ اَلْكُفْرِ﴾ إنَّ محمدًا ﷺ ليس رسولا من الله، أو شكَّهم في أنَّ ما يقول حقٌّ، وقول ابن أبيٍّ: «والله ما مثلنا إلاَّ كما قيل: سمِّن كلبك يأكلك» وقول من قال: «لئن كان صادقا كيف يملك الشام والروم؟».

﴿وَكَفَرُواْ﴾ أظهروا الكفر الذي أضمروا من قبلُ، وذلك أنَّهم لم يخلصوا الإيمان ثمَّ ارتدُّوا، بل هم من أوَّل الأمر على الكفر أظهروا التوحيد ﴿بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ﴾ بعد إظهارهم الإسلام.

(سيرة) روي أنَّه ﷺ خطب يوما بتبوك وقد مكث فيها شهرين ينزل عليه القرآن، فذكر المنافقين وسمَّاهم رِجسا وعابهم، فقال الجُلاس ـ بضمِّ الجيم وفتح اللام ـ : «إن كان ما يقول محمَّد في إخواننا الذين خلَّفناهم بالمدينة حقًّا ـ يعني ساداتهم الباقين بالمدينة مثل عبد الله بن أبيٍّ ـ فنحن شرٌّ من الحمير»، وروي أنَّه سمعه عمير بن سعد فقال: «والله يا جلاس إنَّك لأحبُّ الناس إليَّ وأحسنهم عندي أثرا، ولقد قلت مقالة لئن ذكرتها لتفضحنَّك ولئن سكتُّ عنها لتهلكنِّي، ولإحداهما أشدُّ عليَّ من الأخرى»، فمشى إلى رسول الله ﷺ فذكر له ذلك، فحلف الجلاس ما قال، فنزلت الآية، فأخذ رسول الله ﷺ بأذن عمير فقال: «**لقد وفَّتْ أذنك يا غلام وصدَّقك ربك**»، وقيل: سمعه عامر بن قيس الأنصاري فقال: «يا رجل، إنَّ محمدًا هو الصادق وأنتم شرٌّ من الحمير»، فلمَّا انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة أتاه عامر بن قيس فأخبره بما

قال الجلاس، فقال الجلاس: «كذب يا رسول الله عليَّ»، فأمرهما رسول الله أن يحلفا عند المنبر، فقام الجلاس عند المنبر بعد العصر فحلف: «بالله الذي لا إله إلاَّ هو ما قلت، ولقد كذب عليَّ عامر»، فحلف عامر: «بالله الذي لا إله إلاَّ هو لقد قال وما كذبت»، ثمَّ رفع عامر يده إلى السماء فقال: «اللهمَّ أنزل على نبيئك تصديق الصادق وتكذيب الكاذب»، فقال رسول الله ﷺ والمؤمنون: «آمين»، فنزل جبريل عليه السلام عليه ﷺ قبل أن يتفرَّقا بهذه الآية إلى قوله: ﴿فَإِنْ يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ فقال الجلاس: «يا رسول الله إنَّ الله قد عرض عليَّ التوبة صدق عامر بن قيس فيما قال، وأنا قلته، وأنا أستغفر الله وأتوب إليه»، فقبل عنه رسول الله ﷺ وحسنت توبته.

ولا ينافي توبته وقبولها ما روي عن ابن عَبَّاس أنَّ رسول الله ﷺ جلس في ظلِّ شجرة وقال: «**يأتيكم إنسان ينظر إليكم بعيني شيطان فلا تكلِّموه إذا جاء**»، فطلع رجل أزرق العينين، فقال له رسول الله ﷺ : «**علام تشتمني أنت وأصحابك؟**» فجاء بأصحابه فحلفوا ما فعلوا حتَّى تجاوز عنهم.

فيحلفون للماضي عبَّر عنه بصيغة الحضور تقوية للماضي باستحضاره، كأنَّه يشاهده من لم يشاهده، وكأنَّه شاهده الآن من شاهده أوَّلاً. وقال: ﴿يَحْلِفُونَ﴾ والحالف واحد ـ وهو الجلاس ـ لرضا إخوانه بحلفه، وقيل: الآية في عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول إذ قال: «لئن رجعنا إلى المدينة...»، روي أنَّه اقتتل رجل من جهينة وآخر من غفار، وكانت جهينة من حلفاء الأنصار فظهر الغفاري على الجهني، فقال عبد الله بن أبي للأوس: انصروا أخاكم، والله ما مثلنا ومثل محمَّد ﷺ ـ وحاشاه عمَّا يقول هذا المنافق ـ إلاَّ كما قال القائل: "سمِّن كلبك يأكلك"، والله ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى اَلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ...﴾ (سورة المنافقون: ٨) . أخبر رجل رسول الله ﷺ ، فأرسل إليه

فجاءه فجعل يحلف با لله ما قاله، فنزل: ﴿يَحْلِفُونَ...﴾الآيـة، وإذا كـان القـول لبعض وأسند للكلّ فلرضاهم.

﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾ من الفتك بالنبيء ﷺ .

(سيرة) توافق خمسة عشر رجلا عند أحمد واثنا عشر عنـد مسـلم عـن عمَّار وحذيفة، وما رواه أحمد هو حديث أبي الطفيل عند الرجـوع مـن تبـوك، أن يدفعوا رسـول ا لله ﷺ عـن راحلتـه ليقـع في الـوادي فيمـوت، فأخـبره ا لله بذلك، فلمَّا وصل إلى العقبة نادى مناديه بأمره: إنَّ رسـول ا لله يريـد أن يسـلك العقبة فلا يسلكها أحد غيره، واسلكوا يا معشر الجيش بطن الوادي فإنَّـه أسـهل لكم وأوسع، فسلك الناس بطن الوادي، وسلك النبيء ﷺ العقبة، والليل مظلـم وعمَّار آخذ بزمام ناقته وحذيفـة سـائقها، أو بـالعكس، فـازدحموا إليـه متلثمـين حتَّى نفـرت ناقتـه فسـقط بعـض متاعـه، فصـرخ بهـم حذيفـة وضـرب وجـوه رواحلهم، وقيل: ضربها عمار وقد سمع ضاربها منهمـا قعقعـة السـلاح، فقـال: «إليكـم إليكـم يـا أعـداء ا لله!»، فولُّـوا مدبريـن فأسـرعوا إلى بطـن الـوادي، واختلطوا بالناس، فقال ﷺ لحذيفة: «**هل عرفت أحدا منهم؟**» قال: لا كـانوا متلثمـين والليلـة مظلمـة قـال :«**هـل علمـت مرادهـم؟**» قـال لا، فقـال ﷺ : «**أرادوا المكر بي**».

وقيل: الذين همُّوا بما لم ينالوا عبد ا لله بـن أُبـيٍّ ومـن معـه، همُّـوا بـإخراج الرسول إذ قال: ﴿لَئِن رَّجَعْنَا...﴾الآية (سورة المنافقون: ٨) ، أو هـمَّ مـن معـه بـأن يُتَوِّجوه ولو لم يرض ﷺ ، فقيل له: هلاَّ نقتلهم؟ وقيـل لـه: أرسـل إلى أهليهـم يأتوك برؤوسهم قال: «**لا، فإنه يُتحدَّث أنِّي لَمَّا كنت غالبا،قتلـت أصحـابي**» ودعـا ا لله أن يحرق قلوبهـم، وهـم مـن الأوس والخـزرج أو مـن حلفـائهم، لا قريشي فيهم.

وقال الباقر: ثمانية من قريش وأربعة من العرب، ولا تصحُّ هذه الرواية، وعدَّ ابن إسحاق منهم الجلاس، ولا ينافي ما مرَّ من توبته وإحسانه، على أنَّ المراد الغالب لا الكلُّ في مثل قوله: «هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة».

ولا يخفى أنَّ قوله: ﴿وَكَفَرُواْ﴾ وقوله: ﴿وَهَمُّواْ﴾ للمنافقين على التوزيع، فطائفة همُّوا بما لم ينالوا، وطائفة قالوا: «إن كان ما يقول محمَّد...»، ويجوز أن يراد الكلُّ في الكلامين، لأنَّ كلاًّ يرضى بما فعل الآخر أو يقول، أو جمع معه حاطبا، وكان له مال بالشام فأبطأ عنه، فحلف لئن تفضَّل الله عليه بمجيء ذلك المال لأتصدَّقنَّ منه، ولأَصِلَنَّ قرابتي، ولَمَّا أتاه لم يف.

واثنان جمعٌ مجازا. وخلف الوعد نفاق. وقيل: ﴿مَا لَمْ يَنَالُوا﴾: هو تتويج عبد الله بن أُبي، قالوا وهم مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك: إذا قدمنا المدينة عقدنا على رأس عبد الله بن أُبي تاجا.

﴿وَمَا نَقَمُواْ﴾ ما ذكروا وما اعتقدوا شيئا يوجب الانتقام **﴿إِلاَّ أَنَ اَغْنَاهُمُ﴾** أو ما تكرهوا وتنكروا إلاَّ لأجل أن أغناهم **﴿اللهُ وَرَسُولُهُ,﴾** بعد قدومه المدينة وأكثر أهلها محاويج **﴿مِن فَضْلِهِ﴾** بالغنائم والدية، إذ أخذ الجلاس بن سويد ـ بالجيم لا بالحاء ـ اثني عشر ألف درهم دية لمولى حرٍّ له قتل فقيل ذلك دية، وقد منع منها فسعى [له] ﷺ في أخذها.

وروي أنَّه ﷺ أدَّى حمالة كانت على الجلاس، وقيل: الدية عشرة آلاف، والزائد سنق كانوا يعطون الدية ويتكرَّمون بالزيادة عليها، وتسمَّى الزيادة عليها سنقا، يقال سنق الفصيل أو الفرس: إذا تخم بالعلف.

والإغناء من فضل الله ليس مِمَّا ينكر فينقم عليه، فذلك من باب تأكيد المدح بما يشبه الذمِّ، كأنَّه قيل: إنَّ كان شيء يوجب الانتقام أو يثبت الانتقام

لأجله فهو إغناء الله لهم من فضله، ولا يخفى أنَّ ذلك مِمَّا لا ينقم عليه، فلا شيء ينقم عليه، كقول النابغة:

ولا عيب فينا غير أنَّ سيوفنا بهنَّ فلول من قراع الكتائب

وقول بعض: «ما نقم الناس من أميَّة إلا أنَّهم يحلمون إن غضبوا».

﴿فَإِنْ يَّتُوبُواْ﴾ عن الإشراك والنفاق كالجلاس ﴿يَكُ﴾ أي يك التوب، أي التوبة المأخوذ من قوله: ﴿يَتُوبُواْ﴾ ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي نفعا، أو أفضل مِمَّا يدَّعون أنَّ فيه فضلا، وهو النفاق والإشراك ﴿وَإِنْ يَّتَوَلَّوْاْ﴾ عن إخلاص الإيمان إلى الإصرار على النفاق ﴿يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَابًا اَلِيمًا﴾ مؤلما، كسميع بمعنى مسمع، أو تألُّم مجازا ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ بما شاء من الهموم العظيمة وغيرها، وإن أدَّى بهم الإصرار إلى إظهار الشرك فبالقتل أيضا ﴿وَالاَخِرَةِ﴾ بالنار.

﴿وَمَا لَهُمْ فِي الاَرْضِ﴾ في طولها وعرضها الواسعين ﴿مِنْ وَّلِيٍّ﴾ يحفظهم من توجُّه العذاب إليهم ﴿وَلاَ نَصِيرٍ﴾ يدفعه عنهم بعد مجيئه.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّٰمُ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾

قصَّة ثعلبة بن حاطب وخلفه للعهد

﴿وَمِنْهُم﴾ من المنافقين ﴿مَّنْ عَاهَدَ اَللهَ لَئِنَ ـ اتَانَا مِن فَضْلِهِ﴾ مالا واسعا ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ لنتصدَّقنَّ منه على الفقراء، وفي وجوه الأجر، أبدلت التاء صادًا

فأدغمت الصاد في الصاد ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ نعمل أعمال أهل الصلاح، من صلة الرحم وإيتاء الزكاة والإنفاق في الجهاد وسائر أنواع الأجر والاشتغال بالعبادة.

ومقتضى الظاهر: "أتاني من فضله لأصدَّقنَّ ولأكوننَّ" وكذا بإفْراد ضمائر الغيبة بعدُ، ولعل الجمع لأنَّ معه من رضي فعله ورغب فيه.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ﴾ الهاء من «بِهِ» عائد إلى مفعول محذوف، أي فلمَّا آتاهم الله مالا بخلوا به، أو لَمَّا آتاهم ما سألوا بخلوا به.

(نحو) و«مِنْ» للابتداء، ولو جعلناها تبعيضيَّة وقلنا «مِنْ» التبعيضيَّة اسم لكانت مفعولا لـ«ءَاتَى»، وعادت إليه الهاء، ويجوز عودها إلى «فَضْلِهِ» العامِّ المذكور مرادًا بها الفضل الخاصُّ، وهو ما أعطاه الله على طريق الاستخدام وبخلهم هو منعهم الزكاة.

﴿وَتَوَلَّواْ﴾ عمَّا عاهدوا من الزكاة والطاعة ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ في غير ذلك أيضا عن الحقِّ ومن عادتهم الإعراض.

(سيرة) جاء ثعلبة بن حاطب الأنصاري ـ بثاء مثلَّثة وعين مهملة ـ إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يرزقني مالا، فقال له رسول الله ﷺ: «**ويحك يا ثعلبة قليل تؤدِّي شكره خير من كثير لا تطيقه**» وكان قبل ذلك يحافظ على الصلاة مع الجماعة ويعجِّل الخروج من المسجد، فقال ﷺ له: «**فيك خصلة نفاق**» فقال: مالنا للصلاة إلاَّ هذا الثوب، فأتعجَّل به إلى زوجتي لتصلِّي به، ثمَّ أتاه بعد ذلك، فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالا، فقال له رسول الله ﷺ: «**أمالك فيَّ أسوة حسنة، والذي نفسي بيده، لو أردت أن تسير الجبال معي ذهبا وفضَّة**

لسارت» ثمَّ أتاه بعد ذلك، فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالا، والذي بعثك بالحقِّ لئن رزقني الله مالا لأعطينَّ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فقال رسول الله ﷺ: «**اللهمَّ ارزق ثعلبة مالا**»، فاتَّخذ غنما فنمت كما ينمو الدود، فضاقت عنه المدينة فتنحَّى عنها، ونزل واديا من أوديتها فكان يصلِّي مع رسول الله ﷺ الظهر والعصر، ويصلِّي سائر الصلوات في غنمه، ثمَّ كثرت ونمت حتَّى تباعد عن المدينة فصار لا يشهد إلاَّ الجمعة، فزادت حتَّى لا يشهد جماعة ولا جمعة، وإذا كان يوم الجمعة تلقَّى الناس يسألهم عن الأخبار، فذكره رسول الله ﷺ وقال: «**ما فعل ثعلبة؟**» فقالوا: يا رسول الله اتَّخذَ ثعلبة غنما لا يسعها واد، فقال رسول الله ﷺ: «**يا ويح ثعلبة، يا ويح ثعلبة!**» ونزلت آية الصدقة، فبعث رسول الله ﷺ رجلا من بني سليم ورجلا من جهينة وكتب لهما أسنان الصدقة، وكيف يأخذانها، وقال لهما: «مرَّا على ثعلبة بن حاطب وفلان من بني سليم فخذا صدقاتهما»، فخرجا حتَّى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة، وأقرآه كتاب رسول الله ﷺ، فقال: ما هذه إلاَّ جزية، ما هذه إلاَّ أخت الجزية، انطلقا حتَّى تفرغا ثمَّ عودا إليَّ فانطلقا، وسمع بهما السلمي-فنظر إلى خيار أسنان إبله فعزلها للصدقة، واستقبلهما بها، فقالا: ما عليك هذا، قال خذاه فإنَّ نفسي بها طيِّبة، فقالا: حتَّى يأذن لنا رسول الله ﷺ، ومرَّا على الناس وأخذا الصدقات ثمَّ رجعا إلى ثعلبة، قال: أرياني كتابكما فقرأه، وقال: ما هذه إلاَّ جزية ما هذه إلا أخت الجزية، اذهبا حتَّى أرى رأيي، فرجعا فلمَّا رآهما رسول الله ﷺ قال قبل أن يتكلَّما: «**يا ويح ثعلبة! يا ويح ثعلبة!**»، وأخبراه بخبر السلمي فقبل عنه ودعا له بخير، وأخبراه بخبر ثعلبة ونزل فيه: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

وروي أيضا أنــَّه أتـى مجلس الأنصـار فقـال: عـاهدت ا لله إن أتـاني مـالا تصدَّقت منه، وأدَّيت حقَّه، فورث ابن عمٍّ له و لم يف بالوعد، وكذا معتب بن قشير: وَعَدَ فأُتي مالاً فلم يف، وكان لحاطب أيضا مال بالشام فأبطأ عنه وعهد فجاءه و لم يف، فلعلَّ الآية نزلت في ذلك كلّه.

﴿**فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَآ أَخْلَفُواْ ا للهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ**﴾ وكان عند رسول ا لله حين نزلت الآية رجل من أقـارب ثعلبة، فذهب إليه فقال: قـد نزلـت فيك كـذا وكـذا، فخـرج ثعلبـة حتّـى أتـى رسول ا لله ﷺ فسأله أن يقبل صدقته، فقال: إنَّ ا لله منعـني أن أقبـل صدقتـك، فجعل يحثو التراب على رأســه، فقـال لـه رسـول ا لله ﷺ : «**هـذا عملـك قـد أمرتك فلم تطعني**»، وأتى أبا بكر في خلافته فقال: لم يقبلها منـك رسـول ا لله فلا أقبلها، وأتى عمر في خلافته فقـال لـه: لم يقبلهـا منـك رسـول ا لله ﷺ ولا أبو بكر فلا أقبلها، وأتى عثمان في خلافتـه فلـم يقبلهـا ومـات في خلافتـه، ولـو أدرك الإمام عليًّا لم يقبلها منه كما لم يقبلها مَن قبله، وهو كأشدِّهم عزوبا عـن الدنيا ومالها ولذَّتها.

والواجب أداء الزكاة بطيب نفس، أو بالصـبر عليـه احتسـابا. والضمـير في «أَعْقَبَ» عائد إلى البخل، أي أورثهم، أو إلى ا لله ﷻ ، أي صيَّر عاقبتهم نفاقا، يقال: أعقبك ا لله خيرا: أي صيَّر عاقبتك خيرا، وهذا أولى لعـود هـاء «فَضْلِهِ» وهاء «يَلْقَوْنَهُ» إليه تعالى، قيل: ولأنَّ إسناد إعقاب النفاق إلى البخل بعيد لقولـه: ﴿بِمَآ أَخْلَفُواْ ا للهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ فإنَّ الإخلاف هو البخل، فكأنّـه أعقـب البخـل نفسه الجواب أنـَّه نفاق، أعقب نفاقا آخر، **والمعصيـة تـورِّث معصيـة**. و«فِـي» متعلِّق بنعت محذوف، أي راسخا في قلوبهـم، والنفـــاق في القلـب والنفــاق بالجارحة تابع له.

(نحو) وأجاز بعضهم عود الهاء مِن «يَلْقَوْنَهُ» للبخل أي جزاء بخلهم، والفاء في قوله: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾ والباء في قوله: ﴿بِمَآ أَخْلَفُوا﴾ سَبَبِيَّتان، و«مَا» مَصدَرِيَّة، أي بإخلافهم الله، ويوم اللقاء: وقت الموت أو البعث، والذي وعدوا الله به: الصلاحُ وأداء حقوق المال والنفلُ منه، وكذبهم هو خلف الوعد، فذلك تأكيدٌ، لأنَّ إخلاف الوعد متضمِّن للكذب، إلاَّ أن يقال: الكذب أوَّلا في حين نطقوا بالوعد وهو لفظ، ونفاقه إضمار شرك، بدليل قراءة: ﴿يُكَذِّبُونَ﴾ ولو كان حشْوُ التراب على رأسه يدلُّ على أنَّ له تصديقا، ويناسب الإشراك قولُه: «ما هذه إلاَّ جزية»، وقوله: «ما هذه إلاَّ أخت الجزية» ولو أتى بها بعدُ.

(نحو) و«مَا» مَصدَرِيَّة، والمصدر من الكون الذي له خبر، وهو دال على الحدث فيتعلَّق به الظروف، فالتقدير: بكونهم يكذِّبون، [قلت:] هذا هو الحقُّ، لا ما قيل: إنَّه لا يدلُّ على الحدث، وإنَّه لا يعلَّق به الظروف، وإنَّ المصدر مِمَّا بعده هكذا: "وبكذبهم"، ألا ترى إلى قوله: «وكونك إيَّاهُ عليك يسير»، وترجمة مصدره (يَلَيَّ) بفتح اللام بلغة البربر.

ومن حديث أبي هريرة مرفوعا: «**آية النفاق ثلاث: إذا حدَّث كذَب، وإذا وعد أخلف، وإذا أوتمن خان**»[1]. ومن حديث عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعا: «**أربع من كنَّ فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خُلَّة** -وفي رواية: **خصلة منهنَّ**- **كانت فيه خصلة من نفاق حتَّى يدعها: إذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر**»[2].

١- تقدَّم تخريجه في هَذَا الجزء، انظر ص ٨٣.

٢- تقدَّم تخريجه، انظر ج٢/ ص٣٦٧.

(أصول الدين) وهذا ظاهر في أنَّ النفاق يطلق في إضمار الشرك مع إظهار التوحيد، وفي الفسق مِمَّن يوحِّد الله في قلبه ولسانه، وقومنا لَمَّا خصُّوا النفاق بإضمار الشرك وإظهار التوحيد احتاجوا إلى أن يقولوا: شبَّه الفاسق بمن أظهر الشرك وأظهر التوحيد، وإلى أن يقول بعض منهم: إنَّ ذلك في الفاسق الغالب عليه ذلك، وإلى أن يقول بعض: ذلك في المنافقين على عهده ﷺ، وإلى أن يقول بعض: ذلك في رجل مخصوص في عهده، [قلت:] وذلك خبط، والحقُّ ما قلت أوَّلاً.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُواْ﴾ أي المنافقون عموما، أو المنافقون المذكورون في قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اَ للهَ﴾ ﴿أَنَّ اَ للهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ﴾ أي مسرورهم في أنفسهم بلا نطق ﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾ أي منجوهم فيما بينهم بنطق خفيٍّ، ومثله ما جهروا به حيث لا يسمع أحد، فهما مصدران بمعنى مفعول، وذلك أنَّهم أسرُّوا في قلوبهم وفيما بينهم النفاق، والإخلاف، والطعن، وتسمية الزكاة جزية أو أختها، والتكذيب، والفتك بالنبيء ﷺ.

﴿وَأَنَّ اَ للهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾ جمع للغيب الذي هو مصدر بمعنى غائب، هو علاَّم لأنواع ما غاب عن خلقه فكيف يخفى عنه حال المنافقين.

﴿اَلَّذِينَ يَلْمِزُونَ اَلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ اَلْمُومِنِينَ فِے اِلصَّدَقَٰتِ وَالذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اَللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ اِسْتَغْفِرْ لَهُمُۥٓ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمُۥٓ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَّغْفِرَ اَللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَاللَّهُ لَا يَهْدِے اِلْقَوْمَ اَلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾

استهزاء المنافقين بالنبيء وحرمانهم من الاستغفار لهم

(سبب النزول) وحثّ رسول الله ﷺ في خطبة على صدقة بعد نزول آية الزكاة وشهرتها، ومضى مدّة فجاء عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه بأربعة آلاف درهم، فقال: كان لي ثمانية آلاف درهم فأقرضت ربِّي أربعة، وأمسكت لعيالي أربعة، فقال له رسول الله ﷺ : «**بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت**» فبارك الله له حتّى صولحت إحدى امرأتيه على ثمانين ألف درهم، فثمن ماله أكثر من مائة ألف درهم، وستّين ألف درهم، كما يدلُّ له المصالحة مبادرة، وقيل: إنّه جاء إلى النبيء ﷺ بأربعمائة أوقية ذهبا، واسم تلك المرأة "تماضر"، وقيل: أزواجه أربع فصولحت تلك المرأة عن ربع الثمن عن ثمانين ألفا فثمن ماله أكثر من ثلاث مائة ألف وعشرين ألف درهم، وَمِمَّا بورك له به أنّه أعتق ثلاثين ألف رقبة، وأوصى بخمسين ألف دينار وألف فرس في سبيل الله، وأوصى لكلِّ واحد مِمَّن بقي من أهل بدر بأربع مائة دينار، والباقون مائة رجل، وأظُنُّ أنّه بورك له في الآخرة بأكثر من سبع مائة لكلٍّ حسنة.

وجاء عاصم بن عديٍّ بمائة وسق تمرًا، والوسق: ستّون صاعا، أو حمل بعير، وجاء أبو عقيل الأنصاري واسمه الحبحاب ـ وقيل: سهل بن رافع ـ بصاع تمرا، فقال: بتُّ ليلتي أجرُّ بالجرير على صاعين فتركت صاعا لعيالي وجئت بصاع، فأمر رسول الله ﷺ أن ينثره على الصدقات، والجرير: الحبل يسقي به على بعيره أو على ظهره من البئر لشجرهم ونخلهم أو حرثهم، أو يرفع به التراب يجرُّه به في وعاء، ثمّ رأيت ما يعيّن الأوّل وهو السقي، وهو لفظ البخاري ومسلم: «بتُّ ليلتي أجرُّ بالجرير الماء حتّى نلت صاعين فأمسكت أحدهما لعيالي...» فقال المنافقون: ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلاّ رياء، وقد كان الله ورسوله غنيّين عن صاع أبي عقيل، ولكن أحبَّ أن يذكره ليعطى من الصدقة،

وقد قال ﷺ خلاف قولهم: «**أفضل الصدقة جهد المقلّ**»[1].

ونزل في ذلك كلّه قوله: ﴿**الذِينَ يَلْمِزُونَ اَلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ اَلْمُومِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالذِينَ لاَ يَجِدُونَ إلاَّ جُهْدَهُمْ**﴾ كالحبحاب ورفاعة بن سعد، وقال مجاهد: هو رفاعة بن سعد، جمع تعظيما، أو هو سبب النزول ففسّر الجمع به.

﴿**فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اَ للهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ**﴾ أي هم الذين يلمزون، والضمير للمنافقين، أو أعني الذين أو أذمُّ الذين، أو مبتدأ والخبر «سَخِرَ ا للهُ مِنْهُمْ»، أو بدل من هاء «سِرَّهُمْ». و﴿يَلْمِزُونَ﴾: يعيبون، و﴿المُطَّوِّعِينَ﴾: المتطوِّعون، أبدلت التاء طاء وأدغمت الطاء في الطاء، ومعناه: معالجون للطاعة بالنفل، «وَالذِينَ لاَ يَجِدُونَ إلاَّ جُهْدَهُمْ» عطف على «الْمُطَّوِّعِينَ» عطف خاصٍّ على عامٍّ، لأنَّ المطَّوِّعين شامل للذين لا يجدون إلاَّ جهدهم لا على المؤمنين، لئلاَّ يوهم أنَّ الذين لا يجدون إلاَّ جهدهم ليسوا من المؤمنين، ولو أمكن عطفه عليه عطف خاصٍّ على عامٍّ أيضا. والجهد: الطاقة. و«يَسْخَرُونَ» معطوف على «يَلْمِزُونَ» ومعناه: يستهزئون. و﴿سَخِرَ ا للهُ مِنهُمْ﴾: جازاهم على سخرهم، وهذا مشاكلة واستعارة تبعيَّة، لأنَّ جزاء السخر مثل السخر و﴿لَهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ﴾ على كفرهم ونفاقهم وعطفه على «سَخِرَ ا للهُ مِنْهُمْ» عطف اسميَّة على فِعلِيَّة.

وجاءوا يعتذرون ويقولون: استغفر لنا يا رسول ا لله، وكذا عبد ا لله بن عبد ا لله بن أُبي لَمَّا مرض أبوه طلب الاستغفار له، فنزل قوله تعالى: ﴿**اِسْتَغْفِرْ لَهُمْ, أَوْ لاَ تَستَغْفِرْ لَهُمْ**﴾ هو أمر ونهي مراد بهما الإخبار باستواء الاستغفار وعدمه في عدم المغفرة لهم، كقوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمُ, أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمُ, أَمْ لَمْ

١- تقدَّم تخريجه، انظر ج٢/ ص١٨٦.

تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَّغْفِرَ ا للهُ لَهُمْ﴾ (سورة المنافقون: ٦) وقد قيل: نزل ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ,...﴾ بعد طلب الاستغفار، وهو من سورة أخرى.

ولا ينافي أنَّ آخر سورة نزلت سورة براءة لجواز نزول بعض آية مثلا في أخرى، وأيضا قد قيل: الآخرة نزولا المائدة، وكالآية قوله تعالى: ﴿قُلَ انفِقُواْ طَوْعًا اَوْ كَرْهًا﴾ فإنَّه صورة الأمر بالإنفاق طوعا أو كرها، والمراد الإخبار بالمساواة بين الطوع والكره في عدم القبول، وفائدة الإنشاء بدل الإخبار التأكيد في المساواة، كأنَّه قيل: استغفر لهم تارة فتشاهد عدم المغفرة، وإن شئت فلا تستغفر لهم فتشاهد أيضا عدم المغفرة، أو استغفر تارة فترى عدمها ولا تستغفر أخرى فترى عدمها أيضا.

ويقال: استغفر لوالد عبد ا لله لَمَّا طلبه عبد ا لله فنزل قوله تعالى: **﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَّغْفِرَ اَ للهُ لَهُمْ﴾** فقال: لأزيدنَّ على السبعين فنزلت: ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ,...﴾ فجعلت في سورة أخرى، على أنَّه ﷺ فهم أنَّه إن استغفر لهم أكثر من سبعين جاز له، كذا قيل.

[قلت:] وهذا الفهم بعيد عنه ﷺ ، لأنَّه اشتهر بين الناس أنَّ السبعين مثلا للإيَّاس، والزيادة عليها لا تفيد، فإن صحَّ عنه ـ وهو رواية للبخاري ومسلم وابن ماجه ـ فلعلَّ هذا الاستعمال وقع وشهر بعد نزول الآية، ثمَّ إِنَّهُ لا يتصوَّر منه أن يستغفر لهم وهم مشركون، وكذا روى الضحَّاك أنَّه قال ﷺ : «**إنَّ ا لله قد رخَّص لي فسأزيد على السبعين**» أو قوله: «سأزيد» مجرَّدُ مزيد الشفقة، لا ظاهره من إيقاع الزيادة، فيكون كقوله:

هَوَايَ مع الركب اليمانيِّين مصعد ....

في كون المراد غير الظاهر، وكالكناية المستعملة في غير مَا اللَّفْظُ له، وعن

ابن عَبَّاس عن ابن عمر: «**لو علمت أنِّي إن زدت على السبعين يغفر له لزدت**» وهذا تقييد لإطلاق الزيادة على السبعين، والحديث يقيِّد بعضه بعضا، ثمَّ الشفقة المذكورة لا تتمُّ لهم بل لغيرهم، إذ لا يشفق عليهم بعد إقناطه عنهم.

(لغة) قد شاع استعمال السبعة واستعمال السبعين وسبع مائة وسبعة آلاف ونحو ذلك في الإقناط، ووجه ذلك أنَّ السبعة مشتملة على جميع أنواع العدد، فكأنَّه قيل: العدد كلُّه، فهي كناية على الكثرة بلا حدٍّ، وإيضاح ذلك: أنَّ العدد إمَّا زوج أو فرد أو زوج زوج أو زوج فرد، فالزوج الاثنان والفرد الثلاثة، وزوج الزوج أربعة، وزوج الفرد الستَّة، والواحد على المشهور ليس عددا، فالسبعة سِتَّة وواحد، والسبعة أكمل الأعداد لجمعها معاني الأعداد، لأنَّ الستَّة أوَّل عدد تامٍّ لأنَّها تعادل أجزاءها إذ نصفها ثلاثة وثلثها اثنان وسدسها واحد، والجملة سِتَّة وهي مع الواحد سبعة، وليس بعد التمام إلاَّ الكمال، فإذا أريدت المبالغة جعلت آحادها عشرات فتكون سبعين، أو زيادة المبالغة جعلت عشرات السبعين مئات، وهكذا... وعنصر ذلك سبعة، وقد ذكرت في "شرح القلصادي" كلاما مناسبا لهذا.

وقد قيل خصَّ الله تعالى السبعين بالذكر لأنَّ العرب تستكثر السبعين كما كبَّر ﷺ على عمِّه حمزة سبعين، ولأنَّ السبعة عدد شريف، كما أنَّ السماء سبع، والأرض سبع، والأيَّام سبعة، والأقاليم سبعة، والبحور سبعة، والنجوم السيَّارة سبعة، وإنَّما أمكن [له] ﷺ الاستغفار لأنَّه يدَّعي التوبة ويظهرها ولو كان ينقضها.

﴿**ذَٰلِكَ**﴾ المذكور من انتفاء المغفرة لهم ﴿**بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِا للهِ وَرَسُولِهِ**﴾ بسبب كفرهم الصارف عنها لا لبخل منَّا ولا لقلَّة ما عندنا، ولا لعدم الاعتداد

بذلك. وعدم المغفرة لمن أصرَّ على الذنب شرعيٌّ عند الأَشعَرِيَّة والعقل يسيغها له، وقالت المعتزلة: عقليٌّ لا يسوغ، قلنا: عقليٌّ، لأنَّ إهمال المكلَّف غير حكمة وشرعيٌّ أيضا ﴿وَا لله لاَ يَهْدِي اِلْقَوْمَ اَلْفَاسِقِينَ﴾ المقضي عليهم بالشقوة، فهم لا يعقلون عن الفسق المنافي للمغفرة، فـا لله لا يغفر لهم بعد أن هداهم هدى بيان فأصرُّوا.

﴿فَرِحَ اَلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ اِللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اِللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي اِلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾

تهديد المنافقين المتخلّفين والأمر بإقصائهم وحرمانهم

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ﴾ الاثنا عشر الذين خلَّفوا أنفسهم، أو خلَّفهم ا لله، أو خلَّفهم الشيطان عن النبيء ﷺ وعن الغزو، أو خلَّفهم الكسل أو النفاق، أو النبيء ﷺ إذ طلبوا التخلُّف فأذن لهم فيه ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾ بقعودهم عن غزوة تبوك ﴿خِلاَفَ رَسُولِ ا للهِ﴾ أي خلفه، يقال: خلف كذا وخلافه بمعنًى، وهو متعلّق بـ«مَقْعَدِ»، أو مصدر بمعنى الوصف، أي مخالفين لرسول ا لله ﷺ، أو يقدَّر: ذوي خلاف له، وهو حال، ويجوز أن يكون مفعولا مطلقا لـ«مَقْعَدِ» وهو مصدر، فإنَّ التخلُّف عنه قعود عنه كقمت وقوفا، أو مفعولا من أجله، أي لأجل خلاف رسول ا لله ﷺ، والناصب «فَرِحَ».

﴿وَكَرِهُواْ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ا للهِ﴾ لميل الطبع إلى الراحة والقعود مع الأهل والولد والحياة، إذ لم يعالجوا أنفسهم إلى ما فعل المؤمنون من دخول المشقّة، ومفارقة الأهل والمال والولد، وبذل

أموالهم وأزواجهم لرضى الله ﷻ، ففي الآية تلويح بمدح المؤمنين بأنَّهم رضوا ذلك و لم يكرهوا ﴿**وَقَالُواْ**﴾ للمسلمين على وجه ادِّعاء النصح، أو لضعفاء المسلمين، أو قال بعض لبعض: ﴿**لاَ تَنفِرُواْ**﴾ إلى الجهاد ﴿**فِي الْحَرِّ**﴾ كانت غزوة تبوك في زمان شدَّة الحرِّ، مع القحط، وبُعد المسافة، وخوفهم من شدَّة قتال الروم.

﴿**قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا**﴾ من حرِّ السفر إلى تبوك، وكان الواجب أن يقوا أنفسهم به عن حرِّ جهنَّم، ولكن اختاروا حرَّ جهنَّم عنه بالمعنى للمخالفة ﴿**لَوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ**﴾ أي لو كانوا يعلمون بجهنَّم وأشدِّيَّة حرِّها لم يختاروا عدم الخروج.

﴿**فَلْيَضْحَكُواْ**﴾ الفاء لسَبَبِيَّة ما سبق للإخبار بالضحك والبكاء لا لنفسهما ﴿**قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا**﴾ أي زمانا قليلا وزمانا كثيرا، أو ضحكا قليلا وبكاء كثيرا، والضحك في الدنيا والبكاء في الآخرة.

ويروى أنَّ المنافقين يكونون في النار قدر عمر الدنيا لا يرقى لهم دمع ولا يكتحلون بنوم، وقيل: كلاهما في الدنيا، كحديث: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا وبكيتم كثيرا**»[1] ولا يخفى أنَّ الدنيا وما فيها قليل بالنسبة للآخرة، ولو مع غاية الكثرة، والمنقطع الفاني مثل العدم بالنسبة للدائم، وإن شئت فالضحك أيضا في الآخرة، وعليه فالقلَّة العدم كما يطلق الكثرة على الكلِّ، فإنَّه لا ضحك لهم في الآخرة.

١- رواه **الترمذي** في كتاب الزهد (٩) باب في قول النبيء ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا» رقم ٢٣١٢ز ورواه **ابن ماجة** في كتاب الزهد (١٩) باب الحزن والبكاء رقم ٤١٩٠. من حديث أبي ذر.

ويجوز كون الضحك والبكاء كناية عن الفرح والحزن لا حقيقتهما، ولام الأمر للتأكيد، والمراد الإخبار بأنّهم ضحكوا في الدنيا قليلا ويبكون في الآخرة كثيرا، فإنَّ الأمر لا يحتمل الكذب كما لا يحتمل الصدق، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ (سورة الأنعام: ٧٣) بصيغة الأمر، وأمر المطاع لا يتخلّف، والأمر للوجوب، فناسب التعبير به، فكأنّه قيل: لا بدَّ من ضحكهم قليلا وبكائهم كثيرا، فتارة ذلك، وتارة يستعمل الخبر بمعنى الأمر لتحقُّق الوقوع، كأنّه وقع فأخبر عنه، والمراد بكثرة ما في الآخرة ما لا نهاية له قال ﷺ: «**يا أيُّها الناس ابكوا فإن لم تستطيعوا أن تبكوا فتباكوا، فإنَّ أهل النار يبكون في النار حتّى تسيل دموعهم في وجوههم كأنّها جداول، حتّى تنقطع الدموع فتسيل الدماء، فتقرح العيون، فلو أن سفنا أجريت فيها لجرت**»[1].

﴿جَزَآءَۢ﴾ مصدر مؤكّد للجملة قبله، أي يجازيهم جزاء، أو مفعول من أجله، أي حكمنا عليهم بالضحك القليل والبكاء الكثير للجزاء، ومحطُّ القليل قوله: ﴿وَلْيَبْكُواْ﴾ ولو فسَّرنا ذلك بالكناية ﴿**بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ أي بما كانوا يكسبونه، أو كونهم يكسبون.

﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا

١- رواه **المنذري** في كتاب الترغيب والترهيب، باب في الترهيب من النار، ج٤/ ص٤٩٣، رقم ٩٥. ورواه **السيوطي** في الدر، ج٣/ ص٢٨٧. من حديث أبي موسى الأشعري.

﴿فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ۝٨٥﴾

منع المنافقين من الجهاد والمنع من الصلاة على موتاهم والتحذير من الاغترار بأموالهم وأولادهم

وفرَّع على فرحهم بالتخلُّف وكراهة الجهاد والقول: «لاَ تَنفِرُوا» والوعيد على ذلك قولَه:

﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللهُ﴾ ردَّك من تبوك، والمصدر: "الرجع" لأنَّه متعدٍّ، و"رَجَعَ" اللازم مصدره "الرجوع"، وقد يكون "الرجع" مصدرا له أيضا، وحمل بعض عليه قوله: ﴿ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ (سورة الطارق: ١١) والواضح إبقاؤه على أصله أي: والسماء ذات الرجع لِكَذَا، واختار المتعدِّي في الآية ليكون فعلا لله ﷻ، لأنَّ ذلك السفر فيه خطر، فالمناسب أن يعبر بما يفيد التأييد الإلهي، كما عبَّر بـ«إنْ» لا بـ"إذا" للشكِّ في السلامة، تعالى الله عن الشكِّ وصفات النقص ﴿إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ يرجع إليهم كلّهم إلاَّ من مات أو غاب، وكلُّهم منافقون ولكن خصَّ طائفة تريد الخروج معه لغزوة بعد تبوك إن أرادت، وألْغى من لا يطلب الخروج بعد، ففرض الكلام فيمن يطلب الخروج، فلا يقبل كما قال: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ...﴾.

ويجوز أن تكون «مِنْ» للبيان، والهاء للمنافقين أو المتخلّفين، أي طائفة هم المنافقون، أو هم المتخلّفون، ويجوز إبقاؤها على التبعيض، فيكون البعض الآخر من خرج معه إلى تبوك من المنافقين، ومن مات أو غاب أو تاب؛ ويجوز ردُّ الضمير إلى المتخلّفين المعذورين وغير المعذورين على الاستخدام، بقصد غير المعذورين فقط، أو بلا استخدام، فإنَّه من عذر لعذر صحيح لكنَّه فرح بالتخلُّف وكره الجهاد وقال: «لاَ تَنفِرُوا» يكون من المنافقين، فهم طائفة. والتنكير في

ذلك كلّه للتحقير.

﴿فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ إلى غزوة بعد تبوك، والفاء لمطلق التفريع لا للاتّصال ﴿فَقُل﴾ لهم ﴿لَن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا﴾ إلى غزوة، ولو بلا قتال كحمل المؤونة والرجال والمنافع ﴿وَلَن تُقَاتِلُواْ مَعِي عَدُوًّا﴾ ولو في المدينة بلا خروج، أو هذا تأكيد للأوّل، واللفظ خبر والمعنى النهي، وذلك تأكيد، أي لا تخرجوا معي ولا تقاتلوا معي، فإنَّ الله ﷻ خذلهم وأبعدهم عن رتبة الجهاد والخروج له، والصحبة معه ﷺ فيه وعن ديوان الغزاة وعن عدِّهم من الجند.

واستدلَّ بعضٌ على إرادة النهي بقوله: ﴿فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ فإنّه لا يلائم الإخبار بأنّهم لن يخرجوا مع أنّهم يريدون الخروج، وفيه أنّه لا مانع من الإخبار بأنّهم يريدونه ولا يكون، لأنّه لا يقبله منهم فلا يكون.

وعلّل ذلك بقوله: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ في الوقت الأوّل وقت الخروج إلى تبوك، والأصل: في المرَّة الأولى، وإنّما يكون وقت غزوة تبوك أوّلا بالنسبة لِمَا بعده، وقيل: نُصب على أنّه مفعول مطلق، أي قعدة سابقة.

(صرف) وأصل مرَّة واحدة من المُرُور، مصدر، ثمَّ استعمل ظرف زمان. ولم يؤنّث اسم التفضيل لأنّه أضيف لمنكر. ﴿فَاقْعُدُواْ مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ المتأهّلين للتخلّف عن الغزو لنقصهم، كالصبيان والبُلّه والمجانين والمرضى والعمي والعرج والمقعدين والهرمى والنساء، أو هو من الخلف ضدَّ الصلاح، فإنَّ الصبيان ومن بعدهم كذلك، ومنه "خلوف فم الصائم"، وعن قتادة: ﴿الْخَالِفِينَ﴾ النساء، ويردُّه أنَّ صفة المؤنّث لا تجمع جمع المذكّر السالم، وأجازه الكوفيُّون، وأمَّا على الأوّل فالجمع تغليب للذكور.

(أصول الدين) ﴿وَلاَ تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ لأنَّ نفاقهم

إضمار شرك، ولو كان نفاق جارحة لأجاز له الصلاة عليهم، لقوله ﷺ : «**صلّوا على كلِّ بارٍّ وفاجرٍ**»[1]. وَيَدُلُّ على أنّه إضمار شرك قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فإنّه لا يقال للمنافق بالجارحة: كَفَر بالله، ولا كفر برسوله، بل يقال: كَفَر وكافر.

و«مَاتَ» نعت. ﴿**وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ**﴾ لدفن أو زيارة، في الحين أو بعد ذلك، أو لدعاء كذلك، أو لتلقين شهادة، أو إيناس، أو إظهار شفقة عليه، أو لشفقة، فقيل: لم يصلِّ عليه ولم يقم على قبره البتّة، أراد الصلاة فنزلت الآية.

ويروى أنّه ﷺ زار قبر أمّه عام الحديبيّة في ألف مُقنّع فناسب أنّها أحياها الله قبل وآمنت به ﷺ ، وقوله ﷺ : «**زوروا القبور فإنّها تذكّركم الآخرة**»[2] مختصٌّ بقبور الموحّدين.

(سيرة) ويروى أنّه لَمَّا احتضر عبد الله بن أُبي أو ثقل مرضه أرسل إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يدعو له، ويصلِّ عليه إذا مات، ويقوم على قبره ويعطيه قميصه ليكفن فيه، والمنافقون عنده، فأسلم ألف من المنافقين لَمَّا علموا أنّه يرجو بركته ﷺ ، وروي أنّه أرسل إليه قميصه فردّه، فقال: أريد القميص الذي يلي جسده فأرسله إليه فلامه عمر لشركه، فقال ﷺ : «**ما يغني عنه قميصي مع شركه، وأرجو أن يسلم به ألف**». وروي أنّه لَمَّا مات جاء ابنه عبد الله فقال: يا رسول الله، إن لم تصلِّ عليه لم يصلِّ عليه مسلم، فجاء ﷺ

١- رواه **الربيع** في مسنده، كِتاب الصلاة ووجوبها، باب [٣٥] في الإمامة والخلافة في الصلاة، رقم ٧٧٦، بلفظ: «الصلاة جائزة خلف كلِّ بارٍّ وفاجر ما لم يدخل فيها ما يفسدها» من حديث ابن عَبَّاس.

٢- أورده **ابن كثير** في كتاب البداية والنهاية، ج١٤/ ص١٢٤.

ليصلّي عليه فقام عمر بينهما لئلاّ يصلّي عليه، فنزل جبريل فأخذ بثوبه، وأوحى عليه الآية فلم يصلِّ عليه.

والمشهور أنَّه صلَّى عليه، وذلك لظاهر حاله من التوحيد، ويروى أنَّ عمر جذبه فوافق جذب جبريل والآية. وذكرت في "شرح نونيَّة المديح" ما وافق به عمر الوحي. وروي أنَّه قال عمر ﷺ له ﷺ : أتصلّي عليه وقد قال كذا؟ فقال: «**أخِّر عنّي يا عمر**» وتبسَّم وقال أيضا : أتصلّي عليه وقد نهاك الله عن الصلاة عليه؟ وقال: «**أخِّر فإنّي خيِّرت ولو علمت أنَّه يغفر له إن زدت على السبعين لزدت**»، قال: ولم ألبث إلاَّ يسيرا فنزلت الآيتان: ﴿وَلاَ تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ﴾ قال ﷺ : «**ولو لم أبعث نبيئا لبعثت يا عمر نبيئا**». وقيل: الذي ردَّ قميصه وطلب الذي يلي جسده هو ابنه عبد الله الجاري على طلب أبيه.

وسبب إعطاء القميص رجاء إسلام قومه، وتطييب خاطر ابنه، فإنَّه حسن الإسلام عالم مجتهد في العبادة وإعلاء الدين، وإنَّه كافأه على إعطائه العبَّاس قميصه حين أسر ببدر، وكان لطوله لا يكفيه إلاَّ قميصه، أو أوحي إليه بإعطائه ليسلموا، أو لأنَّه عليه أن يعطيه وقت مشارفة الموت وهو وقت توبة الكافر وإيمان الفاجر، وأنَّ الله ﷻ أمره أن لا يردَّ سائلا، قيل: أو لغفلة اقتضتها غلبة الرأفة عليه، أو تعمَّد لإظهارها، وأيضا منع القميص داع إلى نسبته إلى الإخلال بالكرم، وليس في شيء من ذلك إعزاز الكافر، وكذلك صلَّى عليه، أو أراد الصلاة عليه مع أنَّه لا يصلّي على مشرك لظنّه أنَّه تاب، كما مرَّ، وروي أنَّه صلَّى عليه ثمَّ نزلت، وروي أنَّه بعدما أدخل قبره كشف عن بعضه فنفث عليه وستره ونزلت الآية بعد، وروي أنَّه قال: «**ما يغني عنه قميصي وصلاتي وإنَّني أرجو أن يسلم به ألف من قومه**».

وعلَّل النهي بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ مشركون، أي ماتوا ولم يتوبوا من الشرك، أو المراد فسق الجارحة، فإنَّه قد يكون الكافر بالله ورسوله غير فاعل بجارحته زنى أو سرقة أو غصبا أو ظلما، وغير ما ذكر، ولو كان لا يخلو من ترك الصلاة وغيرها، فأخبر الله سبحانه وتعالى أنَّ هؤلاء المنافقين جمعوا بين الشرك وأفعال الفسق التي دون الشرك.

﴿وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ﴾ قدَّم الأموال لتقدُّمها وجودا، ولعموم مسيس الحاجة إليها، والأولاد أعزُّ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ مرَّ هذا وأعاده للتأكيد، لأنَّ الناس مائلون بالطبع إلى إعجاب ذلك إيَّاهُم، أو نزلت في غير من نزلت فيه الأولى.

(بلاغة) وهنا: ﴿لاَ تُعْجِبْكَ﴾ بالواو، وهناك بالفاء [الآية ٥٥] لأنَّ المراد التفريع على كونهم لا ينفقون إلاَّ وهم كارهون، وهنالك: ﴿وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ﴾ بلا لأنَّ إعجابهم بأولادهم أكثر منه بأموالهم، وأسقطها هنا بيانا لكون كُلٍّ من الأمرين سواء في إيجاب الإهلاك، وسواء في الإعجاب بكلٍّ على حدة، والإعجاب بمجموعهما، وهنا: ﴿أَنْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ بيانا لكون التعليل هناك ليس على حقيقته من الغرض، وأيضا المراد هنا نفس التعذيب، وهناك جعله علَّة، وإن جعلنا اللام زائدا كان المعنى واحدا، وأسقط الحياة هنا بيانا لكون الحياة الدُّنيَويَّة كالعدم، وأماَّ ما قيل من أنهَّا ذكرت هناك لبيان أنَّ الدنيا وصف لا اسم ليأخذ بالوصفيَّة حيث ذكرت، فيردُّه أنَّ القرآن لبيان الشرع لا لبيان ما يتعلَّق باللغة.

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِاللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ اسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ

وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾

تخاذل المنافقين عن الجهاد وإقدام المؤمنين عليه

وقوله: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ إلى ﴿...مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ عطف على ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُواْ﴾ فهو أيضا تعليل لقوله ﷻ: ﴿وَلاَ تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم...﴾ كما علّل بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُواْ﴾ والمراد بالسورة طائفة مجموعة من القرآن، كما هو المعنى المجمل لغة، ولو لم تتمَّ فيها السورة، كما يطلق القرآن على ما يقرأ ولو بعضه فقط، وكذا الكتاب لِمَا كتب ولو لم يتمَّ، وقيل: السورة للبعض المجموع دون التمام مجازا، ويجوز تقدير مضاف، أي بعض سورة. ونكّرت للتعظيم، وقيل: لعموم السورة، أي كلُّ سورة ذكر فيها الإيمان والجهاد، والنكرة في سياق الشرط للعموم، وأجاز البعض أنَّ السورة براءة، والمراد بعضها لا كلُّها، لأنَّ الآية بعضها وفيها الأمر بالإيمان والجهاد كما قال:

﴿أَنَ ـ امِنُواْ بِاللهِ وَجَاهِدُواْ﴾ أخلصوا الإيمان والجهاد، فشمل خطاب من لم يجاهد ومن جاهد و لم يخلص، لجواز الخطاب بالقيد استتباعا للمقيَّد ﴿مَعَ رَسُولِهِ﴾ أي بأن آمنوا وجاهدوا، فـ«أَنْ» مَصدَرِيَّة، والباء مقدَّرة متعلّقة بـ«أُنزِلَتْ». [قلت:] والأولى عندي أنَّ حرف المصدر لا يدخل على الأمر والنهي، لأنَّ المصدر لا يدلُّ عليهما إلاَّ نيابة، نحو: ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ (سورة محمَّد: ٤) وشكرا لا كفرا، فـ«أَنْ» مفسِّرة، لأنَّ إنزال السورة متضمِّن للأمر بالإيمان والجهاد.

﴿اِسْتَاذَنَكَ أُوْلُواْ الطَّوْلِ﴾ الغنى ﴿مِنْهُمْ﴾ وهم أهل القدرة على الجهاد بمالهم وصحَّة أبدانهم، من رؤسائهم وغيرهم، فإنَّ القادر أحقُّ بالذمِّ إن لم

يخرج، وأمَّا العاجز فغير محتاج إلى الاستئذان إلاَّ أن ينفي التهمة عن نفسه، أو يطلب ما يحتاج إن كان عجزه بعدم المال، ولا التفات في قوله: ﴿اسْتَاذَنَكَ﴾ إلى الخطاب من غيبة قوله: ﴿مَعَ رَسُولِهِ﴾ كما قيل، لأنَّ هذا الخطاب منظور فيه إلى الخطاب في قوله: ﴿وَلاَ تُعْجِبْكَ﴾ وإنَّما هذا مثل قولك لزيد: إنَّ عمرا يقول إذا جاء زيد أكرمته ثمَّ لا يكرمك إذا جئت.

﴿وَقَالُواْ﴾ عطف تفسير لأنَّه يجوز بالواو كما يجوز بالفاء ﴿ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ﴾ أصحاب الأعذار ﴿رَضُواْ بِأَنْ يَّكُونُواْ مَعَ اَلْخَوَالِفِ﴾ النساء الخوالف، والمفرد: "خالفة" لأنَّها تتخلَّف في البيت، أو جمع "خالفة" وهو من هو، فاسد ذكرا أو أنثى، وما بالتاء يجمع على فواعل ولو كان لمذكَّر، فشمل النساء والصبيان ونحوهم مِمَّن ذكر، وأمَّا بلا تاء فلا إلاَّ شذوذا. ويُروى أنَّ المنافقين يصعب عليهم التسمية لهم بالخوالف فسمَّاهم الله به ذمًّا وتعييرا وإغاظة لهم.

﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ﴾ علَّة ﴿لاَ يَفْقَهُونَ﴾ ما في الجهاد وموافقة الرسول ﷺ من الخير، وما في تركهما من الخسران الدائم، وذكر: ﴿يَفْقَهُونَ﴾ دون "يعلمون" لأنَّ الوصول إلى ما في الجهاد والموافقة يحتاج إلى تدرُّب وفكر عميق.

﴿لَكِنِ الرَّسُولُ﴾ ﷺ ﴿وَالذِينَ ءامَنُواْ مَعَهُ, جَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ إيضاح للاستدراك أنَّ المعنى لا يتوهَّم أحد أنَّه لَمَّا لم يجاهد هؤلاء بقي الدين بلا جهاد، وكسل المؤمنون والرسول، فقد جاهد الرسول والمؤمنون، ولم يختلَّ نشاطهم بتخلُّف هؤلاء، وهم خير من هؤلاء، وقال ابن عصفور: «لَكِنِ» للتأكيد أبدا لا تلزم الاستدراك. و«مَعَهُ» متعلِّق بـ«ءَامَنُوا» أو حال من واو «جَاهَدُوا» لا متعلِّق بـ«جَاهَدُوا»، لأنَّ واو «جَاهَدُوا» لهم وللرسول، لأنَّ «جَاهَدُوا» خبر «الرَّسُولُ» و«الذِينَ».

﴿وَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ الدُّنيَوِيَّة كالنصر والغنيمة والعزِّ، وَالأُخرَوِيَّة من الجنَّة وما فيها من الحور والأجنَّة والأنهار والقصور والملك الكبير، ومن الجائز أن يقال: الخيرات هنا هو الخيرات في قوله: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ (سورة الرحمن: ٦٩) وهنَّ الحور، قال المبرِّد: يطلق الخيرات على الجواري الحسان على أنَّه جمع خَيْرة ــ بإسكان الياء وأصله الشدُّ ــ ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ المدركون لمطلوبهم الناجون من محذورهم، وذكر ﴿أُوْلَئِكَ﴾ مرَّتين في موضع الضمير ليشير إلى أنَّهم استحقُّوا الخيرات والإفلاح، لصفتهم من الجهاد، فإنَّ مقتضى الظاهر: وهم لهم الخيرات وهم المفلحون.

وزاد الإيضاح لفلاحهم بقوله: ﴿أَعَدَّ اَ للهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا اَلاَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ اَلْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾

أصحاب الأعذار المقبولة وغير المقبولة

﴿وَجَآءَ﴾ إلى الرسول ﴿الْمُعَذِّرُونَ﴾ من الاعتذار، أصله: المعتذرون،

أبدلت التاء بعد نقل فتحتها إلى العين ذالاً، وأدغمت في الذال، كقوله تعالى: ﴿لاَ يَهِدِّي إِلاَّ أَنْ يُهْدَى﴾ (سورة يونس: ٣٥) أي لا يهتدي، أي الذين يطلبون الأعذار في القعود؛ أو من التعذير بمعنى التقصير، عذّر في الأمر ـ بشدِّ الذال ـ: قصَّر فيه، وذلك بيان لمنافقي الصحراء بعد بيان منافقي المدينة كما قال: ﴿مِنَ الاَعْرَابِ﴾ أي سكّان البدو من العرب؛ والعرب أعمُّ، لأنّه يطلق على أهل الحضر مِمَّن لغته عَرَبِيَّة وعلى سكّان البدو، وقيل: العرب خاصٌّ بالحضر كالأعراب بالبدو.

واختلف في اعتذارهم أبحقٍّ أم بباطل، وعلى أنّه بحقٍّ فنفاق البدو في قوله: ﴿وَقَعَدَ الذِينَ كَذَبُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ وهؤلاء المعذِّرون أسد وغطفان، طلبوا القعود للجوع وقلّة المال وكثرة العيال، وقيل: رهط عامر بن الطفيل، اعتذروا بأنّهم إن غزوا معه أغارت طيء على أهلهم ومواشيهم، فقال ﷺ : «**قد أنبأني الله من أخباركم وسيغنيني الله عنكم**» وقيل: رهط من غفار رهط خفاف بن إيماء بن رحضة.

وعن ابن عبّاس: هم الذين تخلّفوا لِعذر فأذن لهم رسول الله ﷺ فهم صادقون، لأنّه لَمَّا ذكرهم قال بعده: ﴿وَقَعَدَ اَلذِينَ كَذَبُوا اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ وقال أبو عمرو بن العلا: تكلّف قوم عارًا بباطل وهم في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ اَلْمُعَذِّرُونَ...﴾ وتخلّف قوم لا لعذر ولا شبهة وهم في قوله: ﴿وَقَعَدَ اَلذِينَ...﴾.

﴿**لِيُوذَنَ لَهُمْ**﴾ ليأذن لهم الرسول في القعود فأذن لهم لِمَا ذكروه من العذر ﴿**وَقَعَدَ**﴾ عن المجيء للاعتذار ﴿**اَلذِينَ كَذَبُوا اللهَ وَرَسُولَهُ**﴾ خلفوا الله ورسوله في ادّعائهم الإيمان، وهم منافقوا الأعراب، وإن كانوا هم الأوّلين، وكذبهم بالاعتذار لا في ادِّعاء الإيمان، وإن كانوا كاذبين في ادِّعاء الإيمان أيضا، لكن ليس مرادًا هنا فالكلام من وضع المظهر موضع المضمر لبيان كذبهم

في اعتذارهم، ولَمَّا كان كذبهم للرسول كذبا لله ذُكِرَ ا لله مع الرسول.

﴿سَيُصِيبُ الذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ﴾ من الأعراب أو من المعذِّرين، فإنَّ منهم من اعتذر لكسله والمراد بـ﴿الأَعْرَابِ﴾ مطلق الأعراب، و﴿الذِينَ كَفَرُواْ﴾ منافقوهم الذين كذَبُوا في ادِّعاء الإيمان. و«مِن» للتبعيض، لأنَّ بعضهم آمن و لم يصبه العذاب المذكور بقوله: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بالقتل والنار والذلِّ.

﴿لَّيْسَ عَلَى اَلضُّعَفَآءِ﴾ بكبر السنِّ أو بصغرها، أو بالخلقة كخلقه نحيفا أو ضعيف الصدر، أو مقعدا أو بقطع عضو، أو عمى أو عرج أو بالأنوثة ﴿وَلاَ عَلَى اَلْمَرْضَى﴾ مرضا لازما أو يرجى زواله كالحمَّى والرمد، ويجوز إدخال العمى والعرج والقعود في المرضى.

(سبب النزول) كما قال زيد بن ثابت: كنت أكتب لرسول ا لله ﷺ فنزلت براءة، فإنِّي لم أضع القلم على أذني إذ أمرنا بالقتال فجعل رسول ا لله ﷺ ينظر ما ينزل عليه، إذ جاءه أعمى، فقال: كيف بي يا رسول ا لله وأنا أعمى؟ فنزلت: ﴿لَيْسَ عَلَى اَلضُّعَفَآءِ وَلاَ عَلَى اَلْمَرْضَى﴾ **وَلاَ عَلَى اَلذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾** في الجهاد من طعام وما يحتاج إليه من دَابَّة ونفقتها، وآلة القتال ونحو ذلك، وهم جهينة ومُزَينة وعذرة ونحوهم ـ بضمِّ الميم وفتح الزاي ـ ﴿حَرَجٌ﴾ ضيق بالنسبة للإثم في التخلُّف ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلهِ وَرَسُولِهِ﴾ بالطاعة وإخلاصها توحيدا وسائر لوازمه، من فعل وترك كما ينصح العبد الكريم سيِّده سرًّا وعلنا.

(فقه) فهم لا يخبرون بخبر السوء عن الجند ولو صحَّ، ولا يفترونه ويخبرون بما يسرُّ المؤمنين ويحيون الشريعة ويعلِّمونها مَن جهِلَ، ويحبُّون الإسلام وأهله، ويبغضون الكفر وأهله، ويحبُّون آل النبيء خصوصا ويوقِّرونهم، ويعلنون

بما هو صلاح للإسلام، ويقومون بمصالح عيال الغائب في الجهاد، وإن لم ينصحوا بذلك أثموا بما لم ينصحوا فيه، ولو من غير عدم الخروج، ولا يأثمون بما لم يلزمهم، لكن من شأن المسلم أن يهتمَّ بأمر الإسلام، ولو عذر في التخلُّف، حتَّى إِنَّهُ إذا لم يهتمَّ به فإنَّه لم ينصح لله ورسوله.

و«سَبِيلِ» مبتدأ أو فاعل «مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ»، أو فاعل لثابت أغنى عن خبره. ﴿مَا عَلَى اَلْمُحْسِنِينَ﴾ بفعل ذلك ﴿مِن سَبِيلٍ﴾ إلى عتابهم عن التخلُّف، وهذا جار مجرى المثل، ومقتضى الظاهر: وما عليهم، ولكن ذكرهم باسم المحسن تلويحا بأنَّه كيف يكون سبيل على من انخرط في سلك المحسنين؟ أو أراد بالمحسنين العموم.

(فقه) واحتجَّ بعض بالآية على أن لا ضمان على قاتل البهيمة الصائلة.

﴿وَا للهُ غَفُورٌ﴾ في التخلُّف لهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم في التوسعة، وفي ذلك تغليظ ظاهري،، كأنَّه يشير إلى أنَّ الأصل المؤاخذة ولو كان العذر غير حقيقي، كما قيل: «إنَّ الذنب مهلك بحسب الأصل ولو نسيانا أو خطأً في الأصل، كالسمِّ يقتل من لم يتعمَّده كمن تعمَّده» لَكِنَّ هذا أظهر منه في الآية، أو ﴿وَا للهُ غَفُورٌ﴾ للمسيء ﴿رَحِيمٌ﴾ به إذا تاب، فكيف هؤلاء الذين ليس التخلُّف منهم ذنبا؟.

﴿وَلاَ عَلَى اَلذِينَ﴾ عطف على قوله: ﴿عَلَى الضُّعَفَآءِ﴾ كأنَّه قيل: وليس على الذين، وقد انسحب عليهم قوله: ﴿حَرَجٌ﴾ نفيا، لأنَّه وما بعده في نية التقديم على «حَرَجٌ» أُخِّر لطول الكلام فيه، وهذا أولى مِن تقدير "حرج" بعد قوله: ﴿اَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ أو قبله هكذا: أي "ولا حرج على الذين"، ومِن

عطفِه على «الْمُحْسِنِينَ» لأنَّ المقام سيق للعذر لا للكلام على المحسنين.

﴿إِذَا مَا﴾ صلة للتأكيد ﴿أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ معك إلى الغزو على ما تيسَّر من الدوابِّ.

(سيرة) وهم السبعة البكَّاءون: معقل بن يسار، وصخراء بن خنساء، وعبد الله بن كعب الأنصاري، وسالم بن عمير، وثعلبة بن عنمه، وعبد الله بن مغفل المزني، وعُلْبة بن زيد الأنصاري ـ بضمِّ العين المهملة وإسكان اللام ـ أخو بني حارثة، وقيل: معقل وسويد والنعمان أولاد مقرن، وهو قول مجاهد، ولمقرن أولاد أربعة غير هؤلاء، وقيل: سالم بن عمير من بني عمرو بن عوف، وعلبة بن زيد، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب أخو بني مازن بن النجار، وعمر بن الجموح أخو بني سلمة، وعبد الله بن مغفل المزني، وهرمى بن عبد الله أخو بني واقف، وعرباض بن سارية الفزاري، وذكر بعض عبد الرحمن بن زيد من بني حارثة وهو الذي تصدَّق بعَرَضِه فقبل الله تعالى منه، وينسب هذا التصدُّق لأبي ضمضم، وقيل: أبو موسى وأصحابه، وهو قول الحسن.

﴿قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ من الدوابِّ، ومطلوبهم الدوابُّ ذوات الحافر أو الإبل، وقيل: سألوه النعال كما قالوا لمن أدركهم، وسألهم من جهينة عَمَّا طلبوا، فقالوا: ما سألنا إلا الحمل على النعال المخصوفة، والخفاف المرقوعة، ولم يجد فلم يغزوا معه، وقيل: أعانهم المسلمون فخرجوا، وقيل: إن ابن يامين بن عمير بن كعب لقي أبا ليلى وابن معقل يبكيان لذلك، فأعطاهما ناضحا وزوَّدهما بتمر فخرجا.

(نحو) والجملة بدل اشتمال من قوله: ﴿أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾، فإنَّ قوله: ﴿قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ من ملائمات إتيانهم ليحملهم، لا حال من كاف «أَتَوْكَ»، لأنَّ قوله: ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ متأخِّر عن إتيانهم،

اللهمَّ إلاَّ أن يقال: حال مقدَّرة لأنَّه بمجرَّد إتيانهم للحمل يقدَّر أن لا يحملهم، لعدم ما يحملهم، وقد عرف أنَّهم أتوا للحمل، أو يعرف بأوَّل كلامهم، والإتيان غير قارٍّ فلا يقال: إنَّ زمان الإتيان واسع، فيصحُّ أنَّها حال مقدَّرة، لا يجوز هذا، وأيضا في جعلها حالا إضمار "قَدْ" على المشهور.

(نحو) ويجوز أن يكون جوابَ «إِذَا»، فيكون قوله: ﴿**تَوَلَّواْ**﴾ جواب سؤال مقدَّر، والأولى أنَّه جواب «إِذَا»، و«قُلْتَ» بدل كما مرَّ، ويجوز أن يكون «قُلْتَ لَآ أَجِدُ...» حال مقدَّرة من هاء «تَحْمِلَهُمْ»، لأنَّهم يحضر في قلوبهم أنَّه لا يحملهم لقلَّة الإبل والدوابِّ الحاملة، وزعم السمين[1] تلميذ أبي حيَّان أنَّه يجوز عطفه بواو محذوف، أي: "أتوك لتحملهم وقلتَ". ﴿**وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ اَلدَّمْعِ**﴾ الواو للحال. و«مِنْ» بمعنى الباء، أي تفيض بالدمع، أي يحصل الفيض منها بالدمع، والدمع: الماء من العين، أو مصدر، وأمَّا أن يجعل الجارَّ والمجرور في محلِّ التمييز، أي "يفيض دمعا" أي "يفيض دمعها" فلا يعرف هذا في العَرَبِيَّة، وأمَّا أن يُجعل «مِنْ» صلة و«الدَّمْعِ» تمييزا ففيه زيادة «مِنْ» في الإثبات وتعريف التمييز، وهو قول الكوفيِّين فلا يجوز.

(بلاغة) وفي الآية إسناد الفيض للأعين مبالغة في كثرة دموعها، وامتلائها بالدموع، حتَّى كأنَّها نفس الدموع السائلة، والتجوُّز في المسند، لأنَّ الفيض بمعنى الامتلاء الذي هو سبب الفيض، أو الفيض حقيقة والتجوُّز في إسناده إلى العين من الإسناد إلى المحلِّ، وأجاز الكوفيُّون زيادة «مِنْ» في الإثبات والتعريف، فيجوز عندهم كون «الدَّمْعِ» تمييزا.

(نحو) ﴿**حَزَنًا**﴾ مفعول من أجله مع اختلاف الفاعل، لأنَّ فاعل الفيض العيون، وفاعل الحزن أصحابها، ولكن اتَّحَدَ معه لأنَّ المعنى: يبكون

١- تقدَّم التعريف به في ج٥، ص٢٨٥.

حزنا، أو يفيضون الدموع حزنا، ويجوز جعله حالا، تقديره: ذوي حزن، أو حزنين، أو المبالغة بأنَّهم نفس الحزن؛ وأجيز كونه مفعولا مطلقا لـ"يحزنون" محذوفا مؤكِّدا لغيره وهو الجملة قبله، وجملة "يحزنون" حال من ضمير «تَوَلَّوْا».

(نحو) ﴿أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ تعليل لـ«حَزَنًا»، أي لأجل أنَّهم لا يجدون، أو يقدَّر الباء، أي حزنا بأن لا يجدوا، أو يتعلَّق بـ«تَفِيضُ»، أو تعليل للفعل قبله وعامله، أي فيضها حزنا هو لأجل أن لا يجدوا، وإنَّما الممنوع تعدُّد المفعول له بلا تبعيَّة إذا كان تعليلا له، وللأوَّل لا إذا كان تعليلا له ولعامله. والمضارع للاستقبال كما لا يخفى، لأنَّهم ظنُّوا أن لا يجدوا بعد ردِّ النبيء لهم.

وفي الآية إخبار بالغيب أنَّهم سيأتونك يطلبون الحمل، وتقول: «لاَ أَجِدُ...» ويتولَّون حزنين لذلك، وليست الآية على التجدُّد، لأنَّه لم يُرْوَ تجدُّد مجيئهم وردِّهم، إلاَّ أن يراد مجيء عدد بعد عدد.

﴿إِنَّمَا اَلسَّبِيلُ﴾ أي الذمُّ ﴿عَلَى اَلذِينَ يَسْتَاذِنُونَكَ﴾ في القعود ﴿وَهُمُۥ أَغْنِيَآءُ﴾ أي والحال أنَّ لهم ما ينفقون ذهابا ورجوعا عليهم وعلى عيالهم ﴿رَضُواْ بِأَنْ يَّكُونُواْ مَعَ اَلْخَوَالِفِ﴾ رضوا بحالة خسيسة، وهي كونهم مع الخوالف، جواب لقول القائلين: ما بالهم يستأذنون في القعود؟ أو حال من واو «يَسْتَاذِنُونَكَ». ﴿وَطَبَعَ اُ۬للَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ حتَّى غفلوا عن سوء العاقبة ﴿فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ تلك العاقبة.

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّومِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اَللَّهُ مِنَ اَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اَللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ اِلْغَيْبِ وَالشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا اَنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ

عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾

اعتذار المنافقين المتخلّفين عن غزوة تبوك وحلفهم الأيمان الكاذبة

﴿يَعْتَذِرُونَ﴾ في القعود والمضارع لحكاية الحال الماضية، وإن نزلت الآية قبل دخول المدينة فالمضارع للاستقبال ﴿إِلَيْكُم﴾ إلى رسول الله ﷺ وإلى الصحابة ﴿إِذَا رَجَعْتُم﴾ من غزوة تبوك ﴿إِلَيْهِمْ﴾ وهم بضعة وثمانون رجلا، اعتذروا حين رجع رسول الله ﷺ وأصحابه في المدينة أو قبلها، أو بعض فيها وبعض قبلها، وقيل: نزلت في عبد الله بن أُبي وله شيعة، حَلَفَ أن لا يتخلّف أبدا عن غزوة ونقض فلم يرض ﷺ بعد.

﴿قُل﴾ لم يقل: قولوا كما قال: ﴿إِلَيْكُم﴾ لأنّه ﷺ هو الذي يقول لهم ﴿لاَ تَعْتَذِرُواْ﴾ بالأعذار الكاذبة، وليس عندكم عذر صادق، فإنّ هذا ذنب آخر لا نفع لكم فيه ﴿لَن نُّومِنَ لَكُمْ﴾ لن نذعن ولن نصغى لكم في اعتذاركم، وبيّن موجب ذلك وعلّته بقوله: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اَللهُ مِنَ اَخْبَارِكُمْ﴾ أعلمنا بعضا من أخباركم المحرَّمة، كالتكذيب بالنبوءة وما ستره الله أكثر، **وما استقصى كريم قطُّ.**

(نحو) وأجاز الأخفش زيادة «مِنْ» في الإثبات والتعريف، فيكون المعنى: قد نبَّأنا الله أخباركم، ويجوز أن يكون «نبَّأ» تعدّى لثالث تقديره: "كذبا" أو نحوه من أعمال الجارحة واعتقاد الباطل.

﴿وَسَيَرَى اَ اللّٰهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ سيعلم ا الله عملكم المستقبل أهو التوبة أم الإصرار، وهو عالم به بلا أوَّلٍ لعلمه، لكن ساق لهم الكلام مساق الإمهال والاستتابة، أو المراد: عملهم السوء وأنَّه سوف يعلمه عِلْمًا يتعلَّق به الجزاء، ويجوز أن يكون المعنى: سيعذِّبكم في الدنيا، لأنَّ العلم بالشيء سبب للعقاب عليه وملزوم له.

وذكر عذاب الآخرة في قوله: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يعاقبكم بعملكم أو بما كنتم تعملونه، والإخبار بما يوجب العقاب كناية عن العقاب بالتوبيخ والعذاب، وإنَّما قال: ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ مع أنَّهم عالمون بما عملوا لأنَّهم قد ينسونه أو بعضه، أو ذلك من لازم الفائدة، كما تقول لمن علم بقيام زيد: قام زيد، ليعلم أنَّك عالم بقيامه، وهذا كما وضع الظاهر موضع المضمر في قوله: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ﴾ ومقتضى الظاهر: "ثمَّ تردُّون إليه فينبِّئكم بما كنتم تعملون"، ليعلموا أنَّه تعالى عالم بسرِّهم كعلنهم، فلا يفوت عذابهم، وهذا أشدُّ عليهم.

﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللّٰهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ من سفركم إلى تبوك قائلين: وا لله ما قعدنا عنكم إلاَّ لعذر، كالفقر وكثرة العيال، وخوف إغارة العدوِّ على أهلهم وما لهم ﴿لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ﴾ بترك التوبيخ ﴿فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ﴾ إعراض بغض وعدم اكتراث بهم، وعدم أهليتهم للخطاب، بدل إعراض الصفح الذي طلبوه، فكانوا لا يتكلَّم لهم أحد ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ باطنهم خبيث باعتقاد الباطل، كخبث العذرة وسائر ما نجس بذاته، لا يؤثِّر فيهم العتاب ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ والمعنى: لأنَّهم رجس، ولأنَّهم من أهل النار أشقياء لا يؤثِّر فيهم وعظ، فهذا تعليل ثان أو هو تتميم للتعليل الذي هو قوله: ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾. ﴿جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ جزاء بكونهم يكسبون ما لا يجوز، أو بأشياء كانوا

يكسبونها، أو بالأشياء التي كانوا يكسبونها، والمعنى فعلنا بهم ذلك لأجل الجزاء، أو فَأَعْرِضُوا عنهم لأجل الجزاء، أو مصدر مؤكّد لغيره، أي جزيناهم جزاء بما كانوا، وإنّما عمل المصدر المؤكّد لأنّ الجملة التي أكّدها مشتملة على معنى معموله.

﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ﴾ مستأنف لزيادة البيان، أو بدل من «سيحلفون بالله...» ﴿فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ا للهَ لاَ يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ الجواب محذوف نابت عنه العلّة، أي لم ينفعهم رضاكم، لأنّ ا لله لا يرضى. ومقتضى الظاهر: فإنّ ا لله لا يرضى عنهم، لكن ذكرهم باسم الفسق استحضارا لسبب عدم الرضى عنهم، وليُشِيرَ إلى كلّ فاسق بالعلّة، ويجوز أن يفسَّر ﴿الْفَاسِقِينَ﴾ عموما فيدخلوا فيهم، ويجوز أن يراد بالفاسقين المؤمنين على تقدير رضاهم عنهم، فإنّهم يفسقون بالرضى عنهم.

﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾

كفر الأعراب ونفاقهم وإيمان بعض منهم

﴿اَلاَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ من عرب الحضر ومن كفّار العجم الحضريّين، لغلظ قلوبهم وجفائهم، وإبائهم عن الانقياد، وعدم مخالطتهم أهل

الأدب والمعرفة والشرع وتوحُّشهم، وقويت قسوتهم باستيلاء الهواء اليابس الحار عليهم.

وأهل الحضر يحتقرون أهل البدو لجفائهم وجهلهم، حتَّى إنَّهُ يأنف الحضريُّ من العرب أن يقال له: أعرابيٌّ، وَلَكِنَّ كثيرا ما يترفَّع البدويُّ بإبائه عن الانقياد على الحضريِّ، وبمزيد شجاعة وكرم، ومن ذلك قوله:

هذا أبو الصَّقر فردا في محاسنه   من نسل شيبان بين الضال والسَّلم

(لغة) وهما شجر في البدو. والمفرد بياء النسب وهو عربيٌّ كروميٌّ وروم، وبربريٌّ وبربر، وأهل البدو من العجم لا يقال لهم أعراب ولا عرب، كما لا يقال لأهل الحضر منهم عرب، والعرب: سكَّان الحضر من أهل العَرَبِيَّة، والأعراب سكَّان البدو، وقيل: العرب أعمُّ. والكفر هنا: الشرك الصريح، والنفاق: الشرك المضمر. ﴿**وَأَجْدَرُ**﴾ أحقُّ، وأصله من الجدار وهو الحائط، والجدير: المنتهى لانتهاء الأمر إليه انتهاء الشيء إلى الجدار، واختار السمين من تلامذة أبي حيَّان أنَّ اشتقاقه من الجَدْر بمعنى أصل الشجرة، كأنَّه ثبت كثبوت أصلها.

﴿**أَلاَّ يَعْلَمُواْ**﴾ أي بأن لا يعلموا ﴿**حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ا للهُ عَلَى رَسُولِهِ**﴾ من الفرائض فعلا وتركا وما دونها. الإضافة للبيان، أي حدودا هي ما أنزل ا لله، أو على ظاهره بمعنى: مقادير ما أنزل ا لله وأعيانه، أي لا يضبطونه ولو فرضنا أنَّهم علموا، وذلك أنَّهم لا يجاورون أهل الحضر النازل فيهم الوحي، الحافظين له والعلماء، ولا نبوءة في البدو، وعنه ﷺ: «**من سكن البادية جفا ومن اتَّبَعَ الصيد غفل، ومن أتى السلطان افتتن**»[1]، وعنه ﷺ: «**من الكبائر التعرُّب**

١- رواه **أبو داود** في كتاب الصيد، باب في اتِّبَاع الصيد، رقم ٢٨٥٩، من حديث سفيان.
=

بعد الهجرة»[1]، أي ينتقل من الحضر إلى سكنى البدو، وذلك لجهل أهله وقسوة قلوبهم.

﴿وَا للهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فهو يعلم حال أهل الحضر والبدو، ويجازيهم بما هو العدل من عقاب وثواب، وما ذكر في أهل البدو ليس على عمومهم، فقد قال: ﴿وَمِنَ الاَعْرَابِ مَنْ يُّومِنُ بِا للهِ وَالْيَوْمِ اِلاَخِرِ...﴾ الآية.

﴿وَمِنَ الاَعْرَابِ مَنْ يَّتَّخِذُ﴾ يَعُدُّ ويصيِّر **﴿مَا يُنفِقُ﴾** يصرفه في سبيل ا لله من نفقة وعلف ودَابَّة وآلة القتال، ومن زكاة وصدقة **﴿مَغْرَمًا﴾** مصدر ميميٌّ أي غَرْمًا، أي خسرانا لا يرجو له ثوابا، لأنَّه لا يؤمن بالبعث، ولو آمن لم يطمئنَّ قلبه بالثواب لضعف إيمانه، فما ينفق إلاَّ رياء أو خوفا من النبيء ﷺ والمؤمنين أن يفعلوا بهم ما يفعلون بالمشركين، ويذمُّوهم، وهم بنو أسد وغطفان، وذلك في الآية مشعر بعدم الإيمان فاكتفى عن ذكره، وكأنَّه قيل: ومن الأعراب من لا يؤمن با لله ورسوله واليوم الآخر ويتَّخذ ما ينفق مغرما، وقيل: «مَغْرَمًا» من الغرم، وهو نزول نائبة بالمال من غير جناية، كما قيل لكلٍّ من المتداينين: غريم.

﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَآئِرَ﴾ المصيبات التي تحيط بالشخص ولا يجد خلاصا عنها، كموت عامٍّ، وغلبة سلطان، كقيصر وهرقل يستريحون من الإنفاق والأسفار في الغزو، ومن الذلِّ والخوف.

=

ورواه **الترمذي** في كتاب الفتن، رقم ٢٢٥٦، من حديث ابن عبَّاس.

١- رواه **النسائي** في كتاب الزينة، رقم ٥٠١٣، عن الحارث بن عبد ا لله بلفظ: «...والمرتدُّ أعرابيًّا بعد الهجرة...» في حديث طويل. ورواه **أحمد** عن ابن مسعود.

﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ﴾ إخبار من ا لله ﷻ بأنه يصيبهم من السوء ما تمنَّوه على المؤمنين أو نحوه، وينجو المؤمنون منه، أو دعاء بمعنى: ادعوا عليهم بذلك، أو تمنٍّ أي: اِرغبوا في حصول ذلك عليهم. وا لله لا يدعو إنَّما يدعو العاجز المحتاج الذي الأمر بيد غيره، وا لله بخلاف ذلك. والدائرة: اسم فاعل، تغلَّبت عليه الاِسمِيَّة، أو مصدر بوزن فاعل، أي يتربَّص بكم دوران المصايب عليكم، والدائرة تختصُّ بالشرِّ، فإضافتها للسوء مبالغة.

﴿وَا للهُ سَمِيعٌ﴾ بما يقولون عند الإنفاق سرًّا بينهم، أو في انفراد، مثل أن يقولوا: هذه غرامة أوردها ا لله إلينا من المؤمنين ﴿عَلِيمٌ﴾ بما أضمروه، أو سميع لأقوال الخلق، عليم بما يضمرونه عموما، فيدخل فيهم هؤلاء أوَّلاً.

قال ابن سيرين: من قرأ: ﴿وَمِنَ الاَعْرَابِ مَنْ يَّتَّخِذُ...﴾ فليقرأ معها قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الاَعْرَابِ مَنْ يُّومِنُ بِا للهِ وَالْيَوْمِ الاَخِرِ﴾ كمزينة وجهينة، وعبد ا لله ذي البجادين هو من مزينة. قيل: نزلت في أسلم وغفار وجهينة، وقيل: التي قبلها في أسد وغطفان وبني تميم وهذه في ذي البجادين، وعن مجاهد: هم بنو مقرن من مزينة، وقال الكلبي: أسلم وغفار وجهينة.

وفي البخاري ومسلم عن رسول ا لله ﷺ: « **أرأيتم إن كان جهينة ومزينة وأسلم وغفار خيرا من بني تميم وبني أسد وبني عبد ا لله بن غطفان ومن بني عامر بن صعصعة؟**» فقال رجل: خابوا وخسروا، قال: «**نعم، هم خير من بني تميم وبني أسد، وبني عبد ا لله بن غطفان، ومن بني عامر بن صعصعة**»[1].

١- رواه **البخاري** في كتاب المناقب (٦) باب ذكر أسلم وغفار ومزينة... رقم ٣٥١٥. ورواه **مسلم** في كتاب الفضائل (٤٧) باب من فضائل غفار وأسلم وجهينة... رقم (١٥٩) ٢٥١٩. من حديث أبي بكرة عن أبيه.

وفي رواية أنَّ الأقرع بن حابس قال للنبيء ﷺ: إنّما تابعك سُرَّاق الحجيج من أسلم وغفار ومزينة ــ وأحسبه قال: وجهينة ــ فقال النبيء ﷺ: «**أرأيت إن كان أسلم وغفار ومزينة** ــ وأحسبه قال: **وجهينة ــ خيرًا من بني تميم وبني عامر وأسد وغطفان**» قال: خابوا وخسروا، قال: «**نعم**»[1].

وفيهما عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «**أسلم سالمها الله، وغفار غفر الله لها**» وفي رواية مسلم: «**أما أنا لم أقلها لَكِنَّ الله قالها**»[2] وفيهما عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «**قريش والأنصار وجهينة ومزينة وأسلم وأشجع وغفار موالي ليس لهم مولى دون الله ورسوله**»[3].

﴿**وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللهِ**﴾ أي سبب قربات عند الله ﴿**وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ**﴾ عطف على «قُرُبَاتٍ»، أي وسبب صلوات الرسول، أي دعاؤه لهم، فإنَّه كان ﷺ يدعو للمنفق في سبيل الله، وللمنفق على المحتاجين، أو لبيت المال، ولمؤدِّي الزكاة، **فالدعاء لهؤلاء سنَّة مستمرَّة بعده** لكن بغير مَادَّة صلاة.

١- رواه **البخاري** في كتاب المناقب (٦) باب ذكر أسلم وغفار... رقم ٣٥١٢، من حديث أبي هريرة.

٢- رواه **البخاري** في كتاب المناقب (٦) باب ذكر أسلم وغفار ومزينة... رقم ٣٥١٤. ورواه **مسلم** في كتاب الفضائل (٤٧) باب من فضائل غفار وأسلم وجهينة... رقم ١٣٢. من حديث أبي هريرة.

٣- رواه **البخاري** في كتاب المناقب (٦) باب ذكر أسلم وغفار... رقم٣٥١٢، من حديث أبي هريرة.

(فقه) والدعاء بها لغير نبيء مختصٌّ بالنبيء ﷺ، يتفضَّل بها على من شاء كما قال: «**اللهمَّ صلِّ على آل أبي أوفى**»[1] ويسلِّم على الأحياء الحاضرين وعلى أهل القبور إذا زُورُوا، كما ورد: «**سلام عليكم دار قوم مؤمنين**»[2]، ولا يجوز: "قال فلان عليه السلام" ونحو هذا لإيهام النبوءة، ولا سيما أنَّ طائفة من الشيعة يقصدون الإمام عليًّا بالنبوءة، بل يُدْعَى على الغائب بالرضى والمغفرة، ولا خلاف في السلام على الأنبياء والملائكة ولو بطريق الغيبة، وأجازه الحنابلة على الغائب مطلقا، كالمخاطب، ويجوز «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» بلا إشكال لوروده. وقيل: يجوز لنا أن نصلّي على غير الأنبياء، وقيل: مكروه، وقيل: يجوز بالعطف: «اللهمَّ صلِّ على سيِّدنا محمَّد وأبي بكر»، ولا خلاف في جواز عطف الآل، وقيل: تجوز على الملائكة، وقيل: لا تجوز على الأنبياء بل تختصُّ بالنبيء ﷺ.

و«عِندَ» نعت لـ«قُرُبَاتٍ»، أو متعلّق بـ«يَتَّخِذُ» أو بـ«قُرُبَة»، ومعناها التقرُّب، وليس هنا مفرده "قُرْبَة" بإسكان الرَّاء ولو أمكن في الجملة لأنَّه ذكر بعدُ بالضمِّ في قوله: ﴿**أَلَآ إِنَّهَا قُرُبَةٌ لَّهُمْ**﴾ بضمِّ الراء، ومن قرأ بإسكان رائه أمكن أن يكون «قُرُبَات» جمعه، اتَّبَعَت عينه فاءَه في الضمِّ، وأن يكون جمع "قُرُبَة" بالضمِّ وهو الأصل لكون الضمِّ فيه أصلا.

وأكَّد الله تقرُّبهم بـ«أَلاَ» الاستِفْتَاحية وإنَّ والجملة الإسميَّة التي الخبر

١- رواه **البخاري** في كتاب الزكاة (٦٤) باب صلاة الإمام ودعائه لصاحب الصدقة... رقم١٤٩٧. ورواه **أبو داود** في كتاب الزكاة، باب دعاء المصدِّق لأهل الصدقة، رقم١٥٩٠. من حديث ابن أبي أوفى.

٢- رواه الربيع بن حبيب في مسنده، باب [٦] في الأمَّة أمَّة محمَّد ﷺ، رقم ٤٣.

فيها غير وصف ولا فعلي، وأمَّا زيد قام فلا فرق بينه وبين قام زيد في عدم التأكيد فلا تهم.

قال ﷺ : «**اللهمَّ صلِّ على آل أبي أوفى**» أخرجه أصحاب السنن غير الترمذي، وأبو أوفى هو عقبة الأسلمي من أصحاب بيعة الرضوان، وهو آخر من بقي من الصحابة بالكوفة، مات سنة سبع وثمانين، وفي رواية نسبت للبخاري ومسلم وأبي داود عن عبد الله بن أبي أوفى قال: كان أبي من أصحاب الشجرة، وكان النبيء ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم قال: «**اللهمَّ صلِّ على آل فلان**» فأتاه أبي بصدقته فقال: «**اللهمَّ صلِّ على آل أبي أوفى**».

وفي الكلام حذف تقديره: "ألا إنَّها قربة لهم، وصلاة الرسول" يدلُّ عليه ﴿وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾. والضمير في «إِنَّهَا» عائد إلى «مَا» لأنَّه تضمَّن معنى نفقات، أو كأنَّه قيل: يتّخذ النفقات التي ينفق، أو إلى النفقة المعلومة من «يُنفِقُ»، وقيل: الضمير للقربات، وقيل: للصلوات، وذلك تصديق لرجائهم، وبيَّنه بقوله: ﴿**سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ**﴾ في موضع رحمته التَّامَّة الدائمة، وقرَّر ذلك بقوله: ﴿**إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ لهم، أو المراد العموم فيدخلون أوَّلاً وبالذات.

ومنهم عبد الله ذو البجادين ـ بكسر الباء ـ لقِّب به لأنَّه قطعت أمُّه بجادًا أي ثوبا فاتَّزر بنصف وارتدى بنصف، ومات في عصره ﷺ ، ودفنه بنفسه، وقال: «**اللهمَّ إنِّي أمسيت راضيا عنه فارض عنه**» فقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : ليتني كنت صاحب الحفيرة.

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ

الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾

أصناف الناس في المدينة وما حولها

ولَمَّا بيَّن فضيلة طائفة من المؤمنين وثوابهم بيَّن فضائل أشراف المسلمين الذين فوقهم بقوله: **﴿وَالسَّابِقُونَ الاَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالاَنصارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الاَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾** «السَّابِقُونَ» مبتدأ، خبره «رَضِيَ اللهُ عَنهُمْ»، وهو إخبار لا دعاء، لأنَّ الله لا يدعو، كما أنَّ ﴿رَضُواْ عَنْهُ﴾ إخبار لا دعاء فلا تهم، وليس تعليما للدعاء على معنى قولوا: رضي الله عنهم، على الدعاء، لأنَّه خلاف الأصل بلا داع إليه، ولأنَّه لا يليق بـ«رَضُوا عَنْهُ»؛ أو الخبر هو «الاَوَّلونَ» و«رَضِيَ...» مستأنف أو خبر ثان، أو الخبر «مِنَ الْمُهَاجِرِينَ»، و«رَضِيَ...» خبر ثان، أو مستأنف.

والمراد: السابقون إلى الجنَّة العالون درجة، هم الأوَّلون في الهجرة أو في الإسلام، لأنَّ في الأنصار مؤمنين بالنبيء ﷺ قبل الهجرة، وهذا على أنَّ «الاَوَّلونَ» خبر، وإمَّا على أن الخبر «مِنَ الْمُهَاجِرِينَ» وأنَّ السابقين بعض المهاجرين والأنصار، والبعض الآخر سابقون بالنسبة إلى من بعدهم، وبعض الأنصار أيضا سبق بعضا في النصرة، والباقون تابعون بإحسان إلى قيام الساعة.

أو «السَّابِقُونَ»: من صلُّوا إلى الكعبة وبيت المقدس، فأمَّا على أنَّه ﷺ قبل

الهجرة يجعل الكعبة بينه وبين المقدس فقد وحَّدُوا قبل الهجرة، وإمَّا أنَّه أريد من صلَّى إلى القدس بعد الهجرة ثمَّ نسخ بالكعبة ستَّة عشر شهرا، فيكونون أوَّلين بالنسبة لمن بعدُ.

(سيرة) أو «السَّابِقُونَ»: أهل بدر سبقوا في الفضل، أو من شهدوا بيعة الرضوان، و«اَلذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ»: على العموم، وبيعة الرضوان كانت بالحديبيَّة، وقيل: من الصحابة، وعن محمَّد بن كعب القرظي: هم جميع الصحابة، غفر الله لمحسنهم ومسيئهم.

وأوَّل من أسلم خديجة، وبعدها عليٌّ وهو ابن ثمان سنين، أو عشر. وإسلام الصغير إذعانه، أو كان التكليف بالتمييز ثمَّ نسخ بالبلوغ، أو هو بالغ حينئذ، والصحيح الأوَّل، وقال ابن عَبَّاس: بعدها الصدِّيق، وعن عروة: بعدها زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ، ويجمع بأنَّ أوَّل من أسلم من النساء خديجة، ومن الرجال الصدِّيق، ومن الأطفال عليٌّ، ومن الموالي زيد، وأسلم على يد الصدِّيق عثمان والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقَّاص، وطلحة بن عبيد الله.

(سيرة) وفي الأنصار مراتب ثلاث: أهل بيعة العقبة الأولى وكانوا سبعة: سعد بن زرارة، وعوف بن مالك، ورافع بن مالك بن العجلان، وخطبة بن عامر، وجابر بن عبد الله بن رباب؛ وأهل العقبة الثانية وكانوا اثني عشر، وأهل العقبة الثالثة وكانوا سبعين رجلا وامرأتين، ومنهم البراء بن معرور، وعبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر، وسعد بن عبادة، وسعد بن الربيع، وعبد الله بن رواحة.

وأمَّا الذين أسلموا حين جاءهم منه ﷺ أبو زرارة مصعب بن عمير بن

هاشم بن عبد مناف، فجاءوا مع أهل العقبة الثانية، يقرئهم القرآن ويفقّههم في الدين، **ورضى ا لله قبول طاعتهم ورضاهم عنه عبادته** أو فرحهم بما نالوا من خير الدارين.

ومعنى ﴿تَحْتَهَا﴾ و﴿مِن تَحْتِهَا﴾(سورة البقرة: ٢٥) واحد، فإنَّ الماء الآتي إلى جنّتهم يجري تحتها ويجري من تحتها إلى ما بعدها، ويجوز أن يكون الأكثر ينبع من تحتها ويجري لِمَا بعدها، والأقلُّ يجري تحتها آتيا ممَّا قبلها، ولذلك كان مرَّة واحدة في القرآن، والعلم عند ا لله ﷻ، ولكلٍّ واحد من أهل الجنَّة النوعان معا.

(سيرة) وخصَّ بتسميتهم الأوس والخزرج ومن معهم أنصارا مع أنَّ المهاجرين أيضا نصروا رسول ا لله ﷺ لأنّهم لَمَّا هاجروا نصروهم، فسمِّي كلٌّ بما عامل به أخاه، هاجروا إلى أهل المدينة ونصرهم أهل المدينة.

وروي أنَّه ﷺ قسَّم فيء حنين في أهل مكَّة من قريش وغيرهم، فغضب الأنصار فقال لهم ـ كما مرَّ ـ : «**إنَّما أعطيتهم لأولِفَهم، يا معشر الأنصار ألم يُمنَّ ا لله عليكم بالإسلام؟ وسمَّاكم أنصارا لله وأنصار رسوله، ولولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار، ولو سلك الناس واديا غير واديكم لسلكت واديكم، يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون برسول ا لله**» فقالوا رضينا يا رسول ا لله، قال: «**أجيبوا كلامي هذا**» فقالوا: أخرجنا ا لله بك من الظلمة إلى النور، أنقذتنا من شفا حفرة من النار، وهديتنا من ضلال، رضينا با لله ربًّا وبالإسلام دينا وبمحمَّد ﷺ نبيئا، فقال لو قلتم: «**طردت فآويناك، وكذّبت فصدَّقناك وخذلت فنصرناك لصدقتم**» فقالوا: **لله ورسوله المنَّة علينا.**

والآية كلُّها في الصحابة ولا يصحُّ ما قيل: إنَّ الذين اتَّبَعوهم بإحسان هم التابعون الذين هم غير صحابة في زمانه وبعده، لأنَّ غير الصحابي لا يساوي

الصحابي، ولا يزيد عليه، وجاء في الأثر عنه ﷺ تفضيل من تمسَّك بدينه في آخر الزمان على الصحابة، لأنَّه لا يجد على الخير أعوانا، وأمَّا حديث: «**لا تسبُّوا أصحابي، فلو أنَّ أحدكم أنفق مثل أُحد ذهبا ما بلغ مُدَّ أحدهم، ولا نصيفه**»[1] فلا دليل فيه لأنَّه في منافقين مع الصحابة، أو في صحابة مع الصحابة الكبار، وأمَّا قوله: «**أمَّتي كالمطر لا يدرى أوَّله خير أم آخره**»[2] فمحمول على الأوَّلين بعد الصحابة، وقيل: مبالغة. وفي البخاري ومسلم عن عمران بن حصين عنه ﷺ: «**خير الناس قرني، ثمَّ الذين يلونهم ثمَّ الذين يلونهم**»[3] قال عمران: لا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أم ثلاثة، والقرن من عشر إلى عشرين أو من مائة إلى مائة وعشرين.

﴿**وَمِمَّنْ حَوْلَكُم**﴾ جهات بلدتكم يا أهل المدينة ﴿**مِنَ الاَعْرَابِ مُنَافِقُونَ**﴾ كبعض أسلم وغفار وجهينة وأشجع ومزينة، وأكثر كلٍّ قبيلة من هذه القبائل مسلمون، دعا لهم رسول الله ﷺ بالخير ومدحهم، فالمراد في الآية قليلهم كما دلَّت عليه «مِنْ» التبعيضيَّة، قال ﷺ كما مرَّ: «**أسلم سالمها الله تعالى، وغفار غفر لها الله، أما أنا لم أقلها قالها الله تعالى**»[4] رواه أبو هريرة، وعنه مرفوعا كما مرَّ: «**قريش والأنصار وجهينة ومزينة، وأشجع وأسلم وغفار موالي الله تعالى ورسوله لا موالي لهم غيره**»[5] والمراد الغالب فلا ينافي

١- أورده **ابن حجر** في الفتح، ج٧/ ص٢١.

٢- أورده **ابن عبد ربه** في الاستذكار، ج١/ ص٢٣٩، **والقرطبي** في تفسيره، ج٤/ ص١٧٤.

٣- رواه **مسلم** في كتاب فضائل الصحابة، رقم ٤٦٠١. **والترمذي** في كتاب الفتن، رقم ٢١٤٧، من حديث عمران بن حصين. (م.ح).

٤- تقدَّم تخريجه، انظر: ج٦/ ص١٢١.

٥- تقدَّم تخريجه، انظر: ج٦/ ص١٢١.

ما ورد من السوء. ﴿وَمِنَ اَهْلِ اَلْمَدِينَةِ﴾ خبر مقدَّم ومبتدأ محذوف تقديره: قوم ﴿مَرَدُواْ﴾ نعت لقوم، أو يقدَّر: منافقون، أي منافقون آخرون مردوا ﴿عَلَى اَلنِّفَاقِ﴾ كقولهم مِنَّا ظعن ومِنَّا أقام، أي مِنَّا فريق ظعن ومِنَّا فريق أقام، وهو مقيس، يحذف المبتدأ ويبقى نعته الجملي، كالنعت المفرد، أو «مِنَ اَهْلِ الْمَدِينَةِ» عطف على «مِمَّنْ حَوْلَكُمْ»، و«مَرَدُوا» مستأنف للبيان، أو نعت لـ«مُنَافِقُونَ»، وفي العطف يكون الفصل بين الموصوف وصفته بالمعطوف وهو لا يحسن، كقولك: في الدار زيد، وفي القصر العاقل، على أنَّ العاقل نعت لزيد، فالحقُّ الإعراب الأوَّل.

فبيَّن الله أنَّ حول المدينة منافقين ربَّما علمتهم، وفي داخلها قوم منافقون استمرُّوا وتشدَّدوا في ستر نفاقهم، حتَّى لا يتفطَّن له رسول الله ﷺ كما قال الله تعالى: ﴿لاَ تَعْلَمُهُمْ﴾ يا محمَّد ما ذلك لأنَّهم أشدُّ بلاغة منه فإنَّه أشدُّ منهم، ولكن لشدَّة محافظتهم على الستر، والمعنى لا تعرفهم بالتعيين ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ نعرفهم.

(نحو) وقد أجاز غير واحد إسناد المعرفة لله واختاره السعد، وعلى المنع يقدَّر: نعلمهم من هم، أو نعلمهم منافقين، ولا حاجة إلى تقدير الأوَّل كذلك، أي لا تعلمهم منافقين نحن نعلمهم منافقين، لأنَّ فيه الحذف بلا داع، نعم فيه إبقاء العلم على أصله ولا ينافي هذا قوله ﷻ : ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ (سورة محمد: ٣٠) لأنَّا نصرف معرفتهم في لحن القول على قوله: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الاَعْرَابِ مُنَافِقُونَ﴾ أو أنَّه لا يعرفهم أوَّلاً ثمَّ عرفهم، لكنَّ "القتال" نزلت قبل "براءة" فيدَّعى أنَّ آية "القتال" نزلت قبل تمام "براءة".

﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ مرَّة بالفضيحة ومرَّة بعذاب الموت، يشدَّد عليهم، أو بها وبعذاب القبر، أو بعذابه وعذاب الموت، أو بنهك الأبدان بالأمراض

والإذلال، والثاني نهكها بالزكاة، وعن الحسن: بأخذ الزكاة وعذاب القبر، وقيل: بالجوع مرَّتين، وقيل: غيظهم بأهل الإسلام وعذاب القبر، وعن ابن عبَّاس: الأولى بالحدود والثانية عذاب القبر، وعن مجاهد: المراد تعذيبهم بالجوع مرَّتين، وقيل: ضربُ الملائكة وجوههم وأدبارهم عند الموت وعذابُ القبر، وقيل: إحراقُ مسجد الضرار وعذابُ جهنَّم، أو المراد بمرَّتين التكثير كـ"لبَّيك" و"كرَّتين"، فيشمل العذاب المذكور في الأقوال كلِّها، وقد قيل: المراد ما يصيبهم في الدنيا وما في القبر وما بعد البعث، وأمَّا القتل والسبي أو القتل والجوع كما قيل فلا نعلم أنَّه قتل المنافقين ولا سباهم، والمرويُّ أنَّه قام ﷺ خطيبا يوم الجمعة فقال: قم يا فلان فإنَّك منافق، قم يا فلان فإنَّك منافق حتَّى أخرج من المسجد ناسا وفضحهم؛ وروى أحمد بن حنبل عن ابن مسعود: خطبنا رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه ثمَّ قال: «**إنَّ منكم منافقين، فمن سمَّيته فليقم**» ثمَّ قال: «**قم يا فلان فإنَّك منافق**»[1] حتَّى سمَّى سِتَّة وثلاثين. ﴿**ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ**﴾ هو العذاب في النار بعد الحشر، وأسند التعذيب مرَّتين إلى نفسه تعالى دون هذا قيل لاختلافهما حالا، وإنَّ الأوَّل خاصٌّ بهم وقوعا وزمانا يتولاَّه الله تعالى، والثاني شامل لعامَّة المنافقين وغيرهم وقوعا وزمانا، ولو اختلفت طبقات عذابهم فإنَّ المنافقين في الدرك الأسفل.

﴿**وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ**﴾ بعد رجوع رسول الله ﷺ من تبوك، ولم يعتذروا بأعذار كاذبة قبل خروجه ولا بعد رجوعه، كما أنَّه لا عذر لهم صادق يعتذرون به، وهم طائفة من المتخلِّفين، و«ءَاخَرُونَ» مبتدأ

١- رواه **أحمد** في مسنده، ج٥/ ص٢٧٣. ورواه **الهيثمي** في المجمع، ج١/ ص٣٠٦، رقم ٤٢٩، من حديث أبي مسعود.

و«اعْتَرَفُوا» نعته والخبر «خَلَطُوا»، أو هما خبران. ﴿خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحًا﴾ كاعترافهم بالذنب خصوصا، وجهادهم السابق وأعمالهم السابقة ﴿وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ كتخلُّفهم عن غزوة تبوك، وكونه يوافق المنافقين، وهم مؤمنون مخلصون في توحيدهم لكن كسلوا، وقيل: نافقوا وتابوا، وقيل: الآية في جميع المؤمنين وجميع أعمال البرِّ والسوء.

والواو عاطفة، فيصدق الخلط على خَلْطِ هذا بذاك، وعلى خلط ذاك بهذا، أو على خلطهما دفعة، ولو جعلت معيَّة لم يصحَّ إلاَّ لمعنى واحد، والأصل في الواو العطف، وأيضا لا حاجة للمعيَّة مع قوله: ﴿خَلَطُواْ﴾ العامِّ لمعان. وهذه الواو كالباء التي للإلصاق، وخلطت الماء واللبن، وخلطت الماء باللبن سواء، إلاَّ أنَّ مدخول الباء يعتبر مقصودا ثانيا، تقصد الماء أوَّلاً ويجعل مخلوطا باللبن كذا قيل، وحقَّق بعض أنَّ الكلَّ سواء، وقال السكَّاكي: التقدير خلطوا عملا صالحا بسيِّء، وآخر سيِّئا بصالح، ويقال: في الآية احتباك.

﴿عَسَى اَ للهُ أَنْ يَّتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي يقبل توبتهم التي وفقهم ا لله إليها فاعترفوا بذنوبهم، و"عَسَى" من ا لله إثبات ووعد إجماعا، ونكتة التعبير بها أو بـ"لعلَّ" التلويح بأنَّه لا واجب عليه ﷻ، والتحذير أن يتَّكل عامل على عمله ﴿إِنَّ ا للهَ غَفُورٌ﴾ للذنوب ﴿رَحِيمٌ﴾ بالجنَّة وأسبابها.

(سيرة) وهؤلاء المعترفون أوثقوا أنفسهم على سواري المسجد لَمَّا بلغهم ما نزل في المنافقين، فقدم رسول ا لله ﷺ فدخل المسجد على عادته في الرجوع من السفر فصلَّى ركعتين، فرآهم فسأل عنهم فذكر له أنَّهم أقسموا أن لا يحلُّوا أنفسهم حتَّى تحلَّهم، فقال: «**وأنا أقسم أن لا أحلَّهم ولا أعذرهم حتَّى أومر فيهم، رغبوا عنِّي وعن الغزو مع المسلمين**» فنزل قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ اَعْتَرَفُواْ...﴾ فأطلقهم. وهم أبو لبابة رفاعة بن المنذر، وجماعة معه

وهم من أهل الصفّة، والجملة عشرة أو ثمانية أو خمسة أو ثلاثة، أبو لبابة وأوس بن ثعلبة ووديعة بن حزام، أقوال، وفي جميعها أبو لبابة معهم.

ويقال: لَمَّا قرب في رجوعه من تبوك ندموا وربطوا أنفسهم في سواري المسجد، وقيل: ربط نفسه اثنتي عشرة ليلة في سلسلة ثقيلة تحلّه بنته أوقات الصلاة وقضاء الحاجة، ثمّ تربطه، وربط نفسه مرّة أخرى سبعة أيّام، وحلف لا يأكل ولا يشرب حتّى يحلّه ﷺ فصار يُغشى عليه من الجوع، ولَمَّا نزلت توبته حلّه بيده ﷺ .

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

أخذ الصدقة وقبول التوبة والأمر بالعمل الصالح

(سبب النزول) ولَمَّا تاب الله عليهم قالوا: «هذه أموالنا التي تخلّفنا بسببها فتصدّق بها وطهّرنا»، فقال: «**ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئا**»، فنزل قوله تعالى: ﴿**خُذْ مِنَ اَمْوَالِهِمْ**﴾ بيدك أو يد مأمورك، أو اقبلها أو اعتبر بها لا تلغها، وأخذه وقبولُه أخذ من الله تعالى وقبول منه ﷻ: ﴿إِنَّ الذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ﴾ (سورة الفتح: ١٠) . ﴿**صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ**﴾ ادع بالخير ﴿**عَلَيْهِمْ, إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ وقولهم: «التي تخلّفنا بسببها» صريح بأنَّ تخلّفهم لميلهم إلى أجنّتهم الظليلة

وإصلاحها وإصلاح باقي أموالهم، وذلك مع شدَّة الحرِّ.

والصدقة هذه نفل كما يتبادر من إعطائها كلِّها ما يزكَّى وما لا يزكَّى، ولو احتمل أنَّهم تبرَّعُوا بها على الزكاة إذ منعوها، وهذا بعيد بل ممنوع بقوله ﷺ : «**ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئا**» ولو كانت زكاة لأخذ قدرها، وروي أنَّه أخذ ثلث أموالهم.

وقال جمهور الفقهاء: قوله: ﴿خُذْ مِنَ اَمْوَالِهِمْ﴾ كلام مستأنف في إيجاب الزكاة ألا ترى إلى قوله: ﴿مِنَ اَمْوَالِهِمْ﴾ بـ«مِنْ» التبعيضيَّة وهذا البعض مقدار الزكاة، والصدقة غسَّالة أوساخ أموال الناس تزول بها عن الأموال والقلوب الأوساخ.

[قلت:] والصحيح أنَّ قوله: ﴿خُذْ مِنَ اَمْوَالِهِمْ﴾ متَّصل بتوبة المعترفين بذنوبهم، وأنَّها فيهم كما روي أنَّها فيهم فيسنُّ لمن أذنب بسبب مال أن يتصدَّق به، أو بثلثه لذلك، وضمير «تُطَهِّرُ» للصدقة، أو له ﷺ كضمير «تُزَكِّي» أي تطهِّرهم بها، أو هو من باب التنازع. والجملة مستأنفة، أو نعت لـ«صَدَقَةً»، والأوَّل أولى لأنَّه لا يعلم الصدقة الموصوفة المقيَّدة بالقبول إلاَّ أن يجزي على الظاهر.

و المراد: التطهُّر من الذنوب وحبِّ المال والتزكية للحسنات، والرفع إلى منازل المخلصين الخارجين إلى الجهاد، وصلاته عليهم دعاء لهم واستغفار، ويسنُّ للإمام أن يدعو للمتصدِّق أو يجب أو يستحبُّ، أو يجب في الفرض ويستحبُّ في التطوُّع، أقوال، وعلى الأوَّل الشافعيُّ قال: يقول: "آجرك الله فيما أعطيت وبارك لك فيما أبقيت"، ويستحبُّ للفقير أن يدعوا للمعطي، ومن تحت الإمام العدل حتَّى تعلم منه كبيرة.

ومعنى كونها سَكَنًا لَهُمْ أنَّهم يطمئنُّون إليها، فإنَّ سكن الشيء ما تطمئنُّ

إليه نفسه، ويرتاح إليه، والله سميع باعترافهم عليم بندمهم، أشار إلى قبول توبتهم بـ«عَسَى»، وصرَّح أو كاد في قوله: ﴿خُذْ﴾ وزاد في قوله:

﴿أَلَمْ يَعْلَمُواْ﴾ أي هؤلاء التائبون المعترفون **﴿أَنَّ اللّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾** فإنَّه لو لم يقبل توبتهم لم يأمره بأخذ صدقاتهم النافلة، في معرض الذنب والتوبة مع وصفها بأنَّهم يطهَّرون ويزكَّوْن بها، ولولا القبول لم يقل: ﴿صَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ ولولا القبول لم يُزِلْ توحُّشَهم بالذنب، بأن مكَّن في قلوبهم بالاستفهام التقريري أنَّه يقبل التوبة والصدقات، فكيف لا يقبلها عنهم؟ وبأنَّه هو التوَّاب الرحيم، وذكَّرهم بما فعلوا فعلم أنَّهم المراد بالذات في عموم عباده، أو هم المراد بالعباد، وهذا أشدُّ رحمة لهم، إذ ذكَّرهم بالعبوديَّة له.

ومعنى أخْذِه الصدقات قبولها ليجازي عليها، فهو مجاز مرسل لعلاقة اللزوم والتسبُّب، أو استعارة لأنَّ الآخذ حقيقة هو الرسول ﷺ، كما قال: ﴿خُذْ مِنَ اَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ فهم تصدَّقوا تكفيرا لذنوبهم وقَبِلَها ليغفرها لهم ويتفضَّل عليهم، كما قال: ﴿وَأَنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

وقيل: الصدقة الزكاة، أمره الله تعالى أن يقبلها منهم فيمتازوا عمن ردَّها عليهم، ويبعد أن يردَّ الضمير في «يَعْلَمُوا» للناس مطلقا، نعم في الآية ترغيب للعصاة مطلقا في التوبة، كما أنَّ في التعبير بالأخذ تلويحا إلى إعطاء الفقراء فيأخذون. وروي أنَّه لَمَّا تيب عليهم قال الذين لم يتوبوا: هؤلاء الذين تابوا كانوا بالأمس معنا لا يكلِّمون ولا يجالسون فما لهم اليوم؟ فنزل: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ...﴾ ولهذا قيل برجوع واو «يَعْلَمُوا» للناس كلِّهم، أو لقائلي: "ما لهم اليوم؟".

قال أبو عثمان الهندي: ما في القرآن أرجى آية عندي لهذه الأمَّة من قوله

تعالى: ﴿وءَاخَرُونَ اعْتَرَفُواْ...﴾. قال مطرف: إنّي لأستلقي من الليل على فراشي وأتدبّر القرآن، فأعرض أعمالي على أعمال أهل الجنّة فأجد أعمالهم شديدة: ﴿كَانُواْ قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ (سورة الذاريات: ٦٤) ﴿يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ (سورة الفرقان: ٦٤) ﴿أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ (سورة الزمر: ٩) فلا أراني منهم، فأعرض نفسي على هذه الآية: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ (سورة المدثر: ٤٢) فأرى القوم مكذّبين فلا أراني منهم، فأمرُّ بهذه الآية: ﴿وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُواْ﴾ فأرجُو أن أكون منهم، وأنتم يا إخوتاه منهم. والمشهور في ذلك قوله: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الذِينَ أَسْرَفُواْ...﴾ (سورة الزمر: ٥٣) لَكِنَّ آية السورة تدلُّ على التوبة، وهي من الذنوب، وقبول الله التوبة يقتضي صدورها منهم، والمعنى: اعترفوا بذنوبهم وتابوا منها، والاعتراف بالذنب مع الندم توبة منه مع عزم على عدم العود. و"عسى" من الله وعْدٌ وهو تعالى لا يخلفه.

﴿**وَقُلِ اعْمَلُواْ**﴾ الخطاب للناس أو لهؤلاء التائبين المقبولة توبتهم، ردعًا لهم عن الأمن من مكر الله، وعن أن ييأسوا من قبول التوبة من ذنب آخر، اعملوا ما شئتم من خير أو شرٍّ ﴿**فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ**﴾ يجازيكم عليه، أي لا يخفى عنه، وعدم خفائه سبب للجزاء وملزوم له، ولذلك كان بمضارع الاستقبال، وإلاَّ فالله يرى الأعمال أي يعلمها بلا أول لعلمه ﴿**وَرَسُولُهُ, وَالْمُومِنُونَ**﴾ عطف على لفظ الجلالة، ومجازة الرسول والمؤمنون لأصحاب الأعمال الثناء عليهم والدعاء لهم.

قال أبو هريرة: «إنَّ الله يقبل الصدقة من حلال فيربي اللقمة حتّى تكون كأحد». وعنه ﷺ: «**تقع الصدقة في يد الله قبل يد السائل** ـ ومعنى يده

تعالى: عنده ـ **ولا يقبل الله إلاَّ حلالا، ولا يصعد إلى السماء إلاَّ حلال**» أي لا يصعد إليها فيدخلها، لأنَّ الحرام يصعد فيردُّ دُونها. وروى أبو سعيد عن رسول الله ﷺ : «**لو أنَّ أحدكم يعمل في صخرة صمَّاء لا باب ولا كوة لخرج عمله وظهر**»[1]. وفي الشرِّ الذمُّ لهم والدعاء عليهم، وذلك بإخبار الله تعالى لهم، وأكَّد ذلك بقوله: ﴿**وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ فذكر الجزاء مرَّتين: مرَّة بقوله: ﴿سَيَرَى﴾ وثانيا بقوله: ﴿يُنَبِّئُكُم﴾ وزاد تأكيدا في الثاني بالإسناد إلى عالم الغيب والشهادة، أي سيجازيكم على أعمالكم، من لا يخفى عنه منها أقلُّ من ذرَّة، أو الأوَّل المجازاة، والثاني الإخبار لهم بها أنَّها كذا وكذا.

﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾

الثلاثة الذين خلِّفوا عن الغزوة والتوبة عليهم

﴿**وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ**﴾ الأصل: "مرجيون" بالياء لغة من قال: أرجاه بالألف يرجيه بالياء، أو أصله: "مرجئون" بالهمزة لغة من قال: أرجاه يرجئه بالهمزة بعد الجيم، حذفت تخفيفا، أو قلبت ياء فحذفت الياء، والإرجاء: التأخير ﴿**لِأَمْرِ اللَّهِ**﴾ إلى أمر الله، أو اللام للتعدية أو التعليل، أخَّر الله أمرهم لأنَّهم لم يسارعوا إلى التوبة كما سارع غيرهم عند رجوع رسول الله ﷺ من تبوك.

١- رواه **أحمد** في مسنده، ج٣/ ص٢٨. **والهندي** في الكنز، ج٣/ ص٢٥، رقم ٥٢٧٤. من حديث أبي سعيد.

﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ﴾ بأن لا يقبل توبتهم فيعذّبهم ﴿وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ يوفّقهم إليها، وهذا تردُّد مصروف إلى العباد، وا لله عالم بما قضى به في الأزل وهو أنَّهم تابوا، وأنّه يقبل توبتهم، فذلك ترديد من ا لله للعباد لا تردُّد، كما يذكر "إنْ" تشكيكا لهم، و"لعلَّ" و"عسى" ترجية لهم لا شكًّا منه، أو ترجيًا منه، والناس ما بين قائل: لا تنزل لهم توبة، وقائل: عسى أن تنزل، فهذا تردُّدهم، وذلك أنَّه تأخَّر نزول توبتهم خمسين يوما من حين رجع ﷺ من تبوك إذ غاب خمسين يوما ﴿وَا للهُ عَلِيمٌ﴾ بخلقه وأحوالهم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعل، ودخل هؤلاء المرجون بالأولى والذات، أو هم المراد.

(سيرة) وهم ثلاثة: مرارة بن الربيع وكعب بن مالك، وهلال بن أُميَّة بضمِّ الهمزة، تخلَّفوا كسلا وميلا إلى الراحة لا نفاقا، ولم يعتذروا كغيرهم، تمتَّعوا في التخلُّف فشدَّد عليهم، تابوا لَمَّا رجع من تبوك وعلم بتوبتهم، وقيل: اعتذروا ولم يبالغوا في الاعتذار كما بالغ غيرهم. وكانوا أصحاب أموال موسرين، وروي أنَّهم قالوا: نحن موسورون متى شئنا لحقنا إلى رسول ا لله ﷺ، فتمادوا حتَّى يئسوا من اللحوق فندموا، ولكن لم يعتذروا بشدَّة كأصحاب السواري، كأنَّهم لم يطمعوا في قبول التوبة.

(سيرة) وروي أنَّه لَمَّا قدم رسول ا لله ﷺ قيل لكعب: اعتذر إلى رسول ا لله ﷺ، فقال: لا وا لله حتَّى تنزل توبتي، وكأنّه أيس من قبوله ﷺ اعتذاره، وأمَّا صاحباه فاعتذرا، فقال: «ما خلَّفكما عنِّي» قالا: لا عذر لنا إلاَّ الخطيئة، ونزلت الآية: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ ا للهِ﴾ فنهى الناس عن مجالستهم والتكلُّم معهم ومن السلام عليهم، وأمرهم باعتزال نسائهم، وإرسالهنَّ إلى أهليهنَّ، فسألته امرأة هلال أن تأتيه بطعامه لأنّه شيخ كبير، وأذن لها في الطعام خاصَّة، وجاء رجل من الشام بكتاب إلى كعب يرغّبونه في اللحاق

إلى الشام وأنَّه لم يخلقه الله بدار مهينة فسجر به التنُّور، وقال: طمع المشركون فيَّ لخطيئتي، فضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وبكى هلال حتَّى غشي على بصره، وقد أخلصوا نياتهم، ونصحوا في توبتهم، فرحمهم الله بقوله: ﴿وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الذِينَ خُلِّفُوا...﴾ (سورة التوبة: ١١٨) فقال ﷺ: «**أبشر بخير يومٍ مرَّ عليك منذ ولدتك أمُّك**».

وعن ابن بطال: شدَّد عليهم لأنَّ الجهاد فرض عين على أهل المدينة، لأنَّهم بايعوا رسول ﷺ على القتال، وقيل: الآية في قوم منافقين يعذِّبهم إن أصرُّوا ويتوب عليهم إن تابوا وهو مخالف لِمَا في الحديث.

﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾

مسجد الضرار (مسجد المنافقين) مسجد التقوى (مسجد قباء)

﴿**الذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِدًا**﴾ في من وصفنا بالنفاق الذين اتَّخذوا، كما قال سيبويه في ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ (سورة المائدة: ٣٨)، و﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ (سورة النور: ٢)، : فيما يتلى عليكم السارق... أو حكم السارق...؛ أو خبره: «أَفَمَنُ

اسِّسَ» والرابط محذوف، أي أفمن أسِّس بنيانه منهم وليس منهم، أو منهم نسبا، وفيه بعدٌ لفظًا ومعنًى، أو خبره: ﴿لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ﴾ وفيه بعدٌ لفظا أعني طول الفصل، أو خبره: «لا تَقُمْ» فيقدَّر مضاف أوَّل، أي مسجد الذين اتَّخذوا، أو يكتفى بهاء فيه لأنَّها عائدة إلى «مَسْجِد» مضاف إليهم، كأنَّه قيل: لا تقم في مسجدهم، أو الخبر يعذِّبون يقدَّر بعد «لَكَاذِبُونَ» أو بعد «مِنْ قَبْلُ» أو منصوب بـ"أخصُّ" محذوفا، أي أخصُّهم بالذكر لمزيد شرِّهم، أي بالنظر إلى من لم يذكر، أو بأذمُّ لا بدل من «ءَاخَرُونَ» لأنَّهم غير مرجَيْن والآخرين مرجون.

ومعنى ﴿اتَّخَذُوا﴾: حصَّلوا أو صيَّروا، فقوله: ﴿ضِرَارًا﴾ على الثاني مفعول ثان، وعلى الأوَّل تعليل، أي لأجل الضرار، أو حال، أي مضارِّين أو ذوي ضرار، أو مفعول مطلق أي يضارُّون ضرارا، والمراد: المضارَّة لأهل مسجد قباء بإبطال مسجدهم حسدا ونقصا من حظِّه، أو المضارَّة للنبيء ﷺ والمؤمنين. وعن عطاء: لَمَّا فتح الله الأمصار على عمر رضي الله عنه أمر المسلمين أن يبنوا المساجد، وأن لا يتَّخذوا في مدينة مسجدين يضارُّ أحدهما صاحبه، وروي عن عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه أنَّه كتب إلى عمَّاله وأمرهم أن يهدموا كلَّ مسجد ضارٍّ آخر، يعني هدم المسجد الحادث الضارِّ لسابقه.

﴿وَكُفْرًا﴾ صيَّروه موضع كفر، أو حصلوه لأجل الكفر، أو حال كونهم كافرين أو ذوي كفر وكذا في قوله: ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُومِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾ من قبل أن يتخلَّف هؤلاء المنافقون عن تبوك.

(أخبار) بنوه وهم اثنا عشر وهم لعنهم الله: خدام بن خالد من بني عبيد بن زيد من بني عمرو بن عوف، ومن داره أخرج مسجد الضرار، وعباد بن حنيف من بني عمرو بن عوف أيضا، وثعلبة بن حاطب، ووديعة بن

ثابت وهما من بني أميَّة بن زيد رهط أبي لبابة بن عبد المنذر، ومعتب بن قشير، وأبو حبيبة بن الأزعر، وحارثة بن عامر، وابناه مجمع وزيد، ونبيل بن الحرث، ونجاد بن عثمان، وبحجد من بني ضبيعة، بأمر أبي عامر الراهب المشرك ليكون ملجأ له يقيم فيه من يأتي من عنده، وقد ذهب ليأتي بجنود من قيصر لقتال النبيء ﷺ، وأرادوا تفريق جماعة قباء المصلّين في مسجدهم بإمام منهم، ويرصدون ـ أي يترقّبون ـ مجيء من حارب الله ورسوله من قبل بنائه وهو أبو عامر المذكور لعنه الله، والد حنظلة الغسيل الذي استشهد يوم أحد وغسلته الملائكة.

(سيرة) وكان أبو عامر قد تنصَّر في الجاهلية ولبس المسوح، ولَمَّا بعث ﷺ حسده لزوال رئاسته به، وقال يوم أحد: لا أجد قوما يقاتلونك إلاَّ قاتلتك معهم، ولم يزل يقاتله إلى أن هزمت هوازن ففرَّ إلى الشام، وأرسل إلى المنافقين استعدُّوا ما استطعتم للقتال فإنّي آتي بجنود من قيصر لأخرج مُحَمَّدًا وأصحابه من المدينة، ومات بقِنّسْرِينَ ـ بكسر القاف وشدِّ النون مفتوحة ومكسورة: بلد بالشام ـ وحيدا لم يحضر جنازته لعنه الله أحد، لم يقبله النصارى استجابة لدعائه ﷺ إذ قال له إذ قدم المدينة: بم جئت؟ قال ﷺ: «**بالحنيفيَّة السمحة البيضاء دين إبراهيم**» قال: فأنا عليها، فقال: «**لست عليها**»، فقال لعنه الله: بلى ولكنّك أدخلت ما ليس منها فيها، فقال: لا، فقال لعنه الله: أمات الله الكاذب طريدا فريدا، فقال ﷺ: «**آمين**»، فأماته الله كذلك، وقيل: كان يجمع الجيوش يوم الأحزاب ولَمَّا هزمهم الله ﷻ فرَّ إلى الشام، ويقال: لَمَّا بنى بنو عمرو بن عوف مسجد قباء سألوه أن يأتيهم ليصلّي فيه ففعل، فحسدهم بنو غنم بن عوف، إخوانهم فبنوا مسجدا ليصلّي فيه أبو عامر الراهب إذا جاء من الشام، وسمَّاه رسول الله ﷺ بالفاسق وسمَّاه الناس الكذّاب.

و«من» مُتَعلّق بـ«حَارَبَ» أو «اتَّخَذُوا». ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنَ اَرَدْنَآ﴾ بالمسجد ﴿إِلاَّ اَلْحُسْنَى﴾ إلاَّ الخصلة الحسنى، أو الإرادة الحسنى، وفسَّرها بعض بالصلاة. وروي أنَّهم قالوا: بنيناه للصلاة والرفق بالمسكين والضعيف في المطر والبرد والحرِّ والتوسعة على المسلمين، والعجز عن الصلاة في مسجد قباء أو مسجد المدينة ﴿وَا للهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في حلفهم. ﴿لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ للصلاة ولا لغيرها أي لا تمكث فيه ولا تدخله؛ وعن ابن عَبَّاس: ﴿لاَ تَقُمْ﴾: لا تصلِّ، وأنَّ القيام بمعنى الصلاة.

(سيرة) بني قبل غزوة تبوك فقالوا: صل لنا فيه ليكون مسجدا كما كُنَّا نصلّي في قباء، فقال: «**أنا على سفر وإذا قدمت صلَّيت فيه إن شاء ا لله**»، ولَمَّا قدم كرَّروا الطلب، فأراد إتيانه، فنزلت الآية: ﴿الذِينَ اتَّخَذُواْ﴾ وقوله: ﴿لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ فدعا بمالك بن الذخشم ومعن بن عدي وعامر بن السكن ووحشي، فقال: انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فأهدموه وحرِّقوه فخرجوا مسرعين حتَّى أتوا بني سالم بن عوف رهط مالك بن الدخشم فقال مالك: انظروني حتَّى أخرج لكم بنار فخرج من أهله بشعلة من سعف، وأسرعوا بها حتَّى دخلوا المسجد وفيه أهله فأحرقوه وهدَّموه، وتفرَّق أهله عنه، وأمر ﷺ أن يتَّخذ كُناسة تلقى فيه الجيف والنتن والقمامة. وروي أنَّه لَمَّا نزل بذي أوان ـ موضع قريب من المدينة بينه وبين المدينة ساعة ـ راجعا من تبوك سألوه أن يأتيه، فدعا بقميصه ليلبسه فيأتيهم، فنزلت الآية. وقيل: قال له جبريل: لا تقم فيه أبدا فأمر بهدمه وإحراقه. قال عطاء: لَمَّا فتح ا لله ﷻ الأمصار على عمر أمر المسلمين أن يبنوا المساجد وأن لا يبنوا في موضع واحد مسجدين يضارُّ أحدهما الآخر، وأمر أن يهدم كلُّ مسجد حادث ضارٍّ للآخر.

﴿**لَمَسْجِدٌ اسِّسَ عَلَى التَّقْوَى**﴾ بنى رسول الله ﷺ أسَّه أي أصله مع التقوى، أي شبَّه التقوى بنحو صخرة في تمسُّك ما وضع عليه، و«أُسِّسَ» تخييل، و«عَلَى» للاستعلاء المجازي الاستعاري التبعي، أو للتعليل، والثاني أولى، واللام للابتداء لا غيره.

(نحو) ومن العجيب أنَّ بعض المحقِّقين كلَّما رأى لام ابتداء أجاز أنَّها لام في جواب قسم مقدَّر، ولو لم يكن دليل على تقديره سوى أنَّ المعنى قابل له.

(سيرة) وروى أنَّ بني عمرو بن عوف الذين بنوا مسجد قباء أتوا عمر بن الخطاب فسألوه أن يأذن لمجمع بن جارية أن يؤمَّهم فيه، فقال: لا، أوليس هو إمام مسجد الضرار؟ قال: يا أمير المؤمنين لا تعجل فوالله لقد صلَّيت فيه وأنا لا أعلم ما أضمروا، ولو علمت ما صلَّيت فيه، وكنت غلاما قارئا للقرآن وكانوا شيوخا لا يقرؤون فعذره عمر، فأباح له الإمامة في مسجد قباء.

﴿**مِنَ اَوَّلِ يَوْمٍ اَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ**﴾ من يوم أوَّل، أو من أوَّل وقت.

(نحو) والآية حجَّة على مجيء «مِنْ» لابتداء الزمان، وله أدلَّة كثيرة، وأخطأ البصريُّون في منع ذلك، وتأويل كلِّ ما ورد من ذلك بغير الزمان، مثل أن يقدَّر من تأسيس أوَّل يوم، مع أنَّه لو صحَّ بتأسيس لكان الزمان به أولى، لكثرة المصدر بمعنى الزمان، كجئت طلوع الشمس، وقِلَّته في المكان، كجلست قرب زيد.

(سيرة) قال أبو سعيد الخدري: سألت رسول الله ﷺ عن هذا المسجد، فأخذ كفًّا من حصباء فضرب به الأرض فقال: «**مسجدكم هذا، مسجد المدينة**». واختلف رجلان فسألاه ﷺ أهذا أو مسجد قباء؟ فقال:

«**مسجدي هذا**»، وقيل: مسجد قباء وعليه البخاري[1]، لأنه ذكر في جنب ذكر مسجد الضرار، بناه ﷺ وصلّى فيه أيّام إقامته بقباء من الاثنين إلى الجمعة في طريق هجرته، خرج صبيحة الجمعة وصلّى الجمعة في الوادي ودخل المدينة، وقيل: أقام أربعة عشر، وقيل: اثنين وعشرين، ولَمَّا بناه قالوا: صلِّ لنا فيه، وهذا نفس ما قيل: بنوه فقالوا صلِّ لنا فيه، فإنّهم يبنون معه بل معظم بنائه منهم، وبعد وصول المدينة كان يأتيهم راكبا وماشيا يوما في الأسبوع أحيانا يصلّي فيه، وقد يقال: أراد بـ«**مسجدي هذا**»: الإشارة إلى كلِّ ما بني للإسلام تحرُّزا عن مسجد الضرار خاصَّة.

وَأَمَّا أن يراد بمسجد أسِّس على التقوى العموم فخلاف الأصل لأنّه نكرة في الإثبات، ولقوله ﷻ: ﴿**فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُواْ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ**﴾ يجازيهم فإنّه في رجال قباء وفي استنجائهم بالحجارة ثمَّ بالماء.

وفي هذا أحاديث لأحمد والبخاري وابن أبي شيبة والطبري والطبراني وعبد الرزاق وابن مردوية والبغوي وابن خزيمة والحاكم، وكلام من جماعة من الصحابة كابن عمر وسهل الأنصاري وهو الصحيح، وعن أبي سعيد الخدري أنَّه مسجد المدينة وأنه أخبره النبيء ﷺ وأحاديث تفسيره بمسجد قباء أكثر وأصحُّ، فنقول: نزلت في شأن مسجد قباء ولا تختصُّ به.

و﴿أَحَقُّ﴾: بمعنى حقيق، أو على ظاهره على زعم أهل مسجد الضرار أنَّ مسجدهم حقيق بالقيام فيه، أو باعتبار أنَّه لو جاز القيام فيه، وأمَّا أن يقال بالنظر إليه في ذاته لأنَّ المحظور قصدهم به ونيتهم فلا يصحُّ، لأنه مع نيتهم في

١- انظر: كتاب فضائل الصحابة، باب ٧٤، الحديث رقم ٣٦٩٤، عن حديث عروة بن الزبير.

بنائه لا حظَّ له في الخير، فإنَّه شرٌّ من الكنيف. والرجال: قوم من الأنصار من بني عمرو بن عوف. وتطهُّرهم: استنجاؤهم المذكور.

(سبب النزول) لَمَّا نزلت مضى رسول الله ﷺ والمهاجرون إلى باب مسجدهم فقال: «**أمؤمنون؟**» فسكتوا، فأعادها فسكتوا، فقال عمر إزالة لاستحيائهم: إنَّهم مؤمنون وأنا معهم، فقال ﷺ : «**أترضون بالقضاء؟**» قالوا: نعم، قال: «**أتصبرون على البلاء؟**» قالوا: نعم، قال: «**أتشكرون في الرخاء؟**» قالوا: نعم، قال ﷺ : «**مؤمنون وربِّ الكعبة**» فجلس، ثمَّ قال: «**يا معشر الأنصار إنَّ الله ﷻ قد أثنى عليكم فما الذي تصنعون عند الوضوء وعند الغائط؟**» قالوا: يا رسول الله نتبع الغائط الأحجار الثلاثة ثمَّ نتبع الأحجار الماء، فتلا: ﴿رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ وأراد بالغائط ما يشمل البول لأنَّ كلاًّ من فضلة الطعام والماء [يُقضَى] في الأرض المطمئنَّة، واختصاص الغائط بفضلة الطعام عرف للفقهاء للبيان. ولفظ البزار كذلك.

نتبع الحجارة بالماء، فقال: «**هو ذاكم فعليكموه**» ولفظ ابن خزيمة: «**إنَّ الله قد أحسن عليكم الثناء في الطهور في قصَّة مسجدكم، فما هو؟**» قالوا: والله يا رسول الله ما نعلم شيئا، إلا أنَّه كان لنا جيران من اليهود يغسلون أدبارهم، أي وأقبالهم، فغسلنا كما غسلوا.

وفسَّر بعض التطهُّر بغسل الجنابة لا ينامون عليها، وبعض بالتطهُّر من المعاصي ومساوئ الأخلاق طلبا لرضى الله ﷻ، ويجمع بأنَّ سبب النزول التطهر المذكور للصلاة وعموم اللفظ باقي المعنى، والمدح على عدم النوم بالجنابة لا على غسلها لأنَّه لا بدَّ منه لكلِّ أحد قادر، وفسَّره بعض بطهارة الباطن والظاهر. وفي المسألة بيت مشهور:

وإن سألت وضوًا ليس ينقضه إلاَّ الجماع وضوء النوم للجنب

أبدلته بقولي:

إنَّ الوضوء الذي ليس بناقضه غير الجماع وضوء النوم للجنب

لسلامة قولي هذا من الركّة، وأكّدت ردًّا على من ينكر أو يشكُّ، بل يجوز التأكيد قصدا للتقرير ولو لم يكن شكٌّ ولا إنكار، بحذف فاء الجواب، وبابتداء الكلام بالواو، وإثبات واو الاستئناف لا يحسن، ودعوى أنَّ هذه الواو أوَّل البيت عاطفة على محذوف خلاف الأصل.

﴿أَفَمَنُ اسِّسَ﴾ هم أهل قباء، الهمزة مِمَّا بعد الفاء العاطفة، أو داخلة على معطوف عليه محذوف، أمستوٍ عندهم الفريقان؟ من أسَّس...، أو أبعد ما علم حالهم تكون الجهالة؟ ﴿بُنْيَانَهُ,﴾ أي مبنيه، وهو مسجد قباء، مصدر بمعنى مفعول، وهو المسجد لتقدُّم الكلام فيه ﴿عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ا للهِ﴾ متعلّق بـ«تَقْوَى» لتضمُّنه معنى خوف، أو بنعت محذوف، أي آتية من ا لله ﴿وَرِضْوَانٍ﴾ أي وعلى رجاء رضوان، أو على نفس الرضوان لأنَّه العمدة الموصلة إلى بنائه، وهو توفيقه، أو علمه، أو طلب رضاه بالطاعة، والتقدير: ورضوان منه أي من ا لله، كما قال: ﴿عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ا للهِ﴾. ﴿خَيْرٌ اَم مَّن﴾ هم أهل مسجد الضرار ﴿اسِّسَ بُنْيَانُهُ,﴾ مسجد الضرار، عطف على «مَنُ اسِّسَ بُنْيَانُهُ» عطف مفرد، ففي «خَيْرٌ» ضمير «مَنْ» في الموضعين، أو يقدَّر: أو من أسِّس بنيانه؟ ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ خبر، فيكون عطف جملة، وفي «خَيْرٌ» ضمير «مَنْ» الأولى فقط.

و«خَيْرٌ» مقابل السوء، أو اسم تفضيل خارج عنه، أو باق على حدِّ ما مرَّ في «أَحَقُّ». و﴿شَفَا﴾ طرف، والمراد الضلال مقابلة لقوله: ﴿عَلَىٰ تَقْوَىٰ﴾ وهو متعلّق بـ«اسِّسَ».

(صرف) والجُرُف: الجانب، أي جانب ما ذهب به السيل أو غيره وبقي ضعيفا مائلا للسقوط، ويقال: جرفه السيل، وشفي المريض كان على طرف من البرء. و﴿هَارٍ﴾: ألفه عن واو، أو عن ياء لغتان، أصله: هور، أو هير ــ بكسر الواو والياء ــ قلبت ألفا وآخره الراء، بدليل قوله: ﴿فانْهَارَ﴾، لا كما قيل: أصله هارِوٌ أو هارِيٌ أُعِلَّ كقاضٍ فأعْرِبَ على العين كَيَدٍ وأخٍ، ولا كما قيل: قدِّمت لامه وهي واو أو ياء على عينه، ثمَّ حذفَتْ فاعْرِبَ على العين، لأنَّ ذلك كلّه خلاف الأصل.

ومعنى ﴿هَارٍ﴾: مشرف على السقوط، وضمير «انْهَارَ» للبنيان و«بِهِ» لـ«مَنْ»، أو ضمير «انهَارَ» للجرف أو الشفا، و«بِهِ» للبنيان، أو لـ«مَنْ». و«انْهَارَ» انفعل، بمعنى سقط؛ والياء للتعدية، أي فأهاره في نار جهنَّم، أو للمصاحبة فتعلَّق بـ«انْهَارَ»، أو بحال، واختير عود ضمير «انْهَارَ» لـ«جُرُفٍ» لأنَّه يلزم من انهياره انهيار الشفا والبنيان ومن فيه بلا عكس.

ومسجد الضرار بني على طرف هوَّة توصل لنار جهنَّم، وقد ورد أنَّ الدخان يخرج من أساسه حين حفروه يرونه وبعد هدمه ما زال الدخان يخرج منه، وحفرت بقعة منه فرئي الدخان يخرج منه، وعن قتادة: «**والله ما تناهى بناءهم حتَّى وقع في النار**» قال جابر بن عبد الله: رأيت الدخان يخرج من مسجد الضرار.

(بلاغة) وشهر أنَّ البنيان **في الموضعين الدين**، شبَّه النفاق بشفا جرف في سرعة الذهاب، واستعار له اسم الشفا، والقرينة مقابلة التقوى، و«انْهَارَ» ترشيح، لأنَّه يلائم المشبَّه به، وهو الشفا، وشبه التقوى والرضوان بما يعتمد عليه البناء ورمز إليه بلازمه وهو التأسيس، باقيا على حقيقته مستلحقا، أو استعارة للإثبات، أو البنيان استعارة للدين والتأسيس ترشيح، أو شبَّه حال من اتَّقى

المحارم وداوم على العبادة بحال من بنى بنيانا مقوِّيا به، فتكون الاستعارة تمثيليَّة وهي أولى.

﴿وَا للهُ لاَ يَهْدِي﴾ هداية توفيق بعد هداية البيان ﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الذين سبقت شقاوتهم.

﴿لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الذِي بَنَوْا﴾ هو مسجد الضرار كما هو الظاهر، ويبعد أن يكون المراد به نفاقهم، ويجوز بقاء بنيان على المعنى المصدري، فهاء "بَنَوْهُ" المقدَّرة مفعول مطلق على هذا. ﴿رِيبَةً فِي قُلُوبِهِم﴾ سبب ريبة، أو موجب ريبة، بنوه شكًّا في دين ا لله وردًّا عليه، ولَمَّا هدم لم يزالوا مغتاظين بهدمه لافتضاحهم به، إذ لم يؤخِّر أمرهم ويمهل، وربَّما خيَّل لهم الشيطان وأنفسهم أنَّه حقٌّ وأنَّه هدم حسدا، وأنه لا أقلَّ من جواز إبقائه، وتضاعف حقدهم لذلك، ولمجيء الشرِّ في حال توقُّعهم الخير بنائه، وقد يكون في قلب بعضهم ما ليس في آخر؛ وقيل: الريبة الشكُّ في سبب تخريبه، وقيل: كانوا يحسبون أنَّهم محسنون في بنائه كما حبِّب العجل إلى بني إسرائيل فارتابوا في سبب تخريبه، وقيل: الشكُّ أيقتلون بعده أم يبقون.

﴿إِلآ أَن تُقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ أي في كلِّ وقت إلاَّ وقت تقطيع قلوبهم بالقتل أو الموت، والشدُّ للمبالغة في القطع وفي دوام الريبة تدوم دواما عظيما، حتَّى تبقى مع مبدأ القطع إلى أن يكون القلب قطعا متعدِّدة، ولو كان هذا لا يوجد، أو يتصوَّر بإيلام القلب شيئا فشيئا عند الموت أو القتل، وقد قيل تقطيعها تفريق أجزائها في القبر أو النار، فهم مغتاظون ولو بعد الموت، وقيل: إلاَّ أن تقطَّع قلوبهم بالتوبة النصوح، فإنَّه لا يبقى لهم اغتياظ وارتياب، فيكون التقطيع مجازا، كما أنَّه مجاز في صورة حمله على الإيلام. ﴿وَا للهُ عَلِيمٌ﴾ بسوء اعتقادهم وبكلِّ شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ في أمره بهدمه وفي كلِّ فعل له وقول.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾

صفات المؤمنين الصادقين الكمَّل

﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ شبَّه بذلهم أنفسهم وأموالهم في الجهاد على رجاء الثواب ببيع الشيء وقبوله، وإعطاء الجنَّة على ذلك بالشراء، على الاستعارة التمثيليَّة لا المفردة التبعيَّة، إلاَّ أنَّه قال: ﴿بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ ولم يقل: بالجنة، لأنَّه أبلغ في وصول الثمن واختصاصه بهم، ولم يقل: باع لهم الجنة بأنفسهم وأموالهم لأنَّ المقصود في العقد الجنَّة والأنفس، والأموال وسيلة إليها، ففي ذلك كمال العناية بأنفسهم وأموالهم، وذلك كناية للإقراض لله فإنَّ كلَّ شيء مملوك لله ﷻ، وفي الآية استعارة تمثيليَّة.

(سبب النزول وسيرة) قال عبد الله بن رواحة في العقبة من سبعين رجلا: اشترط لربِّك ولنفسك ما شئت، قال ؏: «**أشترط لربِّي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مِمَّا تمنعون منه أنفسكم وأموالكم**» قال: إذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال: «**الجنَّة**» قالوا: ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل، فنزل: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَىٰ...﴾الآية. والعقبة الثانية لقيه فيها اثنا عشر بايعوه بيعة النساء: «لا نشرك بالله شيئا، ولا نسرق ولا نزني، ولانقتل أولادنا ولا نأتي بهتانا، ولا نعصي في معروف». وبايعه في العقبة الأولى

ستَّة حضروا بأنفسهم مع ستَّة أخرى في الثانية، إلاَّ جابر بن عبد الله بن رباب رضي الله عنه لم يحضر في الثانية، وقال ابن إسحاق: في الثالثة ثلاثة وسبعون. وبسطت هذا في "الهميان" وغيره.

وبيَّن البيع بقوله: ﴿**يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ**﴾ لأنَّ بذل أنفسهم لله هو البيع لا الشراء، وإن شئت فقل: بيان للشراء أيضا، لأنَّ بيان البيع بيان للشراء وبالعكس، وفي ذكر القتال ذكر لإنفاق المال، لأنَّه بالمال ذهابا ومباشرة ورجوعا، وفي ذلك شمول من لم يتفَّق له القتال لغيره، وقد قصده، وشمول من لم يتفق أنَّه مقتول، فإنَّ القتال المدافعة، وقعت القتالية أو المقتوليَّة أو لا.

وقيل: ﴿يُقَاتِلُونَ﴾ أمرٌ في صورة الإخبار، ولا دليل عليه ولا يناسبه ما بعده، بخلاف «تُجَاهِدُونَ» فإنَّ جزم «يَغْفِرْ»[1] في جوابه يدلُّ أنَّه أمر، والمقتوليَّة إن كانت إخبارا نافرته، وإن كانت أمرا فإنَّه لا يعتاد أن يأمرهم الله بأن يكونوا مقتولين، ثمَّ إنَّ بعضا قاتل مقتول بعد أو غير مقتول، وبعض مقتول غير قاتل، والآية على التوزيع، وأيضا فعل البعض أو صفته قد يسند إلى الكلِّ، قال رسول الله ﷺ: «**ما من غازية تغزو في سبيل الله فيصيبون الغنيمة إلاَّ تعجَّلوا ثلثي أجرهم من الآخرة، ويبقى لهم الثلث، وإن لم يصيبوا غنيمة تمَّ لهم أجرهم**»[2] وفي رواية: «**إن مات في الغزو تمَّ أجره**» أي ولو غنم أو مات

١- يشير إلى لفظتي «تُجَاهِدُونَ» و«يَغْفِرْ» من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا هَلَ اَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ اَلِيمٍ تُومِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَالِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمُ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الاَنْهَارُ﴾ (سورة الصف: ١٠-١٢).

٢- رواه **مسلم** في كتاب الإمارة (٤٤) باب بيان قدر ثواب من غزا فغنم ومن لم يغنم، =

بلا قتل، قلت: إنَّما ينقص ثلثا الأجر إن نوى الجهاد للتقرُّب إلى الله تعالى وللغنيمة، وإن لم ينو الغنيمة تمَّ له الأجر، وإن نواها وحدها فلا شيء له في الآخرة، وفي صحيح البخاري ومسلم: «**إنَّ المجاهد يرجع بما نال من غنيمة وأجر**»[1] وظاهره رجوعه بالأجر التام.

﴿**وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا**﴾ مصدران مؤكّدان لغيرهما، لأنَّ معنى الشراء بأنَّ لهم الجنَّة وَعْدٌ لهم بها، أي وعد الله ذلك على نفسه وعدًا، وحقَّه حقًّا، أو حقَّ أي ثبت ذلك حقًّا، كقولك: أنت ابني حقًّا، ويجوز كونُ «حَقًّا» نعت «وَعْدًا»، والأوَّل آكد، وكونُ «عَلَيْهِ» نعتا لـ«وَعْدًا» أو حالا من «حَقًّا». وزعم بعض المحقّقين أنَّ «وَعْدًا» منصوب مضمون اشترى من الوعد، وفيه أنَّ هذا المضمون هو الذي دلَّ على تعدِّي الناصب، لأنَّ الآية ليست من باب: "قمت وقوفا".

﴿**فِي التَّوْرَاةِ وَالاِنجِيلِ**﴾ فالوعد بالجنَّة لهذه الأمَّة مذكور في كتب الله السابقة ﴿**وَالْقُرْءَانِ**﴾ من غير هذه الآية من كلِّ آية ذكر فيها ثواب الجهاد، أو أشير فيها إليه، ويجوز دخول هذه الآية كشاة الأربعين أثَّرت في نفسها وغيرها، وهو متعلّق بـ«حَقًّا» أو بـ«وَعْدًا»، أو نعت لأحدهما، وإن علّق بـ«اشْتَرَى» شملت الآية أمر أهل التوراة والإنجيل بالقتال والثواب لهم، وشملت الأمَّة. قيل: في الآية دليل على أنَّ الأمر بالجهاد مشروع في جميع الشرائع، وليس كذلك، فإنَّ كثيرا من الأنبياء لم يؤمر بالقتال كعيسى عليه السلام.

=

رقم ١٥٣ (١٩٠٦). ورواه **الحاكم** في كتاب الجهاد، ج٢/ ص٨٨، رقم (٣٩). من حديث عبد الله بن عمرو.

١- لم نقف على تخريجه بهذا اللفظ.

﴿وَمَنَ اَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اَ للهِ﴾ استفهام إنكار، أي لا أوفى به منه، والوفاء بالعهد هو الأصل طبعا وشرعا ولا سيما من الأكابر، فكيف من الخالق، وهذا في غاية التأكيد للوعد، وزاد التأكيد بأن سمَّاه عهدا، فقد أكَّد الشراء بكونه من ا لله الغنيِّ الذي لا يحتاج، وبـ«وَعْدًا»و بـ«حَقًّا» وبـ«عَلَى»، وبذكره في الكتب وبـ«مَنَ اَوْفَى»، وبتسميته عهدا.

﴿فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الذِي بَايَعْتُم بِهِ﴾ إذا كان الأمر كذلك فاستبشروا، أي افرحوا به لأنَّ لكم النجاة من النار دار الغضب، والفوز بالجنَّة دار الرضى، وجوار ا لله.

(لغة) والاستبشار: إظهار الفرح على البشرة، أي جلدة الوجه؛ والسين والتاء للتأكيد، أو للمطاوعة بمعنى: عالجوا الفرح فيحصل، وأولى من هذا أن يقال: لموافقة ما ليستا فيه، كأنَّه قيل: أبشروا، وليس هذا مطاوعة، ولعلَّ من عبَّر بالمطاوعة أراد بها الموافقة لا المطاوعة المعهودة في النحو والصرف، ثمَّ إنَّ الاستبشار إمَّا أن يكون ممَّا لا يكسب، فالأمر به مجاز عن وقوعه بعد العلم بالوعد، وإمَّا أن يراد به ما يكسب بنطق وبتشديد الوجه إلى الجوانب وبسطه، فهو أمر على ظاهره.

وفي «اسْتَبْشِرُوا» التفات من الغيبة إلى الخطاب، ومقتضى الظاهر فليستبشروا بشراء ا لله، وَلَكِنَّ المراد: أبشروا بأنَّ فعلكم الذي هو البيع أصاب المقصود الأعظم وهو الجنَّة، فليرغب الراغب في مثل ذلك الفعل، والرابط ضمير «بِهِ» وهو في الأصل مفعول مطلق، أي بايعتموه، والمراد: بايعتم ا لله به، وليست الآية التفاتا إلى الخطاب من الغيبة لأنَّ المراد بالمؤمنين في قوله: ﴿إِنَّ ا للهَ اشْتَرَىٰ...﴾ أنَّه على طريق العموم ولو صدق بالمخاطبين في قوله: ﴿فَاسْتَبْشِرُواْ﴾. ﴿وَذَٰلِكَ﴾ البيع، ﴿هُوَ اَلْفَوْزُ اُلْعَظِيمُ﴾.

﴿التَّآئِبُونَ﴾ خبر لمحذوف، أي أولئك المؤمنون هم التائبون من الشرك والمعاصي ومساوئ الأخلاق، على طريق قطع النعت، ويدلُّ له قراءة عبد الله وأُبي: «التَّآئِبِينَ» بالياء على أنَّه نعت للمؤمنين، ولا دليل على أنَّه مقطوع إلى النصب؛ أو مبتدأ خبره محذوف، أي التائبون لهم الجنَّة أو من أهل الجنَّة، وإن لم يجاهدوا حيث أبيح لهم ترك الجهاد، قال الله تعالى: ﴿وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَىٰ﴾ (سورة النساء: ٩٥) أو خبره قوله: ﴿الْعَابِدُونَ﴾ وما بعد هذا نعوت، أو أخبار متعدِّدة، أو الخبر «الآمِرُونَ»، والمراد: العابدون لله بإخلاص عبادتهم على وجهها ودوامها في مدَّة حياتهم، ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ (سورة مريم: ٣١).

﴿الْحَامِدُونَ﴾ لله في السرَّاء والضرَّاء، قال ﷺ: «**أوَّل من يدعى إلى الجنَّة يوم القيامة الذين يحمدون الله على كلِّ حال في السرَّاء والضرَّاء**»[١]. والحمد: الوصف بالجميل، وقيل: المراد هنا الشكر في مقابلة النعمة، وعن عائشة رضي الله عنها: كان النبيء ﷺ إذا أتاه الأمر يسرُّه قال: «**الحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات**» وإذا أتاه الأمر يكرهه قال: «**الحمد لله على كلِّ حال**»[٢].

﴿السَّآئِحُونَ﴾ الصائمون، قال ابن عبَّاس: كلُّ سياحة في القرآن صوم، قال ﷺ: «**سياحة أمَّتي الصيام**»[٣] وذلك أنَّ السائح يكتفي بما وجد من قوت، والصائم يمتنع عَمَّا حلَّ له قبلُ وعمَّا حرم، على الاستعارة، ومن حقَّق

١- رواه **الحاكم** في كتاب الدعاء والتهليل والتسبيح والذكر، ج١/ ص٦٨١، رقم١٨٥١ (٥١). ورواه **المنذري** في الترغيب في التسبيح، ج٢/ ص٤٣٧، رقم٤٨. من حديث ابن عبَّاس.

٢- رواه **ابن ماجه** في كتاب الأدب (٥٥) باب فضل الحامدين (٤٠) رقم ٣٨٠٣. ورواه **الحاكم** في كتاب الدعاء...، ج١/ ص٦٧٧، رقم١٨٤٠ (٤٠). من حديث عائشة رضي الله عنها.

٣- أورده **القرطبي** في تفسيره، ج٨/ ص٢٧٠.

الصوم لم يحتفل بما يلتذُّ به وقت الإفطار. أو السائحون في عالم الروحانـيَّات بالانتقال في المعارف على مراكب الفكر، أو بترك ما يعوق من اللذَّات. وعن عليٍّ: هم الغزاة يقطعون الأرض إلى العدوِّ. وعن عكرمة: طلاَّب العلم من بلد إلى بلد، [قلت:] ولا مانع من تفسيره بالسير في الأرض للعبادة كطلب العلم والزيارة والغزو والحجِّ. وسئل ﷺ عن السياحة في الآية ففسَّرها بالصوم، وكذا عن عائشة وعنه ﷺ الجهاد.

﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾ في الصلاة أو كأنَّه قيل والمصلُّون، وخصَّهما لامتياز المصلِّي بهما عن غيره، ولذمِّ من لا يركع في صلاته أو لا يسجد، وهم أهل الكتاب، والقرآن [في الصلاة] ولو كان أعظم لكن هما أدلُّ على الخضوع، والآية في الفرض والنفل، فالمراد: أكثروا الصلاة، وفسَّرها بعض بصلاة الفرض. ولم يعطف فيما مرَّ لأنَّه صفات للشخص في نفسه ولا بدَّ لكلِّ شخص منها، فترك العطف لشدَّة الاتِّصَال، بخلاف الأمر والنهي والحدِّ كالرجم والجلد، فيجوز اختلاف فاعلها، وقدَّم التوبة والعبادة والحمد والسياحة والركوع والسجود، لأنَّ الإنسان يكمُل بها فلا يكون مكمِّلا لغيره بالأمر والنهي وإقامة الحدود حتَّى يكون كاملا في نفسه. ولا يقال: الصحيح في الحدود أن لا تفسَّر بنحو الجلد والرجم لأنَّا نقول: نفسِّرها بالعموم، فهو يعمُّها ونحوها من الفرائض.

﴿الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ من واجبٍ وما دونه، ومكارمِ الأخلاق ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ من شركٍ وما دونه، ومساوئ الأخلاق ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ﴾ أي لحدوده الشَّرعِيَّة التي لم تذكر من القلب والجارحة، أو عطف عامٍّ على خاصٍّ، فقيل: العطف تنبيه على أنَّ ما قبله مفصَّل الفضائل وهذا مجملها، نحو: زيد وعمرو وسائر قبيلته كرماء، وقيل: عطف على ما قبله من الأمر والنهي، لأنَّ من لم يصدِّق قولَه فعلُه لا يفيد أمره نفعا ولا نهيه منعا، وقيل: الحدود القصاص والرجم والجلد والأدب، وعطف «النَّاهُونَ» يتبادر أنَّه موصول

بما يناسبه وهو «الاَمِرُونَ» كلاهما طلب، الأوَّل طلب فعل والثاني طلب ترك، فهو معطوف على «الآمِرُونَ»، وما شهر من أنَّ العطف على الأوَّل إذا كان العاطف لا يترتّب إنّما هو إذا لم يقم دليل على غيره.

(نحو) وعطف «الْحَافِظُونَ» لأنّه ثامن، والعدد تمَّ بالسبعة، وهي واو الثمانية كما قيل في: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ (سورة الكهف: ٢٢) فالعطف لمغايرة ما بعد التمام لِمَا قبله، قال بعض النحويِّين: واو الثمانية لغة فصيحة، قال القرطبي: لغة قريش، وإنّما جعلنا هذه واو الثمانية لأنّا جعلنا الآمرين والناهين قسما واحدا، ولا سيما أنَّ الآمر بالمعروف ناه عن المنكر وهو ترك المعروف، والناهي عن المنكر ناه أيضا عن ترك المعروف آمر بالمعروف، وإلاَّ فواو الثمانية واو قوله: ﴿وَالنَّاهُونَ﴾ ولم يرض أكثر النحويِّين بواو الثمانية، [قلت:] والحقُّ عندي جواز واو الثمانية، مع أنَّها للعطف أو غيره من معاني الواو، لا على أنَّ معناها الثمانية، ولعلَّ من قال بها أراد ما ذكرت.

(بلاغة) وقد قيل: العطف في ﴿وَالنَّاهُونَ...﴾ لِمَا بين الأمر والنهي من التقابل، فإنَّ الأمر والنهي من حيث هما أمر ونهي متقابلان، بخلاف الصفات الباقية فإنَّ الآمر ناه والناهي آمر، فأشير إلى الاعتداد بكلٍّ من الوصفين، وأنّه لا يكفي عن واحد ما في ضمن الآخر، ولأنَّ بينهما تلازما في الذهن والخارج، لأنَّ الأوامر تتضمَّن النواهي وبالعكس، وتنافرًا بحسب الظاهر، لأنَّ الأمر طلب فعل والنهي طلب ترك، فكانا بين كمال الاتِّصَال والانقطاع المقتضي للعطف، وقيل: العطف فيهما للدلالة على أنَّهما في حكم خصلة واحدة، كأنّه قيل: الجامعون بين الأمر والنهي، واعترض بأنَّ الركوع والسجود في حكم خصلة واحدة أي الجامعون بين الركوع والسجود، ويدفع بأنَّ كلاًّ غير الآخر بخلاف الأمر والنهي كما مرَّ.

﴿وَبَشِّرِ الْمُومِنِينَ﴾ بالجنّة، وَحَذَفَه للتعظيم، كأنّه قال: بشِّرهم بما لا يطيق الخلق تفصيله، واختصاره: الجنّة، أو رضى ا لله، و«الـ» للعهد، وهم من ذكر، فمقتضى الظاهر: بشِّرهم، لكن أظهر للفاصلة، ولبيان أنَّ إيمانهم كامل حتّى استحقّ ذلك الفضل، وليؤذن بعلّة التبشير وهي الإيمان.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيٓءِ وَالذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَّسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُۥٓ أَنَّهُمُۥٓ أَصْحَٰبُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اَسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ اَللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اَللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ اَللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اِللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾

النهي عن الاستغفار للمشركين وإقامة الحجّة عليهم

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيءِ﴾ أيّ نبيء كان، فـ«الــ» للجنس كما يدلُّ له: ﴿وَمَا كَانَ اَسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ...﴾ فإنه ردٌّ للنقض بمن تقدَّم، فيدخل النبيء محمّد ﷺ بالأولى، أو هو المراد ولو كان من قبله كذلك.

(سبب النزول) ويدلُّ له ما روى كثيرٌ منهم البخاري ومسلم، أنه لَمَّا احتضر أبو طالب قال ﷺ : «**أي عمُّ قل كلمة أحاجُّ لك بها عند ا لله**» فأبى وقال له أبو جهل وعبد ا لله بن أبي أميَّة: يا أبا طالب أترغب عن ملّة عبد المطلب ؟ فأعاد ﷺ وأعاد أبو جهل وعبد ا لله، فقال: إنّه على ملّة الأشياخ، فقال ﷺ : «**لا أزال أستغفر لك ما لم أنه عنه**» فنزلت الآية أي والتي بعدها،

وفي رواية: «**قل لا إله إلاَّ ا لله كلمة أحاجُّ لك**» والمراد مع قول "محمَّد رسول ا لله"، وسبب الاختصار أنَّهم أهل أصنام إذا قالوا لا إله إلاَّ ا لله فقد صدَّقوا بأنَّه رسول ا لله آت لرفض الأصنام.

(سيرة) وروي أنه مات فأخبر عليٌّ رسول ا لله ﷺ فبكى، فقال: «**اذهب فاغسله واكفنه وواره غفر ا لله له ورحمه**»، وفعلت وجعل رسول ا لله ﷺ يستغفر له أيَّاما ولا يخرج من بيته حتَّى نزل: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيءِ﴾

وروي أنَّه لَمَّا احتضر وألحَّ عليه رسول ا لله بالإيمان قال: لولا خوف السبِّ عليك وعلى بني أبيك من بعدي وأن تتَّهمني قريش بالجزع من الموت لقلتها، ولا أقولها إلاَّ لأسرَّك بها. وضعِّف ما روي عن العَبَّاس أنَّه أصغى إلى أبي طالب بأذنه وهو يحرِّك شفتيه فقال يا ابن أخي لقد قالها، فقال ﷺ : «**لم أسمع**» ولَمَّا كان ﷺ يستغفر لأبي طالب استغفر المؤمنون لموتاهم حتَّى نزلت الآية.

(سيرة) وروي أنَّه زار أمَّه بالأبواء حين رجع من فتح مَكَّة وقام باكيا، فقال: «**إني استأذنت ربِّي في زيارة قبر أمِّي فأذن لي واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي، وأنزل عليَّ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيءِ...﴾ حتَّى قرأ: ﴿...لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾**» والأبواء جبل بين مَكَّة والمدينة وعنده بلدة بفتح الهمزة وبالمدِّ، وعن أبي هريرة أتى ﷺ قبر أمِّه فبكى وأبكى من حوله، فقال: «**أذن لي ربِّي في زيارة قبر أمِّي هذا ولم يأذن لي في الاستغفار لها**». وعن ابن مسعود أنَّ رسول ا لله ﷺ أتى المقابر فناجى قبرا مدَّة طويلة ثمَّ بكى فبكينا لبكائه، فصلَّى ركعتين، فدعا عمر ودعانا فقال: ما أبكاكم؟ فقلنا بكينا لبكائك، فقال: «**هذا قبر أمِّي آمنة أذن لي ربِّي في زيارتها ومنعني من الاستغفار لها**». وفي رواية

لمسلم: «**استأذنت ربِّي أن أستغفر لأمِّي فلم يأذن لي، واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي**» قال بعض شرَّاحه: رأى قبرها عام الحديبيَّة فبكى وأبكى من حوله، وروي: زار قبرها حين الفتح في ألف مقنَّع.

زارت أخوالها بالمدينة ومعها رسول الله ﷺ ابن ستٍّ سنين ولَمَّا رجعت ماتت بالأبواء، ثمَّ إنَّ السورة مَدَنِيَّة ولعلَّها آخر سورة نزلت، وأبو طالب مات قبل الهجرة بثلاث سنين فكيف يكون سبب نزول الآية قوله: «**لا أزال أستغفر لك...**» فلعلَّه كان يستغفر له من ذلك إلى أن نزلت الآية بالمدينة. وكان المؤمنون كذلك كما قال: ﴿**وَالذِينَ ءَامَنُواْ**﴾ وذلك بعيد، وكلُّ ما جاز لنبيء يجوز لأمَّته حَتَّى يقوم دليل التخصيص وكذا التحريم.

﴿**أَنْ يَّسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَىٰ**﴾ أي لو لم يكونوا ذوي قربى ولو كانوا أولي قربى، فالعطف على محذوف، وبعض يجعل الواو للحال في مثل هذا، فيكون ما يقدر بالعطف في الإعراب الأَوَّل مفهوما بالأولى.

(أصول الدين) ومعنى الاستغفار أن يطلبوا لهم مغفرة الذنوب، وفي قولك: اللهم أهد المشرك أو الفاسق مشهور المذهب المنع لأَنَّهُ ولاية، وفيه قول بالجواز لأنَّه ﷺ يقول: «**اللهمَّ اهد قومي**» ولا دليل على الخصوصيَّة، وقد يبحث بأنَّ معنى: «**لأستغفرنَّ لك ما لَمْ أُنْهَ**» لأطلبنَّ توفيقك، فتفسَّر الآية بطلب التوفيق فإذا نهي عنه بالآية فقد نهي عن طلب الهداية إذ طلب الهداية هو طلب التوفيق، ويبحث بأنه لا يتصوَّر طلب توفيق من مات على غير توفيق، وأمَّا الحيُّ فيتصوَّر ما لم ينزل من الله ﷻ أنَّه شقيٌّ كما قال: ﴿**مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ**﴾ بالموت على الكفر، أو بالوحي، مثل ﴿إِنَّهُۥ لَن يُّومِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ

مَن قَدَ ـ امَنَ﴾ (سورة هود: ٣٦) ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ فما داموا أحياء لم يمنع طلب الاستغفار أو التوفيق، وهذا ظاهر الآية وقواعد المذهب لم توافقه[1]، الجواب أنَّ التبيُّن لا يختصُّ بالموت أو الوحي بل بالجزم بأنَّه كافر ولو كان حيًّا، فإذا تحقَّق الكفر لم يجز الاستغفار له.

﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ﴾ إذ قال ﴿لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ (سورة الممتحنة: ٤) ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ (سورة مريم: ٤٧) ﴿إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا﴾ إبراهيم ﴿إِيَّاهُ﴾ أباه، فهي مخصوصة بإبراهيم، لا يجوز ذلك لغيره، و لم يعده ا لله لغيره فذلك نفس مذهبنا، وزعم بعض أنه يجوز عود ضمير «وَعَدَ» لأبي إبراهيم، و«إِيَّاهُ» ضمير إبراهيم، وأنَّه وعد لابنه إبراهيم أن يسلم فاستغفر له لوعده، وهذا لا يجوز الآن.

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ بالوحي بأنَّه لا يؤمن، أو بالموت على الكفر، وأمَّا بدونهما فالتوبة محتملة ﴿أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ قطع عنه الاستغفار، وأمَّا غير إبراهيم فيبرأ من الكافر عند الجزم بكفره، لا ينتظر موتا ولا غيره، فكن أنت يا محمَّد [كذلك] لا تستغفر لكافر بعد الجزم بكفره ولا تنتظر موتا ولا غيره، والتقييد بالموت ونحوه مخصوص بإبراهيم والعِدَة مخصوصة به.

(أصول الدين) وذلك نفس مذهبنا، وسائر الآيات الآمرة ببغض الكافر وإقصائه وبراءته أدلَّة لنا كيف يجتمع بغضنا له وإقصاؤه والاستغفار له؟ لا وا لله، فإنه تناقض وبقي طلب الهداية فأجيزت في قول، وقد تقاس على الاستغفار فتكون الآية نهيا له ﷺ عنها أيضا.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ﴾ كثير التأوُّه، وهو قول أوَّه أوَّه تضرُّعا ودعاء، لفرط

١- ذلك لأنَّ الاستغفار له يوجب ولايتك إِيَّاهُ وولاية غير الموفِّي بدين ا لله لا تجوز.

ترحُّمه ورقَّة قلبه، كلَّما ذكر أمرا من الآخرة أو تقصيرا مَّا أشفق، وفي الحديث: «**هود الأوَّاه الخاشع المتضرِّع**»[1]، فالتأوُّه شامل للخشوع وكثرة الدعاء، والتوبة والرحمة والإيقان وكثرة الذكر والتسبيح والتعليم والرجوع عمَّا يكره، وتعلُّق القلب با لله تعالى ﴿حَلِيمٌ﴾ صبور على الأذى لا ينقم ولا يحقد بل يجازي السوء بالخير كما قال لأبيه: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ (سورة مريم: ٤٧) إذ قال: ﴿لأَرْجُمَنَّكَ﴾ (سورة مريم: ٤٦) وإذا أذاه أحد قال: هداك ا لله، وبتلك السيرة فسِّر الحلم، وهذه الآية بيان لِمَا حمله على الاستغفار له، وليس فيكم ما فيه من الرأفة حَتَّى يباح لكم ما أبيح له مِمَّا وعد له وعدا فقط.

والنبيء ﷺ ولو كان أرأف منه لكن حمله ا لله وأمَّته على طريق واحد، وكانوا يستغفرون لموتاهم المشركين.

وَلَمَّا نزل المنع خافوا العقاب عَمَّا صدر منهم قبل المنع أو بعده وقبل وصول الخبر فنزل: ﴿**وَمَا كَانَ ا للهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا**﴾ أي لينسبهم إلى الضلال فيعاقبهم، أو ما كان ا لله ليعاقبهم عقاب الذين ضلُّوا ﴿**بَعْدَ إِذْ هَدَاٰيهُمْ**﴾ بعد وقت هدايتهم إلى الإسلام، لا ما قيل إنَّ ﴿إِذْ﴾ بمعنى "أن" المصدرية، ﴿**حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ**﴾ فإذا بيَّنه لهم فلم يتركوه سمَّاهم ضالِّين وعاقبهم، والمعتبر عموم معنى اللفظ، ولو خصَّ سببه فشملت الآية من شرب الخمر ومات قبل تحريمها، ومن شربها بعد تحريمها وقبل وصول الخبر إليه، ومن صَلَّى إلى المقدس ومات قبل التحوُّل، ومن صلَّى إليه بعد التحوُّل وقبل وصول الخبر إليه، وفي كلِّ مرتكب محرَّم قبل نزوله أو بعده وقبل وصول الخبر، وقد قيل: نزلت في هذه الأشياء

١- أورده **السيوطي** في الدر، ج٣/ ص٢٨٥. **والطبري** في تفسيره، ج١١/ ص٣٧، **والهندي** في الكنز، ج٢/ ص٢٦، رقم٢٩٩٨. من حديث ابن جرير عن عبد ا لله بن شدَّاد بن الهاد مرسلا.

كلّها ﴿إِنَّ ا للهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فهو عالم بأنّكم غافلون لم يبلغكم الوحي نزل أو لم ينزل. ﴿إِنَّ ا للهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ا للهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾ فتبرَّءوا من كلِّ ما يخالفه فهو وليُّكم بالحفظ ونصيركم بدفع الضرِّ ومالِكُكم ورازقكم ومالك حياتكم وموتكم فانقطعوا ولا يتعلَّقْ قلوبكم إلى سواه، ويجوز أن يراد بالسماوات جميع العلويَّات حتَّى العرش والكرسيِّ، وبالأرض جميع الأرضين وما تحتهنَّ.

﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيءِ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالاَنصارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ تَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الاَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾

التوبة على أهل تبوك وعلى الثلاثة المخلَّفين

﴿لَّقَد تَّابَ ا للهُ عَلَى النَّبِيءِ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالاَنصَارِ﴾ أدام توبته عليهم في غزوة العسرة إذ لا ذنب لهم فيها، أو قبلها منهم أو وفّقهم إليها في مطلق أحوالهم لا في خصوص هذه الغزوة، ومن ذلك إذنه في التخلُّف، فيعدُّ ذنبا عليه ﷺ ﴿عَفَا ا للهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ (سورة التوبة: ٤٣) وأسند إليهم لأنّهم تبعوه فيه أو حُكمٌ على المجموع وذكر[١] تبرُّكا كقوله:

١- أي ذكر النبيء معهم.

﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ (سورة الأنفال: ٤٥) وأيضا يعدُّ ترك الأَولى ذنبا في حقِّ الأخيار، **ولا يخلو الإنسان من زلّة.**

ولَمَّا كثر الافتضاح في السورة ظنَّ المسلمون أن لا يبقى أحد إلاَّ نزل فيه قرآن إلى أن نزلت هذه الآية في صبرهم على الشدائد المكفِّرة لزلاّتهم، وسمِّيت سورة التوبة لهذه الآية: ﴿تُوبُوٓاْ إِلَى ا للهِ جَمِيعًا﴾ (سورة النور: ٣١) وفي الحديث: «**إنّه ليغان**[1] **على قلبي فأستغفر ا لله كلَّ يوم مائة مرَّة**»[2] فبنحْوِ هذا تكون التوبة على ظاهرها من قبولها، أو الآية إنشاءٌ لإظهار فضلها، ولفظها إخبار، وقد زعم قوم أنَّ ذلك كلام للتبرُّك كما قيل في: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ (سورة الأنفال: ٤٥) إذ ضمَّ توبتهم إلى توبته ﷺ تعظيما لهم، وقد يكون ذنبهم ميلهم إلى الراحة من شدَّة الحرِّ وشدَّة السفر والخوف من قتال الروم، أو الاهتمام بالانصراف ولكن تصمِّموا على الثبات.

(سيرة) ﴿**الذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ**﴾ شدَّة وقحط، حتَّى إنَّ الاثنين يقتسمان التمرة، ويعتقب العشرة على بعير، مع شدَّة الحرِّ وهم سبعون ألفا بين راكب وماش من المهاجرين والأنصار وسائر القبائل، وذلك مع قلَّة الماء، ويخرج النفر وما معهم إلاَّ تمرات مسوَّسة وشعير متغيِّر، ويتعاقبون على لوك تمرة ويشربون عليها الماء حتَّى تبقى النواة، وأصابهم عطش في منزل حتَّى ظنُّوا أنَّ رقابهم ستقطع، وكان الرجل ينحر بعيره فيعصر فرثه يشربه ويجعل باقيه على كبده، فقال الصدِّيق رضي الله عنه : يا رسول ا لله إنَّ ا لله قد عوَّدك في الدعاء خيرا

١- غين على قلبه غَيْنًا: تغشَّته الهوة، راجع: ابن منظور: اللسان، ج١٠/ ص١٦٢، مادة «غَيَنَ».

٢- رواه **مسلم** في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، رقم ٤٨٧٠. ورواه **أبو داود** في كتاب الصلاة، رقم ١٢٩٤. من حديث الأغر المزني. (م.ح).

فادع الله قال: «**أتحِبُّ ذلك؟**» قال نعم، فرفع يديه ولم ترجعا حتّى غامت السماء فأمطرت وملئوا أوعيتهم ولم يجدوها جاوزت العسكر، وفي هذه الغزوة دعا بتمر قليل وجعله في وعاء وبرَّك فيه، فأخذ أهل العسكر زادهم وبقي كما هو، ونبع الماء من بين أصابعه إذ وَضَعَهَا في إناء ماء حتّى شربوا وسقوا دوابّهم وحملوا، وهذا مبسوط في كتب المغاربة كمواهب القسطلاني، ودلائل الثعالبي، وشرحي على نونية المديح والسهيلي والقاضي عياض.

(نحو) ﴿**مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ تَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ**﴾ «مَا» مَصدَرِيَّة، والمصدر من فِعْلٍ من معنى كاد لأنّها جامدة، وقيل: من لفظها على أنّها لها مصدر، واسم «كَادَ» ضمير الشأن، أو «قُلُوبُ» وعليه ففي «تَزِيغُ» ضمير «قُلُوبُ» وتوالي الأفعال دليل فلا لبس، أو اسمه ضمير القوم المدلول عليه بالمهاجرين والأنصار، والمشهور في خبر أفعال المقاربة أن يكون فِعلِيًّا مضارعيًّا رافعا لضمير اسمها.

وهذا الزيغ اهتمام بعض بالانصراف حين وقعت الشدَّة لكن ندموا، أو خطورٌ بالبال وحسبوا خطوره ذنبا للميل إليه، أو المراد: عظم الوسوسة أو الشرف على الردَّة مِمَّن هو حديث عهد بالإسلام، أو ضعيف الإيمان، ومن ذلك أن يوسوس لهم الشيطان أنّه لو كان نبيئا لم يقع في هذه الشدَّة.

﴿**ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ**﴾ أعاد ذكر التوبة لبيان أنَّ التوبة عليهم من أجل ما كابدوا من العسرة، وليس تكريرا محضا، لأنّه عطف على «كَادَ» لا على تاب الأوَّل، وإن أريد أنه تاب بالثبات على المشقّة أو من كونهم كادوا يزيغون فلا تأكيد، وكذا قيل: ذكر التوبة أوّلاً قبل ذكر الذنب تطييبا لقلوبهم وتفضُّلا، ثمَّ ذكر الذنب وأردفه التوبة مرَّة أخرى تعظيما لهم وتصريحا بالتوبة عن ذنبهم، وأتبعه بقوله: ﴿**إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ تأكيدا لذلك.

وشهر أنَّ الرأفة أخصُّ من الرحمة فكيف قدِّمت ؟ فيجاب بأنَّ الرأفة هنا: العمل في إزالة الضرِّ والرحمة: الإنعام، أو أريد بالرأفة ضدُّ القسوة ونفيها، وبالرحمة إيقاع الإنعام، أو الرأفة: عدم تحمَّل ما لا يطاق، أو أريد بالرحمة تأكيد معناها الموجود في الرأفة، فكأنَّها تتمَّة لها، فكأنَّها ليست شيئا زائدا عليها انتقل منها إليه، فحينئذ يقال إذًا: يجوز لنا "زيد فصيح متكلِّم"، قلنا: نعم إذا كان المقام للتأكيد، ولا يجزي أن يقال: قدِّم للفاصلة.

﴿وَعَلَى الثَّلاَثَةِ﴾ عطف على قوله: ﴿عَلَى النَّبِيءِ﴾ لأنَّه ذكر أوَّلاً وغيره مثله وتبع له، أو على «الاَنصَارِ» لأنَّه آخر ومن جنسهم. والقسَم منسحب على الثلاثة كأنَّه قيل: لقد تاب الله على النبيء والمهاجرين والأنصار وعلى الثلاثة، ولكن إذا عطف على الأنصار كان من باب العطف على المعنى المقول له في غير القرآن: "عطف توهُّمٍ"، لأنَّ «عَلَى» في المعطوف لا في المعطوف عليه وهي فيه بمعنىً، وكأنَّه قيل: وعلى الأنصار وعلى الثلاثة، ولا يصحُّ العطف على «عَلَيْهِمْ» لأنَّ الثلاثة لم يتَّصفوا بكيد زيغ قلوبهم فلا تهم.

﴿الذِينَ خُلِّفُواْ﴾ خلَّفهم رسول الله والغزاة تركوهم ولو لم يقولوا: اقعدوا خلفنا، تقول: خلَّفت عمرا خلفي، ولو لم تقل: اقعد خلفي ولا تسرع لأجل أن يكون خلفك؛ أو خلَّفوا أنفسهم؛ أو خلَّفهم الشيطان عن الغزو؛ أو خلَّفهم الله عن قبول التوبة، لأنَّهم المرجون؛ أو خلَّف أمرهم عَمَّن قبلت توبته من أبي لبابة ونحوه.

والثلاثة: كعب بن مالك، وهو من بني سلمة، وهلال بن أميَّة من بني واقف، ومرارة بن الربيع من بني عمرو بن عوف، ويقال فيه: ابن ربيعة، وفي مسلم مرارة بن الربيع العامري، والواضح أن يقول: العَمْري بفتح العين

وإسكان الميم نسبا إلى بني عَمْرو بن عوف، قال كعب: معنى ﴿خُلِّفُوا﴾ أرجي أمرنا، لا على معنى تخلُّفنا عن الغزو؛ أو خلَّفوا أنفسهم عن الاعتذار والتوبة كما اعتذر أبو لبابة وأصحابه.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا﴾ خرجت عن الشرط ونصب الظرفيَّة إلى الجرِّ بـ«حَتَّـى»، أو «ثُمَّ» زائدة في جوابها بعدُ وهو ضعيف؛ أو جوابها يقدَّر بعد «لِيَتُوبُوا» هكـذا: تنشرح أنفسهم. ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الاَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ برحبها أي مع رحبها، وذلك لضيق قلوبهم حتَّى لا تسـكن إلى شيء منهـا ولا إلى شيء مـن أحـوال أهلها، والرحب: السعة، ندما عن فراق رسول الله ﷺ وعدم مرافقته في الغزو، وخوفا من أن يموتوا فلا يُصَلَّـي عليهـم، أو يموت ﷺ فـلا يُصَلِّي عليهـم، ولا يكلَّمون دائما.

﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمُ أَنفُسُهُمْ﴾ قلوبهم لذلك ولإعراض الناس عنهم بالكلِّيَّة وفرط الغمِّ والوحشة، وضيق نفس الإنسان عليه أشـدُّ مـن ضيـق الأرض عليـه، فذلك ترقٍّ. وضيق الأرض كناية عن الوحشة، ولكـن تكون بكـلٍّ مـا أمكـن، ويجوز أن يكون فسرها بضيق الأنفس وذلك بسـط للكـلام، وإن شئت فضيق الأرض انقباض الناس وضيق الأنفس همُّها به، وبمخالفة الرسول.

(سيرة) قـال كعـب: نهـى رسـول الله ﷺ النـاس عـن كلامنـا أيـَّتها الثلاثة، فاجتـنبنا الناس حتَّى تنكَّـرت في نفسـي الأرض، فمـا هـي الـتي أعـرف، ولزم صاحباي بـيوتهما يبكيان، قال: لقد شهدت ليلة العقبـة ومـا أحـبُّ أنَّ لي بها بدرا، ولو كان بدرا شهر في الناس ولم أشهده لأنَّه ﷺ لم يعزم علـى النـاس فيه، لأنَّه خرج للعير فوفَّقـه الله تعـالى إلى القتـال، ولم يعـاتب أحـدا علـى عـدم مشهده، ولم أتخلَّف إلاَّ في غزوة تبوك، وكنت كلَّ يوم أقصد التجهُّز لألحق بـه

وأكسل، حتَّى بعُدُوا واشتدَّ هَمِّي لأنِّي لا أرى في المدينة إلاَّ معذورا أو منافقا، لَمَّا بلغ تبوك قال: **«ما فعل كعب بن مالك؟»** فقال رجل: يا رسول الله حبسه برْداه والنظر في عطفيه، فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا فيه إلاَّ خيرا، ولَمَّا سمع ملكُ غسَّان بهجرنا أرسل إليَّ كتابا: «الحق بنا نواسك لم يخلقك الله بدار مضيعة»، فقلت: هذه بليَّة أخرى، فألقيت كتابه في التنُّور، وقلت: يا رسول الله، ما كنت أيسر قطُّ مِنِّي حين سافرت، وإنِّي ذو لسان واحتجاج لكن إن كذبت أخبرك الله، وإن صدقت رجوت العفو، وقد اعتذر ثمانون رجلا منافقون ففضحهم الله ﷻ، وكنت أشبَّ القوم وأجلدهم أشهد الصلاة مع رسول الله ﷺ وأطوف في الأسواق ولا يكلِّمني أحد، وأسلِّم على رسول الله ﷺ في مجلسه بعد الصلاة، وأقول في نفسي: هل حرَّك شفتيه بالردِّ وأسارقه النظر، وإذا أقبلت على صلاتي أقبل إليَّ وأنا قريب منه، وإذا التفتُّ نحوه أعرض عنِّي، وتسوَّرت على أبي قتادة جدار حائطه وهو ابن عمِّي وأحبُّ الناس إليَّ، فسلَّمت عليه، فوالله ما ردَّ عليَّ، فقلت: أنشدك الله هل تعلمني أُحبُّ الله ورسوله؟ وسكت، وأعدت له وفي الثالثة قال: الله ورسوله أعلم، ولَمَّا مضت أربعون ليلة أرسل إلينا رسول الله ﷺ: اعتزلوا أزواجكم فأمرتها أن تذهب إلى أهلها حَتَّى يقضي الله، ولَمَّا تَمَّت خمسون ـ وقيل: أكثر ـ قعدت على ظهر بيتي عقب صلاة الفجر، ونزلت توبتنا فسعى ساع وركض فارس للتبشير، وافى على سلع رجل من أسلم وهو جبل، ونادى يا كعب بن مالك أبشر فخررت ساجدا والصوت أسرع من الفرس، فأعطيته ثوبين مالي سواهما فاستعرت ثوبين ولبستهما وانطلقت إليه ﷺ والناس يهنِّئونني حتَّى سلَّمت عليه ﷺ في المسجد، والناس حوله فقال: **«أبشر بخَيْرِ يومٍ مرَّ عليك من حين وُلدت»** فقلت: أمن عندك يا رسول الله أم من الله؟

قال: «**لا بل من ا لله**» ووجهه يبرق في حينه، وكان إذا سرَّ برق وجهه كأنّه قطعة قمر، وقام إليَّ طلحة يهرول حتّى صافحني وهنّأني، وا لله ما قام إليَّ رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة، ونزل: ﴿لَقَد تَّابَ ا للهُ....﴾ إلى: ﴿...الصَّادِقِينَ﴾ وحصته من ذلك هو الصدق إذ لم يعتذر بكذب وإلاّ فإنّه لم يغز العسرة.

﴿**وَظَنُّواْ**﴾ أيقنوا مبدأ العلم، واليقين الظنُّ، فالظنُّ كالباب فتحوه ووصلوا المطلوب، أو حكمة التعبير بالظنِّ التلويح إلى الظنِّ الذي هو العلم، ولو لم يبلغ اليقين كَافٍ ﴿**أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ ا للهِ إِلاَّ إِلَيْهِ**﴾ من سخط ا لله إلى شيء إلاّ إلى استغفاره والتضرُّع إليه ﴿**ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ**﴾ أنزل قبول توبتهم في القرآن في نفس هذه الآية، وبإيحائها إلى رسول ا لله ﷺ، أو أظهرها ليعدُّوا من جملة التوّابين، أو رجع عليهم بالقبول والرحمة بعد ما وقعا ليستقيموا على توبتهم، أو وفّقهم للتوبة ليوقعوها، وفي هذا تكون «ثُمَّ» بمعنى الواو لأنّه وفّقهم للتوبة حين قدم رسول ا لله ﷺ من تبوك، أو على ظاهرها بمعنى إتمامها وإكمالها، وذلك تحقّق بعد الخمسين، وقيل: المعنى قبل توبتهم ليتوبوا بعدُ من كلِّ ما صدر منهم ولا يقنطوا.

(سيرة) ﴿**إِنَّ ا للهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾ المتفضّل ولو عاد في اليوم مائة مرّة، ألا ترى إلى صفتي المبالغة فعّال وفعيل؟ قال كعب: غزو العسرة حين كانت الثمار والظلال و لم أخرج وليتني خرجت وما تخلّفت عن غزوة إلاّ هذه، ولَمَّا جلس ﷺ في تبوك قال: «**ما فعل كعب بن مالك؟**» وما ذكرني قبل، فقال رجل من بني سلمة: يا رسول ا لله حبسه برداه ونظره في عطفيه، فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت! وا لله يا رسول ا لله ما علمنا عليه إلاّ خيرا، فسكت ﷺ، ولَمَّا بلغني قفوله من تبوك جعلت أنظر كذبا أعتذر به وأشاور

أهل الرأي والحيل، ثمَّ انشرح صدري إلى الصدق حين قرب وصوله، فجاء فدخل المسجد على عادته إذا قدم وصلَّى ركعتين وجلس للناس، فجاء المخلَّفون يعتذرون ويحلفون وهم بضعة وثمانون رجلا فقبل منهم على ظاهرهم واستغفر لهم، ولَمَّا سلَّمت عليه تبسَّم تبسُّم المغضب وجلست بين يديه، فقال: «**ما خلَّفك؟ ألم تكن قد ابتعت مركوبك؟**» فقلت: بلى وا لله يا رسول ا لله، لو جلست عند غيرك لاعتذرت ولقد أوتيت جَدَلاً، لكن إن كذبت فضحني ا لله وأسخطك عليَّ، وإن صدقت تغضب عليَّ وأرجوا عفو ا لله، لا عذر لي، تخلَّفت وأنا موسر قادر، فقال: «**أمَّا هذا فقد صدق فقم حتَّى يقضي ا لله فيك**» فقمت، واتَّبَعَني رجال من بني سلمة يقولون: ما أذنبت قبل هذا فاعتذر كما اعتذروا يستغفر لك رسول ا لله ﷺ، وما زالوا حتَّى كدت أطاوعهم، ثمَّ قلت: هل معي مثلي؟ قالوا هلال ومرارة، فذكروا صالحين شهدا بدرا ولي فيهما أسوة فلم أعتذر.

قال: في هذا الصدق نزل قوله: **﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُواْ ا للهَ﴾** خطاب عامٌّ، وقيل: لمن أسلموا من أهل الكتاب **﴿وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾** كما مرَّ عنه، ولا يعارضه ﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُواْ ا للهَ﴾ ولا الأمر بالمعيَّة فلا مانع من أن يقول ا لله للمؤمنين: اتقوا الكذب والمعاصي وكونوا مع من صدق ككعب بن مالك ومرارة وهلال في الصدق مع التوبة، في أخباركم وأيمانكم وعهودكم وأحوالكم وأفعالكم وأقوالكم دينا ودنيا، هكذا بحسب الإمكان لا في خصوص الصدق في التخلُّف، ولا يتوهَّم ذلك فلا إشكال فلا تهم.

وقد قيل: المراد بالصادقين هؤلاء الثلاثة، وقيل: محمَّد وأصحابه، وقيل: أبو بكر وعمر وأصحابهما، **وقيل: الصادقون كلُّ الصادقين لا خصوص الثلاثة**، وهو المشهور، وأكذب الخلق إبليس والعياذ با لله منه، وإنَّما لم يكذب بترك

﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (سورة الحجر: ٤٠) لأنـه تكلّـم مـع ا لله ولا يخفى عنه شيء، لا لكونه استقبح الكذب فلا تهم.

قال ابن مسعود: **لا يصلح الكذب في جدّ ولا هزل** ولا يعد أحدكم صبيته شيئا ثمّ لا ينجزه وتلا الآية، وعنه ﷺ: «**كلُّ الكذب يكتب على ابن آدم إلاَّ رجلا كذب خدعة في حرب أو إصلاح بين اثنين أو ليرضي امرأته**»[1] قال رجل: يا رسول ا لله أريد الإسلام ومنعني أنّك تحرّم الخمر والزنى والكذب والسرقة، فقال: «**أترك الكذب**» فأسلم فعرض له الثلاثة فقال: «**إن فعلت وقلت لم أفعل كذبت، وإن أقررت حددت**» فقال: يا رسول ا لله ما أحسن ما فعلت لَمَّا منعتني من الكذب انسدَّ عَنّي أبواب المعاصي.

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾

فرضية الجهاد على أهل المدينة والأعراب وثوابه

﴿**مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَـنْ حَوْلَهُـم مِّنَ الأَعْرَابِ**﴾ كمزينة وأشجع وأسلم وغفار وجهينة ﴿**أَنْ يَّتَخَلَّفُواْ عَـن رَّسُولِ ا للهِ**﴾ إذا غـزا بنفسـه وإن لم

١- أورده **العراقي** في إتحافه، ج٩/ ص٥٩١، مع اختلاف في اللفظ.

يخرج بقي بعض لخدمته ﷺ ولتلقّي الوحي عنه ولتعليمه لمن خرج، والجملة خبر لفظا ومعنى، تفيد ما أفاده النهي، فإنّك إذا قلت: لا يجوز كذا في الشرع أو لا يحلُّ كذا فكأنّك قلت: لا تفعله، فلا تهم، بل نفي الجواز أبلغ من النهي، إذ قد ينهى عن جائز تنزيها أو لعلّة مَّا، بخلاف قولك: لا يحلُّ كذا.

﴿وَلاَ يَرْغَبُواْ﴾ نهي بـ«لاَ» فالفعل مجزوم والعطف على ﴿مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾، لأنَّ المعنى واحد، أو «لاَ» نافية فالفعل منصوب والعطف على «يَتَخَلَّفُوا» ﴿بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ﴾ الباء للتعدية، كأنّه قيل: لا يجعلوا أنفسهم راغبة عنه فيصونوها عمَّا لم يصن نفسه، من نحو شدَّة السفر للقتال في الحرِّ والبعد والجوع، أمروا أن يتلقّوا الشدائد بأنفسهم كما يتلقّاها.

(سيرة) روى البيهقي أنَّ أبا خيثمة وهو رجل من الأنصار أحد بني سالم بن الخزرج شهد أحدا ومات في أيَّام يزيد بن معاوية، أتى إلى بستانه ورشَّت له امرأته الأرض بالماء في الظلِّ وفرشت عليها الحصير، وقرَّبت إليه الرطب والماء البارد، فقال: ظلٌّ ظليل ورطب يانعة وماء بارد وامرأة حسناء ورسول الله ﷺ في الريح والضح! ـ أي حرُّ الشمس ـ ما هذا بخير، فرحَّل ناقته وأخذ سيفه ورمحه، ومرَّ كالريح ومدَّ ﷺ عينه إلى الطريق فإذا براكب يزهاه السراب، أي كأنّه يرفعه السراب لسرعته، فقال: كن أبا خيثمة، ففرح واستغفر له، وأبطأ أبو ذرٍّ في الطريق لبعيره فأخذ متاعه وحمله وترك البعير، فرأى رسول الله ﷺ شخصا فقال: «**كن أبا ذرٍّ**».

﴿ذَالِكَ﴾ المذكور من النهي عن التخلُّف والرغبة ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ لأنّهم ﴿لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ عطش مَّا ولو قلَّ ﴿وَلاَ نَصَبٌ﴾ تعب مَّا ولو قلَّ ﴿وَلاَ مَخْمَصَةٌ﴾ مجاعة ما ولو قلّت ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَطَئُونَ مَوْطِئًا﴾ لا

يدوسون بأقدامهم أو دوابِّهم موضعا صالحا للدوس فهو اسم مكان ميميٌّ مفعول به لا ظرف ولا مصدر ميمي بمعنى الوطء أي الدوس، لأنَّ الكُفَّار يغتاظون بنفس وصول المسلمين موضعا ليس لهم من قبل، لا بنفس دوسه إلاَّ على التوسُّع في العبارة ﴿يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ نعت لـ«مَوْطِئًا»، والمعنى: يجعلون الحزن والشدَّة في قلوبهم أو يغيظهم، والإسناد مجاز عقليٌّ لعلاقة السَّبَبِيَّة، لأنَّ الغائظ المسلمون، أو وطؤهم على تقدير مضاف، أي يغيظ وطؤه، والضمير لـ«مَوْطِئًا» أو للوطء المعلوم من قوله ﷻ : ﴿وَلاَ يَطَئُونَ﴾ وليس الغائظ موضع وطئهم، ولو كان مرتَّبا عن سبب مرتَّبٍ عن سبب فإنَّه يغيظهم الموضع الموطوء من حيث ترتُّبه على الوطء المرتَّب عن الوصول إليه.

﴿وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً﴾ مصدر بمعنى اسم مفعول أي شيئا ينال كالقتل والأسر والغنيمة والسبي، وجزية إن عقدت وشيء يصالح به، وهو مفعول به، ولو أبقي على المعنى المصدريِّ لكان مفعولا مطلقا، فيقدَّر المفعول به: لا ينالون قتلا ولا أسرا ولا غنما ولا سبيا ولا جزية إن عقدت ولا ما يصالح به نيلا، وياؤه عن واو على خلاف القياس فالأصل: نال ينول نولا، وقيل: نال ينيل نيلا.

﴿إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ﴾ شيء مِمَّا ذكر استوجب لهم به أو كتب في ديوانهم، والاستجاب سبب للكتب وملزومه، والكتب مسبّبه ولازمه ﴿عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ ثواب صالح فسمِّي الثواب عملا لأنَّ العمل سبب الثواب وملزومه، أو يقدَّر مضاف أي ثواب عمل صالح، أو المعنى: كتب لهم بأحدهنَّ أنَّهم عملوا عملا صالحا، والعمل الصالح يثاب عليه.

(فقه) والآية في أنَّه من قصد خيرا كان سعيه فيه مشكورا من قيام وقعود ومشي و كلام وغير ذلك، وتدلُّ على أنَّ للمدد سهما في الغنيمة ولو

وصل بعد الحرب لأنَّ وطأهم الأرض يغيظ الكفَّار، وقد أسهم ﷺ لابني عامر، وقد قدما بعد انقضاء الحرب، وذلك حثٌّ على الجهاد.

وزاد الحثَّ بقوله: ﴿إِنَّ ا للهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ عموما، فيدخل هؤلاء أوَّلاً أو هم المراد عبَّر عنهم بالمحسنين مدحا، وذكر الإحسان الذي هو علَّة للفاصلة وتلويحا بأنَّ الجهاد إحسان إلى الكفَّار لزجرهم عن النار إلى الجنَّة، كما يضرب المجنون مداواة له والكفر أقبح من الجنون، وإحسان إلى المسلمين لاستكمالهم به وينجوا ويفوزوا، ولصيانتهم به عن سطوة الكُفَّار واستيلائهم.

﴿وَلاَ يُنفِقُونَ﴾ على أنفسهم أو غيرهم في سبيل ا لله ﴿نَفَقَةً صَغِيرَةً﴾ كتمرة وشسع نعل وعِلاقة سيف وعلاقة سوط وسهم ﴿وَلاَ كَبِيرَةً﴾ كما أنفق عثمان ألف دينار وألف بعير وغير ذلك في غزوة العسرة ﴿وَلاَ يَقْطَعُونَ﴾ بالسير ﴿وَادِيًا﴾ مًّا من الأودية، وهو ما بين الجبلين تمرُّ فيه السيول، وما حفره السيل هو بطن الوادي وما لم يحفره هو ظاهر الوادي، وهو في الأصل اسم فاعل ودى الشيء بمعنى سال أو وداه أي أوصله، والمراد هنا مطلق الأرض حقيقة عرفيَّة أو اصطلاحيَّة.

(صرف) ولا " فاعل" يجمع على " أفعلة " إلاَّ واد وناج ونادٍ ﴿إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ﴾ ما ذكر من الإنفاق والقطع ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ا للهُ﴾ بذلك ﴿أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي جزاء مثل جزاء أحسن أعمالهم، أو أحسن جزاء أعمالهم سبعمائة فصاعدا.

فـ«أَحْسَن» في الآية إمَّا نفس العمل، ويقدَّر مضاف قبله أي جزاء العمل الذي هو أحسن الأعمال، وأمَّا الجزاء فيقدَّر مضاف بعده أي أحسن جزاء أعمالهم، والعمل الأحسن هو الواجب المؤدَّى تأدية مجوَّدة.

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

الجهاد فرض كفاية وطلب العلم فريضة

(سبب النزول) ولمَّا بالغ في كشف عيوب المنافقين وقال: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ...﴾ قال المسلمون: والله لا نتخلَّف عن غزوة ولا عن سريَّة يبعثها فنزل: ﴿**وَمَا كَانَ الْمُومِنُونَ لِيَنفِرُواْ**﴾ إلى الجهاد ﴿**كَآفَّةً**﴾ فيبقى رسول الله ﷺ أو يخرج معهم فلا يبقى إلاَّ من هو ضعيف، فتبقى المدينة بلا حرس، وذلك إخبار بمعنى النهي أي لا ينفروا كَافَّة، أو إخبار باق، أي ما كان في دين الله؛ أو «كَانَ» بمعنى يستقيم مجاز، أو ألاَّ ينفروا كافَّة ولا يقعدوا كَافَّة، وهكذا الإسلام بين إفراط وتفريط.

﴿**فَلَوْلاَ**﴾ حرف تحضيض ﴿**نَفَرَ**﴾ بمعنى ينفر، أو حرف توبيخ، فالماضي على ظاهره، وهذا على أنَّه قد صدر منهم النفار جميعا في كلِّ سريَّة، كما حلفوا ولو ردَّهم عن النفار ﴿**مِن كُلِّ فِرْقَةٍ**﴾ قبيلة ﴿**مِنْهُمْ طَآئِفَةٌ**﴾ جماعة فقط، اثنان أو ثلاثة فصاعدا، وقد تطلق طائفة على واحد، ويليق هذا أيضا في بعض الأحيان إذا أراد القلَّة، وربَّما بعث أربعة فصاعدا، ومرَّ كلام في ذلك.

وفي بعض القول: السَّرِيَّةُ ما زاد على المائة إلى خمس مائة، وما زاد عليها إلى ثمانمائة "مَنسِر" بكسر السين، وما زاد إلى أربعة آلاف "جيش"، وما زاد "جحفل"، وسراياه بلا خروج منه سبع وأربعون، وغزواته التي خرج فيها سبع وعشرون قاتل في ثمان منها.

﴿**لِيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ**﴾ من قعد لسماعه ومن خرج لأنَّه يعلِّمه القاعد ما

سمع، والمعنى: ليعالجوا معرفة مسائل الدين والعمل بها، ولا شكَّ أنَّ المراد ما يشمل المواعظ ونحو الصلاة والزكاة والحجِّ والصوم، ونحو النكاح والبيوع والطلاق واللعان والإيجارات والقضاء ﴿وَلِيُنذِرُواْ﴾ بمعنى: لينذر من قعد ﴿قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ﴾ أي القوم الخارجون ﴿إِلَيْهِمْ﴾ إلى القاعدين، وفي ذلك تفكيك الضمائر إذ رجعنا واو «يَتَفَقَّهُواْ» إلى الكلِّ، وواو «لِيُنذِرُوا» للقاعدين كهاء «إِلَيْهِمْ».

وإن أرجعنا ضمير «لِيَتَفَقَّهُوا» للقاعدين وضمير «لِيُنذِرُوا» لهم أيضا لم يكن تفكيك، وفي هذا مخالفة ما يتبادر من أنَّ النفار إلى الغزو بأن نجعل النفار إلى التعلُّم، والسياق وسبب النزول أنَّه إلى الجهاد، فنقول: وما كان المؤمنون لينفروا إلى التعلُّم كَافَّة، وقدَّر بعض: لولا نفر من كلِّ فرقة طائفة وأقام طائفة ليتفقَّهوا.

ولم يقل: وليعلِّموا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلَّهم يفقهون كما هو مناسب لِمَا قبله، **لأنَّه يلزم المعلِّم الإرشاد والإنذار، وغرض المتعلِّم اكتساب الخشية لا التبسُّط والاستكبار** وطلب العلم لذات العلم، فالآية كالنصِّ في أنَّه يجوز التعلُّم لأجل التعليم إذا كان إخلاص، فإنَّ الصحابة لَمَّا سمعوا الآية تعلَّموا ليعلِّموا من خرج، وقد يجعل ﴿لِيَنفِرُواْ﴾ بمعنى لينفروا إلى أمر الدين مطلقا: الغزو والتعلُّم، ولا سيما أنَّ التعلُّم والتعليم باللسان كجهاد السيف، فلولا نفر من كلِّ فرقة إلى ما يليق بها، من تعلُّم أو غزو ليكون في المجموع التفقُّه في الدين والإنذار، ولا تفكيك على هذا.

وفي التعبير بالنفر التحضيض على الغزو ونحوه بسرعة، ولم يذكر التبشير لأنَّ الأهمَّ الإنذار، وعدم التبشير لا يُخلُّ بالتكليف ولا يفرِّط بعدمه في أداء

الفرض، والقلوب القاسية أليق بالإنذار، وقد يقدَّر محذوف هكذا: وليبشِّروهم ويخبروهم بمطلق ما نزل.

فيقدَّر على هذا في قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ محذوف أيضا، أي يحذرون ويتباشرون ويسمعون مطلق ما نزل، لأنَّ الوحي لا ينحصر في إنذار وتبشير.

(سبب النزول) روي أنَّ ناسا من أصحاب رسول الله ﷺ خرجوا في البوادي فأصابوا معروفا من الناس وما ينفعهم من الخصب، ودعوا من لقوه إلى الهدى فقيل لهم: تركتم أصحابكم وجئتمونا! فتحرَّجوا فرجعوا كلُّهم، ودخلوا على النبيء ﷺ، فنزل: ﴿وَمَا كَانَ الْمُومِنُونَ﴾ أي لولا خرج بعض وقعد بعض.

(أصول الفقه) وفي الآية أنَّ خبر الواحد الأمين حجَّة، فإنَّ كلَّ واحد ينذر غيره لا يشرط أن يكون معه آخر أو اثنان، والآحاد يطلق في عرف الأصول على مادون التواتر، ولو اثنين أو ثلاثة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

وجوب قتال الكفار وموقف المنافقين من القرآن

﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ قَاتِلُواْ الذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾ في الأرض أجانب أو أقارب في النسب، نزلت الآية بعدما قاتل أهل اليمن لأنّهم أبعد، وبعدما قاتل قريظة والنضير وخيبر وفدك والعرب في بدر وأحد والأحزاب، وقاتل الروم في تبوك بعض قتالٍ، فلم يبق من يليه بعد في قرب إلاّ الروم في الشام وتبوك منها، فقاتلهم الصحابة والتابعون بعد رسول ا لله ﷺ، وبعد ذلك انتقلوا إلى العراق وهو أبعد، وإلى خراسان ومصر وإلى المغرب وكلُّ ذلك بعضه أبعد من بعض، وقلّت الصحابة في فتح أندلس حتّى قيل لا صحابيّ في قتالها، وفي كتاب "الاستقصاء" أنّه دخلها صحابيٌّ واحد وقد ذكرت اسمه في غير هذه السورة وهو المنيار، وَسمِّيَ المغرب الأقصى باعتبار أنّه أبعد ما بلغ الإيمان، وإلاّ فليس آخر الغرب وإنّما فتحها بعد فتح المغرب.

وكلّما قاتلوا أهل موضع وغلبوهم فهم في ذلك الموضع يليهم الكُفّار بعده، وذلك قتال للمشركين حيث وجدوهم، فلا ينافي: ﴿اقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ (سورة التوبة: ٥)، وإنّما يقال: نسخت هذه الآية بقوله ﷻ: ﴿اقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ﴾ لو صحَّ أنّه قاتل بعد نزولها من هو أبعد قبل من هو أقرب، ولم يثبت ذلك فلا نسخ.

وقتالهم دفعة لا يتصوَّر وفيه مضرَّة، وإذا قاتلوا الأقرب فالأقرب تقوَّوا بالغنيمة ونجوا من شرِّ عدو بينهم وبين العدوِّ الآخر، فلو تركوا عدوًّا وراءهم خافوه على أهلهم ومالهم، وخافوه أن يرجعوا عليهم مع من قصدوه.

وزعم قوم أنَّ المراد الأقرب نسبا وهو وإن كان أنسب لقوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الاَقْرَبِينَ﴾ (سورة الشعراء: ٢١٤) ولأنّهم أحقُّ بالبيان، ولأنّه هو الواقع

إذ قاتل قومه ثمَّ سائر العرب، لكن ذلك قبل نزول هذه الآيةِ، إلاَّ أن يدَّعى أنَّها نزلت قبل ذلك وجعلت بعد في "براءة" وهذا بعيد.

﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أي ولتغلظوا عليهم فيجدوا غلظتكم، فجعل الأمر بالمسبَّب واللازم مكان الأمر بالسبب والملزوم، كقولك: لا أرينَّك هاهنا، والغلظة: الجرأة عليهم والقسوة، والعنف، والصبر وعدم الرأفة ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ بالنصر والحفظ وذلك عموم، ويجوز أن يراد المخاطبون، وعليه فمقتضى الظاهر أنَّ الله معكم.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ ما بعد «إِذَا» الظرفيَّة لتأكيد الربط لا لتزيين اللفظ كما توهَّم بعض، وإنَّما ذلك في الفاء قبل «إِذَا» الفجائيَّة وقطٌّ في قول، والمراد بالسورة هنا بعض آيات السورة أي وإذا ما أنزلت بعض الآيات تمَّت السورة أو لم تتمَّ، وليس المنافقون حاضرين لنزولها وليس في السورة فضيحة لهم لأنَّ هذا مقابل لقوله: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ...﴾ فإنَّه في حضورهم النزول وفضيحتهم، ولكن لا بأس بحمل هذه على العموم.

﴿فَمِنْهُم﴾ من المنافقين ﴿مَّن يَّقُولُ﴾ على الاستهزاء لأصحابه، أو لضعفاء المؤمنين ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ﴾ هذه السورة أي هذه الآيات، أو الآية أو الآيتان، وزيادة إيمان المنافقين باعتبار أنَّ ظاهرهم إيمان وإلاَّ فلا إيمان لهم ﴿إِيمَانًا﴾ تصديقا، وذلك استهزاء أو نفي لأن تكون زادت إيمانا، وردَّ الله عليهم بقوله: ﴿فَأَمَّا الذِينَ ءَامَنُواْ﴾ و لم ينافقوا.

(أصول الدين) ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ الإيمان يزداد وينقص إجماعا إذا كان بمعنى الأعمال الصالحات وبزيادة النزول، [قلت:] وأمَّا إذا كان بمعنى

التصديق فالصحيح أنَّه يـزداد بازديـاد أدلّته والتفكُّر فيهـا، ولا شـكَّ أنَّ معرفـة الشيء بدليلين أقوى منها بدليل وينقص بالإعراض.

﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ بنزولها لموافقة ما قبلها وموافقة اعتـقادهم السـابق في غيرها، ولزيادة كَمَال قُواهم النَّظَرِيَّة، وزيـادة القـوة العَمَلِيـَّة بـالعلم، وارتفـاع درجاتهم.

﴿وَأَمَّا الذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ نفاق، ومقتضى الظاهر: وأمَّا هم، أو وأمَّـا هؤلاء، أعني القائلين: «أَيُّكُمْ زَادَتْهُ»، ولكـن ذكـر مـا يصـرِّح بكفرهـم ويعمُّهـم ويعمُّ غـيرهم ليـدلَّ على العلّـة، فـإنَّ الكفـر يجلـب كفـرا آخـر، وليكـون الكـلام كالبرهان بأنّه قد زادت غيرهم ومن هو مثلهم رجسا[1] ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا﴾ كفرا منضمًّا ﴿إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ كفرهم السابق بغيرها، كلَّما نزلت آية وسمعوها كفـروا بها فذلك زيادة كفر، ويزداد قلوبهم قسوة بالكفر المزداد فكانوا يستهزئون، وسمِّي الكفر رجسا تشبيها بالشـيء المستقذر ﴿وَمَاتُواْ﴾ برهـان بمـن مـات، وإن أريـد الأحياء هؤلاء خصوصا فمعناه يموتـون بعـدُ ﴿وَهُـمْ كَـافِرُونَ﴾ لا غـير كـافرين، وكأنَّهم قد ماتوا كافرين لتحقُّق أنَّهم يموتون كافرين.

﴿أَوَلاَ يَرَوْنَ﴾ بقلوبهم أو أبصـارهم، أعمـوا أو أتعـاموا، أو ألم يفتـنوا ولا يـرون، أو الهمـزة مِمَّـا بعـد الـواو، والاسـتفهام توبـيخ أو تعجيـب ﴿أَنَّـهُمْ يُفْـتَنُونَ﴾ يـبتلون بالأسواء، كالقحط والأمراض لكفرهـم والمعجـزات والجهـاد فيظهر لهم المعجزات، أو ألم يختبروا بالجهاد؟ فيعاينوا ما ينزل على رسـول الله ﷺ من الآيات، ولا سيما الآيات الكاشفة لأسرارهم ﴿فِـي كُـلِّ عَـامٍ مَّـرَّةً اَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ فلا يتّعظون، وكان عليهم أن يتّعظوا كما قال: ﴿ثُمَّ لاَ يَتُوبُـونَ﴾ مـن

١- في نسخة (أ): مِمَّن هو مثلهم رجسا.

نفاقهم ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ يتّعظون، والمراد بالعدد التمثيل لا خصوصه، أو للتنويع، أو بمعنى بل، قيل: والجملة الإسمِيَّة لاستمرار عدم تذكُّرهم.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ﴾ حال حضورهم ﴿سُورَةٌ﴾ بعض القرآن تَمَّت السورة أو لم تتمَّ ﴿نَظَرَ بَعْضُهُمُ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ نظر تغامزٍ إنكارًا وسخرية وغيظا لعيوبهم التي فيها، وربَّما ضحكوا بإخفاء أو تبسَّموا، وإذا لم يذكر فيها عيوبهم لم يغتاظوا، ويجوز أن يكون المراد: وإذا ما أنزلت في معايبهم، والسورة غير الأولى لأنَّها نكرة، وذلك على الأصل ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنَ اَحَدٍ﴾ مفعول به على الحكاية لـ«نَظَرَ»، أو تفسير لبعض ما يضمَّنه، لأنَّ نظرهم معتاد عندهم في الاستفهام عن رؤية أحد لهم، أو مفعول لـ«يقولون» محذوف، حالا أو مستأنفا، ويجوز تقدير: «قائلين هل...الخ»، وكانوا يخافون أن يراهم المسلمون خارجين عن محلِّ النزول ﴿ثُمَّ انصَرَفُواْ﴾ على كفرهم، إن لم يكن أحد يراهم خوفا من تمام الافتضاح واستراحة عن المجلس، لأنَّهم كارهون له، وإلاَّ أقاموا.

وجزاهم الله ﷻ عن انصرافهم عن مجلس الوحي بصرف قلوبهم عن الهدى صرفا بعد الصرف الأوَّل جزاء وفاقا، في قوله: ﴿صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُم﴾ وهو إخبار من الله ﷻ لا دعاء، لأنَّ الله لا يدعو لأنَّه المالك لكلِّ شيء، إلاَّ أن يقال أمرٌ للمسلمين بالدعاء عليهم، أو جاء على طريق الدعاء عليهم من الله تعالى على طريق مجيء "لعلَّ" و"عسى" لا على التحقيق.

﴿بِأَنَّهُمْ﴾ لأنَّهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ عادتهم الإعراض عن التدبُّر وسوء الفهم، ومن أين يدركون الحقَّ أو يعلمون به وقد سبقت لهم الشقوة؟ حتَّى أنَّهم يريدون الضحك عند تلاوة رسول الله ﷺ ما نزل من القرآن فيعالجون تركه لئلاَّ يفتضحوا، وقد يغلبهم الضحك فيفتضحون، ويزعمون أنَّهم لا يقدرون على استماع القرآن فيريدون الخروج من المسجد.

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۝١٢٩ ﴾

صفات الرسول ﷺ ذات الصلة بأمّته

والسورة نزلت في التشديد والتكاليف الشاقّة فختمها بما يسهِّل تلك التكاليف فقال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ﴾ يا معشر العرب من الله ﴿رَسُولٌ﴾ عظيم لم يرسل مثله، ويبعد ما روي عن سعد بن أبي وقّاص لَمَّا قدم ﷺ المدينة قالت جهينة: نَزلت بين أظهرنا فأوثق لنا نأمنك وتأمنَّا، فقال السَّلامُ: «لم ؟» قالوا: نطلب الأمن، فنزل: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾ ﴿مِّنَ انفُسِكُمْ﴾ معشر العرب لا من العجم ولا من الملائكة ولا من الجنِّ، تعرفون أحواله وصدقه ولغته، وعزُّه عزٌّ لكم رءوف رحيم، فكيف لا تحبُّونه ولا تسارعون في اتِّبَاعه ونصره وأنتم تعرفون أنَّ نسبه أفضل أنسابكم؟ كما قرئ بفتح الفاء، بمعنى من أشرفكم، وأنه وإيَّاكم من ولد إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن.

قال ابن عَبَّاس: لا قبيلة من العرب إلاَّ ولدت سيِّدنا محمَّدًا ﷺ ، ولعلَّه أراد مضر وربيعة واليمنيَّة، فإنَّه قيل: لم ينل نسبه جديمة وغسان ولخم وثقيف، والله أعلم بحقيقة الحال، فأمَّا ربيعة ومضر فمن ولد معد بن عدنان وقريش منهم، وأمُّه آمنة لها نسب في الأنصار، وهم من عرب اليمن من ولد قحطان بن سبأ.

صعد ﷺ المنبر فقال بعد حمد الله والإثناء عليه: «**من أنا؟**» فقالوا أنت رسول الله، قال «**نعم، أنا محمَّد بن عبد الله بن عبد المطَّلب إنَّ الله تعالى**

خلق الخلق فجعلني في خير خلقه وجعلهم فرقتين فجعلني في خير فرقة، وجعلهم قبائل فجعلني في خيرهم قبيلة، وجعلهم بيوتا فجعلني في خيرهم بيتا، فأنا خيركم بيتا وخيركم نفسا»[١] رواه المطلب بن ربيعة.

(سيرة) وقال ﷺ: «**إنّ الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من ولد إسماعيل كنانة، واصطفى من ولد كنانة قريشا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»**[٢] رواه واثلة بن الأسقع. ويروى: «**اصطفى من بني هاشم عبد المطلب، واصطفى من بني عبد المطلب أبي واصطفاني من أبي**». وعن أنس عنه ﷺ: «**لم يصبني من عهر الجاهِليَّة شيء، وخرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح، من لدن آدم حتّى انتهيت إلى أبي وأمِّي فأنا خيركم نفسا وخيركم أبا»**[٣].

والمراد بأنفسهم الجنس والأمثال، وهو مجاز مرسل، أو استعارة، لأنّهم كنفس واحدة، قال الله ﷻ: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُومِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنَ اَنفُسِهِمْ﴾(سورة آل عمران: ١٦٤) والمراد: مؤمنو العرب.

﴿**عَزِيزٌ**﴾ شديد صعب، نعتٌ لـ«رَسُول» سببيٌّ ﴿**عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ**﴾ «مَا» مَصدَرِيَّة، والمصدر فاعل «عَزِيزٌ»، والعنت: المشقّة كسوء العاقبة والوقوع في

١- رواه **أحمد** في مسند بني هاشم، رقم ١٦٩٤. ورواه **الترمذي** في كتاب الدعوات، رقم ٣٥٣٢. من حديث المطّلب بن أبي وداعة.

٢- رواه **الترمذي** في كتاب المناقب (١) باب فضل النبيء ﷺ، رقم ٣٦٠٥. **والسيوطي** في الدر، ج٣/ ص٢٩٤. من حديث واثلة الأسقع.

٣- أورده **السهمي** في تاريخ جرجان، ص٣٦٢. (الموسوعة).

العذاب، أو «عَزِيزٌ» خبر والعنت مبتدأ والجملة نعت لـ«رَسُولٌ»، والأوَّل أولى. ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ على خيركم الدنيويِّ والأخرويِّ، ومنه الإيمان ﴿بِالْمُومِنِينَ﴾ متعلّق بقوله: ﴿رَءُوفٌ﴾، أو بقوله: ﴿رَحِيمٌ﴾ فيقدَّر للآخر لا على التنازع بل مجرَّد حذف لدليل، وتعليقه بالأوَّل أولى.

قال ابن عَبَّاس والحسن بن الفضل: لم يجمع الله لأحد من أنبيائه اسمين من أسمائه إلاَّ لسيِّدنا محمَّد ﷺ: ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ومرَّ كلام في تقديم الرأفة على الرحمة، قدِّمت مع أنَّها أشدُّ من الرحمة للفاصلة، أو لأنَّها الشفقة، والرحمة: الإحسان، أو لأنَّ أثرها رفع المضارِّ وهو تخلية، والرحمة جلب النفع وهو تحلية، والتخلية لأنَّها أهمُّ تقدَّم على التحلية، كما قدِّمت في قوله تعالى: ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً﴾ (سورة الحديد: ٢٧) وقدِّم «بِالْمُؤمِنِينَ» على طريق الاهتمام بهم في مقام الخير، وللحصر وللفاصلة، ولا رحمة للكافر، وما صعب على المؤمن رحمة له ينال بها المراتب الأُخرَوِيَّة وَالدُّنيَوِيَّة.

ويقال: «رَؤُوفٌ» بالمطيعين «رَحِيمٌ» بالمذنبين، و«رَؤُوفٌ» بأقربائه «رَحِيمٌ» بأوليائه، و«رَؤُوفٌ» بمن يراه و«رَحِيمٌ» بمن لم يره، ولا حديث في ذلك.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أعرضوا عن الإيمان بك وبما جئت به ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ﴾ كافيَّ أو يكفيني ﴿اللَّهُ﴾ مكروهَهُم ويعينني عليهم، أو مكروهكم ويعينني عليكم ﴿لآ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ كالدليل على ما قبله، لأنَّ من لا يستحقُّ الأُلُوهِيَّة إلاَّ هو يكون كافيا لا محالة ﴿عَلَيْهِ﴾ لا على غيره ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ وثقت به لا بغيره، فلا أرجو ولا أخاف إلاَّ إِيَّاهُ ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ الجسم العظيم، ولأنَّه أعظم

المخلوقات خصَّه بالذكر، والكرسيُّ دونه، وقيل: الكرسي، والعرش شيء أعظم المخلوقات، أو العرش: الملك، والأرض كحلقة في السماء الدنيا، وكلٌّ سماء كحلقة في التي فوقها، والعليا كحلقة في الكرسيِّ، والكرسيُّ كحلقة في العرش.

وعن أبي هريرة: آخر ما نزل هاتان الآيتان، وروى الحاكم عن أُبي بن كعب: آخر آية نزلت: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾ إلى آخر السورة، وأراد بالآيتين الأولى من: ﴿لَقَدْ...﴾ إلى ﴿...رَحِيمٌ﴾ والثانية من: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْاْ...﴾ إلى ﴿...الْعَظِيمِ﴾. وروى البخاري ومسلم عن البراء بن عازب: آخر آية نزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُم فِي الْكَلاَلَةِ...﴾ الآية (سورة النساء: ١٧٦) . وآخر سورة نزلت سورة براءة، وعن ابن عَبَّاس: آخر آية نزلت: ﴿وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ﴾ (سورة البقرة: ٢٨١) وروي أنَّه ﷺ عاش بعدها أحدا وعشرين يوما، وقيل: أحدا وثمانين يوما، وقيل: سبعة أيَّام، وقيل: ثلاث ساعات، وعنه ﷺ : **«المائدة آخر القرآن نزولا فأحلُّوا حلالها وحرِّموا حرامها»**[1]، وقد مرَّ الجمع بين ذلك.

وعنه ﷺ : **«من قال حين يصبح وحين يمسي: ﴿حَسْبِيَ اللهُ لآ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ سبعا كفاه الله ما أهمَّه من أمر الدنيا والآخرة»**[2]. وعن الحسين بن علي: لا ينكب ولا يغرق ولا يكرب. وعن محمَّد بن كعب القرظي[3]: سقط رجل من فرسه في سريَّة ذهبت إلى

١- تقدَّم تخريجه، انظر: ج٥/ ص٣٥٦.

٢- أورده **السيوطي** في الدر، ج٣/ ص٢٩٧. **والبغوي** في شرح السنَّة، ج٥/ ص٢٠٥.

٣- هو محمَّد بن كعب بن سليم بن عمرو القرظي، تابعيٌّ من كبار العلماء ولد في حياة النبيء ﷺ ونزل الكوفة سنة ٤٠هـ، ثمَّ رجع إلى المدينة، استخدم الثعلبي تفسيره في كتابه: =

الروم، فانكسر فخذه ولم يمكنهم حمله وربطوا فرسه عنده، ووضعوا عنده ماء وطعاما وتركوه، وأتاه آت فقال له: ضع يدك حيث الألم واقرأ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا...﴾ فصحَّ ولحقهم، والله أعلم.

ولا حول ولا قُوَّة إلاَّ بالله العليِّ العظيم

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم تسليما

=

«الكشف والبيان» وكذلك الطبري، قال عون بن عبد الله: «ما رأيت أحدا أعلم بتأويل القرآن من القرظي». قيل: مات سنة ١٠٨هـ، وقيل: ١١٨هـ.

تفسير سورة يونس عليه السلام وآياتها ١٠٩

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ الْكِتَٰبِ الْحَكِيمِ ① أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ② ﴾

قضية إنزال الوحي للنبي ﷺ

﴿**بسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلر**﴾ قال ابن عبَّاس رضي الله عنه: أنا الله أرى، وقيل: أنا الربُّ لا ربَّ غيري، وقيل: ﴿أَلر﴾ و﴿حم﴾ و﴿نٓ﴾ اسم الرحمن، وقيل: ﴿أَلر﴾ اسم للسورة، وعليه الجمهور، وقيل: ﴿أَلر﴾ حروف تهجٍّ مسرودة، وفي إمالة الراء دفع توهُّم أنَّ «ر» حرف وحده، لا ثنائي، لأنَّ الحروف تمتنع فيها الإمالة، وكذا قراءتها بين بين، وذلك إجراء لألفها مجرى الألف المنقلب عن الياء.

﴿**تِلْكَ**﴾ ما يأتي من آيات السورة أشير إليها قبل مجيئها لأنَّها في حكم الحاضر لقرب ذكرها بعد، كما يقول الكاتب: هذا ما اشترى فلان، يشير إلى ما حضر في الذهن، ويقال هنا أشار إلى ما حضر في العلم؛ أو الإشارة إلى القرآن كلِّه لتعيُّنه في علم الله تعالى، أو اللوح المحفوظ، أو باعتبار أنَّه نزل جملة إلى السماء الدنيا؛ أو إلى ما نزل منه دون ما لم ينزل؛ أو إلى السورة، ولا سيما إن قلنا: ﴿أَلَرَ﴾ اسم للسورة؛ أو لِمَا أشير إليها في ضمن سرد هذه الحروف على التحدِّي كانت مذكورة ضمنا.

﴿ءَايَاتُ الْكِتَابِ﴾ أي آيات من الكتاب بـ«مِنْ» التبعيضية، وإذا كانت الإشارة إلى القرآن كُلّه فلا تقدَّر «من» التبعيضية، فالكتاب إمَّا السورة وَإمَّا القرآن، ومحطُّ الفائدة: ﴿الْحَكِيمِ﴾ أي المشتمل على الحِكم ـ بكسر الحاء وفتح الكاف ـ والحكمة هي وضع الأشياء في مواضعها اللائقة؛ أو علم الأشياء على ما هي عليه، وقال الراغب: إصابة الحقِّ بالعلم والعمل.

(بلاغة) وإسناد ذلك إلى السورة أو القرآن مجاز عقليٌّ، كما في: «نهارُهُ صائمٌ وليلُه قائمٌ»؛ أو مجاز بالحذف، أي حكيم قائله؛ أو ذلك نسب كَـ«لاَبِنٌ»؛ أو تشبيه بإنسان ناطق بالحكمة على طريق الاستعارة بالكناية، ورمز إلى ذلك بإثبات الحكمة.

أو المعنى: محكَم ـ بفتح الكاف ـ أي متقن لا خلل فيه، أو لا ينسخه كتاب آخر فهو حقيق؛ أو بكسر الكاف فمجاز كما مرَّ، لكن "فعيل" بمعنى "مفعل" أو "مفعل" ضعيف.

﴿أَكَانَ﴾ استفهام تعجيب، أو إنكار للياقة تعجُّبهم منه تعجُّبَ إنكار، فإنَّهم تعجَّبوا منه منكرين له. ﴿لِلنَّاسِ﴾ متعلّق بـ«كَانَ»، لأنَّ التحقيق أنَّ كان وأخواتها دَوَالٌّ على الحدث؛ أو حال من قوله: ﴿عَجَبًا﴾ وهو خبر كان، واسمها: ﴿اَنَ اَوْحَيْنَآ﴾ أي أكان للناس إيحاؤنا عجبا؟. والعجب: استعظام أمر خفي سببه؛ أو حالة تعتري الإنسان من رؤية شيء على خلاف العادة؛ أو حالة تعتري الإنسان عند الجهل بسبب شيء.

﴿إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ وهو محمَّد ﷺ، يقولون: العجب أنَّ الله سبحانه لم يجد رسولا يرسله إلاَّ يتيم أبي طالب، لا مال له ولا جاه، لجهلهم أو لعنادهم، فإنَّ خفَّة المال أليق بالاشتغال بأداء الرسالة، ولم يثبت عندهم أنَّ كلَّ نبيء له

مال واسع، ولا أنَّ كلَّ نبيء له جاه، وإن وقع لبعضهم مال كـإبراهيم وسليمان وأيُّوب. ويحتمل أن يكون المعنى: إلى رجل لا إلى ملك ﴿أَبَعَثَ ا للهُ بَشَرًا رَّسُولاً﴾ (سورة الإسراء: ٩٤) ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنزَلَ مَلاَئِكَةً﴾ (سورة فصلت: ١٤) وهذا أكثر في القرآن، ويناسبه قوله: ﴿مِنْهُم﴾ فإنَّه ليسَ لو كان من سائر العرب لرضوا، وأما **عزَّة نسبه وبلاغته وعفَّته وأمانته فلا ينكرونها.**

﴿أَنَ اَنذِرِ النَّاسَ﴾ تفسير لـ«أَوْحَيْنَا»، إذ فيه معنى القول دون حروفه، فـ«أَنْ» تفسيريَّة، أو مفعول به، أي أوحينا إليه إنذار الناس، فـ«أن» مخفَّفة، [قلت:] والذي عندي أنَّ حرف المصدر لا يدخل على الطلب أو الإنشاء، اللهمَّ إلاَّ على تقدير القول، أي إنَّه قيل له: أنذر الناس، ثمَّ رأيت للجمهور والإمام أبي حيَّان أنَّه لا يدخل على الإنشاء لأنَّ المصدر لا يدلُّ عليه، واعترض بِأَنَّهُ يفوت معنى المضيِّ والاستقبال أيضا إذ أدخلت على الإخبار، قلت اعتراض باطل لأنَّ المصدر صالح في المعنى للمضيِّ والاستقبال استعمالا، وأيضا يدلُّ على الحدثِ والزمانِ لازمُ للحدث.

﴿وَبَشِّرِ الذِينَ ءَامَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي بأنَّ لهم قدم صدق، وإنَّما عمَّم الإنذار وخصَّ التبشير بالذين آمنوا لأَنَّهُ لا يخلو مكلَّف عن شيء ينذر فيه، وليس في الكفار ما يبشَّرون به، فخصَّ التبشير بهم، ويجوز أن يراد بـ«النَّاس» الكُفَّار المعهودون في قوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ﴾، وعلى الأوَّل يدخلون بالأولى. وقَدَمُ الصِّدق: المنزلة الرفيعة، سمِّيت باسم قدم المشي لأنَّ السبق بها فهو سبق إليها، كما يُسَمِّي النعمة يدا لأَنَّها تكسب بها وتعطي بها، وذلك من باب التسمية بالآلة والسبب، والمراد: **الأعمال الصالحة.**

وأضافها للصدِّق تنبيها على تحقيقها وإخلاصها لله ﷻ، ويجوز أن يراد الثواب، وقيل: السعادة في علم ا لله أو في اللوح، وقيل: شفاعة سيِّدنا

محمَّد ﷺ، وقدم في هذه الأقوال بمعنى أَنَّهُ يقدَّم على تلك الأشياء. وحذف المنذر به للتهويل وشمول كلٍّ ما يصلح، وذكر المبشَّر به ترغيبا في الطاعة وثوابها، وقدَّم الإنذار لأنَّ التخلِّي قبل التحلِّي.

وفسَّر قدم بسابقة سبق لهم خير عند الله، وهو عملهم المخزون عنده، أو ثوابهم؛ أو الأصل: القدم الصادقة، وأضيف المنعوت للنعت، وجعل المصدر ـ وهو الصدق ـ موضع اسم الفاعل فَيُؤَوَّل: لقدمٍ هي الصدق؛ أو قدم الأمر الصادق.

ويقال: القدم مجاز مرسل عن السبق لكونه سببا وآلة، والسبق مجاز عن الفضل والتقدُّم المعنويِّ إلى المنازل الرفيعة، فهو مجاز بمرتبتين، وإن جعلنا السبق عامًّا للمعنويِّ والحسِّيِّ فالمجاز بمرتبة. وقيل: المراد تقدُّمهم في دخول الجنَّة، قال ﷺ: «**نحن الآخرون السابقون يوم القيامة**»[1]. وقال ﷺ: «**الجنَّة محرَّمة على الأنبياء حتَّى أدخلها، وعلى الأمم حتَّى تدخلها أمَّتي**»[2]، وقيل: القدم محمد ﷺ.

﴿**قَالَ الْكَافِرُونَ**﴾ هؤلاء المتعجِّبون، عبَّر عنهم باسم الكفر إيذانا بأنَّ تعجُّبهم صدر عن كفرهم؛ أو مطلق الكافرين ﴿**إِنَّ هَذَا**﴾ أي القرآن المشتمل على رسالة محمَّد؛ أو ما جاء به محمَّد قرآنا أو غيره، والأوَّل أولى لأنَّ السياق جاء بالكتاب ـ وهو القرآن ـ لا بعموم الوحي، إلاَّ أن يُتكلَّف أَنَّهُ ذكر إشارتهم العَامَّة في غير المحلِّ. ﴿**لَسِحْرٌ مُّبِينٌ**﴾ ظاهر، وفي وصفهم القرآن

١- رواه **الربيع** في كتاب الصلاة (٤٦) باب في صلاة الجمعة وفضل يومها رقم ٢٧٨. ورواه **البخاري** في كتاب الأنبياء (٥٤) رقم ٣٤٨٦ مع زيادة في آخره. من حديث أبي هريرة.

٢- أورده **الهندي** في الكنز: ج١١/ ص٤١٦، رقم ٣١٩٥٣. من حديث ابن عمر.

بالسحر إقرار بأنَّهم رأوا من القرآن أمرا خارقا للعادة، من البلاغة والإخبار بالغيوب مع عجزهم عن معارضته، ولو لم يخرق العادة لم يسمُّوه سحرا، والمراد بالسحر ما حصل من معالجة السحر لا نفس المعنى المصدريِّ، وقيل: «هَـذَا» إشارة إلى رسول الله ﷺ، و«سِحْرٌ» مبالغة؛ أو بمعنى ذو سِحر أو ساحر.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾

الله خالق الكون قادر على البعث والجزاء فعلى الخلق عبادته

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أوقات؛ أو مقدار سِتَّة أَيَّام من أَيَّام الدنيا بلياليها، واليوم في اللغة يطلق على الوجهين وعلى النهار لا حقيقتها، لأَنَّهُ لا شمس قبل خلقهنَّ، ويروى عن ابن عباس أنَّ كلَّ يوم من الستَّة ألف سنة فالستَّة من أَيَّام الآخرة.

وهو قادر أن يخلقهنَّ وأضعافهنَّ في أقلَّ من لحظة ولكن تعليم لخلقه أن يتمهَّلوا للتثبُّت، والله يختصُّ بعلم حكمة الستَّة الخَاصَّة مع أنَّ التثبُّت يمكن بأقلَّ وبأكثر أيضا، ويقال: السماوات والأرض هنَّ أصول الحوادث اليوميَّة، لأنَّ السماء كالفاعل والأرض كالقابل، ولا يحتاج إلى هذا مع إيهامه أنَّ للنجوم تأثيرا في الحوادث وهو قول الكفرة.

(أصول الدين) ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ خَلَقَهُ وكان في حكمه لا يتخلّف عَمَّا أراد فيه، **ودعْ متبرئا من القول بأنَّ الاستواء على ظاهره مع القول بلا كيف فإنّه دخول في الظلمة بعد وجود النور**، ومن كان غنيًّا عن الأمكنة والأزمنة فهو غنيٌّ عنها لا يحلُّ فيها، تعالى عن صفات الخلق.

والعرش قبل السماوات لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ, عَلَى الْمَآءِ﴾ (سورة هود: ٧)، فـ«ثُمَّ» بمعنى الواو؛ أو للترتيب الذكريِّ بلا مهلة، ومرَّ كلام في الأعراف[1]؛ ويجوز أن يراد بالعرش المُلك، واستواؤه عليه تصرُّفه فيه، بالإحداث والإعدام، والتحريك والإسكان، وجميع الأحوال، وقيل: الاستواء على العرش بسط السماوات والأرض وتشكيلهما بالأشكال الموافقة لمصالحها وما خُلقنَ لأجله وغير ذلك.

﴿يُدَبِّرُ﴾ يقدِّر وحده بحسب الحكمة والمراتب، وفسَّره مجاهد بالقضاء، ولا يحتاج إلى فكر، ولاعتبار الحكمة ناسب لفظ «يُدَبِّرُ»، فهو مجازيٌّ باللزوم والتسبُّب، ومعنى «يُدَبِّرُ»: دبَّر، فهو بمعنى الماضي، وليس للتجدُّد إلاَّ على معنى متعلّق تدبيره الأزليِّ فإنّه يتعلّق بالحادث إذا حدث. ﴿الاَمْرَ﴾ بين الخلائق، أو الأمر: العرش والسماوات والأرض وكلّ شيء، والجملة خبر ثان؛ أو حال من ضمير «اسْتَوَى»؛ أو مستأنف.

﴿مَا مِن شَفِيعٍ﴾ لأحد في وقت من الأوقات ﴿إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ دفع لأن يساوى أو يفاق، وردٌّ على من زعم أنَّ الأصنام تشفع فَإِنَّهَا ليست أهلا أن تشفع بدليل ضعفها وعدم تكليفها، وإثبات للشفاعة لمن أذن له فيها لفضله

١- انظر سورة الأعراف ج٥/ ص٦٩، تفسير الآية رقم ٥٤.

بالعمل بالتكليف، والأصنام لا تنطق ولا تدرك فكيف تشفع؟ فليس من شأنها أن يؤذن لها، وإنَّما الإذن لطالبه المدرك، فالآية تتضمَّن نفي إدراكها ونطقها، ونفي شفاعتها، والجملة خبر آخر؛ أو حال من ضمير «يُدَبِّرُ»؛ أو مستأنف.

﴿**ذَالِكُم**﴾ أي الخالق المستوي على العرش المدبِّر للأمر، الذي لا يخرج شيء عن إذنه ﴿**ا للهُ**﴾ خبر؛ أو بيان ﴿**رَبُّكُمْ**﴾ خبر ثان؛ أو خبر [ذَلِكُم] وهذا تأكيد لقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ا للهُ الذِي خَلَقَ...﴾. ﴿**فَاعْبُدُوهُ**﴾ وحِّدوه؛ أو اعبدوه وحده، عطف إنشاء على إخبار، وإن شئت فـ«ذَالِكُمُ...» بمعنى وحِّدوه، فهو في معنى الأمر، واعبدوه أطيعوه. ﴿**أَفَلاَ تَذَّكَّرُونَ**﴾ ألا تعلمون أنَّ الأمر ذلك فلا تذَّكَّرون أَنَّهُ لا شريك له في الأُلُوهِيَّة ولا في العبادة، كما أَنَّهُ لا يشاركه شيء في الخلق والتدبير، ولا يستقلُّ بهما غيره، وأنَّه لا يعبث ولا يترك الخلق سدى، فلا بدَّ أن يكون للعالم خالقا مخالفا لها قادرا، كما قال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ...﴾ وأن يتحقَّق البعث للجزاء المرتَّب على الإنذار والتبشير، كما قال:

﴿**إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا**﴾ فلا بدَّ من بعث الرسول لإقامة الحجَّة ومن الرجوع إلى ا لله لا إلى غيره، ولا مع غيره بالبعث للجزاء فاستعدُّوا لذلك ﴿**وَعْدَ ا للهِ حَقًّا**﴾ مثل ما تقدَّم.

﴿**إِنَّهُ يَبْدَؤُاْ الْخَلْقَ**﴾ بالإنشاء ﴿**ثُمَّ يُعِيدُهُ,**﴾ بالبعث بعد موته، تعليل جملي؛ أو مستأنف، كأنَّه قيل: كيف يكون المرجع إلى الوعد؟ فقال: إنه يبدأ الخلق، فإذا قدر على بدئه فكيف لا يقدر على إعادته في بادئ الرأي؟ **وَأَمَّا عند ا لله فسواء**. والمضارع للتجدُّد والتكرير أولى من كونه بمعنى الماضي. والخلق بمعنى المخلوق. ﴿**لِيَجْزِيَ الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ**﴾ [ومن الصالحات

ترك المحرَّمات] وترك المحرَّمات عمل صالح؛ أو يقدَّر: واتَّقوا [المحرَّمات]. ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بعدله سبحانه وتعالى؛ أو بعدلهم في الاعتقاد والقول والعمل؛ أو بالتوحيد التامِّ المستتبع للعمل، كما أَنَّهُ سمَّى الشرك بضدِّ العدل: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (سورة لقمان: ١٣) متعلِّق بـ«يَجْزِي»؛ أو حال من «الذِينَ»؛ أو ضمير «يَجْزِي» كما رأيت، والوجهان الأخيران أولى لمناسبتهما قوله تعالى:

﴿وَالذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ اَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾ إذ جزى الكفار بكفرهم، فيكون جزى المؤمنين بكسبهم، وجزى الكُفَّار بكسبهم، والباء عليهما بدليَّة؛ أو سَبَبِيَّة. والحميم: بالغ النهاية في الحرارة.

والأنسب بقوله: ﴿لِيَجْزِيَ...﴾ أن يقال: وليجزي الذين كفروا بشراب من حميم وعذاب أليم؛ أو ويجزي الذين كفروا...الخ؛ أو الذين كفروا بشراب...الخ، لكن لم يذكر الجزاء. وعبَّر بالجملة الإسميَّة مبالغة في استحقاقهم العذاب، والتنبيه على أنَّ المقصود من البدء والإعادة بالذات هو الثواب، وأنَّ العقاب واقع بالعرض، إذ لم يجعل العقاب علَّة للبدء، والإعادة كالإثابة، ولو كان أيضا علَّة لكن ترك ذكره لذلك، والتنبيه على أَنَّهُ يتولَّى إثابة المؤمنين بما يليق بلطفه، ولذلك لم يعيِّنه، فهو لا يدخل تحت ضبط، ولذلك أضاف الجزاء لنفسه.

وأمَّا عقاب الكفرة فكأنَّه داء ساقه إليهم اعتقادهم، فكان سوء الاعتقاد فاعل العقاب، ولم يسند إليه تعالى ولو كان مقصودا. وقوله: ﴿إِنَّهُ, يَبْدَؤُاْ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ,...﴾ تعليل لقوله: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ فإنَّه لَمَّا كان المقصودُ بالذات ـ وهو الإثابة ـ وبالعرض ـ وهو العقاب ـ من البدءِ والبعثِ مجازاةَ المكلَّفين على اعتقادهم وأفعالهم كان مرجع الجميع إليه خاصَّة. وللتأكيد قال: ﴿وَالذِينَ كَفَرُواْ...﴾ بإسنادين، ولم يقل: للذين كفروا بإسناد واحد.

﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ۝٦﴾

في ظواهر الكون إثبات للقدرة الإلهيَّة

﴿**هُوَ الذِي جَعَلَ الشَّمْسَ**﴾ أنشأها، وإن فسَّرناه بصيَّرنا فهو على معنى قولك: وسِّع الدار، بمعنى ابنها من أَوَّل الأمر واسعة، وَالأَوَّل مستغن عن هذا التأويل. ﴿ضِيَآءً﴾ نفس الضوء مبالغة؛ أو بمعنى: ذات ضياء؛ أو مضيئة، وهو مفرد، أو جمع ضوء، كسوط وسياط، والأوَّل أنسب بالإفراد في قوله: ﴿**وَالْقَمَرَ نُورًا**﴾ نفس النور مبالغة؛ أو ذا نور، وسمِّيت شمسا ـ قيل ـ من شمسة القلادة للخرزة الكبيرة وسطها، فإنَّها أعظم الكواكب كما يشهد به الحسُّ، وجاء به الأثر، قلت: لا دليل في ذلك، لاحتمال أنَّ الخرزة الكبيرة سمِّيت بشمس السماء لكبرها على الكواكب وكبر الخرزة على سائر الخرز.

ولعلَّها سمِّيت لنفور العين عن النظر إليها لقوة ضوئها؛ أو نفورها عن العين مجازا في هذا، وسمِّي القمر لبياضه لكن إلى صفرة، وهو قمر بعد ثلاث، وفيها هلال.

والضياء والنور عرضان، والضياء: اسم لكَيفِيَّة الشعاع الفائض من الشمس مثلا، إذا كانت الكَيفِيَّة تامَّة قَوِيَّة، والنور اسم لأصل هذه الكَيفِيَّة، ولذلك خصَّ الشمس بالضياء إذ كان أقوى وخصَّ القمر بالنور لأَنَّهُ ضعيف بالنسبة إلى الضياء، ولو تساويا لم يعرفا فكانت الزيادة الباقية في الشمس، والضوء ما بالذَّات كالكَيفِيَّة التي على الشمس، والنور ما بالعرض كالكَيفِيَّة

التي على وجه الأرض، وما بالذات أقوى، وقيل: النور أعمُّ من الضوء، لأنَّ النور: اسم لأصل الكَيفِيَّة الظاهرة في نفسها المظهرة لغيرها، والضياء: اسم لهذه الكَيفِيَّة إذا كانت تامَّة قويَّة، ولا يخفى أنَّهُ شاع نور الشمس ونور النهار. وياء ضياء عن واوٍ لكسر ما قبلها.

وضياء الشمس ذاتيٌّ لها، وقيل: من نور العرش، وعلى كلِّ حال لا يزول عنها ما دامت الدنيا، ونور القمر عرضيٌّ له من مقابلة الشمس يزول ويتجدَّد يزداد ببعده عنها وينقص بقربه، يضيء ما قابلها منه دون ما لم يقابلها، ولا مانع من أنَّ نوره ذاتيٌّ، له وجه مضيء ووجه غير مضيء فيتحرَّك، فيظهر منه المضيء شيئا فشيئا ويتحرَّك وينقص شيئا فشيئا.

﴿وَقَدَّرَهُ﴾ أي قدَّر كلَّ واحد من الشمس والقمر؛ أو قدَّر ما ذكر منهما؛ أو قدَّر القمر، وهو أولى لصورة إفراد الضمير، ولأنَّ العرب تعرف الشهور والسنين به لا بالشمس، لمعاينة منازله ولتعلُّق أحكام الشرع به، قيل: ولسرعة سيره لأنَّهُ يقطع المنازل شهرا والشمس سنة، ومنازلها منازله تبطئ فيها ﴿مَنَازِلَ﴾ ظرف لسير مقدَّر، مضاف للهاء في قدَّره، أي وقدَّر سيره في منازل؛ أو مفعول ثان لـ«قَدَّرَ» على معنى صيَّره منازل، أي ذا منازل، وسواء في إعراب «مَنَازِلَ» بالوجهين رددنا الهاء للقمر؛ أو للشمس والقمر.

(**فلك**) ويستتر القمر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين، وليلة إن كان تسعة وعشرين هذا غالب، وتحقَّقت مرَّتين أنَّهُ رؤي بعد الفجر، وكان من تسعة وعشرين. والمنازل ثمانية وعشرون: الشرطان والبطين والثريا والدبران والهقعة والهنعة والذراع والنثرة والطرفة والجبهة والزبرة والصرفة والعواء والسماك الأعزل والغفر والزباني والإكليل والقلب والشولة والنعائم والبلدة وسعد الذابح وسعد بلع وسعد السعود وسعد الأخبية، وفرغ الدلو المقدَّم، والفرغ المؤخَّر

وبطن الحوت، مقسومة على البروج الاثني عشر لكلِّ برج منزلان وثلث، والبرج ثلاثون درجة، من قسمة ثلاثمائة وستين أجزاء دائرة البروج على اثني عشر، والدرجة ستون دقيقة، والدقيقة منقسمة بستين ثانية، والثانية بستين ثالثة وهكذا...

(فلك) ويقطع القمر كلَّ يوم وليلة ثلاث عشرة درجة وثلاث دقائق وثلاثا وخمسين ثانية وستا وخمسين ثالثة. وتسمية ما ذكر منازل مجاز لأنَّها عبارة عن كواكب ثوابت قريبة من منطقة البروج، والبروج شبيهة بما يربط الإنسان على وسطه، والمنزل الحقيق للقمر الجو الذي يشغله جرم القمر، والشرطان هو النطح [والناطح، وهما قرني الحمل] وكذلك يعتبر نحو الحمل والثور والجوزاء بالمسامتة للمؤخّر والرشا، ولثلث الشرطين برج الحمل ولثلثي الشرطين والبطين، وثلثي الثريا برج الثور، ولثلث الثريا والدبران والهقعة برج الجوزاء، وللهنعة والذراع وثلث النثرة برج السرطان، ولثلث النثرة والطرفاء وثلثي الجبهة برج الأسد، ولثلث الجبهة والحرثان والصرفة برج السنبلة وللعواء والسماك الأعزل وثلث الغفر برج الميزان، ولثلثي الغفر والزبنان وثلثي الإكليل برج العقرب، ولثلث الإكليل والقلب والشولة برج القوس، وللنعائم والبلدة وثلث سعد الذابح برج الجدي، ولثلثي الذابح وبلع وثلثي السعد برج الدلو، ولثلث السعد والأخبية والفرغ المقدم برج الحوت.

﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ حساب الأوقات من الأشهر بسير القمر، والأيَّام بسير الشمس، في عبادتكم ومعاملتكم وسائر تصرُّفاتكم.

والمعتبر في التاريخ العربي الإسلامي السنة القمريَّة، والتفاوت بعشرة أيَّام وإحدى عشرة ساعة ودقيقة واحدة في سنة الشمس، وهي ثلاثمائة وخمسة وَسِتُّونَ يوما وخمس ساعات وتسع وأربعون دقيقة، وسنة القمر ثلاثمائة وأربعة

وخمسون يوما وثمان ساعات وثمان وأربعون دقيقة.

﴿مَا خَلَقَ اللهُ ذَٰلِكَ﴾ أي ما ذكر من الشمس والقمر وجعلهما ضياء ونورا وتقديرهما منازل. وذكر «خَلَقَ» هنا يرجّح أنَّ الجعل في قوله: ﴿جَعَلَ الشَّمْسَ﴾ بمعنى الخلق، و«ضِيَاءً» حالٌ، وإلاَّ فمفعول ثان. ﴿إلاَّ بِالْحَقِّ﴾ لم نخلقه عبثا بل مراعاة لمقتضى الحكمة البالغة.

﴿نُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ المتلوَّة، أورَدْنَا الدلائل واحدا بعد آخر مع البيان؛ أو الآيات التكوينيَّة؛ أو كلَّ ذلك، وفي الآية التفات من الغيبة إلى التكلُّم. ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يتدبَّرون ما الحكمة في إيجاد المصنوعات فيدركونها، ولا سيما الشمس والقمر؛ أو يعلمون معاني الآيات فيعملون بها؛ أو مَنْ شأنهم الاتِّصاف بالعلم بخلاف هؤلاء فإنَّها ولو فصِّلت لهم فإنَّهم لم ينتفعوا بها كأنَّهم بهائم وكأنَّها لم تنزل عليهم.

﴿إنَّ فِي اخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ تخالفهما، كاجْتَوَرُوا بمعنى تجاوَروا بالقصر والطول، والذهاب والمجيء.

وأيَّام البلاد القريبة من القطب الشمالي أطول في الصيف ولياليها أقصر من أيَّام البلاد البعيدة منه ولياليها، ومقتضى كرويَّة الأرض أن يكون بعض الأوقات في بعض الأماكن نهارا وفي بعضها ليلا.

﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ﴾ من العقلاء وغيرهم وأحوال ذلك وما يقع عليهم؛ أو منهم، فـ«مَا» تغليب لغير العقلاء؛ أو أطلق «مَا» متناولاً للأجناس، فهو أولى بإرادة العموم، وعلى كلِّ حال شملت الآيات الملائكة والشمس والقمر والنجوم وغير ذلك، والحيوان والجبال والبحار والعيون والأشجار وسائر الأجسام كلِّها والأعراض كلِّها.

﴿لآيَاتٍ﴾ دلائل على وجوده تعالى وقدرته وعلمه وتنزُّهه عن صفات الخلق ووحدته. ﴿لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ وغيرهم، وخصَّهم بالذكر لأنَّهم المنتفعون بها إذ يتدبَّرون فيدركون.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾﴾

المؤمنون والكافرون وجزاء كلّ

﴿إِنَّ الذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ لا يطمعون في خير الآخرة، لأنَّهم لم يعملوا لها فضلا عن أن يرجوه، لإنكارهم البعث؛ أو لا يتوقَّعون، بمعنى ينتظرون، بحيث يشمل الخير والشر؛ أو لا يخافون لقاءنا لإنكارهم البعث فضلا عن أن يحذروا العذاب. والرجاء بمعنى الخوف؛ أو التوقُّع مجاز، وما ذكرته بمعنى الطمع أولى لبقائه على ظاهره مع صحَّة المعنى ومناسبته لقوله: ﴿وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا﴾ لأنَّ الحاصل أنَّهم لم يطمعوا في أجر الآخرة واستبدلوه بلذَّة الدنيا، وسكنوا إليها وذهلوا عنه بها، وليس التوقُّع أشدَّ مناسبة للمقام كما يتوهَّم، وإطلاق الاطمئنان على السكون إليها إطلاق للمقيَّد على المطلق، فإنَّ حقيقة الاطمئنان السكون بعد الانزعاج. والواو بمعنى إلى، واختير لفظ الباء للرسوخ، ولفظ إلى لمجرَّد الوصول؛ أو الباء بمعنى في. وأجاز بعض أن يكون المعنى: سكنوا فيها سكنى من لا يخاف انتقالا.

﴿وَالذِينَ هُمْ عَنَ ـ ايَاتِنَا﴾ أي المتلوَّة والمخلوقة، مثل الجبال والسماوات والأرض، والمتلوَّة أيضا مخلوقة ﴿غَافِلُونَ﴾ معرضون لا يتفكّرون فيها، لأنَّ قلوبهم مشتغلة بضدِّها فشغلهم بالكفر مانعهم هُدًى وهؤلاء الغافلون هم هؤلاء الذين لا يرجون، وإنَّما عطف لتغاير الصفات إذ كان عدم الرجاء والرضا بالدنيا والاطمئنان بها غير الغفلة، بل مسبّبها ولازمها، وكأنّه قيل: الجامعون بين انتفاء الرجاء والرضى بالدنيا والاطمئنان بها والغفلة، فالوعيد على تلك الصفات كلّها، ويجوز أن يراد بالغافلين من لم ينكر الآخرة ولكن لم يستعد لها كأهل الكتاب وفسقة الموحِّدين. ﴿أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ بكونهم يكسبون الكفر؛ أو الكفر الذي كانوا يكسبونه وواضبوا عليه حتّى ماتوا.

﴿إِنَّ الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم﴾ يرشدهم ﴿بِإِيمَانِهِمْ﴾ بسبب إيمانهم، أي توحيدهم، إلى زيادة الإيمان والعمل الصالح والتقوى، وإلى إدراك الحقائق، كما قال ﷺ: «**اتّقوا فراسة المؤمن فإنّه بنور الله يبصر**»[1] وقال ﷺ: «**من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم**»[2].

أو يهديهم ربهم لِمَا يريدونه من الجنَّة وأنواع نعمها، ومرافقة الأنبياء؛ أو يهديهم إلى مأواهم ومقعدهم وهو الجَنَّة، إذا خرج المؤمن من قبره أضاء له عمله، فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا عملك، فيقوده إلى الجَنَّة ماكثا معه في

١- رواه **الترمذي** في كتاب التفسير (١٦) باب: ومن سورة الحجر، رقم٣١٢٧، من حديث أبي سعيد. وأورده **أبو نعيم** في الحلية: ج٤/ ص٩٤ من حديث ابن عمر.

٢- أورده **أبو نعيم** في الحلية: ج١٠/ ص١٥. وأورده **السيوطي** في الدر: ج١/ ص٣٧٢. من حديث أنس.

المحشر، ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ (سورة الحديد: ١٢) والكافر يكون عمله ظلمة تصاحبه حَتَّى تدخله النار.

أو يهديهم بعملهم بعد دخول الجَنَّة إلى منازلهم بعينها كأنَّهم يعرفونها. والتوحيد هو الأصل، والعمل الصالح والتقوى مرتَّبان عليه، ولا ينفع بدونهما. **﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ﴾** أي قريبا منهم، وهم عالون عليها بأجسامهم وقصورهم، وهذه الأنهار تجري من تحتُ؛ أو تحت أشجارهم وقصورهم **﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ دَعْوَاهُمْ فِيهَا﴾** دعاؤهم، أي منطوقهم فيها: **﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾** أي الذي يقولونه بدل ما يلغى به في الدنيا هو: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ أي هذا اللفظ؛ أو عبادتهم فيها هذا اللفظ، يقولونه تلذُّذا لا تكليفا، كما جاء في الحديث: «**إنَّهم يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفَس**»[1]. رواه مسلم.

أو عبادتهم مضمون ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ من أنواع الأذكار لا خصوص هذا اللفظ، بلا مشقَّة؛ أو دعاؤهم: طلبهم إذا أرادوا شيئا قالوا في قلوبهم، أو بألسنتهم: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ فيحضر ما خطر في قلوبهم؛ أو يقولونه كلَّما رأوا أمرا عجيبا من قدرة الله تعالى في طعامهم وشرابهم وسائر منافعهم؛ أو نداؤهم، فإنَّ لفظ «اللَّهُمَّ» نداء.

ويجوز ـ على بعدٍ ـ أن يكون ذلك نفيًا للتكليف بالعبادة، كأنَّه قيل إن كان عليهم تكليف فهو قولهم: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ وليس تكليفا لأنَّهم يقولونه

١- رواه **مسلم** في كتاب الجنَّة وصفة نعيمها (٧) باب في صفات الجنَّة وأهلها... رقم ١٨ (٢٨٣٥)، وأوَّل الحديث قوله: «إنَّ أهل الجنَّة يأكلون فيها...».

سهلا كخروج النفَس من الحلقوم؛ أو غير ذلك من المعاني السابقة.

اشتغلت الملائكة بالتسبيح قبل خلق آدم إذ قالوا: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ...﴾ (سورة البقرة: ٣٠) فجعله الله قبل الإحرام وفي دار السلام لبني آدم، قال ﷺ: **«أكثر دعائي ودعاء الأنبياء قبلي بعرفات: "لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كلِّ شيء قدير"»**[1]، وفي الحديث القدسيِّ: **«إذا شغل عبدي ثناؤه عليَّ عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين»**[2].

﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا﴾ بينهم؛ أو تحيَّة الله؛ أو الملائكة لهم، أو التَّحِيَّة التي لهم سواء من بعض لبعض، أو من الملائكة لهم، أو من الله لهم: ﴿سَلاَمٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ (سورة يس: ٥٧) ﴿وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ...﴾ الآية (سورة الرعد: ٢٣). ﴿سَلاَمٌ﴾ عليكم ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَاهُمْ﴾ أي كلامهم المُتَأَخِّر عن الأكل والشراب؛ أو عن دخولهم الجنَّة ومعاينة عظمة الله ﷻ، وتحيَّة الملائكة لهم بالسلامة من الآفات والفوز بالكرامات على هذا الترتيب.

﴿أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي أَنَّهُ، أي الشأن، لا مفسِّرة، لعدم تقدُّم الجملة، ولو تقدَّم لفظٌ فيه معنى القول دون حروفه، ويقال: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ» علامة بين أهل الجنَّة وخدمتهم، في إحضار الطعام أو الشراب، إذا أرادوه يأتونهم في الوقت بذلك، على حسب ما يشتهون على موائد، كلُّ مائدة

١- رواه **البيهقي** في كتاب الحجِّ (١٨٧) باب أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة رقم ٩٤٧٥، من حديث علي بن أبي طالب مع زيادة في آخره. وأورده **السيوطي** أيضا في الدر: ج١/ ص٢٢٨.

٢- رواه **الترمذي** في كتاب فضائل القرآن (٢٥) باب رقم ٢٩٢٦، من حديث أبي سعيد. وأورده **المناوي** في الإتحافات السنيَّة: ص٦٦، رقم ١٤٨، من حديث ابن عمر.

ميل طولا وعرضا على كلِّ مائدة سبعون ألف صحفة، في كلِّ صحفة لون ليس في الأخرى، وإذا فرغوا قالو:ا «الحمد لله» فترفع الموائد، ويقال تأتيهم الملائكة في الصحف بذلك فيريدون أن يَـرُدُّوا الصحـف فتضحـك الملائكـة، ويقولـون: إنَّكم تظنُّـون أنَّـكم تردُّون الأوعيـة كمـا في الدنيـا، أي ترفـع بـلا ردٍّ، أو تفنـى وتتجدَّد الأُخـر؛ ويمـرُّ طـائر فيشتهونه فيقـع في وعـاء مشويـًّا أو قديـرا[1] كمـا اشتهوا؛ أو يأتيهم به ملك كذلـك، ويقـال: إذا رأوه قـالوا: «سُبْحَانَكَ اللَّهُـمَّ» فيكون ذلك، ويقال عوامُّ أهل الجنَّة فيهـا مـن حيـث المعرفـة كعلمـاء في الدنيـا، والعلماء كالأنبياء، والأنبياء كالنبيء ﷺ، وله ﷺ ما ليس لبشر ولا ملك.

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾

استعجال الإنسان الخير دائما والشرّ حال الغضب

وَلَمَّـا نزل: ﴿مَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ استعجلوا، فنزل قوله ﷻ: **﴿وَلَوْ يُعَجِّـلُ اللهُ لِلنَّـاسِ الشَّـرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِـالْخَيْرِ﴾** مثـل [قولـه:] ﴿فَـأَمْطِرْ عَلَيْنَـا﴾ (سـورة الأنفـال: ٣٢) و﴿سَـالَ سَآئِـلٌ﴾ (سورة المعارج: ٠١) و﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَـا الَّذِيـنَ لاَ يُومِنُونَ بِهَا﴾ (سورة الشورى: ١٨) و﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾(سورة العنكبـوت: ٤٥) و﴿أَوْ تُسْقِطُ السَّمَآءَ﴾ (سورة الإسراء: ٩٢)، و﴿مَتَى هَذَا الوَعْدُ﴾ (سورة يونس: ٤٨)

١- أي مطبوخا في قدر كما قال امرؤ القيس في المعلَّقة:

فظل طهاة اللحم من بين مُنضِجٍ صفـيفَ شِـواءٍ أو قَـدِيرٍ مُعَجَّلِ

الآيات ونحوهن؛ وقيل: نزلت في قول النضر: «فأمطر»، وقيل: في دعاء الإنسان على نفسه وأهله وأولاده وماله، أو بعض ذلك عند الغضب بلعنة ا لله، أو بانتفاء البركة، أو بالموت، أو الفقر، أو نحو ذلك، يستعجله كما يستعجل الخير. واختار المضارع لقصد الاستمرار فيما مضى، وقتا فوقتا.

والمعنى أَنَّ امتناع إهلاكهم استئصالا بسبب امتناع استمرار التعجيل، وأنسب من ذلك أن يكون المعنى امتناع الإهلاك بسبب استمرار امتناع التعجيل، و«الـ» في «النَّاسِ» للجنس؛ أو للعهد بقوله: ﴿الذِينَ لاَ يَرْجُونَ...﴾، وعليه فوضع موضع المضمر تسجيلا على عيوبهم، وتصريحا على استدراجهم، والتعجيل فعل ا لله والاستعجال فعلهم، فالمعنى: لو يعجِّل ا لله الشرَّ تعجيلا مثل استعجالهم الخير في السرعة وهو طلب العجل.

[قلت:] وهذا أولى من تقدير: استعجالا مثل استعجالهم، لأنَّ مصدر عَجَّلَ تعجيلٌ لا استعجال؛ أو استعجال بمعنى تعجيل، فكأنَّه قيل: فلو يعجِّل ا لله الشرَّ كما يعجِّل الخير، وهذا إشعار بسرعة الإجابة حتَّى إِنَّ استعجالهم الخير عينُ تعجيل ا لله الخير. ولا حاجة إلى تكلُّف أنَّ الأصل: ولو يعجِّل ا لله للناس الشرَّ تعجيله للخير حين استعجلوه استعجالا كاستعجالهم بالخير لكثرة الحذف. وعلى كلِّ حال المراد بالشر الشرُّ الذي يطلبونه، ويجوز أن يراد: جزاء الذنوب، كقوله ﷻ: ﴿وَلَوْ يُوَاخِذُ ا للهُ النَّاسَ...﴾ (سورة النحل: ٦١) والباء للإلصاق؛ أو صلة. ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمُ أَجَلُهُمْ﴾ أي استحضر مؤجَّلهم استئصالا، فالأجل بمعنى شرُّهم المؤجَّل، وهو الموت، أو العذاب. وعُدِّيَ «قُضِيَ» بـ«إِلَى» لتضمُّنه معنى الإيصال والإبلاغ، والمراد: لَكِنَّ ا لله يؤخِّر الشرَّ ويعجِّل الخير.

﴿فَنَذَرُ الذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ عطف على محذوف دلَّت عليه الشرطيَّة دلالة اِلْتِزَامِيَّة، أي لا نعجل بالنون أو بالياء ﴿فَنَذَرُ الذِينَ﴾ على الالتفات من غيبة «لا يُعَجِّلُ» ـ بالياء ـ أو تبع الالتفات في

«نُعَجِّلُ» ـ بالنون ـ لا عطف على «يُعَجِّلُ» ولا على «قُضِيَ» لأنَّهما منفيَّان بـ«لَوْ»، وتركهم يعمهون مثبت، ولا على «لَوْ» وما بعدها لعدم وجود ما يتفرَّع بالفاء. و«النَّاس» أعمُّ من «الذِينَ لاَ يَرْجُونَ»، ولو حملنا الناس على الأشقياء لكانوا قوما واحدا، ذكرهم بالظاهر ليصِفَهُم بإنكار البعث، وبإبقائهم متردِّدين في الطغيان، من إنكار البعث والجزاء وأنواع الشرك والمعاصي، تركهم يوفُّون أجلهم لأَنَّهُ لا يخلف الوعد، ولأنَّ منهم من قضى الله أن يلد مؤمنا؛ أو شقيا مثله، ويجوز أن يراد بـ«الذِينَ لاَ يَرْجُونَ» ما يشمل من يتوب، فيكون تردُّده قبل توبته، وهو بعيد.

﴿وَإِذَا مَسَّ الاِنسَانَ﴾ الكافر؛ أو الإنسان المطلق، لأنَّ من شأنه ـ ولو مؤمنا ـ القلق بالضرِّ. ﴿الضُّرُّ﴾ المرض، أو الفقر، أو الذلُّ، أو غير ذلك مِمَّا يسوءه. وعبَّر بالمسِّ تلويحا بِأَنَّهُ يقلق من أوَّل الأمر، وتكذيبا لِمَا يوهمه طلبهم الشرَّ من القدرة عليه كيف تطلبونه وأنتم لا تطيقونه ولا تصبرون عليه؟ وبيانا لكونه لو قضي إليهم لم يؤخِّروه ولم يطيقوه لعجزهم وضعفهم، ﴿دَعَانَا﴾ في إزالته على أيِّ حال كان من قيام أو قعود أو اضطجاع ملحًّا، كما قال: ﴿لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا اَوْ قَآئِمًا﴾ بالنصب على الحال أي ثابتا؛ أو مضطجعا على جنبه الأيمن أو الأيسر؛ فاللام بمعنى على؛ أو ملقيا لجنبه على الأرض، فتكون على أصلها إلاَّ أنَّها للتقوية، و«أَوْ» لتنويع الأحوال فهي كالواو، ويجوز أن تكون لتنويع أصناف المضارِّ، أي لمرض لا يطيق معه القعود ولا القيام؛ أو لمرض يطيق معه القيام كالقعود؛ أو يطيق معه القعود كالاضطجاع لا القيام، والأوَّل أولى لعمومه وخصوص الثاني بالأمراض.

وعلى كلِّ حال ذلك غالب لا حصر، لأَنَّهُ بقي الركوع والسجود، والميل جانبا دون استواء قعود أو اضطجاع، والاستلقاء، والانكباب على الوجه، وهو منهيٌّ عنه، فذلك تمثيل، وقد يدخل الركوع في القيام والميل، والسجود في

القعود، على معنى أنَّ القعود ما عدا الاضطجاع والقيام، وكم مريض لا يطيق الاضطجاع ولا القعود بل الميل.

ولعلَّ ذلك الترتيب في الذكر أنَّ الاضطجاع أولى بالتسلِّي، لأنَّهُ مظنَّة سكون، وبعده القيام فإنَّه مظنَّة اشتغال بعمل، ومع ذلك لا يترك الدعاء والقعود بينهما فإنَّ فيه انتصابا غير تامٍّ فأخِّر، والله أعلم.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ, مَرَّ﴾ دام على حاله من التقصير والغفلة ولو كان موحِّدا، وعلى حاله من الكفر إن كان كافرا؛ أو ذهب عن موضع الدعاء؛ أو عن الدعاء لا يرجع إليه، وهذا كثير في أهل التوحيد، فلا يختَّص الإنسان المذكور بالمشرك، ولا يتعيَّن اختصاصه به، لقوله: ﴿كَذَالِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾، لصحَّة أن يكون المعنى: تلك خصلة سوء فيمن كانت، موحِّدا أو مشركا، كما زيِّن للمشركين مطلق ما يعملونه من شرك؛ أو أراد بالإسراف: الفسق بالشرك أو بما دونه، كلٌّ يلحُّ في الحاجة، فإذا حصلت قَصَّرَ.

﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾ أي كأنَّه أي الشأن؛ أو الإنسان الداعي. جوَّز سيبويه في مثل ذلك أن يرجع الضمير إلى ما يصلح بالمقام، لا إلى خصوص الشأن، والجملة حال من ضمير «مَرَّ»، والمعنى: مشبِّها من لم يدعنا إلى إزالة ضرٍّ مَسَّه أو في شأن ضرٍّ بالدفع، على أن تكون «إِلَى» بمعنى «في»، والأصل الأوَّل، وهو بعد الكشف كحاله قبل الابتلاء والتضرُّع والقسوة وعدم الضرِّ. و«مَسَّهُ» نعت «ضُرٍّ». قال أبو الدرداء: «أدع الله يوم سرَّاتك يستجب لك يوم ضرَّاتك». وعن أبي هريرة وسلمان: **«من سرَّه أن يستجيب الله تعالى**

له عند الشدائد والكروب فليكثر الدعاء في الرخاء»[1].

﴿**كَذَالِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ من الاستغراق في الشهوات وفي ترك العبادة، واستعمال الجوارح في المعاصي وقد خلفت للطاعة إسراف، كاستعمال المال فيما يضيع؛ أو يضرُّ، أي مثل ذلك المرور على حاله من الدعاء عند الضرِّ والإعراض عند الرخاء قبل الابتلاء. و لم أقل مثل ذلك التزيين لأَنَّهُ لم يتقدَّم لفظ «زُيِّنَ» ولو كان في ضمن ما ذكر، ويجوز أن يكون الكلام كناية، كقولك: مثلك لا يبخل، ولا حاجة إلى جعل الكاف زائدة على أَنَّهُ معنى ﴿زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ذلك التزيين.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

سنّة الله في إهلاك الأمم الظالمة واستخلاف خلائف بعدهم

﴿**وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ**﴾ يا أهل مَكَّة كقوم نوح وعاد وثمود. والقرن هنا: أهل كلِّ زمان، مأخوذ من الاقتران، فكلُّ أهل زمان مقترنون في أعمالهم وأحوالهم. ﴿**لَمَّا ظَلَمُواْ**﴾ أنفسهم بالإشراك والفجور، وأصرُّوا إلى أجلهم فلم يبق وجه لتأخيرهم.

١- رواه **الترمذي** في كتاب الدعاء (٩) باب ما جاء: إنَّ دعوة المسلم مستجابة رقم ٣٣٨٢، ورواه **التبريزي** في كتاب الدعوات، الفصل الثاني رقم ٢٢٤٠(١٨). من حديث أبي هريرة.

(نحو) و«لَمَّا» ظرف متعلِّق بـ«أَهْلَكْنَا» خارج عن الصَّدر استغنى بما قبله عَمَّا يكون جوابا له لو قدِّم؛ أو حرف استغنى كذلك كما يستغنى عن جواب إنْ بما تقدَّمها، والظرف المضاف للحدث مشعر بأنَّ ذلك الحدث علَّة لمتلِّقِهِ كتعليق الحكم بالمشتقِّ، وليست «لَمَّا» نفسها للتعليل، والمعنى: إنَّ إهلاكهم بسبب ظلمهم، كما نقول في «إذا» التعليلية: إنَّها ظرف، والتعليل مستفاد بمدخولها لا حرف تعليل كما شهر.

﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الدلائل على صدقهم فلا عذر لهم، عطف على «أَهْلَكْنَا» عطف سابق على لاحق؛ أو حال من واو «ظَلَمُوا» بتقدير قد لأَنَّهُ ماض مثبت متصرِّف، وقيل: أو بدون تقديرها.

﴿وَمَا كَانُواْ لِيُومِنُواْ﴾ حال من هاء «جَاءَتْهُمْ»؛ أو عطف على «جَاءَتْهُمْ» واللام لتأكيد النفي، بمعنى أنَّهم أشقياء لا يتركون الإصرار، وليست الجملة تأكيدا للجملة قبلها لأنَّ الأُولى تكذيب وهذه إصرار عليه، والضمير للقرون، وأجاز مقاتل كونه لأهل مَكَّة، وهو ضعيف.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الإهلاك للإصرار على ترك الإيمان ﴿نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ سائر المجرمين الذين بعدُ، كأهل مَكَّة؛ أو هم المراد فالأصل: نجزيهم، فوضع الظاهر موضع المضمر ليصفهم بالإجرام الذي هو علَّة للإهلاك، وللفاصلة وعليه فـ«الـ» للعهد.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ﴾ يا أهل مَكَّة ﴿خَلَآئِفَ فِي الْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ العطف على «أَهْلَكْنَا»، والهاء لـ«القُرُونِ» والمراد: الإيجاد لهم في الأرض وإسكانهم فيها بعد إذهاب من قبلهم، سواء من اتَّفقت أرضهم ومن لم تتَّفق. ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ أي لنعلم كيف تعملون أي لنظهر متعلَّق

علمنا للناس من إيمان مَن يؤمن منكم، للاعتبار بإهلاك من قبلكم؛ أو لغيره كمعجزات الرسول، ومِن كُفر من يكفر منكم. و«كَيْفَ» حال من الواو، والمعنى: لننظر على أيِّ حال تعملون، فإنَّ المعتبر جهة الفعل لا نفسه، ألا ترى أنَّ الفعل الواحد يقبح تارة ويحسن أخرى، كضرب اليتيم يحسن تأديبا ويقبح ظُلما له واحتقارا.

(نحو) لا مفعول مطلق أي أيَّ عمل تعملون كما قيل، ولا مفعول به، لأنَّ كيف للسؤال عن الأحوال لا عن الذوات، نعم يجوز السؤال بها عن الذوات على التجوُّز. وإن جاء عن العرب: "كيف ظننت زيدا" فهي فيه مفعول به، والأولى أنَّها حال وعاملها محذوف، والمجموع مفعول ثان، أي كيف يفعل، وإذا لم يجعل مفعولا به قدِّر المفعول به أي لننظر كيف تعملون ما يعرض لكم.

(بلاغة) وفي الآية استعارة تمثيليَّة، شبَّه تمكينه العباد من الطاعة والمعصية والأمر بالطاعة ورضاها والنهي عن المعاصي وبغضها باختبار الإنسان مع تمكينه مِمَّا يعمل أو يترك، والجامع ظهور ما يترتَّب على ذلك، وهي مبنيَّة على استعارة مفردة تبعيَّة، فإنَّ النظر موضوع للنظر بالعين واستعمل في العلم، أي ليظهر معلومنا خارجا فيجازى عليه.

وفي الحديث «**إنَّ الدنيا حُلوة خضرة ـ أو خضرة نضرة ـ وإنَّ ا لله مستخلفُكم فيها فناظر كيف تعملون**»[1]. وعن قتادة: «**صدق ا لله ربُّنا**

١- رواه **مسلم** في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، (٢٦) باب أكثر أهل الجنَّة الفقراء... رقم ٩٩ (٢٧٤٢). رواه **الترمذي** في كتاب الفتن (٢٦) باب ما أخبر به النبيء ﷺ وأصحابه بما هو كائن إلى يوم القيامة رقم ٢١٩١. من حديث أبي سعيد الخدري.

ما جعلنا خلفاء إلاَّ لينظر إلى أعمالنا فأروا الله من أعمالكم خيرا بالليل وبالنهار».

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾

مطالبة المشركين بقرآن آخر أو تبديل بعض آياته

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أي عليكم يا أهل مكّة، فجاء على طريق الالتفات من الخطاب في قوله: ﴿جَعَلْنَاكُمْ﴾ و﴿تَعْمَلُونَ﴾ إلى الغيبة. ﴿ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ القرآن مطلقا، وقيل: آيات التوحيد. ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ منهم كالخمسة المستهزئين بالرسول ﷺ وبالقرآن ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ (سورة الحجر: ٩٥) ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ (سورة الحجر: ٩١) عبد الله بن أميّة المخزومي، والوليد بن المغيرة، ومكرز بن حفص، وعمرو بن عبد الله بن أبي

قيس العامري، والعاصي بن عامر بن هشام.

وإسناد القول إلى الكلِّ إسناد إلى المجموع إذ لم يقولوا كلُّهم: «ايتِ بِقُرْآن غَيْرِ هَذَآ...»؛ أو لرضى من لم يقل بقول القائل. واللقاء يكون بالبعث، لا يخافون البعث ولا يرجون ثوابا لإنكارهم إِيَّاهُ، وفي «تُتْلَى» قيل التفات إلى الغيبة، أي سكَّاكيٌّ لا جمهوريٌّ، ومقتضى الظاهر: «وإذا تتلو عليهم» لقوله: ﴿ايتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَآ﴾ لأَنَّهُ خطاب له ﷺ، أي بقرآن مغاير لهذا بنفي البعث وبعدم عيب آلهتنا اللات والعزى ومناة، والقائل بعضٌ والباقون راضون.

﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ أي أوقع التبديل في بعضه، بأن تجعل مقام البعث انتفاءه، ومقام عيب الآلهة مدحها، ومكان العذاب الرحمة، ومكان الحرام الحلال، قالوا ذلك استهزاء، أوْ ليقولوا إن طاوعهم بغير هذا القرآن أو بالتبديل: إنَّك كاذب، إذ لو كان من الله لم تبدِّلْه، لكن قد يقولون لجهلهم: إنَّ الله بدَّله؛ أو أتى بغيره؛ أو كنَّوْا بذلك عن أَنَّهُ منك فات بغيره من الله.

وَلَمَّا كان ماصدق غير هذا وماصدق التبديل واحدا وهو التغيير، وأيضا امتناع التبديل يستلزم امتناع الإتيان بغير هذا، إذ عدم القدرة على تبديل البعض يَستلزم عدم القدرة على تبديله كُلِّه، أجاب بواحد فقال: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ﴾ يصحُّ ﴿لِيَ أَنُ اُبَدِّلَهُ, مِن تِلْقَآءِ نَفْسِيَ﴾ و لم يقل: أو آتي بغيره، ولكن لا مانع من تقديره. و«تِلْقَاء» مصدر لقي، استعمل ظَرف مكان بمعنى الجهة المقابلة، والمراد هنا: من قبل نفسي، ويفسَّر أيضا بالجانب.

ومن المصادر التي جاءت على تِفعال بالكسر: تبيان وتهدار وتلعاب كتلقاء، وَأَمَّا تمساح فاسم.

﴿إِنَ اَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ تعليل لقوله: ﴿مَا يَكُونُ﴾ أي ما يكون لي أن أبدِّله من تلقاء نفسي لأنِّي لا أتِّبع إلاَّ ما يوحى إليَّ، فإذا أوحي بإسقاط آية

أو بعضها حكما أو تلاوة أو تبديلها أو بعضها فعلت، وذلك نسخ من ا لله لا من تلقاء نفسي، فلا تتوهموا أنَّ ما أذكر من النسخ من عندي بل من عند ا لله، فلا تقولوا: بدِّل كما بدَّلت من قبل، أو أسقط كما فعلت من قبل، وقد ذمَّ ا لله من فعل ذلك ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـذَا مِنْ عِندِ ا للهِ﴾ (سورة البقرة: ٩٧) وقال: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ (سورة النساء: ٤٦) وقال: ﴿إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ بالتغيير أو التبديل أو الكتم، فإنَّه إسقاط؛ أو غير ذلك من مخالفة ا لله ﷻ. ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هو يوم القيامة فقد استوجبتم العذاب العظيم بطلب ذلك مني.

﴿قُل لَّوْ شَآءَ ا للهُ﴾ أن يكون قرآن غيره أو أن يبدِّله ثمَّ ينزله، فاكتفى عن هذا بقوله: ﴿مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلآَ أَدْرَاكُم﴾ أعلمكم ا لله ﴿بِهِ﴾ على لساني، فإنَّ عدم التلاوة وعدم الإدراء به سببان وملزومان لعدم إنزاله.

(نحو) والمشهور أن مفعول المشيئة يحذف مذكورا في الجواب إلاَّ إن كان غريبا، والتقدير: لو شاء ا لله عدم تلاوته عليكم وعدم إدرائه إيَّاكُم به ما تلوته عليكم، ولا أدراكم به، والباء للإلصاق، مِن دَرَى المتعدِّي بها كما تقول: عرفت بكذا، ولا معمول له إلاَّ ما دخلت عليه الباء، كَأَنَّهُ قيل: اتَّصل علي به فتعد لآخر بالهمزة؛ أو صلة في المفعول الثاني لأدري المتعدِّي لاثنين، من درى المتعدِّية لواحد. و«لاَ» صِلَةٌ للتأكيد نَصًّا على الكُلِّيَّة، ولذلك ساغت في المعطوف على جواب «لَوْ»، مع أَنَّهُ لا يكون بـ«لا» النافية إلاَّ أن يقال: إنَّ هذا مِمَّا يغتفر في ثوانيه ما لا يغتفر في أوائله. وضمير «أَدْرَى» عائد إلى ا لله، وقرئ: «أَدْرَأَكُمْ» بهمزة بعد الراء على لغة عقيل من قلب الألف المبدلة من ياء آخرا همزة، ولو كان أصل تلك الياء واوا كأعطيتك، فيقولون: أعطأتك، بهمزة ساكنة بدلا من ألف أعطى المبدلة عن الياء المبدلة عن الواو؛ أو معنى قراءة الهمزة: لأجعلنَّكم خصماء بتلاوته تدرأونني بالجدال، من الدرء بمعنى

الدفع.

﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا﴾ مدَّة ـ قيل ـ أو مقدار عمر ﴿مِّن قَبْلِهِ﴾ قبل مجيئي بما قلت إِنَّهُ قرآن، مكثت فيكم أربعين سنة تشاهدونني لا أقرأ كتابة ولا أكتب، فلا أجالس من يقرأها أو يكتب، ولا أجالس أصحاب الأخبار والقصص أو الكهانة، ولا أدَّعي شيئا، وشاهدتم صدقي، ولا أنشئ شعرا ولا أقرأه ولا خطبة، وجئتكم بكلام بليغ لا تطيقون مثله مخبر بالغيوب، مشتمل على الآداب ومكارم الأخلاق، والأحكام المقبولة في قلوب من تدبَّروا ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ أتلاحظون ذلك ولا تعقلون بذلك أَنَّهُ من ا لله لا مِنِّي؟ وبأنِّي مع بلاغتي الزائدة على بلاغتكم لا آتي بمثله في سائر كلامي.

وإذا كان ذلك ﴿فَمَنَ اَظْلَمُ﴾ لا أظلم ﴿مِمَّنِ اِفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فلو كان مِنِّي ونسبته إلى ا لله لم يكن أحد أظلم مِنِّي، فكيف يحِبُّ عاقل أن يكون أظلم الخلق؟. أو أنتم افتريتم على ا لله بادِّعاء الولد له والصاحبة والشريك فلا أظلم منكم ﴿اَوْ كَذَّبَ بِئَايَاتِهِ﴾ هي القرآن، لا ما نصبه من الأدلَّة العَقلِيَّة كخلق السماوات والأرض والجبال وغير ذلك، وأحوال كلِّ الخلق، لأنَّهم لم يكذِّبوا بها إلاَّ بتكلف إن عدم الاعتبار بها تكذيب، فتشمل الآيات القرآن وَالأَدِلَّة العَقلِيَّة لَكِنَّ تسمية عدم الاعتبار تكذيبا مجاز، فيجمع بين الحقيقة والمجاز، إلاَّ إن اعتبرنا عموم المجاز فنقول: معنى التكذيب عدم العمل بالقرآن والأدلَّة العَقلِيَّة ﴿إِنَّهُ, لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ المشركون وأصحاب الكبائر مطلقا؛ أو هؤلاء المشركون كما مَرَّ مثله.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ا للهِ﴾ كما يعبدون ا لله في زعمهم ﴿مَا لاَ يَضُرُّهُمْ﴾ إن لم يعبدوه، أو عبدوه ﴿وَلاَ يَنفَعُهُمْ﴾ إن عبدوه أو لم يعبدوه، وكان أهل الطائف يعبدون اللات وأهل مَكَّة العزَّى ومناة وأسافا ونائلة وهبلا. والجملتان

تعليل لـ«مَنَ اَظْلَمُ» أي لا أظلم مِمَّن ذكر لأَنَّهُ لا يفلح المجرمون، ولأنّهم يعبدون من لا يخلق ولا يرزق ولا يجلب ولا يدفع. وقدّم نفي الضرّ لأنَّ التخلّي قبل التحلّي ونفي الضرّ أهمّ، والمعبود مُثيب ومعاقب وليست الأصنام تعاقب أو تثيب فليست بآلهة، وكذا الملائكة وكلُّ معبود غير الله لا قدرة له ولو كان حيوانا إلاّ ما أقدره الله، وقد قيل: الآية شاملة للملائكة وعيسى، والظاهر أنَّ المراد: الأصنام.

﴿وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَآءِ﴾ الأصنام التي نعبدها ﴿شُفَعَآؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ فيما يهمُّنا من جدب ومرض وسائر المضارّ، وفي إحضار ما نطلبه، وفي الآخرة إن كان ما يقول مُحَمَّد من البعث حقًّا تقرّبنا إلى الله زلفى ﴿وَلَئِنْ رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيَ إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ (سورة فصلت: ٥٠) ولسنا أهلا لخدمة الله بالعبادة فإنّه أعظم شأنا أن نكون له خدما، بل نتوسَّل إليه بعبادة الأصنام، وذلك سَفَهٌ ظاهر، فإنَّ العاقل أحقُّ بأن يكون خادما من الجماد، وأيضا الأصنام تحتاج في شفاعتها لهم يوم القيامة على فرض ثبوتها إلى أن يخلق الله لسانا تشفع به، وإنّما الحقُّ عبادة من يُحتاج إليه لا من يَحتاج، ومن تُيقّن نفعه وضرُّه كما أقرُّوا به لا الجماد المحتاج المتيقَّن عدم نفعه في الدنيا، وأولى أن لا ينفع في الآخرة، والذي يتيقّن أنَّهُ النافع الضارُّ المثيب المعاقب، لا الجماد الذي ليسوا على يقين من نفعه في الآخرة لشكّهم فيه. وقوله: ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ يشمل الدنيا ويشمل الآخرة على فرض ثبوتها [حسب زعمهم].

وكان النضر يقول: إذا كان يوم القيامة شفعت لي العُزّى واللات، ويروى أنَّ الآية نزلت فيه، يعني إن صحَّ البعث، وذلك لا يقولون به ﴿وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ (سورة النحل: ٣٨) وبعضهم يقول: تشفع الأصنام في الدنيا بمنافع ودفع مضارّ، وبعض يقول: يشفع لنا ما هي على

صورته من الصالحين يعبدونها ليشفع لهم هؤلاء الصالحون.

﴿قُلَ اَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الاَرْضِ﴾ «ما» اسم موصول للجنس عَامَّة لكلِّ شيء يتوهَّمون أَنَّهُ لا يعلمه **حاشاه**؛ أو واقعة على الآلهة؛ أو على شفاعتها؛ أو نكرة موصوفة واقعة على آلهة أو شفاعة.

(أصول الدين) والمعنى: كلُّ شيء معلوم لله، فلا يتصوَّر إخباركم له بالآلهة والشفاعة، لأنَّها لا تثبت عنده، وما لا يثبت لا يقال علمه الله ثابتا؛ أو لا يعلم بمعنى لا يثبت، فلزم من انتفاء علمه أَنَّهُ غير موجود، إذ لو وجد لكان عنده معلوما لا يخفى عنه شيء.

(نحو) و«فِي السَّمَاوَاتِ» حال من الضمير العائد المحذوف، أي لا يعلمه، كذا قالوا، ويُعطِّله قوله: ﴿وَلاَ فِي الاَرْضِ﴾ إلاَّ بتقدير: وما لا يعلمه في الأرض، وَأَمَّا على جعله حالا من «مَا» فلا حاجة إلى تقدير، ولا يتعلَّق بـ«يَعْلَمُ» لأنَّ علمه تعالى لا يقع في موضع، لأَنَّهُ لا يحلُّ في موضع، ولك جعله مفعولا ثانيا، أي لا يعلمه ثابتا في السماوات ولا في الأرض.

وما في الهواء فوق السماء هو من السماء، وما في الهواء فوق الأرض من الأرض، بل السماوات والأرض تمثيل، لأَنَّهُ قد وجد غيرهما كالعرش والكرسيِّ وما تحت الأرض من الأرضين وما تحتهنَّ، ويجوز أن يكون الأرض جنسا لَهُنَّ كلّهنَّ، وكلُّ ما في السماوات والأرضين وغيرهنَّ مملوك لله عاجز لا يكون إلها.

﴿سُبْحَانَهُ, وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به، و«مَا» مَصدَرِيَّة، أي عن إشراكهم؛ أو اسم موصول، أي عن الشركاء التي يشركونها؛ أو نكرة للتحقير موصوفة، أي عن أشياء يشركونها، **وَالأَوَّل أولى** لأنَّ التنزيه عن الفعل أولى من التنزيه عن نفس ما يشرك، مع أنَّ التنزيه عن نفس ذلك راجع إلى التنزيه عن الفعل تنازع [قوله:] ﴿سُبْحَانَهُ, وَتَعَالَىٰ﴾ في قوله: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فأعمل

الثاني وأضمر للأوَّل، أي سبحانه عنه، أي سبحانه عَمَّا يشركون، ومعنى «سُبحَانَهُ» تنزيهه عَمَّا يشركون، أي نزِّهوه يا معشر الناس أو المكلَّفين أو الخلق؛ أو أُنزِّه نفسي؛ أو نزَّهت نفسي عَمَّا يشركون، وهكذا في سائر القرآن، ومعنى ﴿تَعَالَىٰ﴾: تعاظم وبَعُد عَمَّا يشركون، وأصله علاج العلوِّ من سفل حاشاه.

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ على عهد آدم إلى أن قتل قابيل هابيل وأوصله ذلك وأولادَه إلى الإشراك، وهو الصحيح لصحَّة الإشراك المذكور، وقيل: إلى إدريس، وكانت الملائكة تصافحه إلى أن رُفعَ، وقيل: إلى زمان نوح وفي زمانه وقع الإشراك، وقيل: من حيث الطوفان إلى أن أشركت ثمود، لأنَّ الله ﷻ لم يذَرْ على الأرض من الكافرين ديَّارا، وقيل: من بعثة إبراهيم عليه السلام إلى أن غيَّره نمرود، وقيل: من بعد قتل نمرود إلى أن أظهر عمرو بن لحي عبادة الحجر، وهو من أهل مَكَّة، وعليه فـ«النَّاسُ»: العرب، وهو أنسب بذكر الآية بعد ذكر أحوالهم من عبادة الأصنام، وقيل: إلاَّ أُمَّة واحدة على الكفر في زمان الفترة قبل بعثة رسول الله ﷺ، [قلت:] وهذا لاتِّصاله إليه ﷺ أولى من قول من قال: في زمان قبل بعثة إبراهيم عليه السلام، وقول من قال: في زمان قبل بعثة نوح عليه السلام.

والمراد: الأكثر، لِمَا ثبت أَنَّهُ ما خلت أمَّة إلاَّ وفيها مؤمن، وَأَنَّ الأرض لا تخلو عَمَّن يعبد الله وعن قوم بهم يمطرون وبهم يرزقون كالأوتاد والغوث والقطب، وعلى هذه الأقوال في الاِتِّفَاق على الشرك تكون فائدة ذكره تسليته عن شرك قومه وعنادهم، وقيل: الاِتِّفَاق في الخلق على الإسلام: «**كلُّ مولود يولد على الفطرة**»[1]. ﴿فَاخْتَلَفُواْ﴾ بعضٌ مسلم وبعض كافر، وبعض بقي على الفطرة وبعض خرج عنها.

١- تقدَّم تخريجه، انظر: ج٣/ ص٣٥١.

﴿وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ الجملة نعتٌ لا خبر، والكلمة: قضاؤه بتأخير العذاب والثواب إلى يوم القيامة، وهو يوم الجزاء؛ أو تأخير الميز بينهم بإنجاء المؤمنين وإهلاك الكافر؛ أو بإنزال آية مُلجئة إلى اتِّبَاع الحقِّ، وهذا ضعيف. ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ في الدنيا بإهلاك الكافر وإنجاء المؤمن ﴿فِيمَا﴾ أي في شأن أو سبب ما ﴿فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من الدين، ولم يقل: اختلفوا لحكاية الحال الماضية.

﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَا قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

عادة الكفار المكر واللجاج والعناد وعدم الإنصاف

﴿وَيَقُولُونَ﴾ كفار مكَّة، والعطف على «يَعْبُدُونَ»؛ أو هو بمعنى: قالوا، عطف على «قَالَ الذِينَ»، وجيء بالمضارع ليدلَّ على الاستمرار. ﴿لَوْلَآ﴾ توبيخ على عدم الإنزال بفرض أنَّهُ نبيء كما يزعم؛ أو تحضيض، وعليه فقوله:

﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾ بمعنى ينزل، ﴿ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ محسوسة كاليد والعصا والناقة والمائدة كالأنبياء قبله، وتفجير الأرض ينبوعا، وإسقاط السماء كسفا، وبعث جدِّه قصي، وتسيير الجبال، وفي ذلك تلويح إلى أنَّ القرآن وغيره من معجزاته غير آية عندهم.

﴿فَقُلِ اِنَّمَا الْغَيْبُ﴾ ما غاب عن العباد ﴿لِلهِ﴾ والآيات مِمَّا غاب إن كانت فإنَّما يأتي بها الله ﷻ، ولعلَّ في إنزالها إهلاكا لكم إن لم تؤمنوا كما أهلك من قبلكم لَمَّا طلبوها وأنزلت و لم يؤمنوا.

﴿فَانتَظِرُواْ﴾ نزول الآية للعذاب؛ أو انتظروا العذاب، وهو أمر للتهديد. ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ ما يفعل الله بكم، لعنادكم واستهزائكم بالقرآن الذي لا آية تساويه فضلا عن أن تفوقه.

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا النَّاسَ﴾ كُفَّار مكَّة؛ أو الكُفَّار مطلقا، ففيهم اللجاج والمكر مطلقا ﴿رَحْمَةً﴾ كالصحَّة والشفاء والخصب وصلاح الثمار والأنعام وأحوالها ﴿مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ﴾ كمرض وقحط. ووصف الضرَّاء بالمسِّ إشارة إلى أنَّها قليلة بالنسبة إلى الرحمة ﴿إِذَا﴾ للمفاجأة ﴿لَهُم مَّكْرٌ فِي ءَايَاتِنَا﴾ احتيال في دفعها.

(فلك) كما روي أنَّهم أقحطوا سبع سنين وكادوا يهلكون، وَلَمَّا أرسل الله إليهم المطر نسبوه إلى الأصنام أو الأنواء والكواكب، ويقولون مطرنا بنوء كذا، أي بسقوط نجم كذا في المغرب، من المنازل الثمانية والعشرين وطلوع مقابله من المشرق في الفجر، ويضيفون البرد والرياح والأمطار إلى الساقط، وقال الأصمعي: إلى الطالع، وذلك في كلِّ ثلاثة عشر يوما إلاَّ الجبهة فأربعة عشر.

وليس غرضهم من طلب الآيات طلب الحقِّ والتأمُّل بل غرضهم العناد

والعنَت، فلو نزلت كلُّ آية لم يؤمنوا، والمراد بالآيات غير المتلوَّة، قال زيد بن خالد: قال رسول ا لله ﷺ : «**أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بالنجم، وكافر بي ومؤمن بالنجم، فأمَّا من قال: مطرنا بفضل ا لله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالنجم، وأمَّا من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالنجم**»[1]، وإنَّما كفر لاعتقاده أنَّ النجم مستقلٌّ بالمطر، ولا كفر بقول: مطرنا عندها مع نية أنَّ الإمطار بإذن ا لله ولا تأثير في النجم لذلك، [قلت:] ولا يجوز [أن نقول] للنجم تأثير بِقُوَّةٍ أودعها ا لله فيه استقلالا فإنَّ هذا إشراك، وأمَّا بِقُوَّةٍ أودعها ا لله تعالى فيه تؤثِّر بإذنه وعلمه وخلقه الأثر فلا بأس، وشهر المنع، وهكذا سائر الأسباب.

﴿**قُلِ ا للهُ أَسْرَعُ مَكْرًا**﴾ منكم أي أسرع مجازاة منكم في سرعة مكركم، وسرعتهم معبَّر عنها بـ«إِذَا» الفجائيَّة، سمَّى المجازاة مكرا لأنَّ المكر سببها وملزومها، وذلك مشاكلة، ويجوز أن يكون المكر مستعارا للاستدراج، فإنَّ معاملة ا لله معهم بما يحبُّون مع إقامتهم على المعصية في صورة المكر والخديعة، وعلَّل الأسرعيَّة بقوله: ﴿**إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ**﴾ يعني الحفظة يكتبونه لئلاَّ تنكروه، فلم يخف عنهم فكيف عن ا لله، فلا بدَّ من الانتقام، لأنَّ الحفظة والكتابة إنَّما هما للجزاء.

وسمَّى الملائكة رسلا هنا كما في سورة فاطر [آية: ٠١] لأنَّهم يبلِّغون أعمالهم إلى ا لله ﷻ، وهو أعلم بها منهم، والتكلُّم هنا مناسب له في قوله: ﴿أَذَقْنَا﴾ فلا التفات، فلا تهم، فإنَّ قوله: ﴿قُلِ ا للهُ﴾ لا يقابل ذلك، لأَنَّهُ أمر، فكيف يكون مدخول «قُلْ» وهو لفظ الجلالة مقابلا للتكلُّم حتَّى يقال: التفات

١- حديث قدسي، تقدَّم تخريجه، انظر: ج٤/ ص٣٩٤.

من الغيبة، إلاَّ إن كان هذا من مقول القول، فيكون الأصل: إنَّ رسله، ولا حاجة إلى ذلك، بل أخبر الله تعالى رسوله: ﴿إِنَّ رُسُلَنا يَكْتُبُونَ...﴾ كما أمره بالقول. و«مَا» مَصدَرِيَّة، أي يكتبون مكركم؛ أو اسم، أي ما تمكرونه على تضمين «تَمْكُرُ» معنى تعمل في خفاء.

﴿هُوَ الذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ يصيِّركم سائرين في البرِّ مشاة وركبانا وفي البحر في السفن. ﴿حَتَّى﴾ ابتدائيَّة تفريعيَّة لا للغاية، ولو تضمَّن التفريع معنى الغاية كأنَّه قيل: فإذا كنتم في البحر واشتدَّ أمره عليكم وظننتم أنَّكم هلكى دعوتم الله، فإذا فرَّج عليكم الله رجعتم إلى الشرك، ووجه الغاية ـ إن قيل بها ـ أَنَّ المعنى: يسيِّركم في البرِّ والبحر إلى وقت حصول شدَّة البحر والظنِّ والدعاء والرجوع إلى الكفر، فإنَّ بعضا يجرُّ «إِذَا» بـ«حَتَّى»؛ أو يمكِّنكم من السير حتَّى يحصل ذلك المذكور في قوله: ﴿إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ﴾ الضمُّ والسكون فيه دالاَّن على الجمع بواسطة قرينة كُبُدْن وأُسْد، ومفرده مثله كقُرب وقُفل، بدون أن يدلاَّ على شيء فيه، والقرينة أَنَّ ضمَّه وسكونه للجمع قوله: ﴿وَجَرَيْنَ﴾ بنون الإناث كما دلَّ النعت بالمفرد على الإفراد في قوله ﷻ : ﴿فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ (سورة الشعراء: ١١٩). ﴿بِهِم﴾ الباء للمصاحبة، ويضعف كونها للتعدية، أي وأجريناهم، لأنَّ إطلاق الجري عليهم مجاز، لأنَّها الجارية. ومقتضى الظاهر: «بِكُمْ» للخطاب في «كُنتُمْ»، وجاء بالغيبة إعراضا عن خطابهم لعدم لياقتهم بعزِّ الخطاب، إذ هم رجس لائقون بالحجاب.

وحكى لغيرهم عيوبهم ليتعجَّب منها أولوا الألباب. [قلت:] وأمَّا قول أبي حيان: إنَّ مضمون الخطاب في قوله: ﴿يُسَيِّرُكُمْ...﴾ نعمة للمؤمن والكافر حتَّى وصل ذكر السوء وما يتمهَّد له قبله صرف الخطاب إلى الكفَّار فقريب من

ذلك، لكن يوهم أنَّ الخطاب للمؤمنين والكافرين وليس ذلك مراده، فإنَّه للكافر خَاصَّةً، وإنَّما أراد أن يذكر لك أنَّ ما أنعم عليهم به يكون لهم وللمؤمنين.

﴿بريحٍ﴾ الباء للآلة، وعلى فرض الأولى للتعدية فهذه للمصاحبة ﴿طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾ ليِّنة الهبوب إلى جهة المقصد، ﴿جَآءَتْهَا﴾ الضمير عائد إلى الريح أي عارضتها ريح مضادَّة لها فذهبت هي ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ فإنَّ العاصفة ضدُّها الليِّنة، لأنَّها ضدُّ الليِّنة، وهذا أولى من عوده للفلك لقرب الريح، ولتقدُّم الإضمار له في قوله: ﴿بهَا﴾، ولأنَّه لم يقل: جاءتهنَّ كما قال: ﴿وَجَرَيْنَ﴾. و«عَاصِفٌ» للنَّسب كتَامِرٍ ولاَبِنٍ، لا اسم فاعل، لأنَّهُ لا يقال: عصفت الريح، ولذلك ذكر مع أنَّ الريح مؤنَّث، كذا قيل، ولا أقول بذلك، بل يقال: عصفت الريح تعصف بمعنى اشتدَّت، فهي عاصفة وعاصف.

﴿وَجَآءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ تأهَّل المجيء منه كقوله تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَ شَيْءٍ﴾ (سورة الأحقاف: ٢٨) أي كلَّ شيء أتت عليه لا كلَّ شيء مطلقا. ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمُ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أي حُبسوا عن النجاة كما يحيط العدوُّ أو الحريق، فيترجَّح فيه الهلاك.

(بلاغة) أو هو استعارة تبعيَّة شبَّه شدَّة الموج بإحاطة العدوِّ مثلا بهم، واشتقَّ منها «أُحِيطَ» على التبعيَّة، وهذا ضعيف لصحَّة بقائه على معناه الأصلي بلا ضعف، ولا داع إلى غيره، وبعد أن صير إلى الاستعارة، فكلَّما أمكنت الاستعارة التمثيليَّة بلا ضعف صير إليها، فتقول: شُبِّهت الهيئة المنتزعة من شدَّة هبوب الريح وظهور الموج من كلِّ مكان وحركة السفينة الحركة الشديدة بالهيئة المنتزعة من العدوِّ من إحاطته بشخص من جميع جهاته بحيث لا يرجى خلاصه.

﴿دَعَوُاْ اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ استئناف بياني، كأنَّه قيل: فما فعلوا؟ فقال: ﴿دَعَوُاْ اللهَ...﴾؛ أو بدل اشتمال، لأنَّ بين ظنِّ الإحاطة والدعاء ملابسة بغير الكلِّيَّة والجزئيَّة واستدعاء، ولا يقال: الثاني أولى لعدم الحذف، لأنَّا نقول الحذف في الاستئناف البياني كلاحذف، إذ لا حظَّ له في التقدير اللفظيِّ، وإنَّما هو اعتبار. و«الدِّينَ» الأُلُوهِيَّة، أي خصُّوه بالأُلُوهِيَّة رجوعا إلى الفطرة التي خلقوا عليها، لَمَّا زال عنهم عوارضها من شدَّة الخوف من الغرق، وزعم بعض أنَّ دعاءهم: «أَهَيَا شَرُ هَيَا»، وأنَّ معناه: يا حي يا قيُّوم، وفيه أنَّ ذلك لغة عجم من كلام اليهود، ولعلَّه اتَّصَلَ إليهم من اليهود.

وقوله: ﴿لَئِنَ اَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ﴾ أي هذه الريح الداهية؛ أو هذه الأهوال ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ هذا مع ما قبله مفعول لحال محذوفة، أي قائلين والله: لئن أنجيتنا؛ أو لِـ«دَعَوا» لتضمُّنه معنى القول، والشاكرون: الموحِّدون المطيعون.

ركب عكرمة بن أبي جهل البحر فهاج بهم وتضرَّعوا إلى الله وحده، فقال ما لكم؟ فقالوا: هذا لا ينفع فيه إلاَّ الله، فقال: هذا هو إله مُحَمَّد فاتَّبعوه ولا تخالفوه، إن الذي ينجي في البحر هو الذي ينجي في البرِّ لئن خلَّصني الله لآتينَّ محمَّدًا فأومن به، ففعل وصَدَقَ.

﴿فَلَمَّآ أَنجَاهُمْ﴾ إلى البرِّ كما دعوا إجابة لدعائهم ﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الاَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ بالإشراك وسائر المعاصي بلا بطء، فإنَّ «إِذَا» للمفاجأة، والبغي بمعنى مجاوزة الحدِّ، قد يكون بالحقِّ كقتل المشركين وهدم دورهم وقطع أشجارهم وإحراق زروعهم، كما فعل ﷺ بقريظة، وكقتل الخضر الغلام وخرق السفينة، فاحترز عنه بقوله: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، وهذا كما قال: ﴿طَغَى الْمَآءُ﴾ (سورة الحاقَّة: ١١)، وأولى من هذا أن يكون «بِغَيْرِ الْحَقِّ» تأكيد لـ«يَبْغُونَ»؛ أو بغير الحقِّ عندهم، ولا سيما عند غيرهم.

﴿يَآ أَيُّهَا النَّاسُ﴾ هو على عمومه لا على خصوص أهل مَكَّة ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم﴾ فلا تَحُومُوا حوله، والعاقل لا يسعى في إهلاك نفسه، فإنَّ عاقبته عليكم ولو أوقعتموه على غيركم.

يا صاحب البغي إنَّ البغي مصْرَعَةٌ فَارْبَعْ، فخير فعال المرء أَعْدَلُه
فلو بغى جبلٌ يومًا على جبل لاندكَّ منه أعاليه وأسفله

(بلاغة) وسَمَّى الإثم بغيا لأنَّ البغي سببه وملزومه؛ أو يقدَّر مضاف، أي إثم بَغْيكم؛ أو وبالُ بغيكم؛ أو شبَّه على طريق الاستعارة بغيه على غيره بإيقاعه على نفسه، لأنَّ العقاب عليه، كما قال: ﴿وَمَنَ اَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ (سورة الجاثية: ١٤)؛ أو «أَنفُسِكُمْ»: أمثالكم على العموم، وهذا أولى؛ أو أبناء جنسكم على الخصوص، لأنَّهُ كنفس واحدة، وهو استعارة، و«عَلَى أَنفُسِكُمْ» خبر، وقوله: ﴿مَّتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ خبر ثان؛ أو خبر لمحذوف، أي هو متاع؛ أو متعلِّق بـ«بَغْيُ»، و«مَتَاعُ» خَبَرٌ، أي تتمتَّعون به قليلا، لأنَّ الدنيا كلَّها قليلة فكيف عمر الإنسان منها.

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ عطف على قوله: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ...﴾ عطف قصَّة على أخرى؛ أو على محذوف أي تتمتَّعون قليلا ثمَّ إلينا، وفي هذا عطف للاسميَّة على الفعليَّة، لقصد الثبات والحصر بتقديم الظرف ﴿فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ نجازيكم.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ اَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْاَرْضِ مِمَّا يَاكُلُ النَّاسُ وَالْاَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ الْاَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَيٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا اَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ

﴿بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

مثل الحياة الدنيا في سرعة زوالها وفنائها

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي صفتها العجيبة الشبيهة بالمثل السائر في الغرابة، ووجه الشبه الاغترار وسرعة الزوال ﴿كَمَآءٍ اَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْاَرْضِ﴾ «نَبَاتُ» فاعل «اخْتَلَطَ»، أي نبت بالماء ما لم يكن ونما هو وما كان من قبل حتَّى اتَّصَلَ بعضه ببعض، ويجوز أن يكون فاعل «اخْتَلَطَ» ضمير الماء، و«بِهِ» خبر «نَبَاتُ»، أي كثر الماء وَاتَّصَلَ بعضه ببعض، والحال أنَّ «بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ» وما تقدَّم أولى ﴿مِمَّا يَاكُلُ النَّاسُ﴾ حال من النبات، وذلك كالبرِّ والشعير والذرة والسلت، وغير ذلك مِمَّا يزرع، والبقول ﴿وَالاَنْعَامُ﴾ من العشب الرطب واليابس، وسوقُ الزرع وقشره وورقُه. ﴿حَتَّىٰٓ﴾ تفريعيَّة، وعلى قول الغاية يقدَّر: ما زال ينمو حتَّى ﴿إِذَآ أَخَذَتِ الْاَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ ذهبها مجازا؛ أو زينتها من أنواع النبات. شبَّه الأرض بعروس ورمز لذلك بأخذ الزينة كما تتناول العروس حُليَّها وتلبسه، ورشَّح ذلك بقوله: ﴿وَازَّيَّنَتْ﴾ أصله: «تَزَيَّنَتْ» كما قرأ به الأعرج والشعبيُّ وأبو العالية ونصر بن عاصم والحسن، أبدل التاء زايا وأدغمها فسكَّن الأوَّل فجاءت همزة الوصل، وذلك بأزهارها: أبيض وأخضر وأصفر وأحمر وأسود.

﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ﴾ أهل الأرض؛ أو أهل الزروع؛ أو أهل الثمرة؛ أو أهل الزينة، والأوَّل أولى للتصريح بالأرض، وأمَّا غيره فيفهم من الألفاظ، والضمائر بعدُ تابعة لهذه الأوجه، وعود الضمائر للأرض مع الحذف كما ترى بعدُ أولى.

﴿أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ متمكّنون من تحصيل ثمارها وبقولها ومنافعها ﴿أَتَاهَآ﴾ أي أتى نباتها ﴿أَمْرُنَا﴾ قضاؤنا أو قدرنا، ببرد، أو حرّ، أو ريح، أو حبّ الغمام، أو نحو ذلك ﴿لَيْلاً اَوْ نَهَارًا﴾ تارة ليلا وتارة نهارا، وسواء زمان غفلتهم كليل، وزمان عدم غفلتهم، إذ لا قدرة لهم على دفع أمر ا لله تعالى، وفي ذكر الليل والنهار تلويح إلى ذلك ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ جعلنا نباتها ﴿حَصِيدًا﴾ أي مثل حصيد كزرع محصود بالمناجل، وحذف المضاف في قوله: ﴿أَتَاهَآ﴾ و﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ كما رأيت للمبالغة كأنّه أتى القضاء أو القدر نفسه، وجعل الأرض نفسها حصيدا. وكذا حذفَ [المضاف] مُبالغة في قوله: ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالاَمْسِ﴾ أي كأنّه أي الشأن؛ أو كأنّها أي القصّة؛ أو كأنَّ الأرض أي نباتها، لم يلبث أي لم يلبث نباتها بالأمس، وهو اليوم الذي قبل يومه، وهذا لكونه أبلغ في التوضيح والتمثيل، وأقرب لأنّه واقع على ظاهره أولى من تفسيره بمطلق الزمان الماضي.

(بلاغة) شبّه الهيئة المنتزعة من مجموع الحياة الدنيا وسرعة انقضائها وذهاب نعيمها بعد حصولها بالهيئة المنتزعة من مجموع خضرة النبات والزروع وبهجتها وزوالها فُجْأَةً وكونها حطاما بعد ما كان غَضًّا طريًّا، ووجه الشبه الهيئة الإجتِمَاعِيَّة من مطلق سرعة الانقضاء بعد الإقبال والاغترار، وإن شئت فقل في ﴿أَخَذَتِ الاَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾ استعارة تمثيليّة، شبّهت الهيئة المنتزعة من الأرض وأصناف النبات وألوانها، بالهيئة المجتمعة من العروس وتلبُّسها بأنواع الثياب ذوات ألوان والتحلّي بما هو زينة؛ أو شبّه نباتها بالهالك، أي جعلنا نباتها هالكا، فشبّه الهالك بالحصيد، وأقيم اسم المشبّه به مقامه.

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ﴾ نُبَيِّنُ ﴿الاٰيَاتِ﴾ آيات القرآن ومنها هذه الآية، أو الدلائل من إنزال الماء والإنبات به وإذهاب نباتها بعد كماله، إلاّ أنَّ التفصيل في

قوله ﷻ: ﴿نُفَصِّلُ﴾ لا يتبادر إلى ذلك، ويحتاج إلى تفسير بالتصريف على الترتيب المذكور، من الإيجاد والإعدام وتقديم السبب وهو الماء، إلاَّ أنَّ فيه حكمة هي التنبيه على أحوال الدنيا عموما حالا ومآلا. ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وغيرِهم، وخَصَّهم لأنَّهم المنتفعون بها، وعن أبي مجلز[1] كان مكتوبا إلى جنب هذه الآية فنسخ: «ولو أَنَّ لابن آدم واديين من ذهب لتمنَّى ثالثا، ولا يشبع نفس ابن آدم إلاَّ التراب، ويتوب الله على من تاب».

﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾

الترغيب في الجنَّة ووصف حال المحسنين والمسيئين في الآخرة

﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا﴾ كلَّ أحد بأمره بالإيمان والتقوى، وهو دعاء يشمل السعداء والأشقياء ﴿إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾ هي الجنَّة، دار السلام من الفناء والآفات، وسلام الله والملائكة على من يدخلها ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُم﴾ (سورة الرعد: ٢٣)، ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ (سورة يس: ٥٨).

رغَّب الله الناس بما تبقى زينته بعد تنفيرهم عن الدنيا التي لا تبقى،

١- تقدَّم التعريف به في ج٥/ ص٦٢.

وعنه ﷺ : **«ما من يوم تطلع فيه الشمس إلاّ وبجنبها ملكان يناديان يسمعهما كلُّ شيء إلاّ الثقلين، يا أَيُّهَا الناس هلمُّوا إلى ربِّكم، وا لله يدعو إلى دار السلام»**[1].

ويجوز أن يكون السلام ا لله ﷻ : ﴿السَّلاَمُ الْمُومِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ (سورة الحشر: ٢٣) . وخصَّ من أسمائه ليدلّهم على السلامة مِمَّا ذكره من الآفات.

(أصول الدين) ﴿وَيَهْدِي﴾ هداية توفيق، والشقيُّ لم يرد ا لله إهداءه توفيقا، وأمر ا لله ﷻ كما في قوله: ﴿يَدْعُو﴾ غير الإرادة كما في قوله: ﴿يَهْدِي﴾، وإرادته لا تتخلَّف وأمره يتخلَّف، أعني أنَّه يأمر ويُعْصَى. ﴿مَن يَشَآءُ﴾ هدايته ﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ﴾ يوصلهم إلى دار السلام ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾ دين الإسلام، فعل الطاعة والتقوى، وهي أيضا طاعة وفعل.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾ بالعمل والتقوى ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ بمعنى الجنَّة ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ دوام رضاء ا لله عليهم، أو غرفة من لؤلؤة واحدة لها أربعة أبواب، كما روي عن عليٍّ وجابر بن زيد، أو ما في الدنيا لا يحاسبهم عليه كما حاسب الكُفَّار، أو المغفرة، أو الحسنى مقابل الحسنة.

والزيادة التسع فصاعدا فإنَّ الحسنة بعشر إلى سبع مائة وأكثر، كقوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ (سورة ق: ٣٥) ، ويدلُّ له أنَّه قابله بقوله: ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾. و«الْحُسْنَى» تأنيث الأحسن، كأنَّه قيل: الجنَّة الحسنة، أو المثوبة الحسنى. أو الزيادة: سحابة تمرُّ وتقول: يا أهل الجنَّة ما تريدون أن أمطركم؟ فكلُّ ما شاءوا أمطرته.

١- تقدَّم تخريجه في ج٢/ ص١٥٠.

﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ﴾ لا يغشاها؛ أو يقربها، كقوله: غلام مراهق، أي قارب البلوغ ﴿قَتَرٌ﴾ غبرة فيها سواد، أو دخان ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾[1] من الحزن وسوء الحال وما يظهر على الوجه، وذلك مجاز لعلاقة اللزوم والتسبُّب، وهذا أمدح، فإنَّ نفي التسبُّب واللزوم في السوء أبلغ من نفي السوء، وإنَّما أخَّر ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ عن قوله: ﴿لِلذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ مع أنَّ التخلِّي قبل التحلِّي، ومع أنَّ دخول الجَنَّة بعد النجاة من النار لأنَّ ذلك سيق مساق التذكير للنعمة التي فاتت العدوَّ، فإنَّ انتفاء الرهق والذلَّة نعمة فاتت الأعداء وهم أهل النار، فكأنَّه قيل: أبشروا بالفوز والنجاة مِمَّا عليهم من الرهق والذلِّ، وخزيُ العدوِّ لذَّةٌ ومسرَّةٌ لأهل الجَنَّة.

(أصول الدين) وفي الآية دليل على خلود الفاسق في النار، فلو كان يخرج لنافى هذه الآية، لأنَّه إذا دخلها يرهق بالقتر ويذلُّ، وكذلك إذا قلنا: المعنى لا يرهقهم ما يوجب ذلك من حزن وسوء حال، وقولهم: المراد في الآية نفي الدوام حتَّى لا تنافِيَ خروج الفاسق دعوى بلا دليل.

(نحو) وجملة «لَا يَرْهَقُ...» عطفت على «لِلذِينَ أَحْسَنُواْ...» عطف فِعليَّة على اسميَّة، ولا بأس بذلك، أو عطف مصدرها على «الْحُسْنَىٰ» على حذف «أن» المَصدَريَّة ورفع الفعل، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ءَايَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ﴾ (سورة الروم: ٢٤) في أحد أوجه، أي للذين أحسنوا الحسنى، وانتفاء رهق وجوههم قتر، وانتفاء ذلَّة. و«لَا» النافية من الجملة والمصدر من معناها مضاف للمصدر مِن «يَرْهَقُ».

١- في نسخة ج زيادة: «﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ انكسار وأثر هوان، وانكساف بال، أو لا يعرض لهم ما يوجب قترا ولا ذلَّة».

﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا كالدنيا تخرج عن أهلها ويخرجون عنها، والعاقل يرغب في الدائم الخالص لا في سريع الفناء المتكدِّر.

﴿وَالذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ﴾ الشرك أو الكبائر، ومن الكبائر الصغائر المصَرُّ عليها، وكلُّ ذلك موجب للخلود في النار، وهو مبتدأ، ولا يخبر عنه بقوله: ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةٍ﴾ لأنَّ الذَّات لا يخبر عنها بالمعاني، والأوائل تأخذ مكانها فيعتبر ما يلحق بها، فإن لم يوجد قُدِّر في الأواخر لأنَّها محلّ التغيير، والتقدير في الأوائل تقديرٌ قبل الحاجة إليه، فيقدَّر هنا: «ذَوُو جزاء» أولى من أن يقدَّر: «وجزاء الذين كسبوا السيِّئات جزاء سيِّئة»، وقوله: ﴿بِمِثْلِهَا﴾ متعلّق بـ«جَزَاءُ»؛ أو هو مبتدأ وخبره: «بِمِثْلِهَا» متعلّق بمحذوف، أي مقدَّر بمثلها.

(نحو) أو «مِثْلِ» خبر والباء زائد والجملة خبر «الذِينَ» والرابط محذوف، أي جزاء سيِّئة منهم، أو سيِّئة لهم، وهذا المقدَّر نعت لـ«سَيِّئَة»؛ أو «جَزَاءُ» مبتدأ خبره محذوف، أي لهم جزاء سيِّئة بمثلها، والجملة خبر «الذِينَ» وهو أنسب بقوله: ﴿لِلذِينَ أَحْسَنُواْ...﴾ أي لهؤلاء الحسنى ولهؤلاء جزاء سيِّئة بمثلها، وهذا في معنى عطف «الذِينَ» على «الذِينَ» و«سَيِّئَة» على «الْحُسْنَى» عطف معمولين على معمولي عاملين مختلفين، منعه سيبويه مطلقا وأجازه الفرَّاء مطلقا، وأجازه الجمهور بشرط تقدُّم المجرور كما في الآية، فيجوز في الدار عمرو والحجرةِ زيدٌ، بجرِّ الحجرة، ولا يجوز عمرو في الدار والحجرة زيد، أو خبر «الذِينَ» «مَا لَهُم...»؛ أو «كَأَنَّمَا...»، وفيه الفصل بثلاث جمل، أو «أُوْلَئِكَ...» بالفصل بأربع.

﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ عطف على «كَسَبُوا» عطف مضارعيَّة على ماضويَّة، ولا ضعف في ذلك لأنَّ حاصله الإخبار بأنَّه كان كذا فيما مضى، ويكون كذا

في المستقبل؛ أو عطف على ما قبله عطفا معنويًّا، كعطف التوهُّم، كأنّه قيل: والذين كسبوا السيِّئات تجازى سيِّئاتُهم بمثلها وترهقهم ذلّة.

﴿مَّا لَهُم مِّنَ ا للهِ﴾ أي من عذاب ا لله، على حذف مضاف؛ ويجوز أن لا يقدَّر مضافا كما تقول: جاءني كتاب من زيد ويتعلّق بمحذوف حال من ضمير الاستقرار، وَقِيلَ: حال من «عَاصِمٍ»، وفيه مجيء الحال من المبتدإ دون وجود شرطه، والمشهور منعه، لأنَّ عامله الابتداء، وكيف يعمل الابتداء في الحال، ويكون مقيَّدا بالحال ؟ . **﴿مِنْ عَاصِمٍ﴾** الجملة حال من هاء «تَرْهَقُهُمْ». ما لهم عاصم من عذابه إذا جاءهم، أي مانع، بخلاف المؤمنين فإنَّ عملهم عاصم برحمة ا لله من عذابه، والملائكة والأنبياء والعلماء والشهداء يشفعون.

﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا﴾ فيه نيابة المفعول الثاني من باب أعطى لعدم اللبس، كقوله: أُعطي درهم زيدًا، فإنَّ «قِطَعًا» هو الأوَّل لأنّه الفاعل في المعنى فلا تهم، فإنَّ المصير غاشيا هو قطعٌ تغشى الوجوه لا الوجوه تغشاها، اللهمَّ إلاَّ مبالغة في استحقاق السوء، كأنَّ الوجوه هي الطالبة لأن تغشى القطع، والمفرد: قِطْعَةٌ ـ بكسر القاف ـ كسدرة وسدر. **﴿مِّنَ اللَّيْلِ﴾** نعت «قِطَعًا». و«مِن» للتبعيض؛ أو للبيان. **﴿مُظْلِمًا﴾** حال من «اللَّيْلِ» وناصبه «أُغْشِيَتْ» إن جعلنا «مِنَ اللَّيْلِ» متعلّقا بـ«أُغْشِيَتْ» و«مِن» للابتداء أو متعلّق الليل، أي ثابتة من الليل حال كونه مظلما. **﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾**.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

حشر الخلائق وتبرؤ الشركاء من المشركين ومن عبادتهم

﴿وَيَوْمَ﴾ اذكر لهم، أو ذكّرهم يوم ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ أي الخلق، وأخّر ذكر يوم الحشر مع أنّه متقدّم على ما قبله من الخزي والعذاب والنار تلويحا بأنّ كلاّ من السابق واللاحق مستقلٌّ بالاعتبار، ولو قدّم ذكره على ما ذكر قبله لكان مساق الآية أنّ ذلك كلّه معتبر واحد.

﴿جَمِيعًا﴾ المشركين والموحّدين، وإن أريد المشركون فالإظهار في قوله: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾ للتشنيع بالشرك، فمقتضى الظاهر: ثمَّ نقول لهم، وإن أريد بهاء «نَحْشُرُهُمْ» الخلقُ المؤمنُ والكافرُ فالتقدير: للذين أشركوا منهم. و«شُرَكَاءُ» معطوف على المستتر في «مَكَانَكُمْ»، لأنَّ المعنى: اِلزموا مكنكم حتّى تروا ما يفعل بكم، وقد فصّل بتأكيده وهو «أَنتُمْ»، وقال الفارسي: «مَكَانَكُم» اسم فعل وفتحه بناءٌ، ومعناه: اثبتوا ولا تنتقلوا. ﴿فَزَيَّلْنَا﴾ فرّقنا ﴿بَيْنَهُمْ﴾ وقطعنا الوصل الذي كان بينهم.

(صرف) والمفعول به محذوف تقديره الوصل، وبين ظرف، وأجاز بعض أن يكون مفعولا به ومعناه الوصل، وشُدَّ للمبالغة لأنه يقال: زال ضأنه من معزه ويَزيلها بفتح الياء الأولى وعينه ياء، ولا يجوز أن يقال: من زال يزول وهو لازم شُدَّ للتعدية، وأنَّ أصله: "زوّلنا" بشدِّ الواو، لأنه لو كان كذلك لم يكن بياء مشدَّدة، بل يكون بواو مشدَّدة إذ لا موجب للقلب، ولا أن يقال: أصله "زَيْوَلنا" قلبت الواو ياء وأدغمت فيها ياء الإلحاق بدحرج، لأنَّ باب الإلحاق خلاف الأصل، فلا يرتكب بلا حجَّة، وعلى فرض الإلحاق يكون المصدر "فيعلة" كدحرجة لا "تفعيل" كتقديس، إذا استعملناه، ومقتضى

الظاهر: «فَنُزَيِّل» بينهم بشدِّ الياء وصيغة المضارع كـ«نَقُولُ» و«نَحْشُرُ» لَكِنَّ الماضي لتحقُّق الوقوع كأنَّه وقع.

وكذا في قوله: ﴿وَقَالَ﴾ بلسان الحال؛ أو لسان القال ﴿شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ وأضاف الشركاء هناك وهنا إليهم، لأنَّهم هم المثبتون الشركة بين الله وبين أصنامهم، والإضافة تسوغ لأدنى ملاسبة، أو لأنَّها شريكة لهم في مالهم باختيارهم إذ جعلوا لها نصيبا في أموالهم، ينطقها الله فتنفي أن تكون معبودة لأنَّها لا شعور لها وعلى فرض أنَّ الله أعلم الشركاء يوم القيامة بأنَّ المشركين في الدنيا عبدوها يكون إنكارها دهشا، أو باعتبار نفي منفعة عبادتهم لها، فكأنَّهم لم يعبدوها؛ أو باعتبارهم عبدوا الشياطين والأهواء، لأنَّها الآمرة بالإشراك، وأمَّا الشركاء فلم تأمرهم بعبادتها ولا أرادت أن تعبد.

وَقِيلَ: الشركاء عيسى والملائكة، وَقِيلَ: الشياطين وفيه أنَّ الشياطين عالمون بعبادة المشركين لهم، وَقِيلَ: الملائكة، ولا يلزم علمهم بها، وقد لا تعلم الشياطين، لأنَّهم يوسوسون ويمضون في شأنهم، قال الله ﷻ: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلْمَلَآئِكَةِ أَهَؤُلَآءِ إِيَّاكُم كَانُواْ يَعْبُدُونَ﴾ (سورة سبأ: ٤٠) ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ...﴾ (سورة المائدة: ١١٦) ﴿إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُم فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ (سورة إبراهيم: ٢٢) والعرب ما عبدت عيسى بل النصارى عبدته، وخزاعة خاصَّةً من العرب عبدت الملائكة.

ويدلُّ على أنَّ المراد الأصنام قيل قوله تعالى: ﴿فَكَفَىٰ بِاللهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ حيث استشهدوا به تعالى وقوله تعالى: ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ ﴿سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ﴾ (سورة سبأ: ٤١) حيث أثبتوا لهم عبادة، إلاَّ أنهم زعموا أنَّهم غافلون عنها، وقد يقال: نطقت الأصنام بذلك بعد إعلام الله تعالى لها، ولا علم لها حال العبادة إذ لا شعور للجماد، فالمشركون

في الحقيقة عبدوا الشياطين وأهواءهم.

و«إِنْ» مخفَّفة، أي إنَّه، أي الشأن، أو إنَّنا، وقدَّم «إِيَّانَا» للاهتمام والفاصلة وقصر القلب. وفي الآية تلقِّي الشدَّة من الشركاء بالإنكار في مقام ترجِّي الشفاعة، وذلك من أعظم شيء أن يكون الشرُّ حيث يُرجى الخير. وإيضاح القلب أنَّهم يقولون: ما عبدنا إلاَّ إيَّاكم أيُّهَا الأصنام، فتقول الأصنام: ما إيَّانا عبدتم كما قلتم، بل عبدتم الشياطين والأهواء، فصحَّ الحصر لا كما قيل لا يصحُّ، تنصبُ الأصنامُ فتقول: وا لله ما كُنَّا نسمع ولا نبصر ولا نعقل ولا نعلم أنَّكم عبدتمونا، فيقولون: وا لله إيَّاكم كنَّا نعبد ﴿فَكَفَىٰ بِا للهِ﴾ كما قاله مجاهد، فهو صريح في الحصر، والمراد بالغفلة عدم علمها بالعبادة وعدم الرضى بها.

﴿هُنَالِكَ﴾ في ذلك المقام المهول المدهش، أي المكان الحقيق وهو أرض الموقف، أو الشأن، وهو مكان مجازا، ويجوز أن تكون ظرف زمان أي في ذلك اليوم على الاستعارة، كقوله: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُومِنُونَ﴾ (سورة الأحزاب: ١١)[1] وقدَّم «هُنَالِكَ» لتعظيم المقام.

﴿تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ تختبر كلُّ نفس مؤمنة أو كافرة ما قدَّمت من خير أو شرٍّ؛ ويجوز أن يراد المشركون خاصَّة. ووجه الاختبار أنَّ النفس قد تنسى فترتقب ما لها أو ما عليها، فذلك الترقُّب كالاختبار، أو «تَبْلُو» مجاز عن تعرف، لأنَّ الاختبار سبب للمعرفة وملزوم لها، ومعرفة ما أسلفت من العمل معرفة لجزائه من خير أو شرٍّ؛ أو يقدَّر مضاف أي جزاء ما أسلفت؛ أو ما

١- في نسخة ج زيادة: «مع جواز أن تكون فيه للمكان أي في ذلك المقام ابتلي المؤمنون».

أسلفت هو الجزاء، لأنَّ تقديم موجبه في الدنيا تقديم له.

﴿وَرُدُّوا إِلَى ا للهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ﴾ عطف على «تَبْلُو»، والضميران لكلِّ نفس، والجمع باعتبار أنَّ الردَّ على طريق الاجتماع لا كلُّ نفس على حدَة، رُدَّ الذين أشركوا إلى جزاء ا لله، والردُّ معنويٌّ، أو رُدُّوا إلى موضع جزاء ا لله، فالردُّ حسيٌّ، وأضيف المولى إليهم باعتبار أنَّه مَآلُهُم يُرَدُّون إليه للعقاب ردَّ العبدِ العاصي إلى مولاه ليضربه ويسجنه مثلا، وإذا قيل: ليس ا لله مولى لهم، فمعناه أنَّه لا ينصرهم، فلا منافاة بين قوله: ﴿مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لاَ مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ (سورة محمد: ١١)، لأنَّ معنى الولاية في كلٍّ واحدة غيره في الأخرى.

ولا يصحُّ القول عن السدِّي: إنَّ الأولى منسوخة بالثانية، لأنَّ الإخبار لا يدخله النسخ، ولأنَّه لا بدَّ أنَّ ا لله مولى الذين آمنوا في نفعهم، وأنه لا بدَّ أنَّه غير مولى للذين كفروا في نفعهم في الآخرة وأمر الدين، ووصفه بالحقِّ أي الثابت ردًّا عليهم في اتِّخاذ الآلهة الباطلة التي ليست بحقٍّ، التي لا تتولَّى أمرهم وإنَّما متولِّي أمرهم ا لله.

﴿وَضَلَّ﴾ غاب ﴿عَنْهُم﴾ الضمير للمشركين خَاصَّةً في الموقف، فلا ينافي قوله ﷻ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اِ للهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ (سورة الأنبياء: ٩٨). ولا وجه للتوقُّف في الأصنام هل تبقى بعد إحضارها أو تفنى مع هذه الآية، ويظهر لي أنَّها تعقل في المحشر وتنطق بإذن ا لله ﷻ، ثمَّ يزال عقلها ونطقها كحالها قبل، وتدخل معهم النار يعذَّبون بها ويستحسرون بها. ﴿مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ يُثبتونه آلهة على الكذب، ويجوز أن يراد بالضلال عدم النفع، أو المعنى: ضلَّ عنهم كونهم يفترون أنَّ آلهتهم تشفع لهم.

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣٤) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾

إثبات التوحيد والربوبية لله تعالى والبعث

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ﴾ أي من يجمع لكم الرزق منهما، يحصِّله منهما معا لا من واحد فقط، فإنَّ الطعام بالماء وبالأرض، فالإنسان يشرب الماء ويعمل الطعام به والطعام بالنبات بالماء والحيوان بالنبات والماء، وأيضا النبات باختلاف الفصول حرارة وبردا أو توسطا، وحرارة الشمس والقمر والأرض بحرارتها شتاء وبردها صيفا. ويجوز أن يكون أنَّ لكم رزقا من السماء وهو الماء ورزقا من الأرض. و«مِنْ» للابتداء.

ويجوز أن يكون المعنى: من يرزقكم من أهل السماء أو من أهل الأرض، فـ«مِنْ» للبيان، والمراد بأهل السماء والأرض غير الله، فإنه لا يجوز أن يكون فيهما بل في كلِّ موضع بعلمه وقدرته وتصرُّفه. والاستفهام للتقرير، ويصحُّ للإنكار، أي لا رازق لكم من أهلهما، لأنَّ الرازق هو الله، ولا يتصف أنه من

أهلهما، وعلى فرض وصف أنّه من أهلهما باعتبار ملكه إيّاهُما، فكأنّهم قالوا يرزقنا الله لا غيره منهما.

(أصول الدين) والآية ردٌّ على القَدَرِيَّة [القائلين:] إنَّ الحلال رزق من الله تعالى والحرام يرزقه الإنسان نفسه، فإنَّ الحرام أيضا رزق من الله تعالى يعاقب الإنسان على تناوله.

﴿أَمَّنْ يَّمْلِكُ السَّمْعَ وَالاَبْصَارَ﴾ أي محالَّ السمع وهي الأذن، ومحالَّ البصر وهي الأبصار أي العيون، والسمع بمعنى الأَسماع بفتح الهمزة، ويجوز أن يكون معناه إدراك الصوت فيقدَّر: وبَصَرَ الأبصار، أي من يملك إدراك الأصوات ونظر الأبصار، فيقدَّر مضاف، وكان عليٌّ يقول: «سبحان من أبصر بشحْمٍ وأسمع بعظم وانطق بلحم».

ويجوز تفسير الملك باستطاعة خلق السمع والبصر وتسويتهما؛ أو بالحفظ من الآفات مع سرعة تأثُّرهما بالفساد بأدْنى شيء، وملك الشيء سبب للتصرُّف فيه، فلا يعجز عن التصرُّف والحفظ له، وقوله: ﴿أَمَّنْ يَّمْلِكُ السَّمْعَ وَالاَبْصَارَ﴾ أعمُّ معنًى من قولك: أم مَّن يملك خلق السمع والأبصار؟ أو حفظ السمع والأبصار؟. وإفراد السمع لفظا لانفراد متعلّقه وهو الأصوات بخلاف البصر وأخواتهما، أو لأنّه مصدر، و«أَمْ» منقطعة بمعنى الإضراب الانتقالي بلا استفهامٍ لوجوده بـ«مَنْ» بعدها.

﴿وَمَنْ يُّخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ الحيوان من النطفة ومن البيضة ومن الماء ومن العفونة الميّتات، والنطفة وما في البيضة وهما مَيِّتات من الحيِّ، وكذا الحيوان إذا مات فهو ميِّت خرج من حيٍّ هو نفسه قبل الموت، فلا يخرج عن ذلك ما مات بعد خروجه من ميِّت وهو جميع الحيوانات،

والملائكة من ميِّت وهو النور والتسبيح، وإبليس من ميِّت هو النار، بـل الملائكـة حيوان بلا طعام ولا شراب ولا منهما، والحيوانات خلقت من طعـام وشـراب، ويصدق الميِّت على الوسائط كالطعام والنطفة والعلقة والمضغة واللحم والعظـم، فكلُّ ذلك ميِّتات.

وفسَّر بعضهم الآية بالمؤمن من الكافر والعكـس، وليـس بظاهر، لأنَّ الآيـة سيقت وعظا للمشركين وهم لا يعتبرون ذلك، والآية شاملة للميِّـت بـلا تقـدُّم حياة كالمتعفِّن الذي هو من تراب أو وسخ إذا تولَّد منه شيء.

﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الاَمْرَ﴾ في كلِّ مخلوق، وبين الخلائق الأجسام والأعـراض، ما مضى وما حضر في الدنيا وما قبلها، وفي الآخرة وما يأتي، وهذا تعميـم بعـد تخصيص، ومعنـى تدبير الأمـر تحصيلـه على حسـن العاقبـة، أو تحصيـل أسبابه وإيجادها بلا تفكُّر منه، والقول به إشراك لأنَّه تضمَّن جهلا وعجزا حاشاه.

وهذه خمسة أسئلة جوابها منهم كما قال: ﴿فَسَيَقُولُونَ اللهُ﴾ ويأتي سؤال سادس وسابع، وجوابهما من رسول الله ﷺ بتعليم الله ﷻ له لعـدم قدرتهـم عليه، وجواب الثامن لم يذكر، وإن جعلنـا مـن يخرج الحيَّ مـن الميِّـت ويخرج الميِّت من الحيِّ واحدا كانت سبعة. و«اللهُ» خبر لمحـذوف تقديره فـاعل ذلـك كلِّه الله، أو هو الله، أو نحو ذلـك، إذ لا يتمكَّنـون مـن أن يقولـوا: فعـل ذلـك غيره لظهوره، وإقرارهم به قديما وحديثا. ﴿فَقُلَ اَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾ أي أتهملـوا أنفسكم فلا تتَّقون عقابه؟ إذ كان هو الفاعل لذلـك، وتتركون عبـادة مـن لا يقدر على شيء.

﴿فَذَالِكُمُ﴾ أي المتَّصف بتلك الأفعال ﴿اللهُ﴾ خبر ﴿رَبُّكُمُ﴾ خـبر ثـان؛ أو بدل ﴿الْحَقُّ﴾ نعت «رَبُّكُمْ»، والفاء للتفريـع والسَّبَبيـَّة، لأنَّ فعلـه ذلـك

سبب لأن تسمُّوه وحده باسم الأُلُوهِيَّة وَالرُّبُوبِيَّة، ويجوز كون «ا للهُ» بدلا أو بيانا فيكون محطَّ الكلام في الرُّبُوبِيَّة، واقتصر المفسِّرون عليه وزدت الوجه الأوَّل لأَنَّهُم يسمُّون أصنامهم باسم الأُلُوهِيَّة فنفاها ا لله لأنَّها لا تفعل ما يفعل.

﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ﴾ المطلق، فهذا اللفظ أعمُّ من الأوَّل فيشمل التوحيد والعبادة وما يعتقد حلُّه، وَقِيلَ: المراد التوحيد، وإذا حصر الحقَّ في رَبِّكم فلا حقَّ في سواه، وكلُّ شيء **اختصَّ بالحقِّ فغيره باطل وضلال** فعبادة غير ا لله ضلال، كما قال: ﴿إِلاَّ الضَّلاَلُ﴾ ما خالف الحقَّ المذكور، وَقِيلَ: المراد الشرك، والاستفهام للتقرير كذا قيل، والأَولى أنَّه للإنكار بدليل الاستثناء، وكأنَّه أراد القائل بالتقرير التقرير بالإنكار ﴿فَأَنَّى﴾ كيف؟ أو من أيِّ وجه؟ ﴿تُصْرَفُونَ﴾ عن الحقِّ إلى الضلال في أحوالكم، فيدخل فيه انصرافكم من تخصيص ا لله بالعبادة إلى عبادة غيره بالأولى، أو هذا هو المراد، والصارف الشيطان والهوى والداعون إلى الكفر لا ا لله، إذ لا يقول ا لله كيف أو من أيِّ وجه أصرفكم؟ ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ عَلَى الذِينَ فَسَقُواْ﴾ أشركوا حقَّت حقًّا مثل ذلك المذكور من ثبوت الرُّبُوبِيَّة وَالأُلُوهِيَّة لله وحده، أو من أنَّه ما بعد الحقِّ إلاَّ الضلال، وهما لبعدهما أنسب بإشارة البعد، أو من استبعاد الصرف، ووجه البعد مع أنَّه قريب أنَّ ما لم يحضر فهو بعيد وأنَّه إذا انقضى الكلام عن شيء فهو بعيد، ويترجَّح الأوَّل بذكر «حَقَّتْ» لأنَّ فيه لفظ الحقِّ، و«حَقَّتْ» مثل ذلك كلِّه، وقدِّم كذلك على طريق الاهتمام بتلك الأفعال، لأنَّها توجب التوحيد. وكلمات ربِّك: قضاؤه، أو هي [قوله تعالى:] ﴿لَأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ (سورة الأعراف: ١٨) . ﴿أَنَّهُمْ لاَ يُومِنُونَ﴾ هذا تعليل، أي لأنَّهم لا يؤمنون، أو هو كلمة ربِّك، فيكون المصدر بدلا أو بيانا لكلمة، كأنَّه قيل حقَّت

كلمة ربِّك انتفاء إيمانهم، فانتفاء بدل أو بيان.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ ظاهر هذا الكلام إنَّما يخاطب به من يقرُّ لله بالبعث وهم لا يقرُّون، فكيف يقول لهم: شركاؤكم لا تقدر على ما أقدر عليه من البعث، مع أنَّهم لا يقرُّون بقدرته عليه ؟ ولكن خاطبهم بذلك لظهور حجَّة البعث ببرهان البدء حتّى كأنَّهم آمنوا بالبعث، فهو تعالى يخاطبهم كيف تعبدون من لا يقدر عليه؟ وليس كما قيل: إنَّ الآية برهان للبعث بأنَّه لا بدَّ من التمييز بين المحسن والمسيء، وهذا سؤال سادس أمر رسوله ﷺ بالجواب عنه، ولو يسكتون لجاجًا وكبرا ولا ينتظر أن يقولوا، لأنَّه هو الذي معهم لا يجدون إنكاره فقال:

﴿قُلِ اللهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ للجزاء، وجه كون هذا جوابا لقوله: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم...﴾ أنَّهم يقولون: شركاؤنا لا تبدئ الخلق ولا تعيده، فيقول الله تعالى: (أنا الله، أنا الله وحدي، لأنّي أبدأ الخلق وأعيده)، وما لا يبدأ الخلق ويعيده ليس إلها، والإعادة لا يقرُّون بها ولكن ذكرت اتّباعا للإبداء ولتحقُّقها بدلائل كأنَّهم أقرُّوا بها ﴿فَأَنَّىٰ تُوفَكُونَ﴾ تصرفون عن الإقرار بذلك.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ ضدّ الباطل، هذا سؤال سابع، هل من شركائكم من يعرف الحقَّ ويهدي إليه ؟ بنصب الدلائل وإرسال الرسل والأنبياء وإنزال الكتب، فما يصحُّ أن يكون إلها من لا يهدي عباده إلى مصالحهم الدِّينيَّة وَالدُّنيَويَّة، ولا يكون هو المحلّل المحرِّم، ولا محيد لهم عن أن يقولوا: آلهتنا لا تقدر على ذلك، فليست أهلا لأن تكون متبوعة، وكأنَّهم أقرُّوا بأنَّ ما يقول رسول ﷺ حقٌّ من الله، لظهور برهانه، ولو يسكتون لجاجا وعنادا، فأمره ﷺ الله تعالى أن يقول عنهم ولا ينتظر أن يقولوا فقال:

﴿قُلِ اللهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ والسؤال الثامن: ﴿أَمْ يَقُولُونَ...﴾ فأمره بالجواب إذ قال: ﴿قُلْ فَاتُواْ...﴾. ويجوز أن يكون الهدى بمعنى التوفيق، وأن يكون أمره بالقول عنهم لجهلهم بما يقولون، وأمَّا من يبدأ الخلق فيبعد أن يجهلوا أنَّ آلهتهم لا تبدأ الخلق ولا تعيد. و«هَدَى» يتعدَّى باللام تارة وبإلى أخرى تفنُّنا.

﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ بالحجج ﴿أَحَقُّ﴾ مِمَّن لا يهدى إليه ﴿أَنْ يُتَّبَعَ﴾ فيما أمر أو نهى أو قال، **وهو الله** ﷻ. و«أَحَقُّ» اسم تفضيل على معناه، والباء مقدَّرة، أي أحقُّ بأن يُتَّبع، وذلك على فرض أنَّ للأصنام حقُّ اتباع على زعمهم، وأنَّها تأمر وتنهى، كأنَّه قيل: إذا كان لها حقُّ اتباع فالله أحقُّ منها بالاِتِّبَاع، أو المراد بالاِتِّبَاع المراعاة بالعبادة؛ أو اسم تفضيل خارج عنه، أي حقيق بالاِتِّبَاع، وإنَّما نفى الاهتداء مع أنَّ ما قبله نفي للهداية مبالغة بأنَّ من لا يهتدي أبعد من أن يكون هاديا، فقد يكون الشيء مهتديا في شأنه لا يهدي غيره، فكيف من لا يهدي ولا يهتدي؛ أو لمراعاة كون من اهتدى لا يخلو من أن يصدر منه هداية بالنطق أو الإشارة أو ظهور يقتدى به مشاهدة بالاِتِّبَاع.

﴿أَمَّن لاَّ يَهَدِّي﴾ لا يهتدي أبدلت التاء دالا وأدغمت في الدال بعد نقل فتحها للهاء ﴿إِلاَّ أَنْ يُهْدَى﴾ وهو الأصنام، والمراد باهتدائها موافقة ما يليق بها في ظاهر الأمر، كجعلها حيث لا تداس ولا يلحقها الوسخ، ولا تنتقل بنفسها؛ أو على فرض أنَّها تعقل وتهتدي بمن هداها. وعبَّر عن الأصنام بـ«مَنْ» ملاءمة لتعظيمهم إيَّاهَا، ولاستحضارها في مقامات ما لا يتَّصف به الجماد.

وَقِيلَ: الشركاء شامل لعيسى والملائكة في الموضعين، وَقِيلَ: في الأخير فتكون «مَنْ» على أصلها، أو عمَّت العاقل وغيره، وأمَّا النجوم والشمس

والقمر في شأن من يعبدهنَّ فإنّهنَّ كالأصنام، أو المراد أو عاقل لا يهدي إلاَّ أن يُهدى، بعموم العاقل عموما بدليًّا لا بقصد خصوص عيسى والملائكة، فكيف يكون الجماد مهتديا هاديا؟ ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ إنكار للياقة، وتعجيب من اتِّخَاذ مَن عجزَ عن مصالح نفسه إلها، ومثل هذا لاَ بُدَّ له من حال مذكورة مثل: ما لك لا تَتَكَلَّمُ؟ وقوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ (سورة المدَّثِّر: ٤٩)؛ أو مقدَّرة كهذه الآية أي مالكم متّخذين ما لا يملك ضرًّا ولا نفعا آلهة؟ أو متَّخذين ما لا يهدي إلها؟ أو متَّبعين ما لا يهتدي. وينبغي الوقف بين ﴿مَا لَكُمْ﴾ و﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾، لأنَّ كلاًّ استفهام مستقلٌّ. ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ إنكار للياقة، وتعجيب من الحكم بما يقتضي بادئ الرأي ببطلانه من اتِّخَاذ مَن ذُكر آلهة.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا﴾ أي كلُّهم، لأنّهم كلّهم لا يقين لهم، كما يستعمل القليل بمعنى العدم كقوله:

قليل التشكّي للمصيبات حافظ من اليوم أعقاب الأحاديث في غد[1]

فإنَّه أراد نفي أنواع التشكّي كلّها، وحمل النقيض على النقيض حسن، وطريقة محمودة مسلوكة، ويجوز إبقاء الكثرة على ظاهرها باعتبار أنَّ منهم من لم يظنَّ بل جزم بالأُلُوهِيَّة للأصنام، أو باعتبار أنَّ منهم من قلّد بلا ظنّ، والأكثر أعملوا فكرهم وما تحصَّلوا على غير الظنِّ، بأن قاسوا الله على الخلق، فأنكروا أن يقدر على البعث، أو باعتبار أنَّ أكثرهم ظنُّوا والقليل علم الحقَّ ولم يظنَّ، لكن عاندوا ما قيل من أنَّ منهم قليلا يؤمنون بعد فنفى عنهم الظنَّ، لأنّهم

١- بيت من قصيدة لدريد بن الصمَّة يرثي أخاه عبد الله يصفه بأخلاق تعتبر مثل الرجولة الأعلى في الجَاهِلِيَّة. التعريف بالأدب العربي لرئيف خوري، ص٤٠.

سينفي عنهم الظنَّ تجوُّزا، باعتبار الأوَّل فهو بعيد . وَقِيلَ: الهاء للناس عموما فلا إشكال.

﴿إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي﴾ لا يدفع ﴿مِنَ الْحَقِّ﴾ العلم وضدّ الباطل، و«مِنْ» تبعيضيَّة، وهو حال من قوله: ﴿شَيْئًا﴾ مفعول به لـ«يُغْنِي»؛ أو ﴿لاَ يُغْنِي﴾ بمعنى لا يكفي فيما لا يجوز فيه الشكُّ، فالحَقُّ: الاعتقاد الجازم الصحيح المطابق للواقع، و«شَيْئًا» مفعول مطلق، والمفعول محذوف، أي لا يغنيهم إغناء، فـ«مِنْ» بمعنى عَن، متعلّق بـ«يُغْنِي».

﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ وعيد لهم عن اتِّبَاع الظنِّ والإعراض عن الدلائل الظاهرة، وهو أعظم إرهابا وتهويلا من أن يقال: إنَّ الله سيجازيهم على ذلك.

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾

القرآن كلام الله وقد تحدَّى العرب به

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْءَانُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللهِ﴾ أي افتراء أي مفترًى، أو ذا افتراء، وذلك أولى من أن يقدَّر: ما كان شأن هذا القرآن افتراء، لأنَّ الأنسب أن يثبت الأوَّل كما هو فيطلب له من الثاني ما يناسبه من التأويل. والافتراء: الكذب. نعم يجوز إبقاء الكلام هنا بلا تأويل لأنَّ القرآن كلام

والكلام صدق أو كذب، فالمعنى وما كان هذا القرآن كذبا؛ أو «كَـانَ» بمعنى صحَّ، أو لاق، أي لأن يفترى، ومضيُّ «كَانَ» لا ينافي استقبال «يُفْـتَرَى» لأنَّ المعنى: ما شأنه قبـل نزولـه أن ينزل بافتراء إذا نزل، وهذا أولى من أن يقال: استعمل المضارع المنصوب لمطلق الزمان مجازا، وحقيقته أن لا يكون إلاَّ مستقبلا، وقدَّر بعض: ممكنا أن يفترى، وهو بمعنى ما ذكرت، أو قولهم: ﴿إيتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَآ أو بَدِّلْهُ﴾ (سورة يونس: ١٥) ، طلب للافتراء في المستقبل فنفاه الله.

﴿وَلَكِن تَصْدِيقَ الذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ كان تصديق الذي بين يديه...الخ ، لأنَّ التكلُّم بالحقِّ عن الكتب تصديق لها، أو يقدَّر: مصدِّقا، أو ذا تصديق، و«الذِي بَيْنَ يَدَيْهِ»: جنس الكتب السابقة: التوراة والزبور والإنجيل، أو الحقُّ المتضمِّنة له تلك الكتب، ومعنى كونها بين يديه أنَّها حاضرة بنزولها، وليست شيئا معدوما. ويجوز نصبه تعليلا، أي أنزل تصديقا لِمَا بين يديه، وقدَّر بعض: يصدِّق تصديق الذي، وقال بعض: ﴿الذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: أخبار الغيوب.

﴿وَتَفْصِيلَ﴾ تبيين ﴿الْكِتَابِ﴾ عطف على «تَصْدِيقَ»، و«الْكِتَابُ» بمعنى المكتوب، أي المفروض، والمراد: جنس الفرائض، يقال: كتب كذا بمعنى فرضه، أو ما في اللوح المحفوظ، أو الأحكام مطلقا فرض ونفل ومباح وحرام ونطق واعتقاد. ﴿لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ معترض إن علّق «مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ» بـ«تَفْصِيلَ» أو «تَصْدِيقَ» على التنازع، أو خبر ثالث بلا عطف، والخبر الثاني متعلّق بالعطف، أو حال من «الْكِتَابِ» لأنّه مفعول للمضاف إضافة مصدر لمفعوله، وجرِّد الخبر الثالث عن العطف إيذانا بأنه المقصود بالذات غير تابع لغيره، لأنَّ المقام لردِّ المرتابين. ﴿مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ خبر رابع، أو متعلّق بـ«تَفْصِيلَ» أو «تَصْدِيقَ» على التنازع كما مرَّ؛ أو متعلّق بإنزال المقدَّر الناصب

لـ«تَصْدِيقًا» في أحد الأوجه، مبنيًّا للمفعول؛ أو حال من «الْكِتَابِ»، أو هاء «فِيهِ».

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ «أَمْ»: حرف استئناف، وهي المنقطعة للإضراب الانتقالي، أو للإضراب والاستفهام الإنكاري أو التعجيبي.

(لغة) وقدَّرها بعض حيث كانت بمعنى بل دون الهمزة، وَقِيلَ: في «أَم» المنقطعة أنَّها حرف عطف بمعنى الواو، وَقِيلَ: حرف استفهام، وزعم بعض أنَّها متَّصلة على تقدير الاستفهام، أي أيقرُّون به أم يقولون ؟ وذلك كلُّه تكلُّف، ولا سيما دعوى أنَّها متَّصلة، لأنَّ المقام ليس لمعنى الاستفهام عن إقرارهم، اللهمَّ إلاَّ أن يُدَّعى أنَّه لَمَّا كثر الكلام والتقريع قيل أثَّر فيهم ذلك، أم هم باقون على التكذيب، وضمير «افْتَرَى» عائد إلى رسول الله ﷺ.

﴿قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ﴾ قل لهم: إن افتريته فأتوا بسورة ﴿مِّثْلِهِ﴾ أي في الفصاحة والبلاغة فإنَّكم فصحاء بلغاء من جنسية الفصاحة والبلاغة، فإذا عجزتم كما أنا عاجز عن الإتيان به من عندي فاعلموا أنَّه من الله ﷻ لا منِّي، وهو ﷺ أفصح منهم وأبلغ، كما قال في الفصاحة: «**أنا أفصح من نطق بالضاد**»[1] مع أنَّهم أحرص على الفصاحة والبلاغة وأشدُّ تعرُّضا لها.

[قلت:] والحمد لله الرحمن الرحيم الذي منَّ عليَّ بإطِّلاعي على تحقُّق

١- أورده **السيوطي** في الدرر، ص٢٣. **والفتني** في التذكرة، ص٨٧. **والشوكاني** في الفوائد، ص٣٢٧، رقم١٠٢٠ (٢٦). وقال: حديث لا أصل له ومعناه صحيح. وزاد د/ محمَّد بن لطفي الصباغ في تخريجه لهذا الحديث في كتاب اللآلي المنثورة في الأحاديث المشهورة **للزركشي** ما نصُّه: «وفصاحته ﷺ أمر مقرَّر ثابت لا شكَّ فيه». الزركشي: اللآلي، ص١١١، رقم ١٣٧ (الهامش).

بلاغته ومشاهدتي لطرقها وإدراكي لها، ولا كلام يفوقه ولا يقرب من مساواته، وكلام رسول الله ﷺ دون كلام الله في البلاغة. وإطلاق البلاغة في كلام الله سبحانه وتعالى مجاز.

﴿وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم﴾ من أمكنكم أن تستعينوا به من الناس والأصنام ﴿مِّن دُونِ اللّهِ﴾ غير الله ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أنّي افتريته، فلم تقدروا على ذلك.

﴿بَلْ كَذَّبُواْ﴾ أي سارعوا إلى التكذيب بدليل قوله: ﴿بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَاتِهِمْ تَاوِيلُهُ﴾ فإنهم كذّبوا قبل أن يتعرّفوه، وقبل انتظار تأويله، وذلك عجلة ومسارعة للهوى، أو للعناد فإنَّ لهم افتخار بالعناد، كما يسمُّون أولادهم بالعاصي بمعنى أنّه قويٌّ لا يلين لأحد، وقال شاعر:

فعاند من تطيق له عنادا

والعناد يكون قبل العلم وبعده. والمراد: القرآن، ويجوز أن يكون المراد مضمونه من البعث والجزاء وما يخالف دينهم. ومعنى الإضراب ذمُّهم على العناد، وأمره بالإعراض عن تحدّيهم بأن يأتوا بسورة فإنّهم ليسوا أهلا لذلك لكونهم مكبّين على العناد، والواو للحال، أو عاطفة على «لَمْ يُحِيطُواْ...» و«تَاوِيلُهُ»: عاقبة ما فيه، من قولك أوّلت الشيء بمعنى أرجعته، فالله عز وجل يرجع ألفاظ القرآن إلى حضور معانيه الذي من شأنه أن ينتظر وقوعه، وهو وقوع ما أخبر به من الغيوب، وقبول الأذهان بالتفكُّر فيه.

أو المراد: العذاب، ولو جاءهم العذاب لم ينتظروا بعد ولم ينفعهم شيء، والنفي بـ«لَمَّا» دليل على أنّه سيأتيهم تأويله، وقد أتاهم قبل نزول هذه الآية بعضه فأخبر الله أنّهم كذّبوا قبل التأويل، ولَمَّا جاءهم التأويل استمرُّوا على الكفر.

﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ رسلهم وأنبياءهم بلا تأمُّل أو عنادًا فأهلكوا، فليحذروا أن يُهلكوا كما أهلك من قبلهم كما قال: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ من الهلاك كذلك تكون عاقبة قومك إن لم يؤمنوا.

﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَآءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾

موقف المشركين من الوحي

﴿وَمِنْهُم﴾ من أهل مَكّة ﴿مَّن يُّومِنُ بِهِ﴾ بالقرآن بعد كفره به، لقضاء الله له بالإيمان، ثمَّ بعد الإيمان به لا يدري أيموت موفّيا أم غير موفٍّ أم مرتدًّا ﴿وَمِنْهُم مَّن لاَّ يُومِنُ بِهِ﴾ حتّى يموت لقضاء الله ﷻ بذلك، ويجوز أن يكون المعنى: ومنهم من يؤمن به في قلبه ويكفر به عنادا ويموت على ذلك، أو يموت تائبا من الشرك موفّيا أو غير موفٍّ، ومنهم من لا يؤمن به في قلبه لعدم تدبُّره، أو المراد: لا يؤمن في المستقبل كما لم يؤمن في الحال والماضي.

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ عنادا بعد الإيمان في القلب، أو إصرارا على جهل أو تقليد، وهذا في أهل مَكّة بأنه لا يخفى عنه إفسادهم فهو يجازيهم عليه، و﴿أَعْلَمُ﴾ بمعنى عليم، أو باق على التفضيل، فإن علم الله يَعُمُّ كلَّ مفسد ولو

ظهر لكم صلاحه، ولا إفساد أعظم من إفساد من خالف أفضل الكتب وأفضل الرسل، وقد تحدَّاهم بالقرآن: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ﴾ (سورة الإسراء: ٨٨) وبعشر سور: ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ﴾ (سورة هود: ١٣) وبسورة: ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ﴾ (سورة يونس: ٣٨) وبحديث مثله: ﴿فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ (سورة الطور: ٣٤) الآيات... ويجوز أن تكون الآية في أهل مَكَّة وغيرهم، وعلى الأوَّل فالمقام للإضمار وأظهر ليصفهم بالإفساد، وهو موجب للانتقام.

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾ بعد التكذيبات السابقة وإلزام الحجج فتولَّ عنهم، ولا لوم عليك كما قال: ﴿فَقُل لِّي عَمَلِي﴾ أجازى به وحدي به لا بغيره ﴿وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ تجازون به وحدكم لا بغيره ﴿أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّآ أَعْمَلُ﴾ لا ضرر عليكم يلحقكم منه لو كان مضرًّا، والمقصود بالذات: إن لي وحدي ثوابه، وعبَّر بذلك ـ والله أعلم ـ مشاكلةً لقوله: ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ لا يلحقني منه ضرر، وقوله: ﴿أَنتُم بَرِيئُونَ... تَعْمَلُونَ﴾ تأكيد لقوله: ﴿لِي عَمَلِي...﴾؛ أو الأوَّل في الخير على فرض أنَّ لِعَمَلِهِم ثوابا، والثاني في العقاب. والآية غير منسوخة بآية السيف لأنَّ كون المكلَّف له عمله باق دائما لا يقبل الرفع ولو بعد نزول القتال.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ يَّسْتَمِعُونَ﴾ بآذانهم ﴿إِلَيْكَ﴾ إذا قرأت القرآن ولا تسمع قلوبهم بتدبُّر، وكأنَّهم لا يستمعون كما قال: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ أي أيستمعون إليك فأنت تسمعهم ﴿وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ انضمَّ إلى صممهم عدم العقل، يقول ﷺ: لا أسمعهم فيقول ﷻ: فكذلك هؤلاء لا يتأثرون بالقرآن، كأنَّهم لم يدخل آذانهم، وكأنَّهم مجانين، وذلك تمثيل بالصمِّ مطلقا.

ويجوز كون الصمِّ هؤلاء المكذِّبين، وأنَّ الأصل: أفأنت تسمعهم وهم لا

يعقلون، بالإضمار، فأظهر ليصفهم بالصمم تشبيها؛ أو بصمم القلوب، أي كيف تهديهم وقد طبع على قلوبهم، والمقصود مِن سَمْعِ الآذان سمع القلب، فقد يُحْسِنُ سميعُ القلبِ ما لا يحسنه سميعُ الأذنِ الأحمقُ، فانسدَّ الهدى البتَّة عمَّن فَقَدَ سمعَ الأذنِ وسمعَ القلبِ، وكذا الوجهان في: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ بعينيه حال قراءة القرآن والوحي، وكأنّه لم ينظر، وكأنه غائب عنك، فكيف ينتفع ؟! .

﴿أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾ تجعلهم مبصرين ﴿وَلَوْ كَانُوا لاَ يُبْصِرُونَ﴾ يقول: لا ، فيقول ا لله: فكذلك هؤلاء عميت قلوبهم لا تتأثّر بذلك، كما لا يبصر الأعمى، أو أفأنت تهديهم وهم عمي القلوب ؟ لا تهديهم وقد طبع عليها، أو معنى ﴿لاَ يُبْصِرُونَ﴾: عدم البصيرة كالذي قبله، أي وقد انضمَّ إلى عماهم عدم البصيرة.

والمقصود من إبصار العين استبصار القلب، فقد يُحْسِنُ الأعمى المستبصر ما لا يُحْسِنُ البصير الأحمق، فقد انسدَّ باب الهدى البتّة عمَّن لا بصر له ولا بصيرة. والاستفهام إنكار، والواو –قيل– للحال، أو مقابل مدخولها محذوف، أي لو كانوا يعقلون ولو كانوا لا يعقلون، لو كانوا يبصرون ولو كانوا لا يبصرون.

والآية كالتعليل للتبرُّؤ منهم، إذ بلغوا في الكفر منزلة الأصمِّ المجنون وأعمى البصير والبصيرة، ولا يصحُّ ما قيل: إنَّ المعنى: إعراضٌ عنهم ليستوحشوا، كما يستوحش المريض الذي لا يقبل العلاج بإعراض الطبيب فيقبل.

وَقِيلَ: معنى الآيتين: أنت لا تقدر على إسماع الصمِّ ولا على إبصار العمي أنا القادر على ذلك، وفيه أنَّ المقام ليس لذكر الاحتجاج بالقدرة وإثباتها بل

للتنديد على إصرارهم، اللهمَّ إلاَّ أن يـراد بذلـك تسـليته ﷺ في شـدَّة رغبتـه في إيمانهم وإقناطه منه.

﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ لا يجبرهم على عمى القلوب ولا يطبعهم عليه، والإجبار أو الطبع نقص لهم، والظلم بمعنى النقـص، و«شَيْئًا» مفعـول بـه ثان، فالمعنى: لا ينقصهم هدى اختاروه؛ أو مفعول مطلق، أي لا يظلمهم ظلمـا مًّا قليلا ولا كثيرا.

(أصول الدين) ﴿وَلَكِنَّ النَّـاسَ أَنفُسَـهُمْ يَظْلِمُـونَ﴾ باختيـارهم الضلال والخروج عن الفطرة، وذلك كسب لهم موافـق للقضـاء الأزليِّ، مـع أنَّ كسبهم خلق من الله وهم عبيده، لا يتصوَّر أن يكون شـيء منـه ظلـم لهـم مـع أنَّهم لم يملكوا أنفسهم بل هو ملكها، وذلك الذي ظهر من القـدرة علـى الفعـل والترك هو الاختيار منك.

أو المعنى لا يظلم الناس بالعذاب يوم القيامة بل ظلموا بذلك العذاب الـذي استوجبوه. وقـدَّم «أَنفُسَـهُمْ» للفاصلـة ولطريـق الاهتمـام لا للحصـر، لأنَّـه في مقابلة: ﴿لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ بالاستدراك، ولـو صـحَّ في نفـس الأمـر حصـر القلب لقوله: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ النَّـاسَ شَيْـئًا﴾ إذ زعمـوا أنَّ الله أجـبرهم، وأنَّ مشيئته إجبار، وأنَّ عقابهم مع الإجبار ظلم، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ﴾ (سورة هود: ١٠١) بلا صيغة حصر، أو هذا الظلـم المنسـوب إلى الله لا يناله وإنَّما نال الظلمُ أنفسهم، وهذا حصر المظلوميَّة، وحصـر الظالميَّـة في قولـه تعالى: ﴿وَلَكِن كَانُواْ هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ (سورة الزخرف: ٧٦) .

واختار هنا قصر المظلوميَّة للمبالغة في بطلان أفعـالهم، وسـخافة عقولهـم إذ فعلوا الشرَّ في أنفسهم، كمن قتـل نفسـه، ويجـوز أن يكـون «أَنفُسَـهُمْ» تـأكيدا

لـ«النَّاسَ»، كما يقال: ضربت عمرا نفسه عينه، فيكون حصرا للظالميَّة، كأنَّه قيل: الظالمون هم لا الله تعالى، فيقدَّر المفعول به، أي يظلمون أنفسهم.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ الضمير للمشركين المنكرين للبعث، إِيَّاهُم وغيرهم من سائر المنكرين للبعث و«يَوْمَ» مفعول به لـ«اذكر»، أي واذكر لقومك يوم نحشر المنكرين للبعث، أو متعلّق بـ«يَتَعَارَفُونَ» وقوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾ حال من الهاء، ولا يصحُّ أن يكون نعتا لـ«يَوْمَ» بتقدير الرابط، أي كأن لم يلبثوا فيه، لأنَّ يوما معرفة بالإضافة إلى جملة مشتملة على معرفة، لأنَّ المعنى: يوم حَشْرِنَاهُمْ أو حَشْرِنا إِيَّاهُم بإسكان الشين فيهما وكسر الراء.

(نحو) وَأَمَّا أن يقدر: ويوم حشرٍ منّا لهم فخطأ، ولا حاجة إلى جعله نعتا لمصدر على تقدير الرابط أي حشرا كأن لم يلبثوا قبله، لأنَّ عدم الحذف أولى من الحذف، فكيف حذفان ؟.

والمراد: اللبث في الدنيا؛ أو اللبث في القبور؛ أو كلاهما، يستقصرون كلَّ ذلك لهول الحشر، لأنَّ وقت الشدَّة طويل بها، ولو قصر وهذا في نفس وقت الحشر وهو البعث من القبور خاصَّة وأمَّا اللبث في الحشر فهو في نفسه مع شدَّته طويل الزمان، والسعداء لا يستقلّون لبثهم في الدنيا والقبر.

[قلت:] والظاهر أنَّ الاستقلال يلحق الموتى مطلقا لعظم الهول على الكلِّ، إلاَّ أنَّهم يتفاوتون في ذلك، ثمَّ إنَّهُ كيف يستقلُّ الكافر لبث القبر مع أنَّه معذَّب فيه حتَّى كأنَّه لبث ساعة، ولعلَّه لإفضائه بعد القبر إلى العذاب الدائم، وإن أريد باللبث البرزخ العامُّ بعد قيام الساعة فإنَّهم لا يعذَّبون فيه، وهو أربعون عاما فالأمر ظاهر. والساعة: مطلق الوقت، وأضيفت للنهار لأنَّ الساعة في النهار أظهر منها في الليل.

وربَّما تقوَّى بذكر النهار أنَّ المراد: اللبث في الدنيا، ولا يخفى أنَّ المسلم أيضا لا يدري كم لبث في القبر، فلا يتِمُّ ما قيل من ترجيح حمل اللبث على اللبث في الدنيا بأنَّ الكافر هو الذي لا يعرف كم لبث في قبره. واسم «كَأَنْ» ضمير المحشورين، أي كأنَّهم لم يلبثوا؛ أو الشأن، أي كأنَّه لم يلبثوا.

ومن فوائد هذا التشبيه الإشارة إلى أنَّ طول مكثهم كأنه طول ساعة، فلم يتعاص عنه البعث لطوله وكونهم عظاما وترابا ورفاتا، وإلى أنَّه كوقت قريب جدًّا يسهل معه البعث بلا تغيير، مع أنَّ الأمر كلَّه عنده سواء طوله وقصره، ويناسب هذا قوله: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ فإنَّ التعارف أنسب بالزمان القليل حتَّى لا ينكر بعض بعضا لطول العهد. والجملة حال من هاء «نَحْشُرُهُمْ» ؛ أو من واو «يَلْبَثُواْ» مقدَّرة، لأنَّ التعارف غير مقترن بالحشر وهو البعث، وغير مقترن باللبث بل بعدهما. وقد يكون الحشر بمعنى الجمع في الموقف، وقد تجعل الحال مقارنة على التفسير بالبعث لقربه بالتعارف، وقد قيل: يتعارفون عند البعث ثمَّ ينقطع في الموقف، لشدَّة الهول حتَّى كأنَّه لا يعرف بعضٌ بعضا ولتغيُّر وجوههم وصفاتهم.

فذلك الوقت غير وقتِ قولِه: ﴿فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ (سورة المؤمنون: ١٠١) و﴿وَلاَ يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ (سورة المعارج: ١٠) الآيتين... ولكن يرجع التعارف بعد انقطاعه لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ﴾ (سورة سبأ: ٣١) وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتُ امَّةٌ﴾ (سورة الأعراف: ٣٨) وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا﴾(سورة الأحزاب: ٦٧) الآيات... ونحو ذلك، وللآثار الواردة في أنَّ الوالد يطلب من ولده الحسنة وبالعكس، ونحو هذا فالتعارف الأوَّل مطلق وما بعده توبيخ، أو طلب، أو نحو ذلك، ولهم مواطن يتعارفون في بعضها دون بعض؛ أو التعارف المنفيُّ

تعارفُ تواصلٍ، والمثبَت تعارفُ التوبيخِ، وعن الحسن: يعرف الرجل صاحبه إلى جنبه ولا يكلّمه.

﴿قَدْ خَسِرَ الذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ اللهِ﴾ مستأنف؛ أو حال من واو «يَتَعَارَفُونَ»؛ أو هاء «نَحْشُرُهُمْ» والرابط «الذِينَ»، لأنه ظاهر في موضع الضمير ليصفهم بمضمون الصلة، أو مفعول لحال، أي قائلين: «قَدْ خَسِرَ...». ولقاءُ الله: البعث. ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ إلى طرق النجاة؛ أو عارفين بأحوالها، عطف على «خَسِرَ الذِينَ...» ؛ أو على «كَذَّبُواْ...».

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ

يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٥٦﴾

عذاب المشركين في الدنيا والآخرة

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ «إِنْ» الشرطيَّة و«مَا» التي هي صلة لتأكيد التعليق ﴿بَعْضَ الذِي نَعِدُهُم﴾ من العذاب في حياتك، كما أراهم يوم بدر ويوم فتح مَكَّة، فإنَّه أشدُّ على من بقي على الكفر حتَّى فتحت من يوم بدر، لأنَّ فتحها إقناط لهم. والإراءة بصريَّة باعتبار أثر العذاب وأسبابه، لأنَّ نفس العذاب لا يرى.

﴿أَوْ نَتوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل تعذيبهم وإراءتك ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ جواب لـ«نُرِيَنَّكَ» محذوف، أي فذلك ما خوَّلك، أو فذلك ما تريد؛ أو ما تتمنى؛ أو حقٌّ؛ أو صواب.

(نحو) وجواب «نَتَوَفَّيَنَّكَ» لعطفه على الشرط فكأنَّه شرط هو قوله: ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ لأنَّ معناه: نعذِّبهم بعد الرجوع إلينا، وقدَّره بعض: نُري في الآخرة، فيكون «إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ» سادًّا عنه، لأنَّه علَّة، وإنَّما لم أجعل «إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ» جوابا للكلِّ لأنَّ رجوعهم إلينا لا يتوقَّف على الإراءة ولا على التوفِّي، نعم يجوز على معنى عذَّبناهم في الدنيا أو لم نعذِّبهم لا بدَّ من رجوعهم إلينا.

﴿ثُمَّ اللهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ من التكذيب وأنواع الكفر. وشهادة الله: علمه؛ أو إخباره ونتيجة علمه، والترتيب بـ«ثُمَّ» ذكريٌّ، أو رتبيٌّ إذا فسَّرنا الشهادة بالعلم، أو إخباره مجازاته على أفعالهم وأقوالهم المحرَّمة، فهذا الجزاء لازم لعلمه أو إخباره، ومسبّب له.

وهذه المجازاة تكون يوم القيامة، ولذلك رتّبها بـ«ثُمَّ» على قوله: ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾. ويجوز أن يكون «شَهِيدٌ» بمعنى مودّي علمه؛ أو خبره يوم القيامة، على أفعالهم، أو مظهر أثرها كتسويد الوجوه وإنطاق الجوارح، فذلك شهادته، وأمَّا إبقاء الشهادة على ظاهره أو على معنى العلم بلا تأويل بما مرَّ فلا يصحُّ، لأنَّ علمه قديم سابق على رجوعهم إليه، وهو شهيد قبل رجوعهم أيضا، ومشاهد قبله أيضا.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم ﴿رَسُولٌ﴾ من الله يأمرهم وينهاهم، ويعظهم ويعلّمهم، ويكون بعده خلائف يؤدُّون عنه. ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ﴾ إليهم بالبيِّنات فكذّبوه؛ أو كذّب بعض وآمن بعض. ومجيء الرسول بالبيِّنات تبليغه إيَّاهَا إليهم، فيكفي عن تقدير: جاءهم رسولهم فبلّغهم، فإنَّه لا يلزم من الرسالة أن يكون الرسول ماشيا إلى أمَّته بل تتصوَّر بمشي وبلا مشي، كتبليغ الحاضرين وإرسالهم إلى غيرهم، وهكذا إلى الفترة إذا كانت، وأمَّا التكذيب فلا بدَّ من تقديره، لأنَّ هذا تخويف لقومه ﷺ واستشهاد على العقاب على الكفر، أو بيان أنَّ حال الرسل مع أممهم كحاله ﷺ مع أمَّته.

﴿قُضِيَ بَيْنَهُم﴾ بين الرسول ومكذّبيه ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل، تنجية الرسول ومن آمن وإهلاك من كفر، كما قال ﷻ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالذِينَ ءَامَنُوا﴾ (سورة يونس: ١٠٣)"، وَأَمَّا من آمن فلا قضاء بينه وبين الرسول إلاَّ على معنى التقرير والاستشهاد.

ويجوز أن يكون المعنى: لكلِّ أمَّة يوم القيامة رسول يحضر وهو رسولهم في الدنيا يشهد لهم وعليهم بالكفر والإيمان، ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيئِينَ وَالشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ (سورة الزمر: ٦٩) والتفسير الأوَّل أولى، والآية عليه لا على الثاني كالتعليل للتي قبلها.

﴿وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ بزيادة ما لم يفعلوا من الذنوب و لم يتسبَّبوا ولا بنقص ثواب لم ينقصوه بأعماهم، ولا بتكليف بلا إنزال كتاب وإرسال رسول وصحَّة عقل، ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ (سورة الإسراء: ١٥) ﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ (سورة النساء: ١٦٥).

﴿وَيَقُولُونَ﴾ يقول الكفَّار استهزاء وإنكارا للعذاب، لا طلبا لعلم وقته ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ الذي تعدنا به يا محمَّد ويا أصحابه في إتيان العذاب ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أنَّ العذاب يكون، ويجوز أن يكون القول لرسول الله ﷺ، ولو كان قوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ عامًّا، ولو قدَّرنا متى هذا الوعد يا محمَّد، و لم يذكروا أصحابه لأنَّ قوله قول لهم وقولهم قول له، كما قال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيءُ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ (سورة الطلاق: ٠١) و لم يقل: يا أيُّها النبيء وأصحابه، ولا يا أيُّها النبيء إذا طلَّقت، ولو قال أيضا ذلك لصحَّ، وهم مُبلِّغون ما يقول محمَّد ﷺ. والجواب محذوف تقديره: إن كنتم صادقين فأتونا به.

قيل: هذا من الأسلوب الحكيم، لأنَّهم أرادوا بالسؤال استبعاد أنَّ الموعود من الله، وأنَّه ﷺ يدَّعي ذلك، فطلبوا تعيين الوقت تهكُّما، فأجاب بأنِّي لست مالكا نفعا أو ضرًّا فكيف أدَّعي ما ليس لي ؟.

﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا﴾ دفع ضُرٍّ، أخر الضرَّ في الأعراف للإشعار بأهمِّيَّة النفع والمقام مقامه، وهذا المقام للوعيد كما قالوا: «متى هذا الوعد»؟. ﴿وَلاَ نَفْعًا﴾ جلب نفع، فكيف أملكهما لكم، أو لا أملك لنفسي ضرًّا أجيئكم به ولا نفعا أنفعكم به، والكلام سيق للضرِّ المناسب لقوله: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ وإنَّما ذكر نفعا تتميما للفائدة ولإظهار كمال العجز، ولدفع إيهام اختصاص

ذلك بالضرِّ، والمراد: كيف أعجِّل العذاب إليكم وليس في حكمي ؟ ﴿إِلاَّ مَا شَآءَ اللهُ﴾ أن أملكه أو أقدر عليه، فالاستثناء متّصل؛ أو لكن ما شاء الله كائن.

(أصول الدين) ولا يخفى أنَّ الإنسان بحسب الظاهر ما ملَّكه الله إيَّاهُ فله قدرة مؤثِّرة بإذن الله ﷻ، يخلق الله تأثيرها، ولا بأس بهذا، وقالت الأَشعَرِيَّة: لا تأثير لها، وقالت المعتزلة قبَّحهم الله: تؤثِّر ولم يشأ الله. أو لَكِنَّ مشيئة الله هي المعتبرة فهو منقطع، والمراد: ما شاء الله على الإطلاق، أو ما شاء الله من النفع أو الضرِّ.

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ موعودة بالهلاك ﴿اَجَلٌ﴾ مدَّة مضروبة لهلاكهم لكفرهم من إنكار الحقِّ؛ أو لكلِّ هلاك أمَّة موعودة بالهلاك أجل، وأمَّا التي لم يوعد لها في الدنيا فعذابها في الآخرة. ويضعف التفسير بأنَّ لكلِّ أمَّة أجلا للموت، لأنه لم يقل لكلِّ أحد أجل، ولو أمكن باعتبار آحاد الأمَّة، ولا يقدح في هذا اتِّفَاق أجل اثنين فصاعدا ولو آلافا، والأجل يطلق على جملة ما حدَّ وعلى آخره، وهو أنسب بقوله: ﴿إِذَا جَآءَ اَجَلُهُمْ﴾ أجل كلِّ أمَّة، أو أجل الأمم المعلومة من ذلك، والإضافة للعموم وكأنَّه قيل: آجالهم، بالجمع. ﴿فَلاَ يَسْتَاخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾ وأيضا هذا كلُّه داخل في مقول القول، وهو جواب لقوله: ﴿مَتَىٰ...﴾ فلا يذكر في الجواب مدَّة أعمارهم بل آخرها الذي يأتي عليه الهلاك أو الموت.

كيف تطلبون مجيء العذاب مع أنَّ لكلِّ أمَّة أجلاً لا يتأخَّر ولا يتقدَّم، أمَّا إذا أريد أجل الموت فالأمَّة هذه داخلة، وأمَّا إذا أريد الهلاك فلا، لمجيء الحديث:

«إنَّ أمَّتي لا تهلـك كلُّهـا»[1] ولـو كـان قـد يخسـف بطائفـة وتقـذف طائفـة. والسين والتاء في الموضعين ليستا للطلب. والمعنى: لا يتأخَّرون ولا يتقدَّمـون بـل هما صلتان لتأكيد النفـي، أي انتفـى التقـدُّم والتـأخُّر انتفـاء بليغـا، أو لإفـادة أنَّ التقدُّم والتأخُّر بلغا في الاستحالة إلى أنَّـهما لا يطلبان، إذ المحال لا يطلبه العـاقل؛ أو لإفادة أنَّ شدَّة الهول تمنع الطلب.

ويجوز إبقاؤهما على أصلهما من الطلب، أي لا يطلبون التأخُّر ولا التقـدُّم، وقوله: ﴿لاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾ معطـوف على مجمـوع «إِذَا» وشـرطها وجوابهـا، لا على جوابها، لأنَّه لا يصحُّ أن يقال: إذا جاء أجلهم لا يستقدمون، لأنَّ الخـاصَّ لا يمكن تقديمه، إلاَّ أن يقال معنى مجيء الأجـل مشـارفة مجيئـه، وأجيز العطـف على «لاَ يَسْتَاخِرُونَ» للمبالغة في انتـفاء التأخير، لَمَّا نُظِّـم في سـلكه أشعر أنَّـه بلغ في الاستحالة مرتبته، وتقدَّم كلام في ذلك، والمراد بالساعة أقلُّ قليل.

(بلاغة) وَإِنَّـمَا لم يقرن «إِذَا» بالفاء وقرن به «لاَ يَسْتَاخِرُونَ» عكـس آية الأعراف لأنَّ ما هنا جـواب لاستعجالهم الوعـد، فـأتي بالجملـة علـى وجـه الاستقلال من أنَّها ثابتـة بنفسـها بـلا تفريـع علـى شـيء، وقـوي لـزوم جـواب الشرط للشرط بالفاء، وليست آية الأعراف كذلـك، أو مـا هنـا تثبيـت وشـرح لصدره ﷺ فلا يضيق قلبه باستعجالهم، وتلقين له في الـردِّ عليهـم فناسـب الـردّ بلا تفريع تلويحا باستقلال الجملة في المبالغة في الردِّ، وما في الأعراف وعيـد لهـم فقرنت بالفاء تفريعا على شأنهم لأنَّها تفيد الربط.

﴿قُلَ اَرَآيْتُم﴾ أخبِروني، عبَّر عن الإخبار بالرؤية لأنَّها سببه، وعـن الأمـر بالاستفهام لاتِّفاقهما في الطلب، ولأنَّ الاستفهام أمـر بالإفهـام، ومفعولـه جملـة

١- لم نقف على تخريجه بهذا اللفظ.

«مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُون» بالتعليق بالاستفهام، وعلى تعديته لاثنين يقدَّر أحدهما تقديره: أرأيتم عذاب الله؟ من مطلق الحذف لدليل، وهو هنا عذابه، أو تنازع مع «أَتَى» في «عَذَابُهُ». والاستفهام تعجيب. ﴿إِنَ اَتَاكُمْ عَذَابُهُ﴾ جوابه مستغنى عنه بقوله: أرأيتم ماذا يستعجل منه المجرمون، أو محذوف تقديره: تندموا، أو يُبَيِّنُ خطأكم، لا جملة «مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ» وإلاَّ قُرن بالفاء لأنَّه جملة اِسمِيَّة وأيضا استفهاميَّة، وما أوهم خلاف ذلك قدِّر فيه الجواب، ولا ترض بما قال الشريف الرضيُّ وغيره من جواز ترك التاء.

والمراد بعذابه: العذاب المستعجل به في قولهم: «مَتَىٰ هَـذَا الْوَعْدُ» إنكارا واستبعادا له، وإن للشكِّ بالنسبة إلى وقوع العذاب في نفس الأمر، لأنَّه غير واجب وجود، فقد لا يقع والله عالم أَيَقَعُ أم لا.

﴿بَيَاتًا﴾ كقوم لوط، مصدر نائب عن ظرف الزمان، كجئت طلوعَ الشمس، أي وقت بيات، وهو وقت الاشتغال بالنوم، وهو الليل، كما قابله بقوله: ﴿اَوْ نَهَارًا﴾ كقوم شعيب. و«أَوْ» للتنويع كما رأيت، أو للترديد باعتبار الخلق وقت القيلولة من النهار، أو مطلقا لأنَّ النهار كلَّه وقت الغفلة بنحو المعاش، كما أنَّ الليل وقت الغفلة بالنوم، ويدلُّ لإرادة وقت القيلولة قوله: ﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ (سورة الأعراف: ٠٤).

ويجوز أن يكون «بَيَاتًا» اسم مصدر ظرفا، أي وقت تبييت، وهو الوقت الذي يُغار فيه على القوم، مثل قرب الفجر، أو عقب الفجر كوقت القيلولة من النهار في الغفلة ﴿مَّاذَا﴾ اسم مركَّب مفعول لقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ﴾؛ أو مبتدأ وخبر؛ و«ذَا» بمعنى الذي، صلته قوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ والرابط محذوف، أي ما الذي يستعجله منه، أي من العذاب، وَقِيلَ: من الله.

(بلاغة) والمجرمون المشركون، من وضع الظاهر موضع المضمر ليصفهم

بالإجرام، ففيه طريق الالتفات من الخطاب إلى الغيبة، والأصل: ماذا تستعجلون؟ والاستفهام تعجيب وإنكار لِلياقة، لا يليق بعاقل أن يستعجل نوعا من العذاب ولا فردا، ولا أن يتعرَّض لموجبها من تكذيب لكلام الله ومن سائر الكبائر، ثمَّ إنَّهُ لا يخفى أنَّه لا يستعجل الشيء بعد حضوره لأنَّ تحصيل الحاصل غير ممكن عقلا، فمعنى الآية: إن أراد الله إتيانه بياتا أو نهارا لوقته فما وجه استعجاله قبل الوقت؟ أو نُزِّل استعجالهم قبل وقته منزلة استعجاله بعد مجيئه في الاستحالة على أنَّ دنوَّه كوقوعه، كقولك لغريمك زجرا عن تقاضيه: إذا قضيتك فماذا تطلب؟ نزَّلت تقاضيه قبل إعطائكه منزلته بعده. أو المراد: إن أتاكم أمارة استعجاله.

(نحو) وهاء يستعجله للبعض المعبَّر عنه بـ«مَاذَا»؟ و«مِنْهُ» حال من الهاء، أو من «مَاذَا»، إذا كان اسما واحدا؛ أو «مِنْ» للتبعيض، ولك جعلها للبيان على أنَّ المراد مطلق العذاب لا بعضه، ومنه حال لذلك، أو «مِنْ» للابتداء بلا تجريد، أو به، كقولك: رأيت منه أسدا، جرِّد من العذاب أمرا هائلا متولِّدا منه.

﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِ﴾ الهمزة داخلة على محذوف أي أتكفرون قبل وقوع العذاب ثمَّ إذا وقع آمنتم حين لا ينفعكم الإيمان؟ أو داخلة على «إِذَا». و«ثُمَّ» لتراخي الزمان على الأوَّل، وللترتيب الذكري على الثاني، والهاء للعذاب، ويجوز أن يكون لله ﷻ. ﴿ءَالآنَ﴾ يقال لهم إن آمنوا بعد وقوعه: أتؤمنون الآن وقد كفرتم به قبل؟ كما قال: ﴿وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ تكذيبا واستهزاء، وهذه الجملة حال من واو «تؤمنون» المقدَّر، وكناية عن التكذيب، فإنَّه لَمَّا استعجلوا به علمنا أنَّه ليس ثابتا عندهم إذ لا يستعجل العاقل العقاب.

﴿ثُمَّ قِيلَ﴾ عطف على جملة «يقال لهم...» الخ المقدَّرة، عطف ماضوية

على مضارعيَّة وهو جائز، وإنَّما قدَّرتُ المضارع لئـلاَّ يكثر، لأنَّ التقدير على فرض أنَّهم آمنوا ثمَّ على فرض أنَّ خطابهم قد وقع ونزل منزلة الواقع. ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ عموما، أو ثمَّ قيل لهم؛ وأظهر ليصفهم بالظلم لأنفسهم بالذنوب، وللخلق بالقحط والمصايب لذنوبهم، والقائل الملك، أو الملائكة، أو ملائكة العذاب.

﴿ذُوقُواْ عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ الموجع على الدوام، والذوق استعارة تهكُّميَّة. ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ من الشرك والكبائر والصغائر؟ فلا تلوموا إلاَّ أنفسكم لا لوم على سعة رحمة الله فإنَّه خلقهم لها، ولا على الخلق لأنَّهم اختاروا ذلك لأنفسهم، لفرط اشتغالهم بموجبه، والإعراض عَمَّا ينافيه. ويجوز كون «مَا» مَصدَرِيَّة.

(أصول الدين) وإنَّما عذّبوا على الصغائر لأنهم لم يجتنبوا الكبائر، ويعذّبون على ما دون الشرك، لأنَّ الصحيح أنَّهم مخاطبون بفروع الشريعة، ويدوم عذابهم على ما دون الشرك كما يدوم عليه، وزعم بعض قومنا أنَّ عذابهم على ما دون الشرك ينقطع، كما يخرج الموحِّدون من النار على زعمهم، وأنَّه ما ورد من التخفيف عن بعض في بعض الأوقات إنَّما هو في شأن ما دون الشرك.

﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ﴾ يستخبرونك ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ سألوا أوَّلا عن وقت العذاب، وهنا عن تحقُّقه في نفسه، ولفظ «هُوَ» للعذاب، و«حَقٌّ» مبتدأ و«هُوَ» فاعله أغنى عن خبره، أو «حَقٌّ خبر و«هُوَ» مبتدأ، وقدّم للحصر وللاهتمام، أي أكان وحده حقًّا لا حقَّ معه؟ أو أهو الحقُّ لا الباطل؟ والجملة على كلٍّ مفعول ثان لـ«يَسْتَنبِئُ» علّق هنا بالاستفهام. ﴿قُلِ اِي﴾ نعم، وإي بمعنى نعم تختصُّ

بالقسم.

وأجاز أبو حيَّان استعمالها في غير القسم، والغالب استعمالها فيه عنده، وما قاله ظاهر على أنَّ ورودها في القسم غير حجر عن استعمالها في غيره، لعدم فساد المعنى على حدٍّ ما من البحث في كافة، وأهل مضاب وأهل مصر ومن شايعهم يقولون: «إِي» بلا واو، ويقولون: «أَيْوَ» بالواو، و«أَيْوَهْ» بهاء السكت، ونقول: الواو بعض من القسم، فإن كان لأبي حيَّان حجَّة من كلام من يحتجُّ به قبل فساد اللسان فهو حجَّة.

﴿وَرَبِّيَ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ إنَّ العذاب لحقٌّ؛ أو إنَّ القرآن لحقٌّ، أو ما أدَّعيه من الرسالة لحقٌّ، قيل: الاستفهام في قوله: ﴿أَحَقٌّ﴾ على أصله لقوله: ﴿يَسْتَنبِئُونَكَ﴾.

(سبب النزول) سافر حيي بن أخطب من المدينة إلى مكَّة قبل الهجرة، فقال لرسول الله ﷺ : أحقٌّ ما تقول؟ فنزل: ﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ...﴾. والمضارع لحكاية الحال، على أنَّ الآية بعد قوله ذلك، وأمَّا قبل قوله فهو للاستقبال وإخبار بالغيب، وَقِيلَ: للإنكار، وهو أولى، لأنَّ السائل ـ وهو حيي بن أخطب ـ من رؤساء اليهود في العلم، وهو من أشدِّهم، فهو إمَّا عارف بِالحَقِّ معاند، أو خائف من زوال رئاسته، أو غير عارف وهو منكر.

وقد يقال: لعلَّ ذلك أوَّل أمره لعنه الله فيسأل استفهاما ويشتدُّ كفره بعد، وأمَّا الاستنباء فلا دليل فيه، لأنَّه يستعمل في الإنكار كما يستعمل في الاستفهام الحقيقي.

ويجوز أن يكون المعنى: إنَّا جازمون بكَذِبِكَ لكن أخبرنا عَمَّا تقول أجدٌّ

منك أم هزل؟[1] أي أتعمدت على الله الكذب أم هزلت؟ نظير: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا اَم بِهِ جِنَّةٌ﴾ (سورة سبأ: ٠٨) فإنَّ «أَم بِهِ جِنَّةٌ» حاصله أنَّه لم يتعمَّد نفس الكذب، كما أنَّه قد يكذب الإنسان هزلا لا غرض له في نفس الكذب.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ فائتين لله بالهروب عن عذابه، أو بقوَّة وقدرة على ردِّ أمره ﷻ، وهذا يقوِّي ردَّ الضمير قبل للعذاب، لأنَّه أنسب بنفي الفوت.

وأمَّا أن يقال لمنكر القرآن أو الرسالة: «مَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ» فلو كان جائزا لكان باستحضار أنَّ منكري ذلك مستحقُّون لأن يقيض عليهم بالعذاب. و«مَا» حجازيَّة، لأنَّ القرآن نزل بلغة قريش، ولأنَّه إذا لم تكن الباء في مثله من القرآن ظهر النصب، نحو: ﴿مَا هَـٰذَا بَشَرًا﴾ (سورة يوسف: ٣١) ﴿مَا هُنَّ

١- في الطبعة العمانية: «أجدٌّ منك أم هزل؟ فقل لهم: نعم، وأقسم لكم بربِّي الذي لا إله إلاَّ هو ولا معبود بحقٍّ سواه إنَّهُ لحقٌّ وجدٌّ لا هزل فيه ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ فإنَّكم بعد أن تموتوا وتصيروا ترابا لن تعجزوا الله سُبحَانَهُ وَتَعَالىَ عن إعادتكم كما بدأكم من العدم، فـ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥ إِذَآ أَرَادَ شَيْئًا أَن يَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (سورة يس: ٨٢)، وَهَذِهِ الآيَة ليس لها نظير في القُرآن إلاَّ آيتان أخريان يأمر الله تَعَالىَ رسوله أن يقسم به عَلَى من أنكر المعاد، في سورة سبأ: ﴿وَقَالَ الذِينَ كَفَرُوا لاَ تَاتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَاتِيَنَّكُمْ﴾ (الآية: ٣)، وَفِي التغابن: ﴿زَعَمَ الذِينَ كَفَرُوا أَن لَّنْ يُّبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (الآية: ٧). ثُمَّ أخبر الله تَعَالىَ أَنَّهُ إذا قامت القيامة يودُّ الكافر لو افتدى من عذاب الله بملء الأرض ذهبا: ﴿وَلَوَ اَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الاَرْضِ لاَفْتَدَتْ بِهِ﴾ وكيف يكون لها ذَلِكَ وليس هناك درهم ولا دينار، فقد فنيت الدنيا، ولم يبق لإنسان غير عمله، عَلَيْهِ يبعث وبه يجازى إن خيرا فخير وإن شرًّا فشرٌّ، حَتَّى لو وجد الإنسَان ما يمكن أن يفتدي فَإِنَّهُ لن يقبل منه ﴿يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ إِلاَّ مَنَ اَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (سورة الشعراء: ٨٨-٨٩). انظر: ج٥/ ص٢٧٨-٢٧٩.

أُمَّهَاتِهِم﴾ (سورة المجادلة: ٠٣) .

﴿وَلَوَ انَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ نعت «نَفْسٍ»؛ ظَلَمت ذاتَها بالشرك، أو المعاصي، أو غيرها، في مال أو بدن أو عرض، أي ظلمت نفسها أو غيرها ﴿مَا فِي الاَرْضِ﴾ من الأموال؛ أو ما فيها من الأشياء مطلقا، على فرض أنَّها أموال بأن يكون ذلك كلُّه لهذه النفس، ومثله لتلك النفس وهكذا. ﴿لاَفْتَدَتْ بِهِ﴾ طلبت به الخلاص من هول القيامة وعذابها، يهون عليها ذلك في التخلُّص به ولا يقبل منها وكلُّ نفس ظالمة كذلك، لا تجد واحدة يعزُّ عليها ذلك فتمسكه وتسلِّم نفسها للعذاب، ولا تجد واحدة يقبل منها.

وافتدى "افتعل" للعلاج وهو لازم، ولا يختصُّ لزومه بالمطاوعة، ووجه جواز المطاوعة هنا أن يكون المعنى: لو أنَّ لها ذلك لأعطته فداء فيقبل منها، لكن لا يوجد لها ذلك فلا نجاة لها، وحاصله: فدت نفسها فافتدت، أي فحصل لها افتداء، كما تقول كسر نفسه فانكسر.

وقالوا: يجوز تعدِّيه غير مطاوع، أي لافتدت به نفسها لكن لا يوجد؛ أو لا يقبل لو وجد. وما فسَّرت به أوَّلا أولى، ويناسبه قوله: ﴿فَلَنْ يُّقْبَلَ مِنْهُ﴾ (سورة آل عمران: ٨٥) .

﴿وَأَسَرُّواْ النَّدَامَةَ﴾ عن فعل الشرك والمعاصي ﴿لَمَّا رَأَوُاْ الْعَذَابَ﴾ والضميران لكلِّ نفس لا للرؤساء خاصَّة، بأن أخفوها عن الضعفاء مخافة التعيير كما قيل، بل وجه الإخفاء الفشل عن الإظهار لأجل إيَّاسهم، ولأجل أنَّه فاجأهم من الأمر الفظيع ما لم يحتسبوه، كأنَّهم بُكْمٌ كمن ذُهب به ليقتل.

(لغة) والندامة قلبيَّة لا ظهور لها، فذِكْرُ «أَسَرُّواْ» تأكيد، أو باعتبار

أنَّ الندامة قد يعبِّر عنها اللفظ كالنطق بها والبكاء، أو ﴿أَسَرُّواْ النَّدَامَةَ﴾: أخلصوها لله حين لا تنفع، ويقال: أسرَّ الشيء بمعنى أخلصه، كما يحافظ على الشيء بستره، والإخفاء من لوازم صفاء الشيء؛ أو أسرَّ بمعنى أظهر، من الأضداد، كغبر بمعنى مضى، وغبر بمعنى بقي؛ أو الهمزة للسلب أي أزالوا سرَّها، أي خفاءها، كأقردت البعير: أزلت قراده، ففي موطن فشلوا، وفي موطن أذن لهم بالنطق، وأقدروا عليه.

﴿وَقُضِيَ﴾ العطف على «أَسَرُّوا»؛ أو على «رَأَوا»؛ أو على ما عطف عليه «أَسَرُّوا» ﴿بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ بين الخلائق كلِّهم؛ أو كلِّ نفس ظالمة؛ أو بين المظلومين والظالمين، أو بين المؤمنين والكافرين؛ أو بين الرؤساء والضعفاء؛ والأوَّل أولى لعمومه قبل. ودخل في ذلك العدل العظيم أنَّه يعدل من الكافر الظالم للكافر الآخر المظلوم، فيسقط بعض العذاب عن الكافر المظلوم، ويزاد على ظالمه الكافر. وأمَّا عود الضمير إلى النفوس الظوالم فلو ناسب بالذكر والقرب لكن لا يتبادر إرادته ولو كان صحيحا أن يقضى بينهنَّ بأن يخفَّف عن هذه على تلك من جهة مظلمة، وعن تلك على هذه من جهة.

﴿وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ الأوَّل بين الأنبياء ومكذِّبيهم، والثاني بين غيرهم مِمَّن مرَّ آنفا فلا تكرار، كما لا يخطر بالبال أنَّه تكرير.

وقرَّر قدرته على العذاب والثواب والقضاء بينهم بقوله: ﴿أَلآَ إِنَّ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ﴾ انتبهوا فإنَّ جميع ما سوى الله ممكن لذاته، والممكن مستند للواجب لذاته، إمَّا ابتداء أو بواسطة، فثبت أنَّ جميع ما سواه مملوك له تعالى، وما ينسب من الإملاك لغير الله ليس على التحقيق، والكلُّ لله وليس للنفس الظالمة شيء.

والمراد بما في السماوات والأرض: أجزاؤهما وما عليها، وفي ذلك إشارة إلى مقدِّمة تصلح كبرى من الشكل الأوَّل هكذا: كلُّ موجود محدثٌ له تعالى ملكا وتصرُّفا، ومَن شأنه هذا يقدر على كلِّ ممكن، فيقدر على القضاء والثواب والعقاب.

﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ اللهِ﴾ بالثواب والعقاب على المعنى المصدريِّ، أو بمعنى موعوده، ودخل ما كانوا به يستعجلون ﴿حَقٌّ﴾ لا خلف في وعده ولا في وعيده، لأنَّ الخلف شأن من لا يعلم العواقب، أَمَّا من يعلمها سُبحَانَهُ فإنَّ شأنه يستمرُّ ولا يتبدَّل ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ كلُّهم الأشقياء ﴿لاَ يَعْلَمُونَ﴾ فإنَّهم ولو علموا شيئا من أمر الدين يعاندون لقصر عقولهم على ظاهر من الدنيا؛ أو أراد أن بعض الكفَّار يعلمون ويتوبون، ويجوز عود الهاء للناس.

﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ في الدنيا بالقدرة والفعل، وفي الآخرة بالقدرة، إذ لا موت فيها، وأمَّا الحياة فهو الذي يوجدها ويديمها **وقدرته ذَاتِيَّة وما بالذات لا يتخلَّف**. ويروى أنَّ الطائر يؤتى به مطبوخا أو مشويًّا أو مقليًّا بحسب ما يشتهي السعيد، فإذا أكل منه أحياه الله فهذان إحياء وإماتة متجدِّدان فيها. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بعد الموت بالبعث للجزاء بأعمالكم، فالآية احتجاج على قدرته على البعث، وذكر الإماتة وربَّما دلَّ على أنَّ القادر على نزع الشيء من مكانه قادر على ردِّه فهو قادر على ردِّ الحياة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ

أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾

فضل القرآن على الناس، والإنكار على المشركين في التحليل والتحريم

﴿يَآ أَيُّهَا النَّاسُ﴾ أهل مَكَّة، أو الناس كلُّهم، وهذا استمالة لهم إلى الحقِّ، وطريق صحَّة النبوءة بعد ذكر طرق الدلالة على الوحدانية ﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُومِنِينَ﴾ هذه الأربعة كلُّها شيء واحد هو القرآن، ونكِّرت للتعظيم، نزلت ـ لتغايرها وصفا ـ منزلة تغاير الذوات، فساغ العطف، كما شهر أنَّ العطف يقتضي التغاير غالبا.

جاءكم من الله القرآن الجامع للوعظ والشفاء والهدى والرحمة. والموعظة: مصدر ميميٌّ بمعنى الوعظ وهو إرشاد المكلَّف ببيان ما ينفعه من محاسن الأعمال، وما يضرُّه من القبائح، وذكر الثواب والعقاب والترغيب في المحاسن والزجر عن القبائح. و«مِن» للابتداء، ولا حاجة إلى التبعيض على تقدير: من مواعظ ربِّكم.

والشفاء: إزالة ما يشبه المرض في الضرر والإهلاك من سوء الاعتقاد والشكوك، ويلتحق بذلك ذنوب الجوارح واللسان. والهدى: الإرشاد عن الضلال إلى اليقين وهو الحقُّ. والرحمة: إنعام الله على المؤمنين بإنزال القرآن الذي ينجون به من النار ويفوزون بالجنَّة، وكذا للكفَّار، ولكن أعرضوا عنه فلم ينالوا.

والهدى: هدى بيان لا هدى إيصال كما قيل، لأنَّ هدى الإيصال لله لا

للقرآن، ولا شكَّ أنَّ لقراءة القرآن عموما بركة يذهب بها أمراض البدن عموما بإذن الله تعالى على طريق الدعاء والتبرُّك، أو بلا قصد للشفاء به.

وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ يشكو صدره فقال ﷺ: «**إقرأ القرآن يقول الله تعالى: ﴿شِفَآءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾**» وليس على ظاهره من أنَّ معنى الآية أَنَّ القرآن دواء لوجع الصدر، بل معناه أَنَّهُ دواء لدنس القلوب بنية المعاصي، بل قياس منه ﷺ للمرض الحِسِّي على المرض المعقول من الذنب، وذلك كما أنَّه يقرأ ﷺ المعوَّذتين ويمسح على بدنه لوجع، وكذا شكا إليه رجل وجع الحلق، فقال: «**عليك بقراءة القرآن**» ، بل قد يكون المرض المعنويُّ سببا للحسِّيِّ، فيقرأ القرآن ليزول المعنويُّ الذي هو سبب الحسيِّ. وجاء أحاديث في أنَّ الذنوب تجرُّ المصائب والأمراض، ويقال: « لله درُّ الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله».

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾ متعلّق بـ«جاء» محذوفا، قل جاء ذلك بفضل الله وبرحمته، دلَّ عليه «جَاءَ» المذكور، أو بـ«يفرحوا» محذوفا دلَّ عليه «يَفْرَحُ» المذكور، أي قل: ليفرحوا بفضل الله وبرحمته، والمراد بالفضل والرحمة العموم.

وعن مجاهد: هما القرآن، وعنه ﷺ: «**الفضل: القرآن، والرحمة: جعْلُكم من أهله**»[1]. وفي معناه قول أبي سعيد الخدري رضي الله عنه وجماعة موقوفا: «فضل الله: القرآن، ورحمته: الإسلام»، وهو قريب مِمَّا في الحديث. وعن ابن عَبَّاس رضي الله عنه: «الفضل: العلم، والرحمة: محمَّد ﷺ»[2]. قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ

١- أورده **الألوسي** في تفسيره، ج٤/ ص١٤١، وقال: أخرجه أبو الشيخ وابن مردويه عن أنس.
٢- أورده **الألوسي** في تفسيره، ج٤/ ص١٤١، وقال أخرجه أبو الشيخ عن ابن عَبَّاس.

إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (سورة الأنبياء: ١٠٦) . وقِيلَ الفضل: الجَنَّة، والرحمة: النجاة من النار.

﴿فَبِذَالِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ كرَّر للتأكيد وحذف الأوَّل، ولا حصر فيه، والحصر في الثاني بالتقديم للمعمول، وإن قدِّم أفاد الحصر أيضا هكذا: «قل بفضل الله وبرحمته ليفرحوا» والفاءان عاطفتان هكذا: فليعجبوا بذلك، فليفرحوا به، أو صلتان، و«بِذَلِكَ» بدل من «بِفَضْلِ» و«بِرَحْمَتِهِ»، و«بِفَضْلِ» متعلِّق بـ«يَفْرَحُ» المذكور هكذا: قل بفضل الله وبرحمته بذلك، أي بهما ليفرحوا، أو الأولى عاطفة والثانية صلة يتعلّق بذلك بما بعدها هكذا: فليفرحوا بذلك، وقدِّم للحصر، لا تفرحوا بالدنيا بل بذلك، وإذا لم تجعل فاء صلة فهي عاطفة سَبَبِيَّة. والإشارة بذلك إلى القرآن.

وأجيز أن يكون ذلك من باب الاشتغال باسم الإشارة العائد إلى الفضل والرحمة، بتأويل ما ذكر، وتقديم الشاغل جائز نحو زيدا إِيَّاهُ أكرمت، واسم الإشارة ظاهر وضع موضع المضمر، إشعارا بعلوِّ شأن الفضل والرحمة، وقد شهر استعمال اسم الإشارة رابطا فلا غرابة في هذا الإعراب، والضمير في «يَفْرَحُونَ» للمؤمنين.

﴿هُوَ﴾ أي ذلك المشار به إلى الفضل والرحمة بتأويل ما ذكر؛ أو الفضل والرحمة، وأضمر لهما بتأويل ما ذكر؛ أو المجيء المعلوم من جاء، ولا يخفى أنَّ ردَّ الضمير إلى الأقرب الصريح أولى من ردِّه إلى البعيد، ولو كان ردُّه إلى البعيد لا يحتاج إلى تأويل ما ذكر، لأنّه اجتمع فيه البعد وغير التصريح بالاسم.

﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي مِمَّا يجمع الكُفَّار من المال والجاه واللذائذ. ويجوز عود الواو للمؤمنين، لأنَّ المؤمنين لا يخلون من جمع المال وحبِّ الجاه

بالطبع.

تا لله لو كانت الدنيا بأجمعها تبقى علينا وما من رزقها رغدا
ما كان من حق حرٍّ أن يذلَّ بها فكيف وهي متاع يضمحلُّ غدا

ومايعدُّونه خيرا ليس بخير.

لا تعجبنَّ الجهول حلّته فذاك مَيْتٌ وثوبه كفنه

﴿قُلَ اَرَاَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ا للهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾ «مَا» اسم موصول، والمعنى: أرأيتم ما نزَّل ا لله من البحيرة والوصيلة والحامي والسائبة ؟ والمفعول الثاني جملة قوله: ﴿آ للهُ أَذِنَ لَكُم﴾ على أنَّ «قُل» الداخل عليها لهذا.

(نحو) ولا يحسن تخريج الآية على الاستفهام وأنَّها مبتدأ خبره ﴿آ للهُ أَذِنَ لَكُم﴾ لعدم الرابط إذ لا يكفي تقديره هكذا: آ لله أذن لكم فيه، وإنَّما يكفي الضمير في «أَنزَلَ» فيكون الخبر أنزل ا لله أي ما أنزله ا لله، مع أنَّ هذا تكلُّف، لأنَّ هذا الحذف يوهم أنَّ «مَا» مفعول به لـ«أَنزَلَ»، ولا يحسن أن تقول: زيدٌ ضربت، برفع زيد وتقدير الهاء، أي زيد ضربته، بل ينصب ولو ورد الرفع نادرا، كقول أبي النجم: «كلُّه لم أصنع»[1] برفع كلُّ، أي كلُّه لم أصنعه، فما إذن كانت استفهاميَّة وهي مفعول به لـ«أَنزَلَ»، ومعنى «أَنزَلَ» خلق، لأنَّ ما خرج من الأرض من الأزراق مقدَّر في السماء، وبسبب الماء النازل منها فإنَّ النبات به وبحرارة القمر والشمس، والحيوانات كالنبات.

﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلاَلاً﴾ ﴿حَلاَلاً﴾: هو الميتة، ﴿وَحَرَامًا﴾: هو

١- من مطلع أرجوزة لأبي النجم العجلي أوَّلها:

قد أصبحت أم الخيار تدَّعي عليَّ ذنبا كلُّه لم أصنع

شواهد المغني للسيوطي، ص١٨٤.

الوصيلة والبحيرة والحامي، قال الله ﷻ: ﴿أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ (سورة الأنعام: ١٣٨) ﴿مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَّكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ﴾ (سورة الأنعام: ١٣٩) . وقيل: المراد أنَّه أنزل الماء وكان منه ما يؤكل، وقلتم: ﴿هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ و﴿مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ...﴾. وأسند الإنزال إلى الرزق لأنَّه مسبَّب عن سببه، وهو المطر والريح والبرد والحرُّ، أو أطلق المسبَّب وهو الرزق عن سببه وهو الماء ونحوه.

﴿قُلَ ـ آ للهُ أَذِنَ لَكُم﴾ في التحليل والتحريم، وعديل هذا هو قوله: ﴿أَمْ عَلَى ا للهِ تَفْتَرُونَ﴾ في التحريم والتحليل؟ فـ«أَمْ» متَّصلة والاستفهام توبيخ، ويجوز أن تكون منفصلة، أي بل على ا لله تفترون، أو بل أعلى ا لله تفترون؟ وعلى الانفصال يتعلَّق بقوله: ﴿قُلَ ـ آ للهُ أَذِنَ لَكُم﴾ أو بقوله: ﴿أَرَآيْتُمْ﴾.

ومقتضى الظاهر: آ لله أذن لكم أم غيره، ولكن قال: ﴿أَمْ عَلَى ا للهِ تَفْتَرُونَ﴾ لأنَّ فيه معنى أم غيره وزيادة التصريح بافترائهم، ولأنَّ معنى ﴿آ للهُ أَذِنَ لَكُم﴾: أفعلتم ما فعلتم على أنَّه من عند ا لله؟ أم فعلتموه من عند أنفسكم افتراء؟ وقدَّم قوله: ﴿عَلَى ا للهِ﴾ للفاصلة وطريق الاهتمام لا للحصر، إذ ليس المقام لأن يقال: يفترون على ا لله لا على غيره.

﴿وَمَا ظَنُّ الذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ا للهِ الْكَذِبَ﴾ هذا يتضمَّن وعيدا أبهمه ا لله تهديدا وتهويلا ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ متعلِّق بـ«ظَنُّ» كما قرأ عيسى بن عمر: «وَمَا ظَنَّ» بصيغة الماضي، على أنَّ الظنَّ في الدنيا، أو في الآخرة لتحقُّق الوقوع، فالظنُّ يوم القيامة.

(نحو) ومفعولا الظنِّ محذوفان، أي أيُّ شيء ظنُّهم يوم القيامة أنَّه لا يجازيهم على افترائهم، أو يجازيهم جزاء يسيرا، كَلاَّ! لا بدَّ من الجزاء وشدَّته؛ أو بمحذوف، أي ما ظنُّهم في الدنيا أنَّه لا يجازيهم يوم القيامة. و«مَا» استفهام على الجنس، وهو متعلَّق الظنِّ، وهو المظنون، كأنَّه لغرابته مجهول.

﴿**إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ**﴾ كلِّهم بالإمهال والإنعام والعقل الذي يميِّزون به بين الحقِّ والباطل، وإنزال الكتب والرسل وبالصحَّة والرزق ﴿**وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ**﴾ هذا الفضل، ومِن شُكْرِه التدبُّر والعمل به، فالنعم التي هي للاهتداء سبب للضلال، والقرآن المنزل للتصديق سبب للوقوع في الكذب.

إلى الماء يسعى من يغصُّ بلقمة إلى أين يسعى من يغصُّ بماء

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾

إحاطة علم الله تعالى بجميع شؤون الكائنات

﴿**وَمَا تَكُونُ**﴾ يا محمَّد، وتلتحق به أمته ﴿**فِي شَأْنٍ**﴾ في أمر، من شأَنْتُه[1] أي قصدته، مصدر بمعنى مفعول، أي مقصود، وتغلَّبت عليه الإسمِيَّة، ويجوز إبقاؤه على أصله من المعنى المصدريِّ، أي في قصد أو على ما تفرَّع عليه من معنى مقصود، ومعنى تغلب الإسمِيَّة أنَّه بمعنى أمر مطلق عن ملاحظة قصد أو مقصود.

﴿**وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ**﴾ من الشأن أو من الله أو من القرآن، وعليه فالإضمار له قبل ذكره تفخيم لمرتبة شهرته، وإذا ردَّ الضمير للشأن فوجهه أنَّ تلاوة القرآن معظم شأنه ﷺ، وأنَّ القراءة تكون لشأن. و«مِنْ» للتعليل في هذا الوجه، وإذا

١- في اللسان: «وَشَأَنْتُ شَأْنَهُ: قَصَدْتُ قَصْدَهُ». ابن منظور: لسان العرب، ج٣/ ص٢٥٨، مَادَّة «شأن».

ردَّ إلى القرآن فتبعيضيَّة، أو إلى الله فابتدائيَّة. ﴿مِن قُرْآنٍ﴾ منزَّل عليك، و«مِنْ» صلة في مفعول «تَتْلُواْ»، وبعض القرآن قرآن.

﴿وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ يا محمَّد وأمَّته، والمضارع للاستمرار الماضي حكاية له كأنَّه حاضر ﴿إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ رقباء مطَّلعين. خصَّ الخطاب به ﷺ أوَّلا لأنَّ التلاوة هو الأصل فيها ولأنَّها منه أوَّلاً.

وإنَّما يقرأ غيره تبليغا وتبعا له، ولأنَّ رئيس القوم إذا خوطب دخل قومه، كقوله تعالى: ﴿يَآ أَيُّهَا النَّبِيءُ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَآءَ﴾ (سورة الطلاق: ٠١) كما أنَّ الأمير يخاطب رئيس الكفَّار، ويجري حكم قومه على جوابه، وكأنَّه أجاب عن قومه، وكذا خطاب الأمير لهم يجري قوم عليه، ولو جعلنا الخطاب في «تَكُونُ» و«تَتْلُو» للعموم البدليِّ لعمَّ كما عمَّ «تَعْمَلُونَ» و«عَلَيْكُمْ»، إلاَّ أنَّه يلزم أن يكون قوله: ﴿وَلاَ تَعْمَلُونَ...﴾ كالتكرير له. والمراد: ما يكون ذلك كلُّه في حال من الأحوال إلاَّ حال شهادتنا. وقدَّم «عَلَيْكُمْ» لطريق الاهتمام بما يكون انتقاما منهم مراعاة لجانب الكُفَّار، ولو كان الكلام على العموم، ويجوز أن يكون الخطاب في «تَعْمَلُونَ» و«عَلَيْكُمْ» للكفَّار، فالوعيد ظاهر.

﴿إِذْ﴾ متعلّق بـ«شُهُودًا» أو بـ«كُنَّا» ﴿تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ فيما ذكر من الكون في شأن، والتلاوة والعمل، والإفاضة: الدخول في العمل.

﴿وَمَا يَعْزُبُ﴾ ما يغيب، وعزب: غاب وخفي ولو كان قريبا، ويفسَّر بالبعد لأنَّه ملزم للخفاء والغيبة وسبب له. ﴿عَن رَّبِّكَ﴾ عن علمه، على حذف مضاف، أو ﴿عَن رَّبِّكَ﴾: كناية عن علمه تعالى. ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الاَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَآءِ﴾ «مِنْ» صلة في الفاعل،

ومثقال: وزن، وهو فاعل، وإنّما يعبَّر على الـوزن بالمثقـال لاعتبـار الثقـل، فالمراد: ما يوازن النملة الصغيرة جدًّا أو يساويها في الثقل الذي هو ضعيف لا يعلمه إلاَّ الله أو من اجتهد.

أو الذرَّة الهباءة، والله مختصٌّ بعلم ثقلها ولا سيما إن قلنـا: هـي جـزء مـن ألف جزء من النملة، أو الخردلة. ومثقال الشيء: ميزانه، وذلك مَثَـلٌ في القِلَّـة لا حصر، ولذلك قـال: ﴿**وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَالِكَ وَلَآ أَكْبَرَ**﴾ كمـا ذكـر الأرض والسماء مثلا لأنَّ العَامَّـة لا تعرف سواهما إلاَّ بتعليم.

والمـراد: الأرض والسـماء والعـرش والكرسـيُّ وكـلُّ موجــود مخلـوق لا خصوص الأرض والسـماء، والله ﷻ لا يوصـف بكـلٍّ ولا بجـزءٍ، والمثقـال في الجَـاهِلِيَّة والإسـلام لا يختلـف، وهـو أربعـة وعشـرون قيراطـا، والدرهـم سِـتَّة دوانق، وعشرة دوانق سبعة مثاقيل.

وقدَّم الأرض لأنّها أقرب إلى المخاطبين، وهم بها أعـرف منهـم بالسـماء، ولأنَّ الكلام في حال أهلها والبرهان عليهم، و«فِـي الاَرْضِ» حـال مـن «ذَرَّةٍ» لتقدُّم النفي، والنعتُ أولى، ولا يجوز تعليقه بــ«يَعْـزُبُ» لأنـه يـؤدِّي إلى أنَّ الله تعالى في السماء والأرض حلولا.

وقوله: ﴿وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَالِكَ...﴾ كلام مستأنف مقـرِّر لِمَـا قبلـه. و«لاَ» عاملة عمل إنَّ، واسمُها معرَب لشبهه بالمضاف، أو عاملة عمـل ليـس لا عاطفـة علـى «ذَرَّةٍ» لأنـه يبقـى قولـه: ﴿**إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾ متعطِّـلا، إلاَّ إن يجعـل استثـناء منقطعـا، أي لكـن كـلُّ شـيء في كتـاب مبين، إلاَّ أنَّ الحمـل علـى الاستثـناء المنقطع خلاف الأصل، لا يحمل عليه الكلام إلاَّ لداعٍ صحيح راجـح أو متعيِّن، فالوقف على السماء.

ولـو جعـل «لاَ» عاطفـة علـى «مِثْقَـالِ» وجعـل الاستثـناء مُتـَّصِلا لكـان المعنـى: لا يغيـب عـن ربِّـك شـيء في حـال مـن الأحـوال إلاَّ حـال كونـه في كتـاب مبـين **وهـو فاسـد**، لأنَّـه أثبـت الخفـاء عـن الله، اللهـمَّ إلاَّ أن يحمـل على تـأكيد المـدح بما يشبه الـذمَّ، كأنَّـه قـال: إن خفـي عنـه شـيء فهـو في اللـوح المحفـوظ، ومعلـوم أنَّـه لم يكتـب فيـه خفـاء شـيء عنـه، لكـن لا يحسـن التخريـج علـى هـذا، لأنَّ الكـلام مـع الكفَّـار الغلـف، ولا يفهمـون هـذا، ولـو فهمـوا مثلـه في غـيره مـن الكلام فلا يحملون كلامـه عليـه، وإنَّمـا يحملـه عليـه مـن تحقَّـق إيمانـه.

(نحو) وجاز العطف بـ«لاَ» وَالاِتِّـصَال، على أنَّ معنى «يَعْزُبُ»: يصدر، أي لا يصدر عن الله شيء إلاَّ وهو في كتـاب مبـين، والاستثـناء إذا جعلنا «وَلاَ أَصْغَرَ» كلاما مستقلاًّ عَمَّا قبله يكـون مفرغـا، والمفـرغ لا يقال فيه: متَّصل ولا منفصل، والحقُّ أنَّه متَّصل لأنَّ المقدَّر فيه أبدا عامٌّ لِمَـا بعد «إلاَّ»، ولا تعين العطفَ آيةُ رفع أصغـر[١] وأكـبر بـدون «مِـنْ»، لأنَّ «لاَ» فيها غير عاملة، وما بعدها مبتدأ لا معطوف على المرفـوع قبلـه، أو عملت عمل ليس. وقدَّر بعض: لا شيء إلاَّ في كتاب مبين، وبعض جعـل «إلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ» استثـناء مِمَّا قبل قوله: ﴿وَلاَ يَعْزُبُ﴾ وهو تكلُّف، وقيل: «لاَ» عاطفة على «مِثْقَالِ» و«إلاَّ» عاطفة، كقوله تعالى: ﴿إلاَّ مَن ظَلَمَ﴾ (سورة النمل: ١١) في أحـد الأوجـه، ويقـدَّر المبتـدأ هكـذا: وهـو في كتاب مبين، وهو تعسُّف. والكتاب المبـين: اللـوح المحفـوظ لا علـم الله، لئلاَّ يلزم التأكيد، والتأسيس أولى منه.

١- كذا في النسخ ولعلَّ الصواب: «قراءة رفع أصغر».

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝﴾

أولياء الله: أوصافهم وجزاؤهم

﴿أَلآَ إِنَّ أَوْلِيَآءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وَلِيٌّ: "فعيل"، بمعنى فاعل، يتولّى الله بالطاعة والمحبّة، وهي الميل إلى رضاه وفعل الطاعة، ويتولاّه بالدعاء إليه، وأداء كلِّ ما فرض عليه مع الاعتقاد الصحيح المبنيِّ على الدليل.

وأعلى درجاته أن يستغرق قلبه في نور معرفة جلال الله، فإن رأى رأى دلائل قدرة الله عَجَلَّ، وإن سمع سمع آيات الله، وإن نطق نطق بالثناء على الله، وإن تحرَّك تحرَّك في طاعة الله، وإن اجتهد اجتهد فيما يقرِّبه إلى الله لا يفتر عن ذكر الله، ولا يرى بقلبه غير الله؛ أو بمعنى مفعول، يتولاّه الله بالتوفيق والإكرام.

وإذا لم تكن العلماء أولياء الله فليس لله وليٌّ، أعني العلماء العاملين بالعلم، **ومن العمل به الإخلاص،** فشرطهم أن يكونوا محفوظين، كما أنَّ شرط الأنبياء أن يكونوا معصومين، وكلُّ من كان للشرع عليه اعتراض فهو مغرور مخادع. والوليُّ: هو الذي توالت أفعاله على الموافقة؛ أو بمعنى فاعل ومفعول معا، كباب المفاعلة لا استعمال للمشترك في معنييه.

وحاصله أنَّهم يتولَّونه بالخدمة ويتولاَّهم بكلِّ ما يليق بهم. ومعنى ﴿لاَ خَوْفٌ...﴾: يلحقهم في الآخرة خوف من مكروه، ولا حزن بفوت مأمول،

وفي الحديث: «**لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس**»[١]. وأقول ذلك في الجنّة ظاهر، وأمّا في الموقف فكلٌّ أحد يصيبه الخوف والحزن، فما معنى الحديث ؟ ولعلَّ ذلك مواطن، فقد قال الله ﷻ : ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ (سورة الأنبياء: ١٠٢) أو أنّهم لا يخافون من كفر لأنّهم نجوا منه، ولا يحزنون على فوت الإيمان كما يحزن من فاته لأنّهم حصّلوه، وقيل: لا يخاف عليهم غيرهم، وقيل: لا يلحقهم ما يوجب خوفا لا حزنا.

﴿**الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُوا يَتَّقُونَ**﴾ عقاب الله بامتثال الأوامر واجتناب النواهي. والاتّقاء: حذر المعاصي إجلالا لله تعالى، أو خوفا من عقابه، ومن يعصي ويتوب من قلبه لم يخرج عن اسم الاتّقاء والتقوى، لأنَّ لذلك مراتب، منها ترك المعاصي إلاّ نادرا يعاجل التوبة، ومنها ترك المعاصي البتّة كالأنبياء والملائكة.

قيل: يا رسول الله مَن أولياء الله ؟ قال: «**الذين إذا رُؤُوا ذُكِرَ الله تعالى**»[٢]، أي تدعو حالهم إلى طاعة الله وتقواه، وقال ﷺ : « **لله قوم تحابّوا في الله بلا قرابة، هم على منابر من نور يوم القيامة، يغبطهم الأنبياء والشهداء، لا فزع عليهم، وهم أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون**». [قلت:] ونقول: الأنبياء أفضل، إنّما يتمنّون حالهم لشدّة الجمع بينهم وبين أممهم لشأن التبليغ، ثمَّ رأيته والحمد لله تعالى لغيري، وقال عيسى

١- رواه **أبو داود** في كتاب البيوع، رقم ٣٠٦٠، من حديث عمر (م.ح). ورواه **الهندي** في الكنز، ج٩/ ص١٣، رقم٢٤٦٩٧. **والسيوطي** في الدر، ج٣/ ص٣٦٦، في حديث طويل وأوّله قوله ﷺ : «إنَّ لله تعالى عبادا ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيئون والشهداء بقربهم ومقعدهم من الله يوم القيامة...» من حديث أبي مالك الأشعري.

٢- أورده **السيوطي** في الدر، ج٣/ ص٣٣٥، من حديث سعيد بن جبير.

السَّلام: «أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، الذين رفضوا الدنيا ولم يغرَّهم ظاهرها، وهدموها وبنوا بها الآخرة».

«الذِينَ ءَامَنُواْ...» مبتدأ وخبره: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الاَخِرَةِ﴾ أو خبر ثان لـ«إنَّ»، أو خبر لمحذوف، كأنَّه قيل: من هم؟ فقال: هم الذين. قيل: أو منصوب على المدح، أو نعت لـ«أَوْلِيَاءَ»، وفيه الفصل بالخبر، وإذا لم يجعل «لَهُمُ الْبُشْرَى» خبرا فهو مستأنف، كأنه قيل: ماذا لهم؟ فقيل: «لَهُمُ الْبُشْرَى...». و«فِي الْحَيَاةِ» متعلّق بـ«الْبُشْرَى» أو بـ«لَهُم»، أو بمتعلّقه، أو حال من ضمير الاستقرار.

عن عبادة بن الصامت قال ﷺ: **«البشرى في الدنيا الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو ترى له»**[1] رواه الحاكم، قال ﷺ: **«ذهبت النبوءة وبقيت المبشِّرات»**[2]، وقال ﷺ: **«الرؤيا الصالحة التي يتبشَّر بها المؤمن جزء من ستّة وأربعين جزءًا من النبوءة»**[3] كما هو مشهور، وعن ابن عمر وأبي هريرة: **«جزء من سبعين جزءًا من النبوءة»**[4]. ولا يختص التبشير بها بمن في غاية درجات الولاية، بل بالسعيد مطلقا، ويجوز أن يراها أو ترى له، ولو في حال المعصية، لأنّه يختم له بالسعادة، فلا تَهِم.

١- رواه **الحاكم** في مستدركه في كتاب التفسير (١٠) تفسير سورة يونس، ج٢/ ص٣٧٠. من حديث عبادة بن الصامت.

٢- رواه **ابن ماجة** في كتاب تعبير الرؤيا (١) باب الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له، رقم ٣٨٩٦. من حديث أم الكعبية. **وأحمد** في مسنده، ج٦/ ص٣٨١.

٣- رواه **الربيع** في مسنده، باب الرؤيا، رقم ٥١، مع اختلاف في اللفظ، من حديث أنس.

٤- رواه **ابن ماجة** في كتاب تعبير الرؤيا (١) باب الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له. رقم ٣٨٩٧، من حديث ابن عمر.

ويجوز أن تفسَّر بالرؤيا الصالحة وما يبشَّر به على لسان رسول الله ﷺ، وما يكون بالمكاشفة وما تبشِّره به الملائكة عند النزع، ويكون حديث عبادة تمثيلا لا حصرا.

وَيَدُلُّ على أنه تمثيل ما روى مسلم أنَّ أبا ذرٍّ رضي الله عنه قال: قيل لرسول الله ﷺ: أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه؟ قال: «**تلك عاجل بشرى المؤمن**»[1] فإنَّ هذا ليس حصرا أيضا، وذلك بلا قصد منه للثناء بل يشغل قلبه بالله فيفيض النور على ظاهره، وينادي الملك للملائكة: «إنَّ الله أحبَّ فلانا فأحبُّوه»، ويوضع له القبول في الأرض والبشرى في الآخرة بعد الموت ويوم القيامة، وقوله تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَآئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُواْ وَلاَ تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (سورة فصِّلت: ٢٩) قيل: عند الموت، وقيل: بعده، قال الله عز وجل: ﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ﴾ (سورة الحديد: ١٢).

﴿**لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ**﴾ لوعده ولا لوعيده، ولا لشيء مِمَّا قضى، وهذا لعمومه وكونه برهانا على عدم خلفه البشرى أولى من التفسير بخصوص عدم خلفها. ﴿**ذَالِكَ**﴾ إشارة إلى البشرى، وإنَّما ذكِّر بتأويل التبشير، أو إشارة إلى ثبوتها إذ قال: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ﴾. ﴿**هُوَ الْفَوْزُ**﴾ أي المفوز به ﴿**الْعَظِيمُ**﴾ فتسلَّ بذلك عن إيذائهم وأيقن كما قال:

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ

١- رواه **مسلم** في كتاب البرِّ والصلة والآداب (٥١) باب: إذا أثني على الصالح فهي بشرى ولا تضرُّه، رقم ١٦٦ (٢٦٤٢) من حديث ابن عمر.

﴿إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۝٦٦ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ۝٦٧﴾

العزَّة والملك لله تعالى

﴿**وَلاَ يُحْزِنكَ قَوْلُهُم**﴾ لست مرسلا ولا نبيئا وأنَّك مجنون أو شاعر أو ساحر، أو ما تأتي به أساطير الأَوَّلِينَ، أو يعلِّمك بشر؛ وفي هذا تهديد لهم.

﴿**إِنَّ الْعِزَّةَ للهِ جَمِيعًا**﴾ لا شيء منها لغيره، فهو ينصرك عليهم ولا تنفعهم قوَّتهم بالمال والكثرة، وهو تعليل جمليٌّ لقوله: ﴿لاَ يُحْزِنكَ﴾ كأنَّه قيل: لأنَّ العزَّة لله جميعا، كما قرأ أبو حيوة بفتح الهمزة، وهذا أولى من أن يكون استئنافا بيانيًّا، كأنه قيل: لم لا يحزنه؟ فقال: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ للهِ جَمِيعًا﴾، لأنَّ الأوَّل هو المتبادر، ولأنَّ «يُحْزِنكَ» نهي لا إخبار، والاستئناف البيانيُّ إنَّما يحسن بعد الإخبار، وَأَمَّا بعد الطلب فيحتاج لتأويل، كَأَنَّهُ قيل: لِمَ نُهِيَ عن الحزن المتأثِّر بإحزانهم؟ فقال: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ...﴾ وهي على ظاهرها يعطيكها الله، أو بمعنى القُوَّة.

وقد يقال ـ على بعدٍ ـ إنَّ الجملة محكيَّة بالقول على فرض أنَّ المشركين يقولون: العزَّة لله، بلسانهم واعتقادهم، لأنَّها أمر واضح لا محيد عنه، والحزن يتصوَّر منه ﷺ لمخالفتهم مضمون ذلك، وكذلك يبعد أن يكون بدلا من القول، كأنَّه قيل: لا يحزنك أنَّ العزَّة لله بفتح الهمزة على حدِّ ﴿وَلاَ تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ﴾ (سورة القصص: ٨٦) ﴿وَلاَ تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا ـ اخَرَ﴾ (سورة القصص: ٨٨) إلهابا وتهييجا.

واللفظ نهيٌ للقول أن يحزنه، والمراد النهي عن التأثُّر به، وذلك أنَّه السبب. و«جَمِيعًا» حال من الضمير في الخبر، ولم يؤنَّث لأنَّ "فعيلا" من صيغ المصدر،

وهو يصلح بلفظ واحد لِكُلٍّ ما أريد به، ولو كان هنا وصفا أو توكيدا، أي إنَّ العزَّة جميعها لله، وما تقدَّم أولى.

﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ العليم بالأصوات ﴿الْعَلِيمُ﴾ بالأفعال والاعتقادات وكلِّ شيء، فهو يعاقبهم على أفعالهم، وأقوالهم واعتقاداتهم كبيرها وصغيرها، ويجازيكم خيرا كذلك وينصركم، وصغائرهم كبائر لأنَّهم أصرُّوا عليها، وبالإشراك ﴿أَلاَ إِنَّ لِلهِ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الاَرْضِ﴾ من العقلاء الملائكة والإنس والجنِّ بعبوديَّتهم له، وملكه لهم، وخلقه لهم، أو أراد بـ«مَنْ» العقلاءَ وغيرَهم، فإذا كان العقلاء خدما له وملكا لا أهليَّة لهم لألوهيَّة، فكيف تتأهَّل الجمادات لها، كما قال: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ﴾ بالعبادة ﴿الذِينَ يَدْعُونَ﴾ يعبدون أصناما ﴿مِن دُونِ اِللهِ شُرَكَآءَ﴾ إنَّما اتَّبعوا أشياء غير شريكة لله، وتوهَّموا أنَّها شركاء له سبحانه.

(نحو) و«شُرَكَاءَ» مفعول به لـ«يَتَّبِعُ»، و«مِن دُونِ اِللهِ» نعت للمفعول به المقدَّر لـ«يَدْعُونَ» كما رأيت، أو «شُرَكَاءَ» مفعول لـ«يَدْعُونَ» ومفعول «يَتَّبِعُ» محذوف، أي ما يتَّبع الذين يدعون من دون الله شركاء بالحقيقة، ولو سمَّوها شركاء لجهلهم ما يتَّبع يقينا، كما يدلُّ له قوله: ﴿اِنْ يَّتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ﴾ وعليه فـ«مِن دُونِ اِللهِ» حال من «شُرَكَاءَ»، و«مَا» نافية في ذلك كلِّه، ويجوز أن تكون استفهاميَّة مفعول له لـ«يَتَّبِعُ»، إنكار للياقة، و«شُرَكَاءُ» مفعول «يَدْعُونَ»، و«مِن دُونِ اِللهِ» حال من «شُرَكَاءَ»، أو موصولا اسميًّا معطوف على «مَنْ»، والرابط محذوف، أي يتَّبعه، و«الذِينَ» على كلٍّ حال واقع على المشركين، ولا حاجة إلى جعل «مَا» موصولا مبتدأ خبره محذوف تقديره: باطل.

والمراد بقوله: ﴿إِلاَّ الظَّنَّ﴾ ظنُّهم أنَّ الأصنام آلهة تشفع لهم، ويجوز أن يفسَّر ﴿شُرَكَآءَ﴾ بالأصنام، والملائكة، وعيسى، وعزير، والنجوم، والقَمَرَيْنِ، والضوء، والنار، والبقر، وكلِّ ما عبد من دون الله، فالظنُّ هو ظنُّهم أنَّها آلهة تشفع.

ويجوز أن لا يقدَّر للظنِّ مفعولان على أن يكون مِمَّا لم يتعلَّق الغرض في كلامهم بمفعوله، كأنَّه قيل: إن يتَّبعون إلاَّ خلاف اليقين، ولا سيما أنَّ عمل المصدر المقرون بـ«الـ» ضعيف قليل في غير الظروف، [قلت:] بل هذا أولى بتخريج الآية. ﴿وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ يكذبون، وأصله الكذب بتحزير، ويجوز إبقاؤه على هذا الأصل، والخرص أيضا: التحزير بلا تلفُّظ، كخرص النخل، فيكون المعنى: يقدِّرون في أنفسهم أنَّها آلهة، ولو تلفَّظوا بعدُ، كما يطلق الكذب على الفعل أيضا بلا تلفُّظ، ويقال: الخرص مشترك بين الكذب والحزر.

﴿هُوَ الذِي جَعَلَ﴾ خلق ﴿لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ عن الحركة فتبقى قواكم، ويرجع ما ذهب منها بالحركة، لأنَّ الإنسان مغرى بالعاجل، فقد لا يبقي على نفسه ما دام يجد عملا فيبطل [حركة] جسده. ويجوز كون «جَعَلَ» بمعنى صيَّر، أي جعل لكم الليل سكنا لتسكنوا فيه، وهو أنسب بقوله: ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ بمفعولين، فيكون مفعولان قبله ثانيهما «سكنا» كما رأيت، أي وقت سكون، أو وقتا يمال إليه، وعلى معنى خَلَقَ يكون «مُبْصِرًا» حالا من «النَّهَارَ».

(بلاغة) وإسناد الإبصار إلى النهار مجاز عقليٌّ ووجه أنَّه زمان البصر، ويجوز أن تكون الآية من باب شبه الاحتباك، وهو أن يحذف من كُلٍّ من الموضعين مقابل ما ثبت في الآخر، والمعنى: جعل لكم الليل

مظلما لتسكنوا فيه، والنهار مبصرا لتتحرَّكوا في مكاسبكم، كما قال في القصص: ﴿لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ﴾ (سورة القصص: ٧٣) ثمَّ إنَّ المناسب لقوله: ﴿لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ أن يقال: لتبصروا فيه، بإسناد الإبصار إلى النهار، بمعنى تصييره غيره بصيرا، أو بمعنى: ينظر، وكلاهما مجاز عقليٌّ، وعلّة ذلك التفرقة بالنصِّ على معنى ظرفيَّة ما هو مجرَّد فقال فيه، وعلى معنى ظرفيَّة ما ليس ظرفيَّته مجرَّدة بل بتوسُّط السبب وهو الضياء، ولا شكَّ ولا خفاء أنَّ الرؤية بخلق الله، ولم يذكر مقابل الإبصار لأنَّ الضياء نعمة بذاته مقصودة ولا كذلك الظلمة.

﴿إِنَّ فِي ذَالِكَ﴾ الجعل أو ما ذكر من الليل والنهار، أو ذلك كلُّه ﴿لَآيَاتٍ﴾ دلائل الوحدة، أو آيات أخر متلوَّة في ذلك الشأن غير ما ذكر ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ يتدبَّرون ويعتبرون، فيفهمون أنَّ خالق هذه الأشياء كلّها مختصٌّ بالوحدانية وَالأُلُوهِيَّة. والآية كالدليل لقوله: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ...﴾ فإنَّ ما قبل هذه الآية يدلُّ على الوَحدَانِيَّة بأنَّ أشرف معبوديهم هو عبد له تعالى، فلا يصلح للربوبيَّة فضلا عن غيره، وهذه بأنَّ له قدرة كاملة على تغييب الليل والنهار، **ولا يصلح للربوبيَّة من لا يقدر على ذلك ولا على أدنى شيء**، ولو كانت تصحُّ عبادة غير الله تعالى لكانت الأصنام المنحوتة أحقَّ بأن تعبد ناحتها لو عقلت، لأنَّه نحتها. والمراد: يسمعون المتلوَّة ونظائرها المنبِّهة على الآيات التكوينيَّة.

﴿قَالُواْ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ

بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

نفي اتخاذ الولد عن الله

ويدلُّ على إرادة غير الأصنام معها فيما تقدَّم قوله تعالى: ﴿قَالُواْ﴾ أي اليهود والنصارى ومن زعم أنَّ الملائكة بنات ا لله، وهم قوم من العرب وطائفة من النصارى ﴿اتَّخَذَ ا للهُ وَلَدًا﴾ من زوج تزوَّجها، ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ, وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ﴾ (سورة الأنعام: ١٠٢).

[قلت:] فليس كما زعم من زعم أنَّ المراد أنَّه اتَّخذَ ابن غيره ابنا له، كما يتبنَّى الإنسان ابن غيره، وأيضا لو كان المراد هذا كما يسمَّى الولد ابنا لعظيم غير أبيه تشريفا له ومحبوبا لديه، وكما سُمِّيَ إبراهيم خليلا لم يكن التغليظ الوارد، ولو كان ينهى عنه أيضا للإيهام بحقيقة الولد ولإيهام الحاجة، ولو كان الاتِّخاذ أنسب بالتبنِّي لكن تفسَّر الآية بتحصيل الولد، وقد يكون ذلك كلُّه واردا عن الكفرة، يقال: ولد، ويقال: لم يلد ولكن اتَّخذ ولدا، وقد قيل: إنَّ ا لله يدعى أباً لعيسى بمعنى مشرَّف عند ا لله، وشاع حتى توهَّم الناس أنَّه أبوه حقيقة.

﴿سُبْحَانَهُ,﴾ نزِّهوا أَيُّهَا الناس ا لله عن الولد، فإنَّ الولادة من صفات الجسم، ومن صفات المحتاج، وتعجَّبوا أَيُّهَا العقلاء المستعملين لعقولهم. والصحيح أنَّه لا يلزم أن يكون في «سبحان» معنى التعجُّب أو التعجيب، بل يجوز استعماله لمجرَّد التنزيه ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عمَّا سواه، وإنَّما يتَّخذ الولد من يحتاج إليه فكيف يتَّخذه.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الاَرْضِ﴾ وكلُّ ما سواه فكيف يحتاج ؟

وكيف لا يكون غنيًّا ؟ بل ما خلق سواه للحاجة بل للدلالة، ولو كان للحاجة لم يزل محتاجا إلى غير ما وجد فما يزال يخلق للحاجة، **تعالى عن ذلك**، والبنوَّة تنافي الملك. ﴿**إنْ**﴾ أي ما ﴿**عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ**﴾ فاعل «عِندَ»، أو فاعل لثابت مغنٍ عن الخبر، أو مبتدأ لـ«عِندَ»، والسلطان: الحجَّة ﴿**بِهَـذَآ**﴾ أي على هذا، متعلّق بـ«سُلْطَانٍ»، أو نعت أو حال من ضمير الاستقرار، أو بمعنى في متعلّق بـ«عِندَ»، أو بالاستقرار أو بـ«سُلْطَانٍ».

(نحو) وزعم بعض أنَّه متعلّق بـ«سُلْطَانٍ»، وأنَّ الباء على ظاهرها، لأنَّ «سُلْطَان» يتضمَّن معنى الاحتجاج والاستدلال، وليس كذلك، فإنَّ قولهم بالولد ليس استدلالا بل يحتاج لدليل، ولا دليل له، بل الدليل نافٍ له. والإشارة إلى قولهم بالولد.

﴿**أَتَقُولُونَ عَلَى ا للهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ ما لا يثبت من اتِّخاذ الولد فضلا عن أن تعلموه، وذلك توبيخ، وكلُّ ما لا دليل عليه لا يثبت وهو جهل، والاعتقاد لا بدَّ فيه من قاطع.

﴿**قُلِ اِنَّ الذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ا للهِ الْكَذِبَ**﴾ باتِّخاذ الولد وثبوت الشركة ﴿**لاَ يُفْلِحُونَ**﴾ لا يفوزون بالجنَّة ولا ينجون من النار والمكروه ﴿**مَتَاعٌ**﴾ قليل، حالهم في الدنيا متاع، أي تمتُّع قليل، أو لهم متاع قليل، والمعنى على هذا: لهم ما يتمتَّعون به، أو لهم تمتُّع، أو حياتهم أو تقلُّبهم متاع، أو افتراؤهم متاع، أي تمتُّع، وذلك لأنَّ لهم لذَّة في الافتراء، والمراد أنَّ هذا المتاع ليس من جنس الفلاح أو ما يفلح به لأنَّه حقير، كما دلَّ عليه التنكير ولأنَّه قليل، لأنه متكدِّر سريع الزوال، لأنَّه من الدنيا كما قال: ﴿**فِي الدُّنْيَا**﴾ يتمتَّعون به في حياتهم، أو ثابت في الدنيا، وينقطع ولا يتِّصلون به بعدها، بل يعاقب عليه إذ لم يشكروه وعلى سائر معاصيهم كما قال:

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ بالموت والبعث ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ﴾ في القبر والموقف وفي النار ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾ بالقرآن وسائر الوحي، وبالنبيء ﷺ، وبوحدانيَّة الله ﷻ، و«ثُمَّ» الأولى للترتيب الذكري بلا تراخ، كأنَّه قيل: أذكر لكم بعد ذلك «إنَّ إلينا مرجعهم»، أي رجوعكم، والآية تقرير لقوله: ﴿لاَ يُفْلِحُونَ﴾.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ اِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِے وَتَذْكِيرِے بِـَٔايَٰتِ اِ۬للَّهِ فَعَلَى اَ۬للَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ اَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اَقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنَ اَجْرٍ اِنَ اَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اَ۬للَّهِ وَأُمِرْتُ أَنَ اَكُونَ مِنَ اَ۬لْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِے اِ۬لْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا اَ۬لذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ اُ۬لْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾

قِصَّة نوح عليه السلام مع قومه

﴿وَاتْلُ﴾ يا مُحَمَّد ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على قومك أهل مَكَّة، أو المشركين مطلقا ﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾ خبره ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ قيل هم من بني قابيل. و«إِذْ» بدل اشتمال من «نَبَأ»، ولا يتعلَّق بقوله: ﴿نَبَأَ﴾ لأنَّ وقت القول لم يكن حال الإخبار، ويجوز تعليقه بنعت مقدَّر هكذا: نبأ نوح الواقع إذ قال، وفي الآية حذف مضاف، أي بعض نَبَئِه؛ أو الإضافة للجنس الصادق بالبعض، لأنَّه لم يذكره كلَّه بل بعضه وهو قوله: ﴿يَاقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي﴾ أي قيامي، أي لَبْثِي فيكم بالدعوة، كقولك: قام بكذا؛ أو اسم مصدر، أي إقامتي بالدعوة فيكم مدَّة طويلة إن قال ذلك بعد طول مَّا، فكيف إن قاله في وسط

عمره أو آخره؟ أو كناية عن نفسي، أي عن ذاتي كما يقال: سلام على مقام فلان، وعظّم الله حضرة فلان، يراد فلان على أنّه اسم مكان، أو مصدر تصرّف فيه.

أو من القيام ضدّ القعود على أنّه يعظهم قائما كما كان رسول ﷺ يعظ على المنبر قائما، وعيسى عليه السلام يعظ الحواريّين قائما، وذلك ليعمَّ الاستماع، أو مقام هو من زيادة الأسماء، أي إن كان كَبُرَتْ عليكم، واسم كان ضمير الشأن، أو تنازع «كَانَ» و«كَبُرَ» في «مَقَامِي».

﴿وَتَذْكِيرِي﴾ لكم ﴿بِئَايَاتِ اللهِ﴾ الجواب محذوف تقديره: لم أبال باستثقالكم، أو فافعلوا ما شئتم، وناب عنه علّته وهو قوله: ﴿فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ﴾ والمعنى لأنّي على الله توكّلت؛ أو الجملة هي الجواب عبارة عن عدم مبالاته؛ أو عبارة عن استمرار توكُّله على الله تعالى؛ أو إحداث مرتبة مخصوصة في التوكُّل؛ أو الجواب: «فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ».

(نحو) وقدِّم الظرف للحصر وللاهتمام، وكانت الفاء مع أنَّ الجواب يصلح شرطا للفصل بمتعلّقه وكأنّه جملة اِسمِيَّة، وقيل: لا يجوز الفصل بين أداة الشرط وفعله إلاَّ قليلا خلاف القياس، نحو: إنْ زيدا أكرمت، وإن بزيد مررت، فحينئذٍ يقال قرن بالفاء لأنّه لا يصلح أن يكون شرطا. ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ﴾ أتقنوا كيدكم، عطف إنشاء على إخبار ﴿وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ مفعول لمحذوف تقديره: واجمَعوا بوصل الهمزة وفتح الميم، لأنَّ أجمع بالهمزة في المعاني، وجمع في الأجسام؛ أو يقدَّر: وادعوا شركاءكم؛ أو منصوب على المعيَّة؛ أو يقدَّر مضاف، أي وأمر شركاء، فيكون المعمول من المعاني، فيصحُّ عمل «أجمع» بالهمزة فيه بواسطة العطف، وقيل: أجمع وجمع بمعنًى، فيكون «أَمْرَكُمْ» مفعولا به له، وقيل: المراد بشركاء من على دينهم، والمشهور أنّهم الأصنام.

﴿ثُمَّ﴾ لتراخي الرتبة ﴿لاَ يَكُنَ اَمْرُكُمْ﴾ أظهر في مقام الإضمار لزيادة التقرير، وقيل: المراد به أمر آخر وهو ما يعتريهم منه من الشدَّة، فيكون الغمَّة بمعنى الكرب ﴿عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ نهى الأمر أن يكون غمَّة عليهم، والمراد نهيهم عن أن يغتمُّوا به، ولكن وجَّه النهي إلى الأمر مبالغة، فإنَّه كناية عن نهيهم عن جعل أمرهم غمَّة عليهم؛ أو المعنى لا تجعلوا أمركم في قصد غمَّة، أي مستورا بل أظهروه؛ أو لا تجعلوه حزنا وهمًّا وإن قتلتموني استرحت.

﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ﴾ والمفعول محذوف، أي انفذوا فيَّ ما أردتم، استعارة مكنيَّة، إذ شبَّه الهلاك بالدين والقضاء تخييل، وعدِّي بـ«إِلَى» لتضمينه معنى أدُّوا أو أبلغوا؛ أو اقضوا بمعنى أحكموا، فهو تضمين واستعارة مكنيَّة. ﴿وَلاَ تُنظِرُونِ﴾ لا تمهلوني، فإنِّي لا أبالي بكم ولو تقتلونني، فإنِّي متوكِّل على الله ﷻ ولا أترك ديني.

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أعرضتم عن تذكيري، وهذا الإعراض حادث بعد التذكير، وهو غير السابق فلا تكرار، ولو فرضنا اتِّحادهما لقيل: المراد بقوا على الإعراض، والجواب محذوف تقديره: فلا ضَيْر؛ أو فلا باعث يدعوكم إلى التولِّي، ونابت عنه علته وهو قوله: ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم﴾ عليه ﴿مِّنَ اَجْرٍ﴾ لأنِّي ما سألتكم عليه أجرا يفوتني لتولِّيكم؛ أو يوجب توليتكم لأحد أمرين: لثقله عليكم أو لكونه سببا لاتِّهامكم بأن تقولوا إنَّما يعظنا طمعا في الأجر من أموالنا.

﴿إِنَ اَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ﴾ دنيا وأخرى على تبليغي إيَّاكُم لا تعلُّق له بقبولكم، ولا إعراضكم؛ أو الجواب: ما سألتكم، بمعنى عدم المبالاة ﴿وَأُمِرْتُ أَنَ اَكُونَ﴾ بأن أكون ﴿مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ من الموحِّدين المطيعين في عدم أخذ الأجرة على الدين؛ أو المستسلمين لأمره ونهيه لا أخاف ولا أرجو غيره؛ أو المستسلمين لِمَا يصيبني من البلاء عن ديني، منكم أو من غيركم.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي كذّبه قومه الذين كان يُخاطبهم، والمراد: التكذيب بعد هذا الخطاب المخصوص فلا تكرير، وإلاّ فالمراد الزيادة في التكذيب أو البقاء عليه ﴿فَنَجَّيْنَاهُ﴾ الفاء تعليل، لكن محطه قوله: ﴿وَأَغْرَقْنَا﴾ أو تعليل منظور إلى المجموع؛ أو تعليل لقوله لقومه ما ذكر كلّه من قوله: ﴿فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ﴾ باعتبار التنجية ولقوله: ﴿كَذَّبُوهُ﴾ باعتبار الإغراق.

والمراد: نجّيناه من الغرق، وهو أولى من أن يقال: فنجّيناه من إيذاء الكفرة، لقوله: ﴿وَأَغْرَقْنَا﴾ ولقوله: ﴿وَمَن مَّعَهُ﴾؛ أو يقدَّر: فحقّت عليهم كلمة العذاب فنجّيناه؛ أو فعاملنا كُلاًّ بما يقتضيه فأنجيناه. ﴿وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾ متعلّق بـ«نَجَّيْنَاهُ»؛ أو بـ«مَعَ»، لأنّه عامل معنويٌّ، لأنّه في معنى ثابت أو ثبت؛ أو حال من هاء «نَجَّيْنَاهُ وَمَنْ»؛ أو من الضمير في «مَعَ»، وهم أربعون رجلا وأربعون امرأة، وقيل: تسعة وسبعون وقيل: سبعة.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾ أي نوحا ومن معه في السفينة، وردَّه بعض إلى «مَن مَّعَهُ»، وفي الهاء مع الميم مراعاة معنى «مَن» ﴿خَلاَئِفَ﴾ من الهالكين بالغرق.

﴿وَأَغْرَقْنَا﴾ بالطوفان ﴿الذِينَ كَذَّبُواْ بِئَايَاتِنَا﴾ هي كلُّ معجزة نوح؛ أو الآيات: الطوفان، كان عليه السلام في أواخر أمره يعدهم به.

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ هي إهلاكهم، انظر كيف كان عاقبة قوم نوح لَمَّا أُنذِروا و لم يصدِّقوا بالإنذار، فكذلك قومك قد أُنذِروا بأشدَّ مِمَّا أنذر به قوم نوح وأظهر، فَهُمْ أحقّاء بالهلاك، ولتعليق الأمر بالإنذار والتكذيب لم يقل: أغرقناهم وكيف كان عاقبتهم.

وقدَّم التنجية على الاستخلاف والإغراق لكمال العناية بها، ولتعجيل المسرَّة للنبيء ﷺ إذ له ما لنوح وعلى قومه ما على قومه نوح من مطلق

الإهلاك، وللإيذان بأصالة الرحمة وكونها أنسب بِالرُّبُوبِيَّةِ، وأمَّا الإهلاك فهم استلحقُوه بذنوبهم.

[قلت:] وإنّما علقت ذلك إليه ﷺ لا إلى نوح لأنَّ الآية نزلت عليه، وأمّا نوح عليه السلام فلا ندري أنزل عليه مضمون ذلك كلّه؟ وإن نزل فلسنا ندري أكان على هذا الترتيب الذي في الآية أو على ترتيب آخر؟. وفي الآية تسلية لرسول الله ﷺ وتهديد لهم.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾

عادة الأمم في تكذيب الأنبياء وقصّة موسى مع فرعون

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ أرسلنا ﴿مِنۢ بَعْدِهِ﴾ بعد نوح ﴿رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ كلَّ رسول إلى قومه، والمراد: الرسل الذين قبل موسى لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا...﴾. وإضافة القوم للحقيقة، فيصدق بأقوام كقوم هود وقوم صالح وقوم إبراهيم وقوم لوط، والمراد بالرسل ما يشمل الأنبياء بلا رسالة، من إطلاق الخاصِّ وإرادة العامِّ.

﴿فَجَآءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ المعجزات الواضحة في نفسها وفي دلالتها على

وضوح الرسالة والنبوءة. والمشهور في نوح رسالته إلى أهل الأرض كلّها وقيل: لبعضها وهم أهل دعوته، ورجَّحه بعض، واختار أهل الصين أنَّ الصين لم يغرق وأنَّ الغرق لم يعمَّ الأرض، وقيل: عمَّ من لم يرسل إليه لأنَّه تعالى له أن يفعل ما شاء، والصحيح الأوَّل.

إلاَّ أنَّه روي أنه بعد نزوله من السفينة سار في الأرض فوجد قوما لم يغرقوا فقال لهم: ما شأنكم؟ فقالوا إنَّا مسلمون، وما قلت في دعائك؟ قال: قلت: ﴿رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الاَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ (سورة نوح: ٢٦) فقالوا نحن لسنا كافرين، ولا يخفى أنَّه نبيء الكلِّ بعد الغرق ضرورة، فقيل: إجماعا، قلت: لا ضرورة ولا إجماع لذلك القوم الذين لم يغرقوا، فإنَّ الظاهر أنَّهم على الحقِّ بدون نوح. وعند قومنا المشهور اختصاص نبيئنا ﷺ بالبعث إلى الخلق كلّهم على الإطلاق بلا قيد، وقد يقال: إنَّه بعث إلى الأنبياء قبله.

(نحو) الباء للمصاحبة أو للتعدية، وكأنَّه قيل: أجاءوهم البيِّنات؟ والهاء مفعول ثان مقدَّم، أي صيَّر البيِّنات جاءيتهم. ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُومِنُواْ بِمَا﴾ اسم موصول، والرابط هاء «بِهِ»؛ أو حرف موصول والهاء للحقِّ، ﴿كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ﴾ قبل بعث الرسل إليهم لشدَّة شكيمتهم، شدَّة تختصُّ بالشقي، والباء الأولى للسببيَّة، والمعنى بسبب تعوُّدهم تكذيب الحقِّ، وهي متعلّقة بما النافية، لأنَّ المعنى: انتفى الإيمان بسبب تكذيبهم الحقَّ من قبل بعثة الرسل إليهم، وقيل: واو «كَذَّبُوا» لقوم نوح.

﴿كَذَالِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ مثل ما ذكر من انتفاء إيمانهم نطبع على قلوب المعتدين، أي نختم عليها، وإن شئت فقل: مثل ذلك الطبع نطبع على قلوبهم فلا تقبل الإيمان، لأنَّ القضاء بعدم الإيمان طبع.

ويجوز أن يراد بالمعتدين مَن ذكر قبلُ، فشأنه الإضمار، وأظهر ليصفهم

بالاعتداء المشعر بالانهماك في الضلال واتّباع المألوف.

(أصول الدين) وفي الآية أنَّ الأفعال بقدرة الله وكسب العبد وهي مخلوقة لله ﷻ، وليس تفسيرنا الطبع بالخذلان منافيا لقولنا: إنَّ الأفعال مخلوقة لله ﷻ.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم﴾ بعد هؤلاء الرسل أو بعد هؤلاء الأقوام ﴿مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ﴾ تخصيص بعد تعميم، والملأ: القوم مطلقا، أو الأشراف الذين يملأون العيون مهابة للباسهم وأجسامهم، وأَمَّا غيرهم فَتَبَعٌ. ﴿بِئَايَاتِنَا﴾ التسع: العصا واليد والطوفان والجراد والقمَّل والضفادع والدم والطمس وفلق البحر، متعلّق بـ«بعث»، أو بحال محذوف صاحبه موسى وهارون، أي ملتبسَيْن بآياتنا.

﴿فَاسْتَكْبَرُواْ﴾ عن الإيمان بها لشرفهم، فكفر غيرهم بها تقليدا لهم، ويجوز أن يقال: استكبروا عنهما أي عن موسى وهارون؛ أو استكبروا عنهم، أي عن الآيات وموسى وهارون، وذلك أوّل الأمر إذ قال: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا...﴾ (سورة الشعراء: ١٧) ﴿وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ عادتهم الإجرام فاجترأوا على الكفر بذلك، فإنَّ الذنب يجرُّ إلى الآخر الذي أعظم منه أو دونه أو مساويه.

والواو للحال بتقدير «قد» وبدونه؛ أو للعطف، ولها نصيب في التفريع لعطفها على مدخول الفاء المتفرِّع على محذوف، أي فانبعثا فأدّيا الرسالة إليهم فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ الآيات التسع، وذكرها بالحقِّ في موضع

الضمير تفخيما لها، حتَّى إنَّهُ إذا ذكر لفظ الحقِّ صرف إليها؛ أو الحقُّ: دين الله، أو اليد والعصا، لأنَّ نزاعهم وقع في اليد والعصا.

ولا يصحُّ ما قيل: إنَّ التقدير: ﴿قَالَ مُوسَىٰ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ...﴾ إلى قوله: ﴿...فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ...﴾ إلى: ﴿...لِلنَّاظِرِينَ﴾ (سورة الأعراف: ١٠٥-١٠٨) ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ الْحَقُّ﴾ لأنَّ مجيء الحقِّ هو مضمون «قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ»، فلا يقدَّر «لَمَّا جَآءَهُمُ الْحَقُّ» معطوفا عليه، ونسبة المجيء إلى الحقِّ استعارة، ويضعف تفسير الحقِّ بدين الله بأنه لا يتمُّ معه الجواب لـ«لَمَّا» بقوله: ﴿قَالُواْ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر في نفسه أو متميِّز عن غيره فائق له، مِن أبان اللازم؛ أو مظهر للباطل حقًّا، من أبان المتعدِّي. وأفادت الفاء أنَّ تجاسرهم على قولهم هذا مسبَّب عن اعتيادهم الإجرام.

(بلاغة) ومعنى «جَآءَ»: حصل تجوُّزا، للإشعار بأنَّ المقدَّرات متوجِّهة من الأزل أو اللوح المحفوظ إلى أوقاتها شيئا فشيئا، فشبَّه التقرُّب شيئا فشيئا بالمجيء شيئا فشيئا، وشبَّه الحقَّ بالشخص المنتقل بالمجيء من الله، ورمز إلى ذلك التشبيه بما يلائم الإنسان وهو المجيء.

أكَّدوا بطلان ما هو حقٌّ أكيد ثابت بالحسِّ؛ أو بالمعجزات التي لا تخفى عنهم إلاَّ جحودا، ويجوز تقدير المعرفة هكذا: فلمَّا جاءهم الحقُّ من عندنا وعرفوه حقًّا، لأنَّه قد يجيء فلا يعرف وقد يجيء فيعرف، والمعنى: جاءهم الحقُّ واضحا كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ (سورة النمل: ١٤) وكأنَّه قيل: فما قال لهم موسى ؟ فقال الله ﷻ :

﴿قَالَ مُوسَىٰ﴾ لهم ﴿أَتَقُولُونَ﴾ توبيخ وإنكار للياقة هذا القول ﴿لِلْحَقِّ﴾ في شأن الحقِّ ﴿لَمَّا جَآءَكُمْ﴾ ومفعول «تَقُولُ» محذوف تقديره: أتقولون إنَّه لسحر، فقال موسى أو الله لهم: ﴿أَسِحْرٌ هَذَا﴾ استفهام إنكار،

وقوله: ﴿وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ حال، وهو من جملة مقول هذا القول المقدَّر، ونحن قد أفلحنا فليس سحرا.

ولا يجوز أن يكون قوله: ﴿أسِحْرٌ﴾ مفعولا به للقول، لأنّهم جزموا بأنه سحر، ولم يتوقّفوا عن الجزم، كما قال الله ﷻ: ﴿قَالُواْ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ﴾ اللهمَّ إلاَّ أن يكون الاستفهام للتقرير والتحقيق، أي أقرَّ يا موسى بأنّه سحر وبأنّه لا يفلح الساحر.

(نحو) وأجيز أن يكون القول بمعنى العيب، يقال فلان يخاف القول أي العيب، وفيه أنَّ عاب متعدٍّ فأين مفعوله؟ فلا يصحُّ أن يقال: إنه لَمَّا كان بمعنى العيب لم يكن له مفعول، وإن قيل: لم يتعلّق المعنى بالمفعول فلم ذكر قوله: ﴿لِلْحَقِّ﴾؟ وإن قيل: الحقُّ مفعول فلم زيدت لام التقوية في المفعول مع أنه لم يتقدَّم ولم يضعف العامل بكونه مصدرا أو وصفا؟ وقد يقال: للبيان كما يقال: أعني لزيد، كأنّه قيل: ذلك للحقِّ.

﴿قَالُواْ أَجِئْتَنَا﴾ بما يقول من وجود الله وتوحيده؛ أو من توحيده؛ وذلك رجوع إلى التقليد بعد إفحامهم، وانتفاء جواب حقٍّ يقابلون به موسى عليه السلام. ﴿لِتَلْفِتَنَا﴾ لتصرفنا.

(لغة) والالتفات مطاوعة، يقال: لفته فالتفت كصرفه فانصرف، ومنه قولنا: التفت عن الخطاب إلى الغيبة مثلا، والتفت في صلاته أي لفته نفسه من الخطاب فالتفت، أو لفته الشيطان في الصلاة فالتفت، وقد يتجاوز به إلى قولك: انتقل من الخطاب.

﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ من عبادة الأصنام ومن عبادة فرعون فيمن

وجد آباءه يعبدونه، فإنّهم ولو لم يعبدوه عبادة الأصنام لكن انقادوا لأحكامه المخالفة للحقّ، فذلك عبادة.

لَمَّا نزل قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُم...﴾ (سورة التوبة: ٣١) قال عديٌّ بن حاتم رضي الله عنه: يا رسول الله، ما كُنَّا نعبدهم، فقال: «**أليس تقولون يحلُّون لكم ويحرِّمون؟**» قال: نعم، قال: «**ذلك عبادة**».

﴿**وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَآءُ فِي الأَرْضِ**﴾ التكبُّر على الناس والتعظيم عليهم واستتباعهم؛ أو العظمة بالسلطنة التي تطلبانها، وهي أكبر ما يطلب من أمر الدنيا. والأرض عَامَّة، أو أرض مصر. أفردوا موسى عليه السلام قبل هذا لأنّه المخاطِب لهم، وأنّه الأصل في الرسالة، ولأنّه المقصود بالإغاظة، وجمعه مع هارون هنا لأنَّ الكبرياء التي ادَّعوها هي له ولأخيه، وهي الغاية المطلوبة ومنتهى الأمر.

ويجوز أن يراد بالكبرياء سببها وملزومها، وفائدة هذا المجاز الإشارة إلى أنَّ المقصود بالملك الترفُّع على العباد والتبسُّط في البلاد. والكبرياء: التكبُّر، و«فِي الأَرْضِ» متعلّق به أو بـ«تَكُونَ»، أو باستقرار «لَكُمَا»، أوبـ«لَكُمَا» لنيابته عنه، أو بالمستتر في «لَكُمَا». وما تقدَّم تعريض بأنّهم لا يؤمنون، وصرَّحوا به في قوله تعالى عنهم:

﴿**وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُومِنِينَ**﴾ مصدِّقين لكما فيما جئتما به، وقدَّم «لَكُمَا» للاهتمام بالإعراض عنه، وللفاصلة، وثنّى في قوله: ﴿لَكُمَا﴾ مع أنّه أفرد في قوله: ﴿أَجِئْتَنَا﴾ لأنَّ دعوة موسى هي له ولأخيه هارون، وغايتها المقصودة أن يؤمنوا بهما.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ۝٧٩ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ۝٨٠ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٨١ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨٢﴾

إحضار فرعون السحرة لمقاومة دعوة موسى

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ أسند القول إليه دون الملإ لأنه مختصٌّ بالأمر ابتداء، بخلاف الاستكبار ونحوه، فإنّه فيهم وفيه، قيل: إلاّ أنّ الظاهر أنّه غير داخل في قوله ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾ لأنّه لعنه الله لا يظهر أنّه يعبد صنما أو غيره كما يظهر قومه، وذلك أنّه يدعو إلى عبادة نفسه، واعترض بقوله ﷻ عنه: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾ (سورة النازعات: ٢٤) وأجيب بأنّه ليس فيه أنّه هو يعبد ربًّا غير أعلى.

﴿ايتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ﴾ يمكن أن تأتوني به ﴿عَلِيمٍ﴾ حاذق في سحره، أرسل فرعون الشرط في طلب السحرة، وطلبوا وتفحَّصوا في البلاد ووجدوا حذّاق السحرة، وأكرهوا إلى المجيء على فرعون وقومه، فجاء السحرة، أو فأتوا بالسحرة، وحذف ذلك غنًى عنه بقوله ﷻ :

﴿فَلَمَّا جَآءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ﴾ بعد ما قال لهم ما قال وقالوا له ما قالوا كما بيّنه في آية أخرى ﴿أَلْقُوا مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ من الحبال والعصيِّ، لأنّه شاهدها وعلم أنّها للسحر، والإلقاء عبارة عن استعمالها وذلك بعدما قالوا ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنَ اَلْقَىٰ﴾ (سورة طه: ٦٤) .

والأمر للتهديد وللإذن في تقديم ما هم فاعلوه ولا بدَّ، توسُّلا به إلى إظهار

الحقِّ، وإلاَّ فالسحر لا يجوز الأمر به لأنَّه ذنب، وتقـدَّم كـلام في هـذا. والرابط محذوف، أي ما أنـتم إيـَّاهُ ملقـون، أو ملقـون لـه ـ بـلام التقويـة ـ أو ملقـوه ـ بالإضافة ـ لا ملقون إيَّاهُ ـ بضمير الفصل ـ لإمكان الاتـِّصَال.

﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ﴾ تلك الحبال والعصيَّ ﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ﴾ الذي جئتم به هو السحر لا غيره، فتعريف الطرفين للحصر الإضافيِّ، كأنَّه قيل: لا ما جئت به من الحقِّ، فإنَّه ليس سحرا ولو سَمَّاهُ فرعون سحرا.

و«الـ» للجنس لا للعهد، لأنَّ السحر المتقدِّم ما جاء به موسى، وهـذا مـا جاء به السحرة، اللهمَّ إلاَّ باعتبار مطلق السحر هكذا أو حقيقته، أو على طريـق الاستخدام بالظاهر كما يستخدم بالضمير.

ويجوز أن يكون «السِّحْرُ» بدلا من «مَا» والخبر هو قوله تعـالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ﴾. ويجوز أن تكون «مَا» استفهاميـَّة والخبر «جِئْتُم بِهِ»، و«السِّحْرُ» بدل من «مَا» الاستفهاميـَّة، فتقدَّر الهمزة فيه؛ أو خبر لمحذوف، أي هو السحر، والاستفهام تقرير أو توبيخ على فعـل المعصيـة. ومعنـى الإبطـال: إفسـاده أن لا يؤثِّر، أو إظهار للناس أنَّه لا ينفع، أو إفناؤه كما أنَّه أفناه بالعصا كقوله:

إذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمة

أي ظهر أنـِّي لم تلدني لئيمة.

﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ لا يثبته بل يردُّه عليهم بالعقـاب في الدنيا، أو في الآخرة، أو فيهما، وعمل المفسدين: عمل بفعل السحر وغـيره مـن المعاصي.

واختار التعبـير بالإفساد ليشير إلى أنَّ السحر إفساد وتمويـه بـاطل لا حقيقـة له، كما أنَّه ترى الحبال والعصا تسعى وهي غير ساعية، وبعض السحر لـه تأثـير

با لله تعالى وحقيقة كسحر اليهود للنبيء ﷺ حتَّى إنَّهُ يرى أنَّه فعل شيئا وهو لم يفعله ومرض به، والجملة تعليل لقوله: ﴿إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ﴾ والمراد بالمفسدين العموم كما رأيت؛ أو المخاطبون وعملهم؛ أو مطلق عملهم الشامل له ولغيره. وكذا المجرمون عامٌّ؛ أو هؤلاء.

﴿وَيُحِقُّ﴾ أي يثبت. والعطف على «سَيُبْطِلُ». ﴿اللهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ بأوامره التكوينيَّة وبحكمه بقوله: ﴿كُنْ﴾ حقيقةً بخلقه الكلام حيث شاء، أو استعارة تمثيلية أو بأوامره الشَّرعيَّة وأحكامه؛ أو بمواعده، قيل: أو بأموره وهي ذلك؛ وقال الحسن: بنصره الموعود به، وقيل: بما ينزله مبيِّنا لمعاني الآيات التي جاء بها نبيئه عليه السلام. ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ إثبات الحقِّ.

﴿فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمُۥٓ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾

إيمان طائفة من بني إسرائيل بدعوة موسى

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ﴾ انقاد له أوَّل أمره، كما تدلُّ له الفاء؛ لَمَّا أَلْقَوْا وألقى عَقَبَهُ إيمانُ قليلٍ كما قال: ﴿إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ﴾ شبَّان ﴿مِّن قَوْمِهِ﴾ من قوم موسى، على معنى أنَّ غالب ذرِّيَّة بني إسرائيل كفروا حين كانوا في حكم

فرعون دعاهم موسى فلم يجيبوه إلى الإسلام، وأجابه القليل منهم سرًّا كما قال: ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ﴾ أن يعاقبهم على الإيمان بموسى. و﴿عَلَىٰ خَوْفٍ﴾: بمعنى مع خوف، وهو متعلّق بمحذوفٍ، حالٌ.

وقيل الذرِّيَّة: الإسرائيليُّون الذين بمصر، أرسل إليهم موسى وقد كفروا بالقهر ومخالطة القبط، كما أرسل إلى القبط، هلك الآباء وبقيت الأبناء، وسمُّوا ذرِّيَّة بهذا الاعتبار، وقيل: نجا قوم من قتل فرعون وكفروا، وكانت المرأة إذا ولدت ولدا أسلمته لقبطيَّة خوفا عليه فينشأ على الكفر، ولَمَّا غلب موسى آمنوا. ولفظ «ذُرِّيَّةٌ» للقلّة وحداثة السنِّ.

وقيل: المراد مطلق الإسرائيليِّين كانوا على الإيمان ولم يطيقوا إظهاره، ورجوع هاء «قَوْمِهِ» إلى «مُوسَى» هو الظاهر، وقيل: الهاء لـ«فِرْعَوْنَ»، وفيه أنّه لو كان كذلك لقيل: إلاَّ ذرِّيَّة من قومه على خوف منه، بردِّ الهاءين إلى فرعون لظهور أنّه لا خوف من موسى على الإيمان؛ أو قيل: إلاَّ ذرِّية من قوم فرعون على خوف منه، كامرأة فرعون ومؤمن آل فرعون وخازنه وامرأة خازنه وماشطة ابنة فرعون؛ وقيل: ماشطة فرعون نفسه كانت له ظفائر عيَّن لها ماشطة.

قال الفرَّاء: سمُّوا ذرِّيَّة لأنَّ آباءهم من القبط كما سُمِّيَ أولاد فارس الذين نقلوا إلى اليمن الأبناء لأنَّ أمَّهاتهم من غير جنس الآباء، وكان الرجل يتبع أمَّه وخاله في الإيمان، واعترض ردُّ الضمير لـ«فِرْعَوْنَ» ببعده وقرب «مُوسَى»، مع أنَّ إعلان الإيمان من قوم فرعون غير منقول قبل هلاكه إلاَّ السحرة، وبأنَّ موسى هو المحدَّث عنه، واعترض بأنَّ الكلام في قوم فرعون لأنَّهم القائلون: إنّه ساحر، وأنَّ بني إسرائيل في قهر فرعون، وبُشِّروا بالخلاص على يد مولود نبيء

صفته كذا، وَلَمَّا ظهر اتّبعوه و لم يُعرَف أنَّ أحدا منهم خالفه.

وفي الآية تسلية لرسول الله ﷺ بأنَّ معجزات موسى مدركة بالحسِّ ظاهرة ومع ذلك لم يؤمن به قومه إلاَّ قليل.

﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾ مَلإ فرعون، وكان بضمير الجمع على عادة الناس في ردِّ ضمير الجمع للواحد تعظيما له على فرض اعتياد ذلك في قوم فرعون، كما يصف الله الأصنام بصيغ العقلاء كـ«الذِينَ»، لأنَّ ذلك عادة عابديها، واعترض بأنَّ التعبير عن الواحد بالجمع تعظيما معتاد في التكلُّمِ كما يقال: نحن فعلنا، والمراد واحد، والخطابِ نحو: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ (سورة المؤمنون: ٩٩) وقوله:

ألا فارحموني يا إله محَمَّد

إلاَّ أنَّ الفارسيَّ نقله في الغائب، والحافظ حجَّة، والمثبِت مقدَّم على النافي.

أو «فرعون» هنا اسم لقومه، كعاد وثمود اسم للقبيلتين مسمَّاتين باسمي أبويهما، وكربيعة ومضر وقريش، واعترض بأنَّ هذا في القبيلة وأبيها وفرعون ليس أبًا للقبط، مع أنَّ مثل هذا محتاج إلى السماع لا مقول بالقياس، فلا يقال: فلان من هاشم بل من بني هاشم وهكذا. أو الهاء للذرِّيَّة، أو لقوم موسى، أو قوم فرعون، سواءً جعلنا الضمير في «قَوْمِهِ» لموسى أو لفرعون. وإذا جعلنا الهاء للذرِّيَّة فالمراد: ذرِّيَّة فرعون لا ذرِّيَّة موسى، إذ لا وجه لخوف الذرِّيَّة المؤمنة من ملئهم، إلاَّ أن يراد ملأ بني إسرائيل الناشئين تحت فرعون في كفر، أو الناشئين في إيمان خافوا الهلاك على من دونهم فمنعوهم من الإيمان أو إظهاره.

وقيل: عائد إلى آل المقدَّر هكذا: على خوف من آل فرعون، ويردُّه أنَّه لا دليل عليه وقد وجدنا مرجعا للهاء بدون هذا التقدير، وكذا يردُّ على من قدَّر: على خوف من فرعون وقومه وملئهم.

(نحو) [قلت:] وقول السعد والرضيِّ: جمع المفرد تعظيما مختصٌّ بضمير المتكلِّم غير مسلَّم، بل يقع في ضمير المخاطب والغائب أيضا كما مرَّ، والظاهر كما ورد، لأنَّ العلَّة واحدة. وإذا أطلق اسم الأب على قبيلته فتارة يراد معها وتارة تراد دونه، وإذا عبرٍّ بآل فلان فتارة يراد فلان وتارة كلاهما وتارة أهله دونه.

﴿أَنْ يَّفْتِنَهُمْ﴾ يصرفهم عن دينهم بالعذاب. والمصدر بدل اشتمال من «فِرْعَوْنَ» أو مفعول به لـ«خَوْفٍ» من أعمال المصدر المنوَّن؛ أو علَّة لمحذوف، أي أسرُّوا إيمانهم لِـئَلاَّ يفتنهم. ولم يجمع ضمير الرفع فيعود لفرعون والملإ لأنَّ الصرف والعذاب منهم تبع له وعمل بأمره، وكأنَّهم لم يخافوا سواه، وإن أريد «مِن فِرْعَوْنَ» قومه على ما مرَّ فردَّ الضمير إليه هنا لنفسه خَاصَّةً فاستخدام.

﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ﴾ متكبِّر غالب ﴿فِي الاَرْضِ﴾ هذا تأكيد لِمَا قبله، لأنَّ العلوَّ من أسباب تمكُّن التعذيب. والمراد بالأرض أرض مصر. ﴿وَإِنَّهُ, لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ المبالغين في التكبُّر حتَّى ادَّعى الرُّبُوبِيَّة، وطرح العُبُودِيَّة حَتَّى قال: أنا ربُّكم الأعلى، واسترقَّ أسباط الأنبياء، وسفك الدماء.

﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ تثبيتا لقلوب من آمن به إذ خافوا: ﴿يَا قَوْمِ﴾ خطاب لبني إسرائيل، أو لمن آمن به ولو من القبط، فإنَّ الإيمان به كالكون من قومه ﴿إِن كُنتُمُ, ءَامَنتُم بِاللهِ فَعَلَيْهِ﴾ لا على غيره ﴿تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ هذا الشرط شرط لجواب الشرط الأوَّل مع شرطه، فليس من تعليق الحكم بشرطين لأنَّه لا يجوز إلاَّ بالتبعيَّة كالعطف، وذلك كقوله: إن جاء زيد فأطعمه إن جاع، فالجوع شرط لمجيء زيد ووجوب إطعامه.

(نحو) والشرط وجوابه مغنيان عن جواب الشرط الثاني والمعلّق بالإيمان وجوب التوكُّل المأخوذ من الأمر المجرَّد عَمَّا يخرجه عن الوجوب، والمشروط بالإسلام حصوله، فإنّه لا يوجد مع اختلاط تعميده تعالى باعتماد غيره، وقال بعض: إن كنتم آمنتم وجب عليكم التوكل - **ومقام التسليم فوق مقام التوكُّل** - إن كنتم مسلمين توكَّلتم عليه، وليس هذا قاعدة، والحقُّ ما ذكرته.

(فقه) وهذا كما نقول في الفقه: المتأخِّر لفظا يجب تقدُّمه معنى، والمتقدِّم لفظا يجب تأخُّره معنى، كقوله: إن دخلت الدار فأنت طالق إن كلَّمت زيدا، ومجموع قولك: إن دخلت الدار فأنت طالق مشروط بقولك: إن كلَّمت زيدا.

(لغة) والإسلام هنا: الاستسلام بالأعمال وإلغاء النفس، والإيمان: التصديق، والتوكُّل: إسناد الأمور إليه تعالى. والدعاء والتسبُّب لا ينافيان التوكُّل إذ بنيا عليه ﴿**فَقَالُوا عَلَى ا للهِ**﴾ لا على غيره ﴿**تَوَكَّلْنَا**﴾ الفاء لترتيب قولهم هذا على قول موسى باتِّصال، وقدَّموا «عَلَى ا للهِ» للحصر كما طلب موسى، وكون «تَوَكَّلْنَا» إنشاء أولى من أن يكون إخبارًا.

﴿**رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً**﴾ أي محلَّ فتنة بتقدير مضاف، لأنَّ المعاني لا تحمل على الذوات. وحذف المضاف لتكون الصورة مبالغة ﴿**لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾ فرعون وقومه؛ و«الـ» للعهد. أظهر في موضع الإضمار للوصف بالظلم؛ أو يراد مطلق الظالمين، فيدخل فرعون وقومه. ومعنى جعلهم فتنة للظالمين أن يغلبهم الظالمون فيظنَّ الظالمون ومن ضعف إيمانه أنَّ المؤمنين ليسوا على الحقِّ فيستمرُّوا على الكفر، و يتبعهم الضعفاء؛ أو معناه: أن تسلِّطهم علينا فيعذِّبونا؛ أو معناه: أن يفتنونا عن ديننا.

﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ فرعون وقومه، فوضع الظاهر موضع المضمر؛ أو الكافرين على الإطلاق كما مرَّ، والمراد: نجِّنا من كيدهم وشؤمهم؛ أو من أيديهم؛ أو شؤم مشاهدتهم، لأنَّ معاشرة الأشرار مصيبة تتعب الأبرار وتزيد في فجور الفجَّار.

أو ﴿الظَّالِمِينَ﴾: الملأ الذين تخوَّفوا منهم، و﴿الْكَافِرِينَ﴾ ما يعمُّهم وغيرهم. وقدَّموا التوكُّل على الدعاء بأن لا يجعلهم فتنة وبالتنجية لتجاب دعوتهم، لأنَّه من لم يتوكَّل يضطرب.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ﴾ هارون ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ﴾ في مصر ﴿بُيُوتًا﴾ و«أَنْ» مفسِّرة لتقدُّم معنى القول دون حروفه، و«تَبَوَّءَا» أمرٌ؛ أو مَصدَريَّة و«تَبَوَّءَا» مضارع؛ أو أمر عند من أجاز دخول «أن» المصدَريَّة على الطلب. والمعنى: أوحينا التبوُّء، أو أوحينا أمر التبوُّء، أي الأمر به.

ومعنى تبوُّءِ البيوت اتِّخَاذ البيوت للسكنى، أو للرجوع إليها للعبادة، كذا يقال، فلعلَّهم قبل ذلك لا بيوت لهم بل يكترون أو يسكنون بالعارية؛ أو لهم بيوت نحو شعر أو اخصاص فأمر ببيوت البناء، وهذا يصعب لكثرتهم؛ أو الأمر متوجِّه إلى من لا بيت له ولجمهورهم بيوت؛ أو أريد بالبيوت محاريب في مساكنهم؛ أو أريد بالبيوت مساجد أو مصلَّيات مخفاة حيث يمكن إخفاؤها. والفعل متعدٍّ لواحد، واللام متعلِّق بـ«تَبَوَّءَا»، أو بمحذوف حال من «بُيُوتًا»، وقيل: الاثنين، واللام صلة في أحدهما.

﴿وَاجْعَلُواْ﴾ أنتما وقومكما، وقد يكون الخطاب لقومهما لأنَّهما يأمران وينهيان جهرا ﴿بُيُوتَكُمْ﴾ مطلقا أو البيوت المأمور باتِّخاذها ﴿قِبْلَةً﴾ قيل: يقابل بعضها بعضا، وهو قول عن ابن عبَّاس، وهو أمر صعب، وقيل: مقابلة بأبوابها إلى الكعبة وكان موسى يصلِّي إليها أوَّل الأمر، وروي أنَّ جميع الأنبياء

قبلتهم الكعبة، وهو ضعيف، ويذكر أنَّ قبلة اليهود الصخرة، وموسى الكعبة، والنصارى مطلع الشمس وهو بعيد.

أو القبلة مجاز للمصلّى، فإنّها سبب لكون البيت مصلًّى، فإنَّ الصلاة سبب لكون المكان مصلًّى، والصلاة سبب صحّتها وشرطها فيكون سببا له لكونه شرطا للصلاة؛ أو معنى ﴿قِبْلَةً﴾: مساجد، على أنَّ المراد باتّخاذ البيوت اتّخاذها للعبادة يصلّون فيها مستقبلين الكعبة، وذلك لضرورة الإخفاء من فرعون لئلاّ يهلكهم، وإنّما وجبت عليهم الصلاة في الكنائس إذا لم يضطرّوا، وفرعون منعهم عن الكنائس، فأوحى الله إليهم أن صلّوا في البيوت كما قال ابن عَبَّاس، وورد أنَّ أصحاب الكنائس يصلّون إذا رجعوا إليها.

وقبلة اليهود الآن الصخرة، وكذا هي قبلة موسى عليه السلام، وكانوا يضعون التابوت عليها ويصلّون إليه، وَلَمَّا زال بقوا على الصلاة إليها، وقبل ذلك يصلّون إليه وهو في قبّة موسى عليه السلام.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ في بيوتكم إذ منعتم عن الكنائس، أو أخربت، أو عن بنائها من أَوَّل الأمر بعد إذ كنتم تصلّون فيها كما كان المؤمنون بمكّة أوّل الإسلام يخفون دينهم. وقيل: أمر الله موسى باتّخاذ المساجد على رغم الأعداء وتكفّل لهم أن يصونهم عن شرّ الأعداء.

﴿وَبَشِّرِ الْمُؤمِنِينَ﴾ يا موسى بالنصر على فرعون وقومه، وبالجنّة وبحصول مقصودهم. أفرد بالخطاب لأنّه المقدَّم بالرسالة فهو أليق من هارون بتبشير المؤمنين، وَأَمَّا غير ذلك من اتّخاذ المعابد والمساجد والصلاة فإنّه مِمَّا شاركوا فيه وخوطبوا فيه معه.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

دعاء موسى على فرعون وملئه

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً﴾ آلة الزينة، أو هي ما يتزيَّن به من ذهب وفضَّة وغيرهما، وملابس ومراكب والآنية الفاخرة والفرش الباهرة والسروج الثمينة وغير ذلك **﴿وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾** تعميم بعد تخصيص، وقيل: الزينة الجمال وصحَّة البدن وطول القامة ونحو ذلك، والمراد بالأموال: أنواع من المال كالدنانير والدراهم والعبيد والأنعام والحيوانات. قال ابن عبَّاس: كان لهم من بناء فسطاط مصر إلى أرض الحبشة جبال فيها معادن ذهب وفضَّة وزبرجد وياقوت.

﴿رَبَّنَا﴾ تأكيد للنداء الأوَّل، أو فعلت ذلك يا ربَّنا ليضلُّوا **﴿لِيَضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾** دينك واللام للتعليل فصدَّهم بإيتاء ذلك ليضلُّوا، وذلك خذلان؛ أو لَمَّا جعلوا ذلك سببا للضلال أشبهوا من أوتيه ليضلَّ به؛ أو هي لام العاقبة فيكون في ذلك استعارة تبعيَّة.

(أصول الدين) وقيل: اللام للدعاء ولام العاقبة تكون في كلام الله تعالى كما تكون في كلام غيره، إلاَّ أنَّه عَجَلِكَ عالم بالعاقبة بلا أوَّل لعلمه، ولام التعليل لام الإرادة ولو في معصية كالضلال في الآية، لأنَّه مريد للمعصية وإلاَّ لزم أنَّه وقع في ملكه أمر بلا إرادة منه فيكون مقهورا، وعلم موسى عاقبتهم ضلالا بالوحي.

(بلاغة) وإذا جعلت اللام للتعليل صحَّ على حقيقته، وصحَّ على أنَّ استعارة تمثيلية[1]، شبَّه حال فرعون وقومه وجعلهم نعم الله ذريعة إلى الإصرار على الكفر بحال من أوتي النعم ليضلَّ بها، فاستعمل اللفظ الموضوع للثاني في الأوَّل، ويكفي في التشبيه وجود المشبَّه به فرضا ـ كما هنا ـ لا حقيقة، فإنَّ الله ﷻ يعطي المال ليطاع به لا ليعصى به.

ومن شأن من أراد العقاب أن يذكر أوَّلا موجبه، فذكره موسى عليه السلام أوَّلا ثمَّ دعا بالعقاب فقال: ﴿**رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُومِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ الْعَذَابَ الاَلِيمَ**﴾ هذه ثلاثة أدعية إذا قلنا: ﴿فَلاَ يُومِنُواْ﴾ دعاء، وتتمَّ أربعة بقوله: ﴿لِيَضِلُّواْ﴾ إذا جعلنا اللام لام الدعاء، فيكون اللفظ أمرا لهم بالضلال، والمعنى دعاء الله أن يبقيهم عليه لَمَّا رآهم لا يزيدون على زيادة الوعظ إلاَّ كفرا؛ أو أيس منهم حتَّى إنَّ إيمانهم كالمحال كما يقال: لعن الله إبليس، وكذا «لاَ يُومِنُوا» في صورة نهيهم عن الإيمان، والمراد: دعاء الله أن يميتهم على الكفر. ويجوز عطف «فَلاَ يُومِنُواْ» عَلَى «لِيَضِلُّواْ»، ونصبه في جواب «اشْدُدْ» وهو أولى.

ومعنى الطمس على أموالهم إذهابها، قاله مجاهد، وقال الجمهور أَزِلْ صُوَرَها بالمسخ وتغييرها عن هيئتها، قال قتادة: صارت أموالهم وحروثهم وزروعهم وجواهرهم حجارة، قال ابن عَبَّاس: صارت دراهمهم ودنانيرهم ونحاسهم حجارة منقوشة كهيئتها صحاحا وأنصافا وأثلاثا. وأخرج عمر بن عبد العزيز خريطة فيها بعض بقاياهم البيضة مشقوقة وهي حجر والجوزة مشقوقة وهي حجر، قال السدي مسخ الله أموالهم حجارة والنخل والثمار

١- في الطبعة العمانية: «وصحَّ بالاستعارة تمثيله».

والدقيق والأطعمة. وأمَّا ما روي عن محَمَّد بن كعب: صار الرجل مع امرأته حجرين والمرأة تخبز قائمة صارت حجرا فلا يصحُّ في الآية لأنَّها في مسخ أموالهم، وقد يكون لبعضهم ذلك مع مسخ الأموال.

(أصول الدين) ومعنى الشدِّ على قلوبهم القبضُ عليها حتَّى لا يدخلها الإيمان، وإنَّما يجوز الدعاء بذلك على أحد إذا علم بشقوته وفي "تبيين أفعال العباد"[1] جواز الدعاء على الفاسق بأن يموت مشركا، [قلت:] وأنا لا أجيز ذلك، وأمَّا الدعاء على المشرك بالبقاء على الشرك فجائز، وذكر بعض الحَنَفِيَّة أنَّ الرضا بشرك المشرك إنَّما يكون شركا إذا كان يستجيز الشرك أو يستحسنه، أمَّا إذا لم يكن كذلك ولكن أحبَّ الموت أو القتل على الشرك لمن كان مؤذيا حتَّى ينتقم الله منه فلا يكون كفرا، فلو دُعِيَ على ظالم بنحو: «أماتك الله على الشرك» ، أو «سلب عنك الإيمان» لم يكن عليه ضرر، لأنَّه لا يستجيزه ولا يستحسنه ولكن تمنَّاه لينتقم الله منه وهو المنقول عن الماتريدي.

ولا دليل في الآية عليه لأنَّها في مشرك، ولجواز علم موسى عليه السلام بشقوتهم، والرضا بالكفر كفر عند أبي حنيفة، يعني إذا كان بمعنى إجازته إمَّا على معنى الدعاء به للشرير، أو الرضا بقضاء الله به على أحد أو على نفسه فلا بأس عندهم، ويجب الرضا.

(فقه) ومن جاءه كافر ليسلم فقال أصبر حتَّى أتوضَّأ، أو نحو ذلك من أوجه التأخير كفر لرضاه بكفره في تلك المدَّة. وروي أنَّه أتى عثمان بن عفَّان يوم فتح مكَّة بابن أبي سرح ليبايع، فكفَّ ﷺ يده ثلاثا وفي الرابعة بايعه،

١-الكِتَاب لأبي العَبَّاس أحمد بن محَمَّد بن بكر (ت: ٥٠٤هـ/ ١١١٠م)، وَهُوَ كِتَاب مهمٌّ في علم الأخلاق الإِسلاَمِيَّة، لا يزال مخطوطا، وتوجد منه عِدَّة نسخ في مكتبات وادي ميزاب.

وقال لأصحابه: «**هلاَّ قتله رجل أشيد منكم حين كففت يدي عنـه؟**» فقـالوا: وما يدرينا يا رسول ا لله، ألا أومأت إلينا بعينك، فقـال ﷺ : «**مـا ينبغـي لنـبيء أن تكون له خائنة الأعين**»(١)، [قلت:] وظاهره أنَّ التوقُّف غير كفر.

وروي أنَّ جبريل دسَّ طينا في فم فرعون مخافة أن تدركه الرحمة، وعن أبـي أمامة عنه ﷺ «**قال لي جـبريل** عليه السلام **مـا أبغضـت شيئا مـن خلـق ا لله تعـالى أبغضت إبليس يوم أمر بالسجود فـأبى أن يسـجد، ومـا أبغضـت شـيئا أشـدَّ بغضا من فرعون، فلمَّا كان يوم الغرق خفـت أن يعتصـم بكلمـة الإخـلاص فينجو، فأخذت قبضة من حمأة فضربت بها في فيه، فوجـدت ا لله تعـالى أشـدَّ غضبا عليه مِنـِّي، فأمر ميكائيل فأتاه فقال: آلان؟**»(٢) [قلت:] وأظنُّ أنَّ قولـه: «خفت أن يعتصم...»الخ وقوله: «مخافـة أن تدركـه الرحمـة» لا يصحَّـان، [إذ] كيف يعمل بيده مانعا من التوحيد؟ لكن لا مـانع أن يـأمره ا لله بذلـك، ثـمَّ إنَّ إيمان الأخرس مقبول فليكن فرعون كذلك إذ لم يقدر على النطق، وإنَّما الحجَّـة في عدم القبول عنه أنَّه شاهد الأمر.

وقد قال جماعة منَّا ومن الأَشعَرِيَّة: إنَّ توحيد المكلَّف في قلبـه كـاف عنـد ا لله، ولو كان قادرا على النطق، وليس مـراد جـبريل بقولـه: «مخافـة أن تدركـه الرحمة» وقوله: «خفت أن يعتصم بكلمة الإخلاص فينجو» رحمةَ الدنيا ونجاتهـا كما لا يخفى، وكما في حديث أبي هريرة «**مخافـة أن تدركـه رحمـة ا لله فيغفـر له**» اللهمَّ إلاَّ أن يراد: مخافة أن يحيى فيخلـص الإيمـان فيحيـى، فـلا يبقـى إلاَّ أن

١- رواه **أبو داود** في كتـاب الجهـاد، رقـم ٢٣٠٨، ورواه **النسـائي** في كتـاب تحريـم الـدم رقم ٣٩٩٩. من حديث سعد بن أبي وقاص (م.ح).

٢- أورده **السيوطي** في الدر، ج٣، ص٣٤٢، وقال: أخرجه أبو الشيخ عن أبي أمامة مرفوعا.

يقال: ما هذا التشديد؟ فيجاب بأنَّه لا يفعل جبريل إلاَّ بأمر الله تعالى. ورؤية العذاب الأليم: ما يرونه من السوء عند مشاهدة الموت.

دعا موسى وأمَّن هارون عليهما السلام، والتأمين دعاء فقال ﷻ: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ يا موسى وهارون، قيل بين الدعاء والاستجابة أربعون سنة، وهذه استجابة في طمس أموالهم والشدِّ على قلوبهم ومن قبلها كانت أموالهم على حالها وقلوبهم قابلة إلاَّ أنَّهم لم يستعملوها.

﴿فَاسْتَقِيمَا﴾ زيدًا استقامة شكرا لنعمة الإجابة؛ أو دوما عليها، وذلك بالدعاء إلى دين الله وتبليغ الوحي حتَّى يأتيهم العذاب الأليم، وهو الإغراق وما بعده، ولم يعلم به موسى وهارون حتَّى وقع، ولم يصرِّح فرعون بالإيمان حتَّى أدركه الغرق حين لا ينفعه. ﴿وَلاَ تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ في القلق واستعجال ما وعد به، وسخط البطء به؛ أو عدم الوثوق به، ولم يصدر منهما عليهما السلام شيء من ذلك، ولكن يوعظ الإنسان ليثبت ويزيد خيرا، قال ﷻ: ﴿إِنِّيَ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (سورة هود: ٤٦) ولم يصدر منه الجهل، وقال: ﴿لَئِنَ اَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ (سورة الزمر: ٦٥) ولا يصدر الإشراك من رسول الله ﷺ.

(نحو) و«لاَ» ناهية، ونون الرفع حذفت للجزم، والنون للتوكيد كسرت تشبيها بنون الرفع بعد الألف، وقيل: بنون المثنَّى، والعطف على «اسْتَقِيمَا»، وذلك أولى من كون الواو للحال و«لاَ» نافية ونون الرفع محذوفة لتوالي الأمثال، وهذه نون التوكيد الشديدة لأنَّ المنفيَّ لا يؤكَّد، وقيل: «لاَ» نافية وأدغمت نون الرفع في نون التوكيد الخفيفة مكسورة، والكسائي وسبويه لا يجيزان الخفيفة بعد الألف والمجيز يرى أنَّ الألف قبلها كالفتحة.

﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩٠ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٩١ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ٩٢ وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ٩٣﴾

إغراق فرعون وإنجاء بني إسرائيل

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَآءِيلَ الْبَحْرَ﴾ بحر القلزم. جاوز بمعنى جاز، وتعدَّى لواحد بنفسه كما تقول: جزنا موضع كذا، وللآخر بالباء التي كهمزة التعدية، فكأنَّه قيل: أجزناهم البحر، ولا تقل غير ذلك.

(قصص) جاء يعقوب من الشام إلى مصر ليوسف، فسكنها مع عياله حتى تمَّ له من صلبه وصلب أولاده وأولاد أولاده مع أولاده اثنان وتسعون، ونموا حتَّى خرجوا مع موسى ـ وهم ستُّمائة ألف ـ حال غفلة فرعون، ويسَّر الله لهم الخروج وانتبه لهم فرعون فتبعهم على حصان أدهم ومعه ثمانية آلاف فارس على لون حصانه، سوى سائر الألوان، والجند يقدمهم جبريل على فرس أنثى ويسوقهم ميكائل حتَّى لا ينجو منهم أحد، فقال موسى: يا ربِّ، البحر قدَّامنا والعدوُّ من ورائنا! فأوحى الله إليه: ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ (سورة الشعراء: ٦٣) فانفلق على اثني عشر طريقا فدخلوها كلُّهم، واقتحم فرس فرعون وهو ذكر إذ شمَّ رائحة فرس جبريل وهو فرس أنثى، فاتَّبعه قومه حتَّى دخل آخرهم وخرج آخر بني إسرائيل انطبق البحر عليهم، وكانت تلك الطرق ملتوية

لا على سمت حتَّى إنَّهَا خرجت في الأرض التي خرجوا منها وذلك كما قال الله ﷻ:

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ﴾ أي تبعهم؛ أو أتبعهم أنفسهم، أعني أنفس فرعون وجنوده؛ أو يقال: تبعه فأتبعه بمعنى فلحقه، واجتمعوا مع بني إسرائيل في طرق البحر، وهم خلف بني إسرائيل، وَلَمَّا دخل آخر فرعون وخرج آخر موسى أغرقوا، وقيل: ما دخل فرعون وقومه حتَّى خرج موسى وقومه ﴿بَغْيًا﴾ مجاوزة للحدِّ في الظلم، وقد يبغي الإنسان على من لا حقد له عليه ولا بغض، ولذلك قال: ﴿وَعَدْوًا﴾ أي معاداة بالبغض والحقد، أي لأجل البغي والعدو؛ أو باغين وعادين؛ أو ذوي بغي وعدو؛ أو مفعول مطلق على تضمين «أَتْبَعَ» معنى بغى واعتدى؛ أو يقدَّر: باغين بغيا وعادين عدوا.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ﴾ لحقه وتلبَّس بأوائله، وقيل: المعنى حتَّى غرق، وعليه فالقول الذي ذكر الله تعالى عنه قول بالقلب: ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُ﴾ بأنه؛ أو صدَّقت أنَّه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا الذِي ءَامَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَآءِيلَ﴾ أنشأ الإيمان؛ أو أنشأ التصريح به حين لا ينفعه لمشاهدته الوعيد وملائكة الموت، وهو في ذلك الحين غير مكلَّف، ولأنَّه لم يقل: موسى رسول الله، فهو كمن قال لا إله إلاَّ الله، ولم يقل محَمَّد رسول الله. ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ زاده تأكيدا ليقبل إيمانه مع أنه أبلغ من أن يقول أسلمت. والإسلام: الإذعان للأحكام هنا، وهو المعنى اللغويُّ، وإن حمل على الشرعيِّ وهو الخروج من الشرك، ولو اختار بعض أنَّ الإسلام الشرعيَّ مختصٌّ بما جاء به نبيئنا محَمَّد ﷺ، وأراد بالمسلمين على الوجهين بني إسرائيل، ففي الآية أنَّ فرعون عالم بإيمان بني إسرائيل وإسلامهم، ولعلَّهم كانوا يسرُّون ذلك أوَّل الأمر وأظهروه بعده حين آمنت السحرة. ولم يقل: «آمنت بالله الذي آمنت به...» الخ قيل لأنَّه غير عارف

با لله، وقيل: هو مقرٌّ عارف به سرًّا، إلاَّ أنَّه ينكره ظاهرا، وعليه فلعلَّه لم يصرِّح به ليوافق المراد الذي نحت به بنو إسرائيل، لأنَّ التخصيص تخاف فيه المخالفة وهذا البقاء جهالة فيه.

﴿ءَالاَنَ﴾ آمنت؛ أو آلآن تؤمن؟، وهذا توبيخ، والماضي اعتبار لإيمانه الصادر عند المشاهدة، والمضارع لحكايته؛ أو لاستمراره عليه، إلاَّ أنه لا يقبل، ويجوز تقدير ذلك مؤخَّرا للحصر كأنَّه قيل: ما آمنت، أو ما تؤمن إلاَّ الآن حين أيست وشاهدت و لم يبق لك اختيار، ﴿وَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بأْسَنَا﴾ (سورة غافر: ٨٥) وأمَّا قومه فلم يؤمنوا عند المشاهدة، وإن آمنوا فإنَّهم لم ينطقوا، ويقدَّر القول هكذا: قال جبريل عن ا لله آلآنَ؛ أو قال ميكائيل؛ أو قال ا لله تعالى؛ أو قيل: آلآن؟ ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ﴾ ا لله ﴿قَبْلُ﴾ في عمرك من حين كَلِفْتَ بادِّعاء الأُلُوهِيَّة وسائر المعاصي. والواو للحال.

﴿وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ بأنواع الضلال في نفسك والإضلال لغيرك.

روي عن رسول ﷺ أنَّه: «**قال لي جبريل لو رأيتني يا محمَّد وأنا أدسُّ في فم فرعون من الطين الأسود المنتن من البحر مخافة أن تناله الرحمة بنطقه بالتوحيد**»[1] فيستشكل بأنه قد نطق به فما نفع هذا الدس؟ ويجاب بأنَّه لم يفصح بلا إله إلا ا لله بل قال: ﴿الذِي ءَامَنَتْ بِهِ...﴾ وَيَدُلُّ له رواية: «**مخافة أن يقول لا إله إلاَّ ا لله**»[2] وهذا اللفظ لم يقله، وعلى فرض أنَّه يكفي في الإفراد لكن لم يزد "موسى رسول ا لله"، ويستشكل بأنَّ في الدسِّ منعا عن التوحيد

١- رواه **الترمذي** في كتاب التفسير، باب تفسير سورة يونس، رقم٣٠٣٢. من حديث ابن عبَّاس (م.ح).

٢- رواه **الحاكم** في مستدركه في كتاب التفسير: ج٢، ص٣٧٠، رقم٣٣٠٣ (٤٢٠) من حديث ابن عبَّاس.

وإبقاء على الإشراك، ويجاب بأنَّ لله أن يفعل ما يشاء، وجبريل لم يفعل إلاَّ بأمر الله، وذلك كسائر تسليط الله على الشقيِّ ما يمنعه عن التوحيد من قتل أو غيره، ولو بعد الشروع، وبأنَّ ذلك حين لا ينفعه الإيمان لمشاهدته، فذلك كقوله لأهل النار فيها: ﴿اخسَئُواْ فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ...﴾ (سورة المؤمنون: ١٠٨) ويستشكل بأنَّ قول جبريل: «مخافة أن تناله الرحمة» يفيد أنَّه لو أتى بالتوحيد على وجه تامٍّ لكفاه، ويجاب بأنَّه قال ذلك لأنَّه لا يدري لعلَّه أحدث بعد ذلك أمرا، ولمزيد بغضه له، وبهذا يجاب عن أن يقال: إن كان لا ينفعه فما فائدة الدسِّ؟ والحجَّة هي أنَّه شاهد الوعيد فلا ينفعه الإيمان، وفي الدسِّ تحقيق واستعجال لِمَا قضي من شقوته.

وإنَّما قدَّرت: قال جبريل أو مكائيل عن الله: ﴿ءَالاَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ لقوله تعالى: **﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنَ ـ ايَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾** لأنَّ هذا آخر المقول، وهو بالله أنسب لا يثبت لغيره إلاَّ باعتبار أنَّه عن الله ﷻ.

(قصص) قال ابن عبَّاس: إنَّ بعض بني إسرائيل شكُّوا في موت فرعون، ويقال أيضا: إنَّهم قالوا ما مات، وذلك لعظمه في قلوبهم فنجَّاه الله بعد موته من الغيبة في الماء بإظهاره على ساحل البحر بدنا بلا روح؛ أو بلا لباس كما قال: ﴿بِبَدَنِكَ﴾ أحمر قصيرا أعرج كأنَّه ثور فعرفوه، قيل: ومن ذلك لا يقبل الماء ميِّتا أبدا، **قلت** بل يقبله قبلُ وبعد وإذا انتفخ طفا على الماء لتجوُّفه. وعَرَفَه الجاهل أنَّه ليس إلها لأنَّ الإله لا يموت، وبعد رؤيته رجع في البحر بالماء، أو أكلته الدوابُّ والطير.

وقيل: ﴿بِبَدَنِكَ﴾ بدرعك، والبدن يطلق على الدرع العظيمة الكمَّين، كانت له درع من ذهب مرصَّعة بجواهر، وقيل: من حديد بسلاسل ذهب

يعرف بها، يصدِّق لها بموته من ظنَّ أنَّه لم يغرق، أو أنَّه لا يموت في الماء. والباء صلة، و«بدن» بدل من الكاف.

(نحو) وقال السمين تلميذ أبي حيان في مصر: إِنَّهَا سَبَبِيَّة مجازا، لأنَّ بدنه سبب في تنجيته ليرى؛ أو للمصاحبة على أنَّ البدن: الدرع؛ أو قيل: هي للآلة، على وزان قولك: أخذته بيدك، ونظرته بعينك؛ وكذا هي للمصاحبة إذا فسِّر بالجسم، أي بجسمك فقط لا مع روحك تخييبا عن طمعه في أن ينجو حيًّا. و«مَنْ خَلْفَكَ»: هم بنو إسرائيل المكذِّبون موسى في قوله: أنَّ فرعون مات ومن بعدهم إلى آخر الدهر، يشاهده من يشاهده على الساحل ما دام عليه، ويسمع به غيره، ويعرفون أنَّ دعواه الأُلُوهِيَّة باطلة ولا تصحُّ لغير الله ﷻ فينزجروا عن دعوى الأُلُوهِيَّة والإفساد، ولو بلغوا ما بلغوا كفرعون أو فوقه.

(قصص) غار النيل فقال قومه: أجره لنا، فقال ثلاثا: لست براض عنكم، فأتوه مَرَّة أخرى فقالوا: هلكت البهائم والصبيان والأبكار وإن لم تجره عبدنا إلها غيرك، فأمرهم بالخروج إلى الصعيد واعتزل عنهم فيه وألصق خدَّه بالأرض وقال: اللهمَّ خرجت إليك خروج العبد الذليل إلى سيِّده، وعلمت أنَّه لا يجريه غيرك فأجره وأخِّر عذابي للآخرة، فأجراه الله ﷻ فسجدوا لفرعون إذ قال أجريته لكم، فقال له جبريل: لي عبد ملَّكته عبيدي وأعطيته مفاتيح خزائني وعاداني ومن أحببت وأحبَّ من عاديت، فقال: لو كان لي لأغرقته في القلزم مقرونا بخابية ملح مختوم عليها فقال جبريل: أكتب لي، فكتب:

يقول أبو العَبَّاس الوليد بن مصعب جزاء العبد الخارج عن سيِّده الكافر نعماءه أن يربط بخابية مملوءة ملحا مختوم عليها ويغرق بالقلزم، وَلَمَّا أغرق أحضر له جبريل ما كتب على نفسه. وكونُه بالساحل آية وبرهان على أنَّ الأُلُوهِيَّة لا تصحُّ لغير الله، وزجر عن قوله وفعله وإظهار لموته، وقد قيل:

﴿نُنَجِّيكَ﴾ نحملك بنجوة من الأرض وهو المكان المرتفع يرى فيه ولا يخفى عن المارِّ.

وذكر بعد نعمة الإنجاء وإغراق العدوِّ نعمة أخرى ضمَّها إليها فقال: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا﴾ أنزلنا ﴿بَنِي إِسْرَآءِيلَ مُبَوَّأَ﴾ منزل ﴿صِدْقٍ﴾ وهو المنزل المحمود، والعرب إذا مدحت شيئا أضافته إلى الصدق وتقول: رجل صدق، وقدم صدق، فقد يُري الأمر بظاهره الخيرُ وهو بخلاف ذلك، فيعتبر مآله هل هو بحسب ما يُظنُّ فيه؟ فيقال: شاة صادقة إذا تحقَّق سمنها كما ظهر منها، قال الله ﷻ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ (سورة الإسراء: ٨٠).

و«مُبَوَّأَ» اسم مكان ميميٌّ، وهو الشام ومصر لبني إسرائيل الذين في زمان موسى على المختار عندهم، وفيه أنَّ بني إسرائيل لم يدخلوا الشام في حياة موسى عليه السلام على ما شُهر، فيحتاج في ذلك إلى تكلُّف أبنائهم بأنَّ المنَّ على الأبناء منٌّ على الآباء، كما نسب كثيرا في القرآن إلى الأبناء ما للآباء، وقد قيل أيضا: إنَّ بني إسرائيل لم يسكنوا مصر بعد هلاك فرعون بل رجعوا إلى الشام وأخذوا معهم يوسف من قبره.

وقيل «مبوَّأ صدق»: مصر، على أنَّهم سكنوها بعد فرعون، وأخذوا جميع ما لهم من الدور والأجنَّة والأنعام والأرضين والحيوان، قال بعض: وذهب وفضَّة، وقيل: الشام والقدس والأردن، لأنَّها بلاد الخصب والخير والبركة. وقيل: بنو إسرائيل من كان منهم في أعمال المدينة قريظة والنضير وبني قينقاع أنزلهم ما بين المدينة والشام ورزقهم من الطيِّبات النخل والرطب والتمر الذي لا يوجد مثله في البلاد.

﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ اللذائذ مِمَّا في مصر والشام؛ أو ما بين الشام والمدينة ﴿فَمَا اخْتَلَفُواْ﴾ بالإيمان والكفر وسائر أمر دينهم ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ في التوراة وعرفوا الحقَّ والباطل، طلبوا الرئاسة، وبغى بعض على بعض، وتقاتلوا تعسُّفا بالتأويل، وتعصُّبا للمذاهب، حتّى كانوا إحدى وسبعين فرقة بعد التوراة، وهم من بقي من بني إسرائيل بعد فرعون ونسلهم، وقيل: كانوا قبل موسى على الكفر وهو قول ظاهر البطلان.

وقيل: بنوا إسرائيل على عهد رسول الله ﷺ كانوا على التصديق به ﷺ لِمَا يجدونه في التوراة والإنجيل وغيرهما، ولَمَّا جاءهم العلم ــ وهو القرآن والمعجزات ــ كفر الأكثرون وآمن الأقلُّ، وكانوا قبله يهدِّدون به العرب إذا ضرُّوهم قالوا: قرب مبعث نبيء نقاتلكم معه، ويجوز أن يكون العلم على هذا هو التوراة ونحوها، لأنّه مذكور فيها بأوصافه، وسمِّيت ألفاظ التوراة والقرآن علما لأنّها سببه ومتضمِّنة له، وقال الفرَّاء: العلم بمعنى المعلوم وهو رسول الله ﷺ.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين بإهلاك الضالِّ وإنجاء المهتدي.

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾

تأكيد صدق القرآن فيما قال ووعد وأوعد

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا محمَّد، «مِمَّا» متعلّق بـ«شَكٍّ» أي شكٌّ فيما أنزلنا؛ أو بسبب ما أنزلنا. والفاء لمجرَّد الترتيب الذكريِّ؛ أو للسببيَّة، لأنَّ ذكر القصَّة في الجملة سبب للشكِّ، والمراد: مِمَّا أنزلنا إليك من القصص، والمراد: الشكُّ على سبيل الفرض والتقدير، كقوله تعالى: ﴿قُلِ اِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ (سورة الزخرف: ٨١) وقوله: ﴿فَإِنِ اِسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الاَرْضِ...﴾ (سورة الأنعام: ٣٥) . وقيل: الخطاب له ﷺ، والمراد: أمَّته؛ أو كلُّ من يسمع؛ ولا ينافيه قوله ﷻ : ﴿مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ فإنَّه كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ (سورة النساء: ١٧٤) وما أنزل إليه فقد أنزل إلينا.

وقيل: الشكُّ الضيق والشدَّة، لأنَّ الشكَّ سبب لهما وملزوم في الجملة، تسأل أهل الكتاب فيخبرونك بما لقيت الرسل فتصبر كما صبروا، وهو ضعيف، ولا يجوز أن يكون الخطاب في «كُنتَ» لمن يصلح للشكِّ. وفي «إِلَيْكَ» لرسول الله ﷺ لأنَّه لا يجوز خطابان في كلام واحد، مثل أن تقول: أكرمك، وتريد بخطاب أكرم زيدا، وبخطاب الكاف عمرا.

وقيل «إِنْ» نافية، و«اسْأَلْ» جواب لمحذوف، تقديره: إن أردت زيادة نفي الشكِّ فاسأل، **ولا بأس بهذا** ولو قيل: هو خلاف الظاهر. ﴿**فَاسْئَلِ الذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ**﴾ نحو التوراة والإنجيل ﴿**مِن قَبْلِكَ**﴾ فإنَّ ما أنزلنا إليك هو عندهم في كتبهم يخبرونك بصدقه ولو أنكر بعضهم، قال ﷺ : «**يا ربِّ لم أشك فلا أسأل**»[1] رواه عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة، وكان عمر يسأل أهل الكتاب فغضب ﷺ جدًّا، فقال: «**لو كان أخي موسى حيًّا لم يسعه إلاَّ**

١- أورده **السيوطي** في الدر، ج٣، ص٣٤٣، من حديث قتادة.

اتِّبَاعي»[1]. وهذا تهييج له ﷺ على زيادة الثبوت برسوخ علماء أهل الكتاب في معرفة رسالته ﷺ إلى كلِّ أحد، وبتحقُّق ذلك في كتبهم.

وقيل: الخطاب في ذلك كلُّه لمن يصلح له، ولا يعارضه ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ لأنَّ ما أنزل إليه ﷺ أنزل إلى أمَّته.

(فقه) وفي الآية أنَّه يجب على كلِّ من خالجته شبهة في أمر الدين أن يسارع إلى حلِّها بالرجوع إلى أهل العلم وإن لم يجد من يحلُّها وجب عليه أن يعتقد: إنِّي في هذا على ما هو الحقُّ عند الله وأنتظر الفتح، فإن شكَّ هل يوصف الله بكذا سارع إلى تجديد التوحيد بقوله: «ليس كمثله شيء».

وهيَّجه أيضا على زيادة الثبات بقوله: ﴿**لَقَدْ جَآءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ**﴾ واضحا لا يقبل شكًّا ولا شبهة في أنَّك رسول إلى كلِّ أحد، وأنَّ هذا عند أهل الكتاب، وزاد التهييج بقوله ﷻ : ﴿**فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ**﴾ الشاكِّين فتتزلزل عمَّا أنت فيه، وزاد بقوله: ﴿**وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الذِينَ كَذَّبُواْ بِئَايَاتِ اللهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾.

وفي تلك التهييجات قطع لأطماع الكُفَّار عن أن يترك الحقَّ، وإعلام بأنَّ الامتراء والتكذيب بلغا في القبح إلى حيث ينبغي أن ينهى عنهما من لا يحسن أن يتَّصف بهما.

(أصول الدين) ﴿**إِنَّ الذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ**﴾ قضاياه بالشقاوة أو بالعذاب؛ أو ما في اللوح المحفوظ. وأفعال العباد معلومة لله تعالى

١- رواه **أحمد** في مسنده، ج٣، ص٣٨٧. وروراه **الدارمي**، ج١، ص١١٥، و**ابن عبد البر** في جامع بيان العلم، ج٢، ص٤٢. من حيث جابر بن عبد الله.

ومخلوقة له طاعة ومعصية، ومرادة له لا تخالف علمه ﴿لاَ يُومِنُونَ﴾ وإن آمنوا ارتدُّوا وماتوا على الردَّة ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ تشاهَد أو تتلى، لأنَّ قضاء الله لا يخلف وعدا كان أو وعيدا. ﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ الْعَذَابَ الاَلِيمَ﴾ فإذا رأوه لم ينفعهم إيمانهم، كما لم ينفع فرعون إيمانه حين رأى العذاب الأليم.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ـ امَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي الْارْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا افَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُومِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُومِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

قصَّة يونس عليه السلام مع قومه

﴿فَلَوْلاَ كَانَتْ﴾ أي تكون ﴿قَرْيَةٌ﴾ من القرى التي استؤصلت بالعذاب ﴿آمَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَانُهَآ﴾ أي هلاَّ كان أهل قرية آمنوا قبل مجيء العذاب إليهم وحضوره، فنفعهم إيمانهم بأن كان قبل حضور الوعيد؟، فحذف المضاف فرجعت الضمائر إلى ما لا يليق بالمضاف إليه من الإفراد والتأنيث.

وأريد بقرية أهلها تسمية للحال باسم المحلِّ وروعي لفظها فلا حذف، وزعم بعض أنَّ القرية وضعت لأهلها أيضا على الاشتراك، والمراد: أهل القرية العاصون؛ أو المشرفون على الهلاك. و«لَوْلاَ» حرف تحضيض، فكيف يحضُّهم على شيء خصَّه بقوم يونس، وهو قبول التوبة بعد حضور العذاب، كما قال: ﴿إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ﴾ والاستثناء متَّصل، وصحَّ الاستثناء لأنَّ التحضيض دالٌّ على الانتفاء قبله ؟ .

الجواب: إمَّا أنَّه حضَّهم على ما يمكن من التوبة لو أتوا به كما أتى به قوم يونس، على أنَّ المشاهد تقبل توبته لو أتى بها كما أتى بها قوم يونس، وإمَّا أن لا يعدَّ اسوداد سقوفهم وحيطانهم والدخان حضور عذاب، ولو كان من أجل ما توجَّه إليهم من العذاب ومقدمة له، وقد قيل: إنَّ أمارة العذاب ليست حضورا له ولا مشاهدة.

ويجوز أن يكون التحضيض على التوبة قبل حضور العذاب فيكون الاستثناء منقطعا، لأنَّ قوم يونس تابوا بعد حضوره؛ ويجوز أن تكون للتوبيخ فإنَّه لا يخفى أنَّ ذلك الاسوداد حضور لكن حضور أمارة، أي لكن قوم يونس وهم يعبدون الأصنام في نينوى من الموصل، ومن حضره العذاب رفع عنه التكليف فلا ينفعه قول ولا عمل بخلاف الصبيان فإنَّه يقبل عملهم مع أنَّه لا تكليف عليهم.

﴿لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال ابن مسعود وقتادة: لم يكن ذلك إلاَّ لقوم يونس، وعليه الجمهور، وقال الزجاج والقرطبي: لم يروا العذاب بل أمارته وهو الإسوداد والدخان، ولو رأوا عين العذاب لم ينفعهم إيمانهم، والمانع من القبول التلبُّس بالعذاب لا أمارته فهم كمريض يرجو الشفاء، قال بعض: رأى قوم يونس دليل العذاب فآمنوا، وقيل: رأوا العذاب عيانا بدليل قوله: ﴿كَشَفْنَا﴾ فإنَّ الكشف لا يكون إلاَّ بعد شروع أو قربه، ونسبه بعض للجمهور.

و«عذاب الخزي»: هو الدخان والسواد غامت السماء غيما شديدا أسود هائلا، يدخن دخانا شديدا، وكان فوق رؤوسهم، ويقال: غشيهم كما يغشى

الثوب القبر[١]، ويقال: بينه وبينهم قدر ثلثي ميل، ويقال: قدر ميل.

(قصص) لَمَّا عصوه أخبرهم أنَّ العذاب مصبِّحهم إلى ثلاث؛ أو إلى ثلاثين؛ أو أربعين، فقالوا: لم نجرِّب عليه كذبا قطُّ، فإن لم يصبح فيكم فقد صدق فخرج جوف الليل فغشيهم العذاب صبحا يوم عاشوراء يوم الجمعة، فتابوا وردُّوا المظالم، حتَّى كان الرجل يقلع الحجر الحرام من أصل بنيانه، وخرجوا إلى الصحراء لابسين المسوح باكين مفرِّقين بين الأولاد والأمهات منهم ومن الدوابِّ، وعلت الأصوات وقالوا بأمر شيخ بقي من علمائهم: «يا حيُّ حين لا حيَّ، ويا حيُّ يحيي الموتى، ويا حيُّ لا إله إلاَّ أنت، اللهمَّ إنَّ ذنوبنا قد عظمت وجلَّت وأنت أعظم وأجلُّ، فافعل بنا ما أنت أهله، ولا تفعل بنا ما نحن أهله» فانصرف العذاب؛ وقيل: عجُّوا إلى الله تعالى أربعين يوما، ولم يعلم يونس بتوبتهم فانصرف مغاضبا، وقد فعل موسى بن نصير مثل فعلهم حين قدم المغرب لإصلاح فساد البربر وليفتح أندلس، وجد أهل المغرب مقحطين، فأمرهم بردِّ المظالم وإصلاح ذات البين، والصلاة والصوم، وخرج بهم إلى صحراء، ومعه سائر الحيوانات وفرَّق بينها وبين أولادها فوقع البكاء والصراخ والضجيج إلى منتصف النهار، وصلَّى وخطب الناس، ودعا الله عَزَّوَجَلَّ فسقوا حتَّى رووا[٢].

﴿وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ حين انقضاء أجلهم، وقيل: إلى ارتفاع القرآن وذهاب الكعبة، إلا أولادهم الآتين بعد ذلك فإنَّهم يتناسلون ويموتون، وخفوا

١- هذا التشبيه يظهر جليًّا لمن يعرف عادة أهل ميزاب أنَّهم عند الدفن وإنزال الميِّت في قبره ينشرون عليه ثوبا ساترا حتى يوارى الميِّت بالتراب فيرفع الثوب.

٢- الحادثة مشهورة أوردتها عِدَّة مراجع، منها ابن الأثير في الكامل، ج٤، ص١٢٠٦، وابن كثير في البداية والنهاية، ج٩، ص١٧٣.

عن الأعين كالجنِّ، كما فعل بالخضر، وقيل: يظهرون أيَّام المهدي ويكونون من أنصاره ثمَّ يموتون؛ وقيل: يموتون يوم القيامة، ولا يصحُّ، لأنَّها لا تقوم إلاَّ على من لا يعرف الله ولا يذكره، ولعلَّ المراد قرب قيام الساعة كرفع القرآن والكعبة وخروج المهدي والدجال؛ أو أخرجهم الله إلى أرض في غير المعمور.

﴿**وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ**﴾ مشيئة بلا إكراه ولا إجبار ولا مشيئة طبع ﴿**ءَلاَمَنَ مَن فِي الاَرْضِ كُلُّهُمْ**﴾ لا يشذُّ أحد. ﴿**جَمِيعًا**﴾ بمرَّة مجتمعين على الإيمان لا متلاحقين، وهو حال، ولكن شاء أن يؤمن من اختار الإيمان، ويكفر من اختار الكفر.

(أصول الدين) وهذا الاختيار خلق من الله أيضا بلا طبع ولا إجبار فبطل قول القَدَريَّة: إنَّ المراد مشيئة الإلجاء ـ وهم المعتزلة ـ إذ زعموا أنَّ أفعال العباد مخلوقة لهم لا لله، وأنَّهم القادرون عليها، وقد قال ﷺ: «**القَدَريَّة مجوس هذه الأمَّة**»[1] وذلك إنَّ المجوس أثبتوا خالقين للخير والشرِّ، قال علماء ما وراء النهر: هم شرٌّ من المجوس، لأنَّ للمجوس آلهة تعدُّ، والمعتزلة لا تعد آلهتهم، لأنَّ كلَّ فاعل عندهم خالق لفعله حتَّى الدواب.

والآية تسلية للنبيء ﷺ في شدَّة حرصه على إيمان قومه، وزاد بقوله: ﴿**أَفَأَنتَ**﴾ أي أتشتدُّ في الحرص فأنت تكره الناس؛ أو أنت مبالغ في الحرص هذه المبالغة فأنت...الخ؛ أو أربُّك لا يشاء ذلك فأنت...الخ؛ أو الهمزة مِمَّا بعد الفاء، والهمزة لإنكار صحَّة ذلك والتوبيخ.

١- رواه **الربيع** في مسنده، باب ما جاء في الحجَّة على القَدَرِيَّة، ج٣، ص١٠، رقم٧٩٨. **وأبو داود** في كتاب السنَّة، باب في القدر، رقم٤٦٩١، مع زيادة في آخره. من حديث ابن عمر.

(نحو) و«أَنتَ» فاعل لـ«تُكْرِهُ»، حذف وحده برز ضميره منفصلا يدلُّ عليه «تُكْـرِهُ» المذكور بعدُ، لأَنَّ الاستفهام عن الإكراه لا عن المكره. والمعنى: أيصحُّ أن تكره الناس؟ لا يصحُّ، ولو جعل مبتدأ لكان المعنى: أأنت الذي تكرههم لا الله؟ وهذا لا يصحُّ لأنَّ الله أيضا لا يكرههم على الإيمان، إلاَّ على الفرض والتقدير: لو كان يليق الإكراه لكان القادر عليه الله لا أنت، والله قادر لكن لا ثواب للمكرَه بفتح الراء. ومفعول «تُكْرِهُ» المحذوف هو الناس في قوله: ﴿تُكْرِهُ النَّاسَ﴾ ولا مفعول لتكره المذكور لأنَّه تأكيد للمحذوف. ويجوز أن يكون «النَّاس» مفعولا لـ«تُكْرِهُ» المذكور، ويقدَّر للمحذوف، أي أفأنت الناسَ تكره الناسَ بنصب «الناس» في الموضعين.

والمراد بالناس من طبع على قلبه؛ أو العموم مبالغة. ﴿حَتَّىٰ يَكُونُوا مُومِنِينَ﴾ لا تقدر على ذلك، وإكراههم مستحيل لأنَّ الله تعالى قضى أن لا يكرهوا.

وزاد تسلية بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ اَن تُومِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ﴾ بإرادة الله، ولا تكفر أيضا إلاَّ بإرادة الله تعالى، أي بشيء بها إلاَّ بإذن الله؛ أو في حال من الأحوال إلاَّ في حال ملابسة إرادة الله سبحانه وتعالى؛ أو في حال ما كسلامة العقل وصحَّة البدن إلاَّ في حال ملابسة إذن الله ﷻ، وهذا في المعنى تعليل لقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ...﴾ **وما لم يرده الله مستحيل فلا يتعاطى فضلا عن أن يجهد فيه.**

﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ لا يدركون بعقولهم الآيات والأحكام، أي لا يعقلونها، أو لا يستعملون عقولهم بالتدبُّر في الدلائل والآيات، عطف على محذوف، التقدير: يأذن لمن أراد الله أن يؤمن باختياره فيؤمن فيثاب.

﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ﴾: أي الشيء الخبيث وهو العذاب، أو الكفر، أو الخذلان، إذ هما سبب العذاب على الذين أراد الله أن لا يؤمنوا باختيارهم. والمضارع المقدَّر الذي هو لفظ «يأذن» و«يَجْعَلُ» المذكور للاستمرار؛ أو بمعنى الماضي على أنَّ المراد القضاء، كما يدلُّ له قوله تعالى:

﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ (١٠١) فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (١٠٢) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣)﴾

فرضية النظر والتفكير وإنذار الغافلين

﴿قُلُ انظُرُواْ﴾ نظر تدبُّر في الدلائل والآيات المتلوَّة **﴿مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ﴾** من الدلائل، والجملة مفعول لـ«انظُرُوا» معلَّق عنها، لأنَّ المعنى: تعلَّموا أو تعرَّفوا، بشدِّ اللام والراء؛ أو مستأنفة، وانظروا في الآيات المتلوَّة بدليل قوله : **﴿وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ﴾** المتلوَّة كما لم تغن آيات السماوات والأرض **﴿وَالنُّذُرُ﴾** الرسل، والمفرد نذير؛ أو مصدر جُمِعَ للتنويع، أي أنواع الإنذار **﴿عَن قَوْمٍ لاَّ يُومِنُونَ﴾** سبق القضاء عليهم أن لا يؤمنوا ولا يختاروا الإيمان، وإن أريد بالآيات آيات السماوات والأرض كان من وضع الظاهر موضع المضمر.

(نحو) و«مَاذَا» مبتدأ و«فِي السَّمَاوَاتِ» خبر؛ أو «مَا» مبتدأ و«ذَا» موصولٌ خبرٌ صلته «فِي السَّمَاوَاتِ»، وهذا أولى. و«مَا» الثانية مفعول مطلق، أي أيَّ إغناء تغني، وهي استفهاميـَّة؛ أو نافية، والمفعول محذوف أي ما تغني شيئا، والجملة حال؛ أو اعتراض بيانيٌّ على النفي لا على الاستفهام، لأنَّ الإنشاء

لا يكون حالا إلاَّ بتأويل ولا داعي إليه، ولا خفاء في جعلها حالا على أنَّ «مَا» نافية، لأنَّ المعنى: أنت مأمور بالقول ولو كان لا يؤثّر فقل ولو كان قولك لا يؤثّر فيهم.

ورتّب على قوله: ﴿وَمَا تُغْنِي الاَيَاتُ...﴾ قوله: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ﴾ بالإعراض عن الإيمان بك، والفاء للسببيَّة، والاستفهامان للإنكار، وفي قوله: ﴿مَاذَا﴾ للتقرير. ﴿إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ﴾ إلاَّ مثل وقائع الأمم قبلهم، فالأيَّام: الوقائع، يقال: يوم من أَيَّام العرب، أي حرب من حروبهم، تسميةً للحال باسم المحلِّ الذي هو الزمان. ﴿قُلْ فَانتَظِرُواْ﴾ إن أبيتم إلاَّ الإصرار على الكفر فانتظروا ذلك المثل ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ له؛ أو فانتظروا هلاكي إنِّي معكم من المنتظرين هلاككم، فإنَّكم لا تستحقّون إلاَّ ذلك.

(نحو) و«مَعَكُمْ» خبر، و«مِنَ الْمُنتَظِرِينَ» خبر ثان، وفي تعليقه بمنتظرين تقديم معمول الصلة على الموصول، إلاَّ إن توسّع لكونه ظرفا، وفي جعله حالا من ضمير الاستقرار تقديم الحال على عاملها المعنوي و«مِنَ الْمُنتَظِرِينَ» في هذه الأوجه هو الخبر ولم يتعدَّد وفي الوجه الأوَّل؛ أو تعليقه بمنتظر محذوف هكذا: إنِّي منتظر معكم من المنتظرين السلامة من ذلك.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ عطف على محذوف تقديره نهلك كفَّار الأمم ثمَّ ننجِّي رسلنا ﴿وَالذِينَ ءَامَنُواْ﴾ من العذاب، والمضارع لحكاية الحال لتكون من العذاب كأنَّها مشاهدة. و«ثُمَّ» للترتيب الذكري لا الزمان، لأنَّ التنجية لهم قبل إهلاك الكفرة ومعها.

﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُومِنِينَ﴾ محمَّدا وأصحابه بعد إهلاك الكفرة؛ أو المراد أصحابه، وأمَّا هو ﷺ فمعلوم بالأولى.

و«حَقًّا» مصدر مؤكّد لغيره، بمعنى حقَّ ذلك حقًّا، كابني أنت حقًّا؛ أو حال من الكاف، على أنَّها اسم منصوب على المفعوليَّة المطلقة مضاف لِمَا بعده؛ أو من تنجية محذوفا، أي تنجية ثابتة كذلك؛ أو «كَذَلِكَ» خبر لمحذوف، والتقدير: الأمر كذلك، على أنَّ الإشارة للإهلاك والتنجية، ويقدَّر بعده: هكذا ننجي المؤمنين ونهلك الكافرين حقًّا، وقدَّم «حقًّا».

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾

إخلاص العبادة لله

﴿قُلْ يَـآ أَيـُّهَا النَّاسُ﴾ أهل مَكَّة و«الـ» للعهد وهم المعهودون، لأنَّ الشمس النَّبَويَّة طلعت من بينهم، ويجوز أن يكون «الـ» للجنس فيكون المراد المكلَّفين من أهل مَكَّة وغيرهم، قريش وغيرهم، الحاضرين والغائبين، من وجد ومن سيوجد؛ والأوَّل أولى لأنَّ أصل الخطاب أن يكون للموجود الحاضر، وغيرهم مستفاد من النصِّ الآخر العامِّ.

﴿إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي﴾ في شكٍّ من كون ديني حقًّا، قولا وفعلا واعتقادا، و«مِنْ» بمعنى في متعلِّق بـ«شَكٍّ»، وقال: ﴿فِي شَكٍّ﴾ مع أنَّهم في جزم ببطلان الدين للإشارة إلى أنَّهم عارفون الحقَّ وجحدوه، كما يخاطب

الجازم خطابا بصورة الشكِّ تثبيتا؛ أو كأنَّهم عرفوه لظهور دلائله، وإنَّ أقصى ما يبقى للعاقل إذا قصَّر أن يشكَّ، وأمَّا الجزم فعناد محض ولا سبيل إليه البتَّة.

﴿فَلاَ أَعْبُدُ﴾ أي فأنا لا أعبد، وإنَّما قدَّرت ذلك لأنَّ «لاَ أَعْبُدُ» يصلح شرطا، فلو كان وحده جوابا لجزم وسقط الفاء، وليس تقدير كقولك: فهذه خلاصة ديني اعتقادا وعملا فاعرضوها على العقل الصرف، وانظروا فيها بعين الإنصاف لتعلموا صحَّتها، جوابا أولى من كون «لاَ أَعْبُدُ...»الخ جوابا، فإنَّ كُلاًّ من قوله: ﴿فَلاَ أَعْبُدُ الذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾ ومن كون خلاصة ذلك لا يتوقَّف على ثبوت شكِّهم فيجوز تقدير: لا أتَّبعكم في مقتضى شكِّكم لأنِّي قد توثَّقت بأن لا أعبد الذين تعبدون من دون الله، ولا أترك ديني أبدا، كما قال: ﴿لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ...﴾ (سورة الكافرون: ٠٢).

﴿الذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾ وهم الأصنام وهي لا تقدر على الإحياء ولا التوفِّي، وقال: ﴿الذِينَ﴾ مجاراةً لهم في الخطاب إذ يجعلونها كالعقلاء ﴿وَلَكِنَ اَعْبُدُ اللهَ الذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ فيجازيكم، فإنَّ المحيي المميت هو الحقيق بأن يعبد.

والحاصل: إن كنتم في شكٍّ من ديني الذي أعبد الله تعالى به وأدعوكم وغيركم إليه ولم تعلموا به فإنِّي أخبركم أنَّه تخصيص العبادة به تعالى؛ أو إن كنتم في شكٍّ من صحَّة ديني فإنِّي أخبركم بأنَّ خلاصته عبادة الإله الذي يملك الإماتة لا ما لا قدرة له على شيء كأصنامكم.

والمقام لذلك لا لِمَا قيل من أنَّ المعنى: إن شككتم أأتركه إلى دينكم أو إلى غيره فاقطعوا طمعكم في تركه، وصحَّ لكثرة ذكر الإماتة مقرونة بالبعث أن يقال: المعنى أعبد الذي خلقكم ثمَّ يتوفَّاكم ثمَّ يعيدكم للجزاء، فاقتصر على

ذكر بعضه، وخصَّ التوفِّي بالذكر مع أنَّه هـو المحيي أيضـا للتهديـد إذ لا شـيء أشدَّ عليهم من المـوت، ولذلـك خـاطبهم خصوصـا و لم يقـل: أعبـد ا لله الـذي يتوفَّى الأحياء، وقدَّم ذكر ترك عبادة غـيره علـى ذكـر عبادتـه لأنَّ التخلِّـي قبـل التحلِّي.

﴿وَأُمِرْتُ أَنَ اَكُونَ مِنَ الْمُومِنِينَ﴾ أي بأن أكون مِمَّن آمن بالوحي، وبمـا أَدَّى إليه العقل مِمَّا يكون العقل فيه حجَّة، وهذا أمر بأصل الإيمان، وذكر الأمـر بالاستغراق في نور الإيمان بقوله: ﴿وَأَنَ اَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ فإنَّ المعنـى: أعرض بالكلِّيَّة عمَّا سواه فإنَّه هو المراد بإقامة الوجه، فإنَّ مـن أراد أن ينظـر إلى شيء نظر استقامة أو باستقبال يقيم وجهه إلى سمت لا يميـل يمينـا ولا شمـالا ولا فوق ولا تحت، وإلاَّ اختلَّت المقابلة المـرادة، وذلـك استعارة تمثيليَّـة؛ أو كنايـة، والوجه على ظاهره؛ أو بمعنى الذات.

وقيل: المعنى صرف العقل بالكلِّيَّة إلى طلب الديـن، وقيـل: المراد استقبال القبلة في الصلاة وعلـى هـذا المـراد بـالدين خصـوص الصـلاة مجـازا، وهـو غـير متعارف، سواء جعلنا التجوُّز لأنَّها جزء من الدين أو أنـَّها سمِّيت هكـذا باسـم الدين، مع أنَّـه لا يتعارف «أَقِمْ» بمعنى وجِّه للقبلة.

(نحو) و«حَنِيفًـا» حـال مـن الديـن أو الوجـه، والأوَّل أولى للقـرب، ولأنَّه حال من صاحب الدين في غير هذه الآية، ولأنَّ كونه من الوجه يوجـب كونه حنيفا في وقت إقامته، والظاهر أنَّه حنيف بعد الإقامة. والحـال مؤكَّـدة في الوجهين لا في الثاني خاصَّة كما قيل، وبعض المعطـوف محـذوف، أي وأوحـي إليَّ أن أقـم. و«أَنْ» مفسِّـرة وليس العطـف علـى «أَنَ اَكُـونَ...» وإلاَّ لـزم أن تكون معه مَصدَرِيَّة، لأنَّها في المعطوف عليه مَصدَرِيَّة، ولزم دخـول البـاء علـى الأمر، والمصدريَّة لا تكون في الأمر لأنَّـه لا مصدر للأمر خارجيـًّا ولـو أجـازه

سيبويه، وإذا أوِّل بالمصدر وهو غير طلبي زال معناه الطلبي.

﴿وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ تأكيد لِمَا قبله؛ أو أريد به خصال الإشراك كالرياء والسمعة والالتفات إلى الوسائط، والالتفات إلى غير الله وغير ذلك من أنواع الشرك الخفيِّ. والعطف على «أَقِمْ» و«أَنْ» تفسيريَّة، وحرف المصدر لا يدخل على النهي إذ لا مصدر له خارجي. ﴿وَلاَ تَدْعُ﴾ تسأل، أو تعبد ﴿مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ﴾ إن فعلت به ما هو ضر أو نفع وهو الأصنام، وذلك مزيد تهييج على التوحيد، لأنَّه يزداد وينقص. والعطف على «أَقِمْ»؛ أو على «لاَ تَكُونَنَّ» ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ ذلك على الفرض والتقدير ﴿فَإِنَّكَ إِذًا﴾ أو إذ فعلت؛ أو إذا فعلت ﴿مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾ لأنفسهم بالذنوب ولغيرهم بشؤم الذنوب.

﴿وَإِنْ يَّمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ﴾ كفقر ومرض ولا مصيب إلاَّ الله ﴿فَلاَ كَاشِفَ﴾ رافع ﴿لَهُ, إِلاَّ هُوَ﴾ والأصنام لا تضرُّ ولا تكشف الضرَّ ﴿وَإِنْ يُّرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ لم يقل: يمسسك، إشارة إلى أنَّ الخير مراد بالذات بخلاف الضرِّ فإنه يمسُّ بالعرض، ولا يوجد شرٌّ جزئيٌّ ما لم يتضمَّن خيرا كلِّيًّا، فالمطر الشديد مثلا وإن هدَّم بعض البيوت؛ أو أفسد الزرع؛ أو الثمار لكن ينبت الحبوب وما ينتفع به الوحوش والأنعام والثقلان، ويعود على ما أفسد بالإصلاح ويسهل البناء، وإلاَّ ففي الضرِّ إرادة ومسٌّ وفي الخير كلاهما، ولعلَّه أيضا ذكر في كلٍّ منهما ما حذف من الآخر.

﴿فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ لا رادَّ له أي للخير، ووضع الفضل موضع ضمير ليخبرنا أنَّ الخير فضل منه لا استحقاق لنا، ولا واجب على الله، فلو عبد الإنسان أكثر من عبادة الملائكة وغيرهم من أوَّل الخلق إلى آخرهم لم يجب له

على الله شيء، لكن اقتضت حكمته لفضله إثابته، وإن أريد بالفضل مطلق فضله لم تكن الجملة جوابا بل علّة للجواب المحذوف أي نلته ولم يفتك لأنّه لا رادَّ لفضله، ولم يقل: وإن يردك بخير فلا رادَّ لفضله إلاّ هو كما قال: ﴿فَلاَ كَاشِفَ لَهُ, إِلاَّ هُوَ﴾ لأنّه ذكر الخير بالإرادة فلم يبق للاستثناء معنًى، بخلاف الضرِّ فإنّه مذكور بالمسِّ لا بالإرادة.

ومراد الله لا يمكن ردُّه، وهي صفة ذات، والمسُّ صفة فعل، والمعنى: وإن يرد بك الخير، لكن لَمَّا تعلّق الخير بالإنسان والإنسان بالخير جازت العبارتان، إلاَّ أنَّ التقديم في اللفظ يدلُّ على زيادة العناية بالمقدَّم، فدلَّ قوله: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ على أنَّ المقصود الإنسان وسائر المخلوقات مخلوقة لأجله، وأيضا أشار إلى الاستثناء بقوله: ﴿يُصِيبُ بِهِ﴾ بالفضل وهو الخير؛ أو بالخير ﴿مَنْ يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ في وقته المقدَّر، لا من لم يشأ، ولا في غير وقته ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ فتعرَّضوا لمغفرته بالتوبة ولا تيأسوا، ولرحمته بالطاعة، فإنّه الغني الشكور.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

الإسلام دين الحقّ ووجوب اتّباعه

﴿قُلْ يَآ أَيُّهَا النَّاسُ﴾ أهل مَكّة، وهذا أولى من العموم، وهو مستفاد من المقام الآخر ﴿قَدْ جَآءَكُمُ الْحَقُّ﴾ القرآن؛ أو مطلق الوحي عموما؛ أو الرسول ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ فلا عذر لكم ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ بالتصديق والعمل ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ فنفع اهتدائه لنفسه وهو ثواب الله، فما للمكلّف يرغب عن

نفع نفسه؟ ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ بالإشراك؛ أو الكبائر ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ وبال ضلاله على نفسه فما له يسعى في ضرِّ نفسه؟ ﴿وَمَآ أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ لم يترك إليَّ أمرك فأجبركم على الهدى وأحفظكم عن الضلال، والحافظ هو الله، وهذا حصر، والمعنى: ما أنا بل الله، وما أنا إلاَّ بشير ونذير. و«مَا» حجازيَّة، بدليل أنَّه إذا ظهر الإعراب كان النصب، كقوله تعالى: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ (سورة يوسف: ٣١) ، و﴿مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِم﴾ (سورة المجادلة:٠٢) ، والقرآن بلغة الحجاز لا بلغة تميم فلا تَهِم.

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ بالحفظ والتبليغ والامتثال قرآنا أو غيره من الوحي ﴿وَاصْبِرْ﴾ على مشقَّة الدعوة إذ يقابلونك بما تكره بالطبع وبالحقِّ، وتحمَّل أذاهم الذي يؤذونك به إذا دعوتهم إلى الحقِّ ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ فيهم بأمره، من القتل والنصر عليهم والأمر بالقتال قال بعض:

سأصبر حتَّى يعجز الصبر عن صبري وأصبر حتَّى يحكم الله في أمري
سأصبر حتى يعلم الصبر أنَّني صبرت على شيء أمرَّ من الصبر

﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ أعدلهم، لأنَّه لا يحكم إلاَّ بحقٍّ، وعالم بالسرائر والظواهر على حدٍّ سواء، ولا يخطئ، بخلاف غيره، فقد يحكم بالظاهر ويخالف الباطن الذي هو الواقع، وقد يتعمَّد الخطأ، وقد يعجز فيحكم بباطل.

وصَبَر ﷺ ولم يقلق ولم يستعجل حتَّى أذن الله له بالقتال مطلقا، وأخذ الجزية من أهل الكتاب والمجوس إن لم يؤمنوا، وبالسبي والغنيمة مطلقا، ومن أهل الكتاب والمجوس إن لم يؤمنوا ولم يذعنوا للجزية.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

تفسير سورة هود عليه السلام وآياتها ١٢٣

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ① أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ② وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ③ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ④ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ⑤﴾

إحكام القرآن ودعوته إلى عبادة الله والتوبة إليه والإيمان بالبعث

﴿أَلَر﴾ اسم للسورة عند الخليل وسيبويه، مبتدأ وقوله: ﴿كِتَابٌ﴾ خبره؛ أو هذه السورة مسمَّاة «أَلَر» ويقدَّر: اقرأْ ألر، أو اذْكُر ألر، ويقدَّر: القرآن كتاب؛ أو حروف تذكر للإعجاز، كأنَّه قيل: القرآن مركَّب من جنس هذه الحروف التي تكتب وتقرأ، فأتوا بمثله إن كان من غير الله، أو تنبَّه يا محمَّد فتعي ما يوحى إليك، فـ«كِتَابٌ» خبر لمحذوف، أي القرآن كتاب، أو السورة كتاب، فإنَّ القرآن والكتاب يطلقان على البعض كما يطلقان على الكلِّ.

روى الترمذي وقال حسن غريب، عن ابن عَبَّاس رضي الله عنه قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله قد شبت، قال: «**شيَّبتني هود والواقعة والمرسلات وعمَّ يتساءلون وهل أتاك حديث الغاشية**»[1]، أي لأنَّ فيهنَّ ذكر القيامة والبعث

١- رواه **الترمذي** في كتاب التفسير (٥٧) باب: ومن سورة الواقعة، رقم ٣٢٩٧. من حديث ابن عَبَّاس.

والحساب والجنَّة والنار، ولقوله: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾(سورة هود :١١٢).

﴿أُحْكِمَتَ ـ ايَاتُهُ﴾ أُلِّفت تأليفا متقنا لا نقص فيه ولا خلل، أو منعت من النسخ لبعضها أو لكلِّها، وهذا على أنَّ المراد السورة فإنَّه لم ينسخ منها شيء، يقال: أحكمت الدَّابَّة إذا وضعت عليها الحكمة، وهي ما يمنعها من الجماح، فهي ممنوعة من الإفساد بالنسخ إي الإبطال، أو حقَّقت الآيات بالحجج.

وجعلت حكيمة على أنَّ الهمزة للتصيير، بمعنى أنها مشتملة على الحكم الاعتقاديَّة، كالتوحيد والإيمان بالملائكة والأنبياء ونحو ذلك من خصال التوحيد، وعلى الحكم العَمَلِيَّة التي هي عمل الفرائض وما دونها، وترك المعاصي وتصفية النفس.

[قلت:] ولا نسلِّم أنَّه نسخ منها أربع كما قال بعض: ﴿إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ...﴾(سورة هود: ١٢) ﴿وَقُل لِّلذِينَ لاَ يُومِنُونَ...﴾(سورة هود: ١٢١) والتي تليها بالسيف، و﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾(سورة هود :١٥) بـ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾(سورة الإسراء :١٨) لأنَّ ذلك لا يختلف بشرع القتال وعدمه، ولأنَّ النسخ لا يكون في الخبر.

﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ زُيِّنت بالفرائد كما تزيَّن القلائد بالفرائد، بأن يجعل بين كلِّ لؤلؤتين خرزة، أو يجعل بين اللآلئ الكبار ما هو صغير من الجواهر، أو ما يغاير لونها، شبَّه القرآن باللآلئ المنظومة والعقائد والمواعظ بالفرائد اللآلئ الكبيرة في الفصل، أو الفرائد: آيات التوحيد، أو ذلك استعارة تمثيليَّة.

أو معنى «فُصِّلَتْ» جعلت سورا، إمَّا على إرادة القرآن فظاهر، وإمَّا على إرادة السورة فبمعنى جعل آياتها متفرِّقة بالمعنى في سائر السور، من التفصيل بمعنى التفريق، أو معنى «فُصِّلَتْ»: أنزلت نجوما، أي أوقاتا متفرِّقة، من التفصيل

بمعنى التفريق أيضا، أو معناه: لُخّصت وبيِّنت فيما يحتاج إليه العبد، والإسناد على هذا مجاز عقليٌّ، لأنَّ التفصيل في معاني الآيات لا في ألفاظها.

و«ثُمَّ» للتراخي في الرتبة لا في الزمان، لأنَّ تفصيل آياتها ليس متراخيا عن إحكامها ـ بكسر الهمزة ـ فإنَّ الإحكام مقارن للتفصيل والتفصيل متراخ عن الإحكام رتبة، لأنَّ التفصيل بِأَيِّ معنى كان أقوى وأدخل في المدح من الإحكام؛ أو «ثُمَّ» لمجرَّد الترتيب في الإخبار بلا تراخ في الزمان، لأنَّ الإخبار بالتفصيل عقب الإخبار بالإحكام، اللهمَّ إلاَّ باعتبار الجزء الأوَّل وانتهاء الأخير، أو باعتبار أنَّ اللفظ إذا انقضى فقد بعد. ويجوز أن يكون بمعنى: جعلت منفصلة وصادرة تحقيقا، والتشديد للمبالغة، ويدلُّ لهذا قراءة فتح الفاء والصاد مع التحقيق، كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾(سورة يوسف :٩٤) .

﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ نعت ثان لـ«كِتَاب» والأوَّل «أُحْكِمَتْ»، أو خبر ثان والأوَّل «كِتَابٌ»، أو تنازعه «أُحْكِمَتْ» و«فُصِّلَتْ»، أو حال من المستتر في «فُصِّلَتْ». و«لَدُنْ» بمعنى: عند، والعلمُ إذا أضيف إلى الخفايا الباطنة يسمَّى خبرة وصاحبه مخبرا، وهو أبلغ من العلم، ولذا أخّر في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ وهذا تقرير للإحكام والتفصيل إذ جاءا ممَّن يعلم الخفايا ولا يخفى عنه شيء.

﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ﴾ لئلاَّ تعبدوا إلاَّ الله، و«لاَ» نافية لا ناهية فلا تهم، كيف يصحُّ معنى لا الناهية بعد لام الجرِّ والتعليل، وأجيز تقدير باء السببيَّة ولا نافية أيضا، والجار متعلّق بـ«فُصِّلَتْ» أو «أُحْكِمَتْ» على التنازع.

أو المراد: ضمِّن الكتاب أن لا تعبدوا، أو من النظر: ألاَّ تعبدوا إلاَّ الله، أو في الكتاب ألاَّ تعبدوا إلاَّ الله، أو تفصيله ألاَّ تعبدوا إلاَّ الله، أو هي أن لا تعبدوا

إلاَّ ا لله، أو بدل من آيات، والأوَّل أولى، ويليه أن تكون تفسيرية، لأنَّ في التفصيل معنى القول دون حروفه.

وقيل: يجوز أن يكون إغراء إلى ترك عبادة غير ا لله، أغراهم إلى تركها وإنَّما يعرف هذا في الاسم الصريح، ولا يجوز أن يكون مفعولا مطلقا لأَتْرُكُوا، لأنَّ المفعول المطلق لا يكون في المؤوَّل بالمصدر فلا تهم.

﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ الهاء لله، أو للكتاب، والظرفان حالان من «بَشِير»، ويقدَّر مثلهما لـ«نَذِير»، أو من المستتر فيهما أو منه حال من المستتر في «لَكُمْ»، أو متعلِّق بـ«بَشِير» ويقدَّر مثله لـ«نَذِير» على معنى: يحصل التبشير منه والإنذار منه، والمراد الإنذار بالعذاب لمن كفر وخالف الكتاب، والتبشير لمن آمن وعمل. وقدَّم الإنذار لأنَّ التخويف أهمُّ وسبب لِمَا به التبشير، ولأنَّه أنسب بالزجر عن عبادة غير ا لله عَجَلَّ.

﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ أن مفسِّرة، واستُدِلَّ بها على أنَّ قوله: ﴿أَن لاَّ تَعْبُدُواْ﴾ نهيٌ، والفعل مجزوم، و«أَنْ» فيه تفسريَّة لا مصدريَّة، ولا يقدَّر فيه شيء، ولا بأس بهذا.

(نحو) وإنَّما المحذور جعل «أَنْ» ناصبة مصدريَّة بعدها «لاَ» الناهية الجازمة، لأنَّه لا خارج للنهي يكون علَّة لِمَا قبله مثلا، وذلك أنَّ معنى المصدر ملاحظ قبل التأويل، ولا يتصوَّر اعتبار حصول معناه في الطلب، بخلاف الإخبار فإنَّ معنى المصدر موجد فيه ومراد قبل التأويل، ولو كان لا يدلُّ على مضيٍّ أو استقبال فلا تهم، فقد علمت أنَّه لا تدخل «أن» المصدريَّة على الأمر والنهي، وإذا جعلنا «أَنْ» مصدريَّةً قدَّرنا: وآمركم أن استغفروا، ونحو ذلك.

﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ الاستغفار من الشرك، والتوبة: التجرُّد إليه بالطاعة، أو الاستغفار: التوبة من الشرك والذنوب. و﴿تُوبُواْ﴾: معناه أقيموا على ذلك، أو ﴿تُوبُواْ﴾: توصَّلوا إلى مطلوبكم وهو الغفران والجنَّة، أو الاستغفار مِمَّا مضى والتوبة عَمَّا يأتي، أو استغفروا عَمَّا مضى وتوبوا الآن عمَّا تفعلون بعدُ، أو توبوا إذا فعلتم بعدُ، وإذا تابوا قبلُ وجب التجديد بعدُ.

وقيل الاستغفار: ترك المعصية، والتوبة: الرجوع إلى الطاعة؛ أو الاستغفار: طلب ستر الذنب والعفو، والتوبة: الندم عليه والعزم على عدم العود. و«ثُمَّ» في ذلك كلِّه على ظاهرها ويجوز أن تكون للترتيب الرتبي، لأنَّ الرجوع عن المعصية إلى الطاعة فضل ومزيَّة على طلب الغفران.

﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا﴾ يحييكم في راحة بالغنى أو بالقناعة والأمن من غير الله، وانتظار الأجر العظيم في الآخرة والميل إلى الطاعة، بخلاف من لم يقنع ففي مشقَّة اللهف والحرص والجزع، فلا ينافي ذلك ما يصيب المؤمن من المكاريه، وخوف الخاتمة، وكون الدنيا سجن المؤمن، ولا كون أشدَّ الناس بلاء الأمثل فالأمثل، وأيضا يثاب على مصائبه بالغفران ورفع الدرجات وهذا تمتيع حسن.

أو المعنى: لا يهلككم بالاستئصال أو بالمسخ، والمشرك مع شركه لا يخلو من الخوف من الاستئصال إذا سمع به لمن تقدَّم، أو من مآله إلى الاستئصال ولو لم يستشعر به بمنزلة من استشعر به لأنَّه مآله.

أو عدم المؤاخذة على النعم بأن يرزقكم الحلال وتؤدُّوا شكره، بخلاف الكافر فإنَّه يعاقب على النعم إذ لم يشكرها، وأيضا لا يبالي بالحرام.

(صرف) و«مَتَاعًا» اسم مصدر، أي تمتيعا، ولا يصحُّ أن يكون بمعنى ما

يمتّع به، لأنَّ التمتيع لا يتعدَّى بنفسه إلى ما به التمتيع، لا يقال: متّعته حليبا إلاَّ على نزع الجارِّ، فلا تهم.

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو ما قضى ا لله من العمر أي إلى آخر العمر أو في العمر، أو إلى أجل، أو هو الآخر، وليس لأحد إلاَّ أجل واحد وهو الوقت الذي قتل فيه مثلا. ﴿وَيُوتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ﴾ حسن في العمل، فإنَّ فاعل الخير فاضل على فاعل الشرِّ، وهو مقابل ذي فضل فما له إلاَّ العقاب، ويجوز أن يكون ذلك في تفاوت الأعمال الصالحة، فمن زاد على الآخر في العمل الصالح بكثرة أو تجويد فله ما زاد، ولمن دونه بقدر ما عمل بنقص ﴿فَضْلَهُ﴾ جزاء فضله في الدنيا والآخرة، أو في الآخرة، والهاء لصاحب الفضل، لأنَّ في ذلك ترغيبا.

ويجوز عودها لله بمعنى أنَّ ثواب العامل فضل من ا لله، ولا واجب عليه، والفضل على هذا نفس الثواب، ويجوز أن يكون هو العمل، بمعنى أنَّ الأعمال مخلوقة لله وملك له، فيقدَّر مضاف كالأوَّل هكذا: جزاء فضله.

(نحو) وذكر السهيلي أنَّ «فَضْلَهُ» مفعول أوَّل و«كُلَّ» مفعول ثانٍ، لأنَّ الأوَّل في باب أعطى وكسا هو الذي كان فاعلا في المعنى، وهكذا أقول، والمفسِّرون لا يقولون بذلك كأنَّهم يفسِّرون يؤتي ويعطي بـ«يُنِيل» فيجعلون النائل هو الأوَّل، وأمَّا بلا تأويل فالآتي الفضل وأنَّ العاطي في «أعطيتك درهما» هو المخاطَب بمعنى الآخذ.

وقدَّم الفضل الكبير على عذاب اليوم الكبير لتقدُّم رحمته تعالى، ولأنَّ العذاب تعلَّق بالتولِّي عَمَّا يوجب الفضل الكبير من التوحيد وغيره. ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ تُعْرِضُوا عن ترك عبادة غير ا لله والاستغفار والتوبة، والأصل: تتولوا

بصيغة مضارع الخطاب، بدليل الخطاب في قوله: ﴿فَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [قلت] ومن العجيب أن يقال: إنَّه ماض، وإنَّه يقدَّر القول، أي فقل: إنِّي فلا التفات، وكأنَّ الالتفات حرام حتَّى يتحاشى عنه بهذا.

ونعت اليوم بالكبر لعظم عذابه، كما وصف بأنَّه يوم ثقيل ولطوله، لا كأيَّام الدنيا القصيرة من غروب لغروب، أو طلوع لغروب، ومن العجيب أنَّه قيل قد يكون نعتا لـ«عَذَاب» منصوبا إلاَّ أنَّه جرَّ للجوار، واليوم: يوم القيامة، أو يوم في الدنيا شديد الهول كما ابتلوا بالقحط حتَّى أكلوا ما مات وجاف ودَادَ، وحتَّى إنَّ أبصارهم تغيَّرت لشدَّة الجوع حتَّى كأنَّ في الهواء دخانا.

﴿إِلَى ا للهِ﴾ لا إلى غيره، وأيضا قدِّم لتربية المهابة ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ رجوعكم لا يفوته عقابكم الكبير الموعود به، أو بعد العذاب الكبير في الدنيا عذاب يوم الرجوع إلى ا لله ﷻ، وكسر «مَرْجِع» فصيح استعمالا شاذٌّ قياسا، كما قال ابن مالك [في لامية الأفعال]:

في غير ذا عينه افتح مصدرا وَسِوَا ... هُ اكْسِرْ، وشذَّ الذي عن ذلك اعتزلا

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو قادر على إيتاء كلِّ ذي فضل فضله، وعلى العقاب الشديد بدليل ما مرَّ.

وذكر بعض أنَّ قدير مبالغة فيكون العذاب شديدا لشدَّة قدرته، كما قيل إنَّ أفعال ا لله كلَّها قويَّة لقوَّته تعالى عن صفات الخلق، وعلى كلِّ حال فالجملة تأكيد لكبر اليوم، أو العذاب، وتنبيه على أنَّ الكبر وصف لِمَا وقع فيه، لكن وصف به للملابسة على المجاز العقلي، وعلى أنَّ المراد يوم القيامة، ومن جملة قدرته بعثكم وجزاؤكم وعلمه بما في الصدور كما قال:

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ يصرفونها عن الحقِّ إلى الباطل والكفر،

يشتغلون في الخلوة بذمِّ النبيء ﷺ وفي قلوبهم، فالذمُّ ثني للصدور، وتكوينه في القلب والخلوة استخفاء كما قال: ﴿**لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ**﴾ فالثني كناية عن الإعراض لأنّه من لوازمه، وحقيقته إمالة الجسم عن غير كإمالة ثوب أو جنب، أو استعارة تشبيها للمعقول بالمحسوس.

(صرف) والأصل: "يثنيون" ثقلت الضمَّة على الياء ونقلت إلى النون المكسورة قبلها بعد إزالة كسرها بالإسكان، وحذفت للساكن بعدها.

والاستخفاء علَّة لقوله: ﴿يَثْنُونَ﴾، أي يقتصرون على الذمِّ بقلوبهم وعلى الخلوة ليستخفوا، فصحَّ جعله علَّة للإعراض المخصوص بالقلب والخلوة، لا كما قيل: إنَّه لا يصحُّ، وإنَّه علَّة لمحذوف تقديره: يريدون ليستخفوا، لأنَّه إن أريد أنَّ «يَسْتَخْفُوا» مفعول لـ«يريد» فاللام زائدة لا تعليل، وإن أريد أنَّ المعنى: يريدون الثني ليستخفوا فذلك رجوع إلى جعله علَّة لـ«يَثْنُوا» فإنَّ معنى: أراد إكرامك وأكرمك لتكافئه، واحد من جهة التعليل.

ويجوز أن يكون معنى ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾: يحنونها على الكفر وعداوة رسول الله ﷺ، كمن انحنى على شيء محافظة عليه، لا يظهرون ذلك ليخفى عن الله، وهذا شأن طائفة من المشركين، ويبعد أن يكون ذلك في المنافقين، لأنَّ السورة مَكِّيَّة، ولا مانع من النفاق في مكَّة، قيل: كان فيها الأخنس بن شريق حلو اللسان والمنظر، يلقى رسول الله ﷺ بما يحبُّ وينطوي بما يكره.

ولا مانع من كون الآية مَدَنِيَّة جعلت في سورة مَكِّيَّة إلاَّ أنَّه خلاف الأصل، لا يخرج عليه إلاَّ بحجَّة، وقد قال عبد الله بن شدَّاد: نزلت في بعض المنافقين إذا مرَّ برسول الله ﷺ ثنى صدره وطأطأ رأسه وغطَّى وجهه لئَلاَّ يراه ﷺ فيدعوه إلى الإيمان؛ أو الآية في المشركين مطلقا، فإنَّ لهم أحوالا في مكَّة ففي بعض الأحيان يخفون العداوة.

أو المعنى: يولون ظهورهم إعراضا عن الحقِّ، فإنَّ من ولَّى أحدا ظهـره ثنـى عنه صدره، يرون النبيء ﷺ فيولونه ظهورهم، فثني الصدر مجاز عن تولية الظهر أوَّلاً، ثمَّ إنَّه مجاز أو كناية عن الإعراض ثانيا.

﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ يدخلون رؤوسهم فيها للنوم مثلا **﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾** ﴿أَلَا﴾: تأكيد وتنبيه، و«حِينَ» متعلّق بـ«يَعْلَـمُ»، قـدِّم على طريـق الاهتمـام لا للحصـر، فإنّـه إذا علـم السـرَّ الـذي في وقـت التغشـية والتكييف في القلب فأولى أن يعلـم غيـر ذلـك مـن وجـوه السـرِّ، وهـذا لبـادي الرأي، وإلاَّ فا لله استوى عنده كلُّ سرٍّ وكلُّ جهـر، وأيضـا لا يـلزم مـن كونـه يعلم كذا وقت كذا أن لا يعلمه في غيره، وأيضا ورد ذلك على قولهـم: إنَّـا إذا أخفينا شيئا لم يعلمه ا لله فلا يخبر بـه محمَّـدًا ومـن معـه، فـلا حاجـة إلى تعليقـه بمحذوف فرارا من توهُّم أنَّه لا يعلم في غير ذلـك، وأنَّ التقديـر: ألا يسـتخفون منه ؟ أو ألا يريدون الاستخفاء؟ وأيضا هذا التقدير لا يناسبه التـأكيد والتـنبـيه. و«مَا» موصول حـرفيٌّ أو اسمـيٌّ، أي إسـرارهم وإعلانهـم، أو مـا يسـرُّونه ومـا يعلنونه.

(سبب النزول) ويقـال نزلـت في طائفـة مـن المشـركين يقولـون: إذا أرخينا ستورنا واستغشينا ثيابنا وطوينا صدورنا على عداوة مُحَمَّد فكيف يعلـم؟ فكان الرجل يدخل بيته ويرخي ستره، ويحني صـدره ويتغشَّـى بثوبـه، ويقـول: هل يعلم ا لله ما في قلبي؟ ويقال: يحنون صدورهم لئـلاَّ يسـمعوا كتـابَ ا لله ولا ذكره.

[قلت:] ولا يصحُّ مـا قيـل عـن ابـن عبَّـاس رضي الله عنه إنَّ الآيـة نزلـت في أنـاس يستحيون أن يقضوا حاجة الإنسـان أو يجـامعوا في غـير سـتر عـن السـماء، لأنَّ اجتناب ذلك مأمور به شرعا، فكيف تفسَّر الآية بنفيه، وكذا ما قيل: إنَّها نزلت

في أناس يتعبَّدون بستر ما يستحى من كشفه من أبدانهم إلى السماء، ولو غير عورة. وقدِّم السرُّ معالجة عليهم بإظهار ما أضمروا واجتهدوا فيه، وكأنَّه يعلم سرَّهم أكثر مِمَّا يعلم جهرهم وليس كذلك بل هما سواء.

﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بالاعتقادة ذات الصدور، والخطرة ذات الصدور، أو الأحوال ذات الصدور. والصدور: القلوب مجازا، أو هو على حقيقته، فيكون «ذات الصدور»: القلوب التي فيها، أو ما مرَّ. والعلم بالقلوب: علم بأحوالها، فكيف يخفى عنه شيء؟ وقد علم ما في الصدور فإنَّه لا أخفى منه إلاَّ ما سيقع، وهو عالم به أيضا لأنَّ علمه ذاتيٌّ لا يشذُّ عنه شيء.

(أصول الدين) وفي الآية ردٌّ على من زعم من المعتزلة أنَّ الله لا يعلم الشيء حتَّى يقع، وهذا في معنى الإشراك تعالى الله، وهم طائفة منهم.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ۝٦ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾

فضل الله وعلمه وقدرته

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الاَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا﴾ أكلها وشربها وكلُّ ما تنتفع به فضلا منه لا وجوبا فلا واجب عليه، وأمَّا «عَلَى» فلتحقيق وصولها إلى رزقها كأنَّه واجب، ويجوز جعل «عَلَى» بمعنى مِن، والمراد بالأرض ما تحت السماء، فشمل الطير وما في بحور الجوِّ وهذه البحور، والطائر يدبُّ إذا نزل من طيرانه، وسبح الحوت دبيبها وما حبس عن المشي.

روي أنَّ موسى عليه السلام لَمَّا نزل عليه الوحي تعلَّق قلبه بأحوال أهلـه، فـأمره الله عز وجل أن يضـرب صخـرة بعصـاه فضربهـا فانشـقَّت عـن صخـرة، فضربهـا فانشقَّت عن صخرة فضربها، فانشقَّت عن دودة في فيها ورقـة وهـي في أسـفل البحر فسمعها تقول: [أي بلسان حالها] «سبحان من يرانـي، ويسـمع كلامـي، ويعرف مكاني، ويذكرني ولا ينساني».

والمراد الدَّابَّة التي لها رزق فهو على الله ومنه، فلا تَشْكُلُ دَابَّة مـاتت قبـل أن تأكل أو تشرب مثلا، فإنَّ هـذه لا رزق لهـا، وكـذا الـتي احتـاجت ومنعـت لأنَّها انقضى رزقها، وفي ﴿عَلَى﴾ استعارة تبعيَّة لتحقيق وصول الرزق، ووجـه الشبه عدم التخلُّف، ففي كلٍّ من الواجب والموعود بـه الحصـول لا عدمـه، **وفي ذلك إغراء بالتوكُّل فـلا يـبقى إلاَّ الإجمال في الطلـب**، كمـا في الحديث[1]، و«فِي الأَرْضِ» نعت لـ«دَابـَّةٍ» أولى مـن أن تعلَّـق بـه تعلُّقـا مراعًـى فيـه معنى حدثه، لأنَّ المتبادر تغلُّب الاِسمِيَّة فيه.

﴿**وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا**﴾ موضع اسـتقرارها في الدنيـا ﴿**وَمُسْتَوْدَعَهَا**﴾ موضـع استيداعها بعـد المـوت كالقبر؛ أو موضـع اسـتقرارها في الصلـب، وموضـع استيداعها في الرحم؛ أو موضع اسـتقرارها في الأرض، وموضـع اسـتيداعها قبـل وجودها كالمنيِّ والعلقة، وما تولَّدت منه من طعام وشراب ونبات وغير ذلك.

وعن ابن عبَّـاس ﴿مُسْتَقَرَّهَا﴾: حيث تأوي ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾: حيث تموت، فقيل: هذا إشارة إلى آخر التكفُّل وإلاَّ فلا رزق بعد الموت، وعن ابـن مسـعود: ﴿مُسْتَقَرَّهَا﴾: الأرحام، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾: حيث تمـوت، بمعنـى أنَّـه تعـالى يعلـم

١- يشير الشيخ إلى الحديث: «أَيُّهَا الناس اتَّـقوا الله وأجملـوا في الطلـب...» رواه ابن ماجة في كتاب التجارات، رقم ٢١٣٣، من حديث جابر (م.ح).

مكانها آخر ما تحتاج للرزق ويسوقه إليها.

ويجوز أن يكونا مصدرين بمعنى: يعلم استقرارها واستيداعها، أو زمانين أي وقت استقرارها ووقت استيداعها، ويجوز في «مُسْتَوْدَعَهَا» أن يكون اسم مفعول، أي ما تودع فيه من المواد كالمنيِّ والمقار كالصلب والرحم، والتفسير الأوَّل أولى لتبادره، ولعمومه ما لا نطْفَةَ فيه ولا صلب ولا رحم.

وقد قيل: المراد الإنسان على طريق الاستخدام لمناسبة قوله تعالى فيه: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ (سورة الأنعام: ٩٨).

﴿كُلٌّ﴾ كلُّ ما ذكر من الدواب ومستقرِّها ومستودعها ورزقها وكذا جميع أحوالها، أو كلُّ شيء ﴿فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ اللوح المحفوظ المبين لكلِّ شيء مِمَّا ينتهي، وهذا تتميم لِمَا قبل كما يقرُّ أحد بما عليه ويزيد بأنَّه قد كتب على نفسه فيه كتابا يحفظه له ولا ينساه، وهذا بيان لكونه عَجَلَّ عالما بالمعلومات كلِّها.

وأمَّا بيان كونه قادرا على الممكنات بأسرها ففي قوله عَجَلَّ ﴿وَهُوَ الذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضَ﴾ وما فيهما وما بينهما، ويدلُّ على هذا أنَّ خلقهما أعظم فغيرهما مخلوق بالأولى له، ولأنَّ الانفراد بالشيء دالٌّ على الانفراد بما فيه، أو لابسه، ولكن خصَّ السماوات والأرض بالذكر لقوله: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾؛ أو أراد بالسماوات كلَّ العلويَّات فشمل العرش والكرسيَّ وما في ذلك، وبالأرض كلَّ السفليَّات فشمل ما فيها، كذا قيل على التجوُّز، وفيه أنَّه خلاف الأصل، ولأنَّه لا يصلح له ذكر سِتَّة أَيَّام، ويجاب بأنَّه لا مانع من خلق ما فيهنَّ في ستَّة أيَّام.

والأولى حمل الآية على ظاهرها وحكمته أنَّ الناس يعرفون السماوات

والأرض وهما عظيمان فلوَّح إلى أنَّ من خلقهما لا يعجزه شيء. والمراد بالأرض الأرضون، فـ«الـ» للاستغراق، أو هذه الأرض الواحدة لأنَّ المخاطبين قد لا يعرفون سبع أرضين وهم يعرفون سبع سماوات، وعلى الاستغراق فإنّما أفرد الأرض لأنّها نوع واحد وهو التراب، بخلاف السماوات فبعضها ذهبٌ وبعضها فضَّة وبعضها زبرجد وهكذا، وقيل في الأرضين أيضا باختلاف النوع.

والأيَّام الستَّة على التوزيع خلق السماوات في يومين والأرض في يومين، والأقوات في يومين. والمراد بستَّة أيَّام مقدارها، لأنَّ خلق السماوات والأرض حين لا شمس ولا قمر، وأمَّا الزمان فإمَّا عدم وإمَّا موجود بعد عدم، وقد يجوز أن يخلق الشمس والقمر ثمَّ يخلق السماوات بحيث يأخذان منها محلا.

﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَآءِ﴾ مُمَاسًّا له قبل خلق السماوات والأرض، سواء خلق العرش قبل الماء ثمَّ خلق الماء تحت عمدة له، أو خلق الماء قبله ثمَّ خلقه على الماء.

وقيل أوَّل مخلوق من العالم بعد العرش الماء، وخرج بالعالم نوره ﷺ وروحه فإنّهما مخلوقان قبل العرش، ولا مانع من خلق العرش والماء معا بوقت واحد، قال كعب الأحبار: خلق الله ياقوتة خضراء وصيَّرها ماء، وخلق الريح تحته ثمَّ وضع العرش على الماء وملكه، والعرش الملك.

واستُدِلَّ بالآية على إمكان الخلاء الموهوم، وهو الفراغ الموهوم، وحقيقته: أن يكون الجسمان لا يتمسَّان وليس بينهما فضاء، والحقُّ منعه، ولا دليل في الآية على الجواز، ولا مانع من التماس، وقيل: معنى كونه على الماء إنّما كما هو الآن في محلّه عال على الماء أو خلق الماء والعرش وملكه.

﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ متعلّق بـ«خَلَقَ»، والمعنى: ليعاملكم معاملة المختبر لأحوالكم

﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ عمل جارحة أو عمل قلب، كما قال ﷺ : **«أيكم أحسن عقلا، وأورع عن محارم الله، وأسرع في طاعة الله ﷻ؟»**[١] وعن سفيان: معنى ﴿أَحْسَنُ عَمَلاً﴾: أزهد في الدنيا، وعن مقاتل: أتقى لله ﷻ، وعن الضحَّاك: أكثرهم شكرا.

ومدار العمل على القلب إذا رسخت معرفة الله فيه، وقد يرفع لصاحبه عمل الأرض، وجاء الحديث بأنَّ تفكُّر ساعة يعدل عبادة سبعين سنة[٢]، وقوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ...﴾ استعارة، ووجه كون خلق السماوات والأرض معلولا للابتلاء أنَّ منهما الأرزاق وفيهما النظر للاستدلال على وجود الله، وكمال قدرته وعلمه.

وإنَّما قال: ﴿أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ بصيغة التفضيل، ولم يقل: «أيكم حسنٌ عملا» بصيغة الصفة المشبَّهة مع أنَّ أفعال المكلَّفين معتبرة بالتفاوت بالحسن والقبح لا إلى أحسن وأقبح، للتحضيض على التنافس بالترقِّي والازدياد في مراتب الحسن. وإنَّما علَّق البلوى بالاستفهام لِمَا فيه من معنى العلم.

(نحو) وحقيقة التعليق تعطيل العامل عن عمله الأصلي، تقول: علمت هل قام زيد أو هل زيد قائم، فعطلت عَلِمَ عن نصب مفردين بنصب محلِّ الجملة قائمة مقامهما، وأصل البلوى التعدية بالباء فعطِّل عنها بنصب محلِّ الجملة قائمة مقام مفعول مفرد، وأمَّا كونه بمعنى العلم المستحقِّ لمفعولين فكفى عنه

١- أورده **الألوسي** في تفسيره، ج٤/ ص١١، وأوَّله هو: عن ابن عمر رضي الله عنه قال: تلى رسول الله ﷺ عليه هذه الآية: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ فقلت مامعنى ذلك يارسول الله؟ قال: «أيكم أحسن عقلا...». وقال: أخرجه ابن جرير. وابن أبي حاتم، والحاكم في التاريخ، وابن مردويه عن ابن عمر.

٢- تقدَّم تخريجه، انظر: ج٣/ ص١٠٩، بلفظ «ستِّينَ» بدل «سبعين»، من حديث أبي هريرة.

اشتمال اللفظ على المسند والمسند إليه.

﴿وَلَئِن قُلْتَ﴾ يا محمَّد للمشركين ﴿إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ﴾ ستبعثون ﴿مِن بَعْدِ الْمَوْتِ﴾ الخطاب هنا للمشركين، وفي قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ﴾ للمؤمنين، أو لهم وللمشركين وهو أولى، لأنَّ الكلام قبل وبعد في غير خصوص المؤمنين، أو المشركين كما هنا، أو هنا أيضا للمشركين والمؤمنين.

وقوله: ﴿لَيَقُولَنَّ الذِينَ كَفَرُواْ﴾ لا يمنع من التعميم، لأنَّ المعنى عليه: ولئن قلت للناس: إنَّكم مبعوثون ليقولنَّ الذين كفروا منهم، وعلى أنَّه هنا للمشركين لم يضمر في الجواب لأنَّه لم يظهر في الشرط بل حذف، ولو قال: ولئن قلت للكفَّار: إنَّكم مبعوثون لقال: «ليقولُنَّ ما هذا...»الخ بضمِّ اللام.

واستبعد أن يكون من وضع الظاهر موضع المضمر، وإنَّما ذلك لو أظهر في الشرط، اللهمَّ إلاَّ بدعوى أنَّ قوله: ﴿إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ﴾ ظاهر في الكفرة، بمقتضى الظاهر بعد الإضمار لهم لا الإظهار كأنَّه لظهوره قد أظهر في الشرط، ولا يخفى بُعد عود الخطاب في «يَبْلُوَكُمْ أَيُّكُم» للكفرة خصوصا لأنَّ الكافر يبدأ له بالحسنيَّة والقبحيَّة لا بالأحسنيَّة والأقبحيَّة، إلاَّ أنَّه لا مانع من خطابهم بالأحسنيَّة والأقبحيَّة لكثرة الدلائل حتَّى كأنَّهم آمنوا.

﴿إِنْ هَذَآ إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ما هذا الذي تقول من البعث، وهذا أولى من ردِّ الإشارة إلى البعث، لأنَّهم لا يقولون: البعث سحر بل القول به، إلاَّ أن يراد بالسحر مطلق الباطل الذي لا أصل له، وأولى من ردِّ الإشارة إلى القرآن، لأنَّه لم يذكر لهم لفظ القرآن، مثل أن يقول: جاءني في القرآن إنَّكم مبعوثون، ولو كان المعنى عليه وصحيحا أيضا من حيث إنَّ المعنى: لو تلوت عليهم من القرآن ما فيه إثبات البعث، ومن حيث إنَّ ذكر البعث مشعر بالقرآن لذكره فيه، فكأنَّه ذكر القرآن وأشاروا إليه، وإنَّما البعث سحر عندهم باعتبار القول به والوعظ، فإنَّه يؤثِّر في النفوس بالإعراض عن الدنيا كالسحر كما أنَّ القرآن كذلك.

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ۚ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾

موقف الإنسان المؤمن والكافر عند النعمة والنقمة

﴿وَلَئِنَ اَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ إلى مجيء أوقات معدودة، فالأُمَّة: الطائفة من الزمان كالطائفة من الناس، والتنكير للتقليل، و«الـ» في «العذاب» للجنس الشامل لعذاب الناس الكفرة، أو للعهد وهو العذاب الموعود به وهو عذاب بدر، أو عذاب يوم القيامة في قوله: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ (الآية: ٣) ؛ وقيل: العذاب قتل جبريل خمسة مستهزئين قبل بدر.

وقيل: **الجماعة يتعارفون ولا يكون فيهم مؤمن**، وقيل: أمَّة يعصون بعد هؤلاء فيهلكون معا.

وزعمت الإماميَّة من الشيعة أنَّهم ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا، كعدَّة أهل بدر من أهل البيت، يكونون مع المهدي، وإذا جاءك حديث في أهل البيت وفي سنده شيعي **فخذ حذرك** فإنَّهم يكذبون.

﴿لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾ عن الوقوع لو صحَّ، وهذا استهزاء وإنكار له، وفي لفظ الحبس أنَّ العذاب متهيِّئ للوقوع لولا أنَّه محبوس عنه، تهكَّموا بهذا وأنكروا أيضا البتَّة.

﴿أَلاَ يَوْمَ يَاتِيهِمْ﴾ متعلّق بـ«مَصْرُوفًا»، وتقديـم معمـول خـبر ليـس عليهـا دليل على جواز تقديم خبرها عليها من باب أولى.

(نحو) ويقال: لا نسلّم الأولويّـة، فإنَّ تقديم الخـبر أعظـم مـن تقديـم معموله، ولا سيما أنَّ المعمول الظرفيَّ يتوسَّع فيه، ومعمول جواب "أمَّـا" يتقـدَّم على الفاء ولو كان ظرفا مع أنّه لا يتقدَّم العامل، نحو: أمَّا اليوم فأكرم زيدا، وأمَّا في الدار فأكرم زيدا اليوم، ويجوز: ما اليوم زيد ذاهبا، بتقديم معمول خبر "مـا" على اسمها مع أنّه لا يجوز تقديم خبرها، والمانع ـ وهم الكوفيُّـون ـ يقدِّرون: ألا يلازمهـم العـذاب يـوم يـأتيهم. ﴿لَيْـسَ مَصْرُوفًـا عَنْهُـمْ﴾ وضمـير «يَـأْتِي» و«لَـيْسَ» للعذاب، والأصل: ليس العذاب مصروفا عنهم يوم يأتيهم.

﴿وَحَاقَ﴾ نزل أو أحاط، ولا يستعمل إلاَّ في الشـرِّ، والمراد: يحيق، لكـن استعمل الماضي في موضع المضارع مبالغة في التهديد، لإبراز ما سيقع في صـورة الواقـع، وفيـه استعارة تبعيَّـة باعتبـار الزمـان. ﴿بِهِـم﴾ عليهـم ﴿مَّا كَـانُواْ بِـهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ جزاء كونهم يستهزئون بالنبيء ﷺ والوحـي مـن القـرآن وغـيره، وذلك الجزاء هو العذاب.

(نحو) والمضارع مقدَّر كما رأيـت، و«مَـا» مَصدَرِيَّـة كمـا رأيـت، ويجوز أن تكون اسما ويضاف الجزاء لِمَا اسـتهزأوا بـه لأنَّـه سببـه إذ كذَّبـوا بما كانوا يستهزئون به، ويجوز جعل الاستهزاء أو ﴿مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ بمعنـى العذاب أو الجزاء، تسميةً للمسبَّب باسم السبب، والهاء لـ«الْعَـذَاب» إذا كـانت «مَا» مَصدَرِيَّة، ولـ«مَا» إذا كانت اسما.

والمراد بالاستهزاء: الاحتقار بذلك إذ جعلـوه كذبـا، أو الاستعجال، لَكِـنَّ الاستعجال مبنيٌّ على التكذيب، ويجوز أن يكـون المعنـى: وحـاق بهـم العـذاب الذي يستهزئون به.

﴿وَلَئِنَ اَذَقْنَا الاِنسَانَ﴾ أعطيناه، مشركا أو موحِّدا، لأنَّ كفران النعم والإيَّاس والبطر والفخر تصدر منه كما تصدر من المشرك، ويجوز أن تكون للمعهود الكافر في الآية قبله، كما قيل: الأصل في «الـ» للعهد فلا تحمل على غيره إلاَّ لدليل، ولا دليل هنا إلاَّ الاستثناء بعدُ، والأصل فيه الاتِّصَال، وعلى العهد يكون منقطعا بذلك الوجه، أو على أنَّ «الذِينَ» مبتدأ خبره «لَهُم مَّغْفِرَةٌ».

﴿مِنَّا﴾ للابتداء متعلّق بـ«أَذَقْنَا»، أو حال من قوله: ﴿رَحْمَةً﴾ نعمة يجد لذّتها كما هو شأن الذوق، وذلك كالغنى والصحَّة.

(بلاغة) والإذاقة مستعار للأعضاء المشتمل لإدراك أثر النعمة، لأنَّ الذوق إدراك الطعوم، ويستعمل اتِّساعا لمطلق إدراك المحسَّات والمعقولات، واختار لفظ الرحمة على فضل الإنعام لأنَّه أدلُّ على التفضُّل وعدم الوجوب.

﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ﴾ «مِنْ» للابتداء، ويضعف ما قيل: إنَّها للتعليل، أي لأجل ذنبه، ولا دليل عليه، والمراد: النزع بعد تراخ طويل في التلذُّذ بها، فكيف لو نزعت على عجل، فإنَّه يكون أشدَّ كفرا. والتعبير بالنزع دون السلب للدلالة على شدَّة تمسُّكه بها. ﴿إِنَّهُ لَيَئُوسٌ﴾ عظيم انقطاع الرجاء لفضل الله ورجوعها إليه، لقلّة يقينه وصبره أو لعدمهما. ونزعها منه لكفره لها، ولو نزعت مع شكره لأثيب عليها دنيا أو أخرى، أو فيهما، أو كفّر عنه ذنوب. ﴿كَفُورٌ﴾ عظيم كفران النعمة الماضية والنعم الباقية، وكثير الكفران، ويكرِّر الكفران ويعظّمه ولو على زوال نعمة واحدة، ومن الكفر الإيَّاس. وقدّم «كَفُورٌ» للفاصلة.

﴿وَلَئِنْ اَذَقْنَاهُ نَعْمَآءَ﴾ كصحَّة وخصب وعزٍّ ﴿بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ كمرض وجدب وذلٍّ. و«مَسَّتْهُ» نعت «ضَرَّآءَ»، وذلك من الأمور التي يظهر أثرها على صاحبه، ولا يخفى ظهور أثر المرض وما بعده وعكسها على البدن.

(لغة) قال بعض المفسِّرين: النعماء: نِعَمٌ يظهر أثرها على صاحبها، والضرَّاء: مضرَّة يظهر أثرها على صاحبها، لأنَّها خرجت مخرج الأحوال الظاهرة كحمراء وبيضاء، وهو بهذا الوزن، إلاَّ أنَّها اسم جمع لا واحد له إلاَّ بالمعنى كنعمة لأنَّها ليست جمع نعمة، والنعمة أعمُّ من النعماء، لأنَّها لا تختصُّ بما يظهر أثره، والمضرَّة والضرُّ أعمُّ كذلك من الضرَّاء.

(بلاغة) وعبَّر بالذوق وهو ما تختبر به الطعم، والمسِّ وهو أوَّل الاتِّصَال تنبيها على أنَّ ما في الدنيا تمثيل بقليل الدنيا على ما في الآخرة كالعنوان، وأنَّ الإنسان يبطر بأدنى شيء، وخالف بين تحوُّل النعمة إلى الشدَّة وعكسه و لم يوفِّق بأن يقول بدل قوله: ﴿وَلَئِنَ اَذَقْنَا...﴾ ولئن أذقنا الإنسان شدَّة وضرًّا بعدما أعطيناه رخاء ورحمة على حدِّ ﴿وَلَئِنَ اَذَقْنَاهُ نَعْمَآءَ...﴾ للتنبيه على سبق رحمة الله غضبه، ولأنَّ المقصود بالذات الرحمة والبلاء للخروج عن الطريق بسوء التدبير، فهو بالعرض، ولذلك أيضا لم يقل: بعد مسِّ ضرَّاء بتقديم المسِّ.

وأيضا لم يقل: أمسسنا كما قال: ﴿اَذَقْنَا﴾ ليدلَّ أنَّ المقضي بالذات الخير وأمَّا الشرُّ فمقضيٌّ بالعرض، وللتنبيه على مراعاة الأدب مع الله، كما ورد ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾(سورة آل عمران: ٢٦) مع أنَّ الشرَّ بيده أيضا، وأمَّا إسناد النزع إليه فليس إسناد شرٍّ صراحة بل تلطُّفًا.

﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّيَ﴾ الأمور التي تسوءني، أو الأشياء التي تسيئني، وقد كان لا يتوقَّع زوالها لأنَّه يئوس، و لم يشكر نعمة زوالها كما قال:

﴿إِنَّهُ, لَفَرِحٌ﴾ بأمر الدنيا فرح بطر واغـترار، وأكـثر مـا ورد الفـرح في القـرآن للذمِّ، وهو في قوله تعالى: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَاهُمْ﴾(سورة آل عمران: ١٧٠) لغير الـذمِّ لأنَّه في الشهداء. ﴿فَخُورٌ﴾ على الناس بما آتاه ا لله ليشكره عليه مشتغل بـه عـن الشكر، وفي لفظ الإذاقة والمسِّ تـنبيه على أنَّه يقع في الكفران بأدنى مضرَّة، وفي البطر والفخر بأدنى نعمة.

وكلُّ ما أصاب الشقيَّ أو السعيد من الشدائد شيء يسير وكالعدم بالنسبة للعـذاب في الآخـرة ونعمهـا، ولذلـك جـاء: «**إنَّ الدنيـا سـجن المؤمـن وجنَّـة الكافر**»[1] ولو كان تصبيه الشدائد.

﴿إِلاَّ الذِينَ صَبَرُواْ﴾ على الضرَّاء إيمانـا واستسـلاما، والسـياق لذلـك ولـو كان أيضا لا بدَّ من أنَّهم صبروا عن الشهوات وعلى الطاعات. والاستـثناء مـن الإنسان وهو متَّصل إن كان «الـ» للاستغراق، ومنقطـع إن كـان للعهـد، وعـن ابن عبَّاس: المراد الوليد بن المغيرة، وقيل: عبد ا لله بن أميَّة المخزومي.

﴿وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾ على النعماء شـكرا أو السياق لذلـك، ودخـل في عمل الصالحات ترك المعاصي، وعمل الصالحات هنا عبارة عن الشكر والإيمـان، قال ﷺ : «**الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر**»[2] .

﴿أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم وتقصـيرهم ومكـاريههم، ولا يخلـو المؤمـن عن ذلك، والشقيُّ يعاقب على صغـائره وكبـائره وتقصـيره والمكـروه الكراهـة الشديدة ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ الجنَّة، ودفع التكاليف والأمن من عذاب ا لله، أو الأجر الكبـير: أدناه الجنَّة حين يدخلونها وازديادها في مقـدار كـلِّ يـوم تخـرج بـه عـن

١- تـقدَّم تخريجه، انظر: ج٣/ ص٢٧٤.

٢-رواه **القضاعي** في مسنده الشهاب، ج١/ ص١٢٧، رقم١١٢. من حديث أنس.

الأدنى، أو الأجر الكبير: الجنَّة مطلقا وهي أدناه، والأعلى رضى الله، على معنى أنَّه وليٌّ لهم وأنَّهم أولياؤه لا يسخط عليهم، وقال: ﴿كَبِيرٌ﴾ بدل عظيم للفاصلة لأنَّها على الراء، وتارة تكون على الموازنة. وهؤلاء أربعة شروط وأربعة أقسام أجيب الأقسام لتقدُّمها بدليل اللام قبل «إِنْ»، وأغنت أجوبتها عن أجوبة الشروط.

والشرط متحقِّق في ذلك كلِّه، فوجه «إِنْ» الشرطية الموضوعة للشكِّ اعتبار أنَّ ذلك الواقع من الجائز المحتمل ولو تعيَّن بمقتضى الوعد، أو اعتبار ما سيقع متكرِّرا بعد الوقوع الأَوَّل مثلا قبله سيق مساق ما يشكُّ فيه لأنَّه كم يقع، ويجمع ذلك أن تقول: الشكُّ باعتبار الخلق.

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ١٢ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٣ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٤﴾

مطالب مشركي مكَّة العجيبة وتحدِّيهم بالقرآن

﴿فَلَعَلَّكَ﴾ تفريع على ما تقدَّم من استهزائهم ومساوئهم، وكأنَّه قيل: إذا تحقَّق شأنهم في قلبك فلعلَّك، أو يسوءك ذلك منهم فلعلَّك، أو ذلك مسيء لك فلعلَّك ﴿تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ الله عالم بكلِّ شيء فلا يتوقَّع، والرسول ﷺ لا يترك ولا يهمُّ بالترك، فطريق «لَعَلَّ» هنا طريق «إِنْ» الشرطية قبلها، والجزم بعد ذلك باعتبار نفس الأمر.

فإنّما جاءت «لَعَلَّ» باعتبار المخلوق في بادئ الرأي، إذا رأى تلهُّفه ﷺ، أو باعتباره ﷺ قبل أن يعلم أنَّ الله عصمه من الخيانة في التبليغ والتقيَّة فيه، أو بعد علمه لكن يغلبه التلهُّف حتى يكون كغيره.

[قلت:] وأمَّا ما قيل في الجواب عن ذلك من أنّه لا يلزم من توقُّع الشيء لوجود ما يدعو إليه وقوعه، لجواز أن يكون ما يصرف عنه وهو عصمة الرسل من الخيانة في الوحي والتقية في التبليغ مانعا، فلا يتمُّ جوابا لأنّه لا يبقى توقُّع مع العلم بالعصمة، أو التوقع باعتبار المشركين، أي بلغ بك الجهد في التبليغ أنّهم يتوقّعون منك ترك تبليغ البعض.

ويجوز أن تكون للاستبعاد المتضمِّن للنهي كما تقول لمن حرص جدًّا: لعلّك تطير إلى السماء، أي لا تحرص ذلك الحرص، أو للاستفهام الإنكاري كما قيل في قوله ﷺ: «**لعلّنا أعجبناك**»[1] استبعد ذلك، أو أنكر العصمة، وذلك البعض هو ما أشتدَّ المشركون في إنكاره مثل إنكار آلهتهم، وذلك لمخافة ردِّهم عليه واستهزائهم، يصعب عليه أن يردُّوا كلام الله، أو يستهزئوا به.

ويجوز أن يكون المعنى: كأنّي بك ستترك بعض ما يوحى إليك، على معنى أَنَّ حالك تشبه حال من يقال له ذلك، ولا ينافيه قوله: ﴿أَنْ يَقُولُواْ لَوْلاَ...﴾ لأنَّ قوله هذا علّة لقوله ذلك.

ويجوز أن يكون المعنى: كأنّي بك ستترك بعض ما يوحى إليك مِمَّا يشقُّ عليك بإذني، وهو أن يرخّص لك فيه كأمر الواحد [أن يثبت] للعشرة، إذ ردُّوا إلى واحد باثنين، على أن يراد ترك الجدال بالقرآن إلى القتال لأنَّ السورة مكّيَّة.

١- رواه **البخاري** في كتاب الوضوء (٣٢) باب الماء الذي يغسل به شعر الإنسان، رقم١٧٨. من حديث أبي سعيد.

﴿وَضَآئِقُۢ بِهِ صَدْرُكَ﴾ عطف على «تَـارِكٌ»، و«صَـدْرُ» فـاعل أو مبتـدأ لـ«ضَائِقٌ»، والجملة معطوفة على «تَارِكٌ».

(صـرف) ونقل ضيِّقا ـ بشدِّ الياء ـ إلى «ضَائِق» للدلالـة على الحـدوث لا لمشاكلة «تَارِك» كمـا قيـل، وذلـك كقولـك في كريـم: كـارم، أي حـادث الكرم في الماضي أو الحال أو الاستقبال، وذلك مقيس كما قال ابـن مـالك، أي يعرض لك أحيانا ضيق صدرك ببعض ما يوحى إليك، أي بتلاوته على الكفـرة، لا لذاته بل لإنكارهم واستهزائهم.

﴿أَنْ يَّقُولُواْ﴾ مخافة أن يقولوا، أو حذر أن يقولوا، أو لئلاَّ يقولـوا، أو بـأن لا يقولوا ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ اَوْ جَـآءَ مَعَـهُ, مَلَـكٌ﴾ ويجوز أن يكـون الهـاء لمبهم يفسِّره ﴿أَنْ يَّـقُولُواْ﴾.

فمصدر «يَقُولُ» بدل من هاء «بِهِ» بـدل مطـابق، ولا يجـوز أن يقـدَّر هنـا ليقولوا، لأنَّه ليس يضيق صدره ليثبت قولهم، ولا يقدَّر أيضا: لئـلاَّ يقولـوا، لأنَّـه أيضا لا يضيق لانـتـفاء القول.

وفي الآية دلالة على أنَّـه ﷺ راسـخ الصـبر، وفسـيح الصـدر، فـإن حصـل ضيق فحادث عارض يزول، وذلك أنَّـه لم يقل: ضيِّق.

ومعنى نزول الكنز عليه: حصوله له لا خصوص نزولـه مـن السـماء، كمـا قال: ﴿وَأَنزَلْنَـا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ...﴾ (سورة الحديد: ٢٥) والمراد: المال الكثير الذي من شأنه أن يدفن مخافة عليه، أو وجه ذلـك أنَّ مرادهـم التعجيز، فـأرادوا كنزا من غـير محلِّـه وهـو السـماء ومحلُّـه الأرض، فيحتمـل أنَّهـم شبَّهوا السـماء بالأرض ورمـزوا لذلـك بـالكنز، أو شـبَّهوا الإنـزال مـن السـماء بـالإخراج مـن الأرض ورمزوا لذلك بالكنز.

(سبب النزول) قال رؤساء مكّة: اجعل جبال مَكّة ذهبا وفضّة تنفقها على نفسك وأهلك وأصحابك وتكثر به جنودك، أو جئ بملك يُصدِّقك، وجئ بقرآن ليس فيه إبطال آلهتنا، خيَّروه في ذلك، وقيل: قال طائفة: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ﴾ وقالت طائفة: هلاَّ جاء معه ملك، أو قائل ذلك عبد الله بن أميَّة، ورضوا به فنسب للكلِّ.

قيل: همَّ النبيء ﷺ أن لا يذكر الآيات التي فيها ذمُّ آلهتهم فنزلت الآية، [قلت:] وهذا لا يصحُّ بظاهره لأنَّه ﷺ لا يهتمُّ بما لا يجوز فكيف في شأن التبليغ والتوحيد؟! ولعلَّ المراد بالهمِّ الخطور في باله، كما هو شأن البشر لا حقيقة الاهتمام بإيقاع ولا يثبت ولو أقلَّ من لحظة.

﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ﴾ جواب من الله عَجَلَّ عن نبيئه ﷺ، كأنَّه قيل: قل إنَّما أنا نذير، إنَّما عليَّ التبليغ لا الإتيان بما اقترحتموه، فلا يضق صدرك بقولهم، ولا سيما أنَّ الله عَجَلَّ منتقم منهم لذلك كما قال: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي حفيظ، فيجازيهم على كفرهم، ويجازيك على إيمانك، فتوكَّل عليه عَجَلَّ؛ ففي ذكر «وَكِيل» أمر بالتوكُّل.

﴿أَمْ﴾ حرف ابتداء منقطعة ﴿يَقُولُونَ﴾ بل يقولون بألسنتهم، أو بل أيقولون، فـ«أَمْ» للإضراب الانتقالي، أو له وللاستفهام الإنكاري، أو التعجيبي، وذلك أولى من جعلها متّصلة عاطفة على تقدير: أيكذِّبونك بقلوبهم أم يقولون، أو أيكذِّبونك بما أوحينا إليك معجزة أم يقولون؟ أو أيكتفون بما ذكر أم يقولون؟ إنَّ الأصل عدم الحذف ﴿افْتَرَاهُ﴾ ضمير افترى له ﷺ والهاء لِمَا يوحى.

﴿قُلْ فَأْتُواْ﴾ إن كنت افتريته فأتوا فإنَّكم فصحاء بلغاء مثلي، فإن عجزتم فاعلموا أنَّه ليس منِّي بل من الله عَجَلَّ ﴿بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ﴾ في الفصاحة والبلاغة

والحكمة والإخبار بالغيوب.

تحدَّاهم أوَّلا بالقرآن في سورة الإسراء عموما، وَلَمَّا عجزوا تحدَّاهم بعشر سور، والتحدِّي بعشر متقدِّم نزولا عن التحدِّي بواحدة مُتَأَخِّر تلاوة، ولَمَّا عجزوا تحدَّاهم بسورة في سورة البقرة المَدَنِيَّة، وهي متأخِّرة في النزول عن سورة هود وفي سورة يونس المتأخِّرة في النزول عن سورة هود، وكلتاهما مَكِّيَّة لأنَّه من عجز عن درهم [مثلا] وقد قلت له: أعطني درهما لا تقول له: أعطني عشرة، وقد يقال: الآيتان مدنيَّتان جعلتا في سورتين مكِّيَّتين، والتحدِّي بعشر نزل قبل التحدِّي بواحدة.

وقال المبرّد: ﴿مِثْلِهِ﴾ في يونس وسورة البقرة بمعنى المماثلة في الفصاحة والبلاغة والإخبار بالغيوب والأحكام، وفي سورة هود في الفصاحة والبلاغة فقط، انتهى بالمعنى وزيادة، **وهو ضعيف**، إذ الأصل اتِّفَاق وجه المماثلة لا يصار إلى تخالفه مع وجود التأويل بالاتِّفاق، والداعي له إلى ذلك مراعاة تتابع السور.

ويظهر لي أيضا وجه آخر إن شاء الله كان حسنا، هو أنَّ المعنى إن كان كذبا فلا يعجزكم أن تأتوا بسور كثيرة تماثله، لأنَّ أمر الكذب سهل، وباب واسع، وهذا كلام يجوز أن يتحدَّاهم به ولو بعد ما تحدَّاهم بسورة.

(صرف) وأفرد «مِثله» باعتبار كلِّ قرآن يُدعى، فإنَّ الهاء عائدة إلى ما يوحى، والمماثلة قائمة بكلِّ واحد لا بالمجموع فالأصل: بعشر سور أمثاله، أو باعتبار أنَّ أصل «مثل» مصدر يصلح للواحد فصاعدا، وقد أفرد هذا في المثنى قال الله ﷻ: ﴿لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ (سورة المؤمنون: ٤٧)، ورعيت المطابقة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لاَ يَكُونُواْ أَمْثَالَكُمْ﴾ (سورة محمَّد: ٣٨)، وقوله تعالى: ﴿كَأَمْثَالِ

اللُّؤْلُؤِ﴾ (سورة الواقعة: ٢٣) ؛ وقيل: الإفراد هنا لتقدير منعوت مفرد، أي مقدار عشر سور مثله، وقيل: أفرد لأنَّه وصف لمجموع العشرة، لأنَّ مدار المماثلة في الجمع شيء واحد وهو البلاغة المعجزة فكأنَّ الجميع واحد.

﴿مُفْتَرَيَاتٍ﴾ مكذوبات كما ادَّعيتم أنِّي جئت بالقرآن من عندي كذبا منّي، لا من عند الله، فأنتم أقدر على الكذب، لأنَّ الحقَّ بعيد عنكم، ولممارستكم الوقائع والأشعار والخصام، فربَّما تكذبون أبلغ منّي بحسب الظاهر المتعارف فيمن يمارس، لكن هو أبلغ لقوله: «**أنا أفصح من نطق بالضاد**»[1] والفصاحة فيه تشمل البلاغة.

﴿**وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللهِ**﴾ إلى أن يعينوكم على افتراء السور على حدِّ القرآن في الفصاحة وغيرها، أو الاستقلال بها دونكم من الناس والأصنام والكهَّان، مع قدرة الكهَّان على حسن السجع ﴿**إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ أنِّي افتريته.

﴿**فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ**﴾ في الإتيان بعشر سور مثله، أو بالمعاونة. والواو لـ«مَنْ» فالكلام من الله، أو الواو للمشركين فالكلام من القول.

(**نحو**) والفاء عاطفة على «قُلْ» عطف طلب على طلب، لأنَّ المعتبر في الشرط هو الجواب وهو هنا أمر، أو رابطة لمحذوف، أي إذا قلت: «فأتوا...»الخ فإن لم يستجيبوا، وذكر بعض أنَّها سَبَبِيَّة، لأنَّ ظهور عدم الاستجابة في تحقُّقه مسبَّب عن الأمر بإتيان ما هو مثله، ومعقّب له، وإن الموضوعة بالشكِّ إنَّما هي باعتبار ظنّهم لأنَّ العجز قبل التدبُّر في بلاغته لم يتحقّق عندهم.

١- تقدَّم تخريجه، انظر: تفسير آية ٣٨ من سورة يونس في هَذَا الجزء ص٦٢.

واختار الاستجابة على الإجابة إذ لم يقل: فإن لم يجيبوا، لأنَّ الاستجابة خاصَّة بتحصيل المطلوب، والإجابة تعمُّ الجواب بتحصيله أو دونه، ولم يقل: «فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا» كما في سورة البقرة إيماء إلى أنَّه ﷺ على كمال أمن من أمره كأنَّ أمره لهم بالإتيان بمثله دعاء لهم إلى أمر يريد وقوعه.

والخطاب في «لَكُمْ» لرسول الله والمؤمنين، لأنَّ تحدِّيه ﷺ تحدٍّ لهم، وَلأَنَّ المؤمنين يتحدَّونهم أيضا، وأمر النبيء بالتحدِّي أمر لهم بالتحدِّي، لأنَّ كلَّ ما عليه أو له عليهم أو لهم، إلاَّ ما خصَّ بدليل، وأيضا هم راضون بتحدِّيه وحاضرون حال التحدِّي.

أو الخطاب للنبيء ﷺ بصيغة الجمع تعظيما له، وفي آية أخرى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ﴾ (سورة القصص: ٥٠)، أو الخطاب لهم تلوينا للخطاب.

والجمع في قوله: ﴿**فَاعْلَمُواْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ اللهِ**﴾ على حدِّ الجمع في «لَكُمْ» تبعٌ له، والمراد: المماثلة في نوع إعجاز القرآن لا في إجمال معاني القرآن كلِّه في عشر السور، وإلاَّ ظهر لهم كأنَّه تكليف بما لا يطاق ولو كان من الجائز أن يأمرهم تعجيزا بأن يأتوا به كلِّه في عشر سور طوال جدًّا حتَّى تجمعه.

(نحو) والباء للملابسة، أي مع علم الله لا الافتراء. و«أَنَّمَا»: للحصر، ولا يغرنَّك ما قيل إنَّها لا تكون للحصر وإنَّ المكسورة تفيده وحدها دون المفتوحة، أي ما أنزل إلاَّ بعلم الله وقدرته لا علم فيه لغيره ولا قدرة، فهو منه أبعد أن ينزله غيره، فيعلم هو أو لا يعلم. أو «مَا» اسم «أَنَّ»، أي الذي أنزل ثابت بعلم الله، وعليه فـ«بِعِلْمِ» خبر لـ«أَنَّ»، ولا يتصوَّر أن تكون مَصدَرِيَّة، لأنَّ «أَنَّ» قبلها مَصدَرِيَّة إذا صرنا إلى المصدَرِيَّة.

ومعنى ﴿اعْلَمُواْ﴾: أثبت يا محمَّد، أو يا محمَّد والمؤمنون على العلم، أو زد أو زيدوا منه، أو المراد العلم الذي في المرتبة العليا التي ما عداها من علم المخلوق كلا علم.

وأجاز بعض أن يكون الخطاب للكفرة على طريق الالتفات إلى الخطاب من الغيبة، والأصل: فليعلموا، ولا يردُّه عن الالتفات وجود الخطاب في ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم...﴾ لأنَّه ليس في نظمه، بل في نظم ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ﴾ ويناسبه أنَّ ضمير الجمع في الآية قبلُ لهم، فليكن لهم في هذه، وأنَّهم أقرب ذكرا.

﴿وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ «أَنْ» مَصدَرِيَّة مخفَّفة، والعطف على «أنَّمَا...» أي: واعلموا أن لا إله إلاَّ هو، أو على «عِلْم»، أي: أنَّما أنزل بعلم الله وبأن لا إله إلاَّ هو، وعلى كلِّ حال المراد: توحيد العالِم بما لا يعلم غيره، القادر على ما لا يقدر غيره، فهو المعبود لا آلهتهم لعجزها عن العلم والقدرة، فليست مجيرة لعابديها من العذاب.

﴿فَهَلَ اَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ ثابتون على الإسلام راسخون فيه، أو زائدون ثباتا عليه للإعجاز الذي شاهدتم، أو الخطاب للكفَّار، أي فهل أنتم داخلون في الإسلام لهذا الإعجاز؟ أو مؤمنون بالقرآن لهذا الإعجاز؟ والفاء سببيَّة أو عاطفة على «اعْلَمُوا».

والمراد: الأمر بالإسلام لتمام حجَّته، كأنَّه قيل: قام موجب الإيمان فلا عذر في التخلُّف عنه، وقد قيل: الاستفهام للأمر، أو للاستبطاء، أو للتقرير، أي أقرُّوا بما عندكم أبقاءٌ على الكفر؟ أم دخول في الإسلام؟، فإنَّه لا مانع لكم إلاَّ حبُّ الدنيا ولذا قال:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

من أراد الدنيا وحدها حرم نعيم الآخرة

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ﴾ من المشركين والموحِّدين، وقيل: المراد المشركون لكن يعتبر في المعنى عموم اللفظ، وكذا في القول بأنَّها في المرائين ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ مطلق الحياة ضدُّ الموت ﴿وَزِينَتَهَا﴾: الأموال والصحَّة والعزَّ والجاه، والرياء والأولاد، أو الحياة الدنيا: المال والصحَّة، وزينتُها: الجاه والعزُّ وما يفتخر به كالأولاد واللباس الحسن والمسكن البديع والرئاسة، و﴿يُرِيدُ﴾: بمعنى يحبُّ الدنيا خاصَّة، ولا بدَّ من أن يكون قد عمل فيها طاعة أو مكارم الأخلاق فقال: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِم﴾ عدِّي بـ«إِلَى» لتضمُّن معنى: نوصل ﴿أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ ثواب أعمالهم فحذف المضاف، أو الأعمال نفس الثواب تسمية للمسبَّب باسم السبب، أي نعطهم ما أرادوا من ذلك عوضا، فيدخلوا الآخرة بلا عمل حسن، أو المعنى: من كان يريد بعمله.

﴿وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ﴾ لا ينقصون شيئا من ثواب أعمالهم، وقدِّم فيها للفاصلة.

وهذه الآية مقيَّدة بالمشيئة التي ذكرت في الآية الأخرى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ, فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ (سورة الإسراء: ١٨) ومقيَّدة بـ﴿مَن نُّرِيدُ﴾ في الآية الأخرى، حتَّى قيل: إنَّها منسوخة بهذه الأخرى ولا نسخ في الأخبار، والتقييد ليس نسخا، ولا سيما التقييد بمشيئة الله تعالى، لأنَّها شيء يراد في كلِّ أمر من الأمور، ولا سيما في كلامه تعالى، فهي مذكورة ولو لم

تذكر.

﴿أُوْلَئِكَ الذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الاَخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ﴾ جزاء على ما أصرُّوا عليه من شرك وما دونه من عمل أو اعتقاد.

(فقه) وقد قال القرطبي عن بعض العلماء: إنَّ الآية في معنى قوله ﷺ: «إنَّما الأعمال بالنيات»[1] فكلُّ عمل لا يعمل إلاَّ على وجه القربة لا تؤخذ الأجرة عليه، والآية دلَّت على ذلك، وكذا شرط العمل في النيات، [كذا في النسخ تأمل] فمن صام رمضان قضاء لآخر أو للكفَّارة أو غير ذلك لم يجزه لرمضان ولا لغيره، ومن غسل للتبرُّد لم يجزه.

﴿وَحَبِطَ﴾ بطل ﴿مَا صَنَعُواْ﴾ من الحسنات كصلة رحم وصدقة وتوحيد وغير ذلك من الفرض والنفل، أي بطل جزاء ما عملوا، أو ما عملوا اسم لمسبِّبه، أو بطل نفس عملهم، كأنَّه لم يعملوه لعدم وجود ثمرة له، وذلك الحبوط في الآخرة لا في الدنيا لأنَّهم قد استوفوه فيها ﴿فِيهَا﴾ متعلّق بـ«صَنَعُوا»، والضمير للدنيا، أي بطل في الآخرة ما صنعوا في الدنيا، أو بطل في الدنيا ما صنعوا في الدنيا، أو عائد إلى الآخرة فيتعلَّق بـ«حَبِطَ» لا بـ«صَنَعُواْ» لأنَّه لا عمل في الآخرة، والمعنى: حبط فيها أي في الآخرة ما صنعوا في الدنيا، فحذف في الدنيا للعلم به، وعلى كلِّ حال المراد: حبط ما صنعوه أو حبط صنعهم.

﴿وَبَاطِلٌ﴾ معطوف على ﴿لَيْسَ لَهُمْ فِي الاَخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ﴾ عطف مفرد على جملة، وكذا إن عطف على ﴿حَبِطَ مَا صَنَعُواْ﴾. ﴿مَا﴾ فاعل لباطل، أو

١- رواه **الربيع** في مسنده كتاب النيات (١) باب في النية رقم١ من حديث ابن عبَّاس. ورواه **البخاري** في كتاب بدء الوحي (١) باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ رقم ١. من حديث عمر بن الخطَّاب.

مبتدأ خبره باطل، والجملة معطوفة كذلك عطف جملة على أخرى، وعليه قدِّم «بَاطِلٌ» للفاصلة. ﴿**كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ ما يعملونه، أو عملهم.

والكلام على المجموع لأنَّ بعض الأشقياء العاملين لا جزاء لهم في الدنيا ولا في الآخرة كما تدلُّ عليه في آية أخرى، فبعض الأشقياء يعمل فلا يثاب في الدنيا ولا في الآخرة وبعض يثاب في الدنيا فقط، وبعض في الآخرة فقط، مثل أن ينقص من عذابه، وبعض يثاب فيهما، وثواب الآخرة للشقي النقص في الآخرة. روى قومنا أنَّه رئي أبو لهب فقال: يخفَّف عنِّي في كلِّ الاثنين لأنِّي سررت بمحمَّد إذ ولد يوم الاثنين، وأعتقت ثُوَيْبَة لَمَّا بشَّرتني، وأسقى في مثل نقرة الإبهام، **والله أعلم بصحَّة ذلك**، وكونه خصوصا من عموم أنَّ الكافر لا يخفَّف عنه.

وروى مسلم عن أبي هريرة أنَّه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشِرْكَه**»[1] وفيه روايات أخر، وعن ابن عمر قال رسول الله ﷺ: «**من تعلَّم علما لغير الله أو أراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار**»[2] رواه الترمذي، وعن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ «**من تعلَّم علما ممَّا يبتغى فيه وجه الله لا يتعلَّمه إلاَّ ليصيب به غرضا من الدنيا لم يجد عرْف الجنَّة يوم**

١- رواه **الربيع** في مسنده (٩) باب في ذكر الشرك والكفر رقم٦٠، مع تقديم وتأخير من حديث أبي هريرة. وأورده **المنذري** في الترهيب من الرياء: ج١/ ص٦٩، رقم٢٥.

٢- رواه **الترمذي** في كتاب العلم (٦) باب ماجاء فيمن يطلب بعلمه الدنيا، رقم ٢٦٥٥، من حديث ابن عمر.

القيامة»[١] يعني ريحها رواه أبو داود، قال رسول الله ﷺ : «**أشدُّ الناس عذابا يوم القيامة من يرى الناس فيه خيرا ولا خير فيه**»[٢] وذلك في نحو المرائي، قال رسول الله ﷺ : «**إذا كان يوم القيامة يؤتى برجل قرأ جميع القرآن، فيقال له ما عملت فيه؟ فيقول: قمت به آناء الليل وأطراف النهار، فيقول الله تعالى: كذبت، أردت أن يقال: فلان قارئ، وقد قيل ذلك ويؤتى بصاحب المال فيقول الله تعالى: ألم أوسِّع عليك؟ فماذا عملت فيما أتيتك؟ فيقول: وصلت الرحم وتصدَّقت، فيقول الله تعالى: كذبت بل أردت أن يقال: فلان جواد، وقد قيل ذلك، ويؤتى بمن قتل في سبيل الله، فيقول: قاتلت في الجهاد حتَّى قتلت، فيقول الله تعالى: كذبت بل أردت أن يقال: فلان جرئ مقدام فارس**» قال الراوي: قال أبو هريرة ثمَّ ضرب رسول الله ﷺ ركبتي، وقال: «**يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أوَّل خلق تسعر بهم النار يوم القيامة**»[٣] ورواه مسلم مختصرا، وذكر أنَّ أبا هريرة بكى بكاء شديدا ثمَّ قال: صدق رسول الله ﷺ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا...﴾، وروي أنَّ أبا هريرة ذكر هذا الحديث عند معاوية فبكى حتَّى ظننَّا أنَّه هالك، فقال: صدق الله ورسوله ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

١- رواه **أبو داود** في كتاب العلم، باب طلب العلم لغير الله تعالى، رقم٣٦٦٤، من حديث أبي هريرة.

٢- أورده **السيوطي** في جمع الجوامع، ص٣٢٦٤.

٣- رواه **مسلم** في كتاب الإمارة، رقم ٣٥٢٧، من حديث أبي هريرة (م.ح).

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ١٧﴾

جزاء من يؤمن بالقرآن والآخرة

وذكر من يريد بعمله الآخرة بقوله: **﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾** الهمزة داخلة على جملة معطوف عليها بالفاء، التقدير: اذكر من كان يريد الحياة الدنيا فاذكر من كان على بيِّنة، أو يقال: من كان يريد الحياة الدنيا فيقال: من كان على بيِّنة، وإذا قدَّرنا: "اذكر" فمعناه "أقول" في الذي بعد الفاء، أو أمن كان مستبصرا أفمن كان على بيِّنة؛ أو الهمزة ممَّا بعد الفاء فالمعطوف عليه ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا...﴾الخ.

والهمزة للإنكار والفاء للتعقيب، أنكر أن يعقب من كان على بيِّنة من لم يكن عليها، أو يقاربه فضلا عن أن يماثله.

والذي على بيِّنة هو النبيء ﷺ، أو المؤمنون، أو كلاهما، أو مؤمنو أهل الكتاب ويأبى عنه [قوله:] ﴿أُوْلَئِكَ يُؤمِنُونَ بِهِ﴾ وعلى الأوَّل يكون الجمع في قوله: ﴿أُوْلَئِكَ...﴾ تعظيما. والبيِّنة: القرآن أو البرهان، والقرآن برهان.

(نحو) أو الحذف هنا مثله في قوله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ﴾ (سورة فاطر: ٨) ﴿أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ﴾ (سورة الزمر: ٩) والتقدير: أفمن كان على بيِّنة من ربِّه...الخ كمن يريد الحياة الدنيا، أو كمن ليس على بيِّنة من ربِّه...الخ، فيعبَّر عنه بقولنا: كمن ليس كذلك.

أو على أنَّ «مَنْ» شرطيَّة، فكمن بالفاء، و«مَنْ» مبتدأ خبره مقدَّر، كما رأيت، ومن الغريب ترجيح بعض أن يقدِّر: أمن كان يريد الحياة الدنيا فمن

كان على بيِّنة من ربِّه يعقبونهم أو يقربونهم **مع أنَّ هذه عبارة ينزَّه القرآن عنها**، وما مراده إلاَّ الردُّ على الإمام أبي حيَّان، ولو أنصف لهذا الإمام لكان أولى، وأدَّعى بعض أنَّ التقدير: إذا لم يأتوا بعشر سور مثله فقل لهم: ﴿أَفَمَن كَانَ﴾.

﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ يتبعه شاهد هو جبريل يأتيه من ا لله، والهاء لـ«مَنْ»، أو الشاهد القرآن، على أنَّ البيِّنة مطلق البرهان، أو على أنَّها القرآن يكون سمَّاه باسم الشاهد وباسم البَيِّنَة لاختلاف مفهوميهما، فإنَّ مفهوم البَيِّنَة البيان، ومفهوم «شَاهِد» الإخبار بالواقع، أو البَيِّنَة الدليل العقلي.

ويجوز أن يكون «يَتْلُوهُ»: يقرأه فتكون الهاء للبيِّنة، وضمير المذكَّر للتأويل بالقرآن أو البرهان.

ويجوز أن يكون الشاهد جبريل يتلوه أي البينة أي القرآن أي يقرأه، أو الشاهد: النبيء ﷺ يتلوه أي يقرأ القرآن المعبَّر عنه بالبيِّنة، وفيه أنَّ الكفار لا يعتدُّون بشهادته لنفسه.

أو البيِّنة: القرآن والشاهد: الإنجيل أو عبد ا لله بن سلام كما قال ا لله ﷻ: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَآءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾ (سورة الأحقاف: ١٠)، أو الشاهد: المعجزات وأفرد لأنها كلَّها دليل، وهاء «مِنْهُ» لله أو للرسول على أنَّ الشاهد لسانه ﷺ، وفيه ما ذكر.

وروى الطبراني عن محمَّد بن الحنفيَّة وهو ابن علي بن أبي طالب قال لأبيه: إنَّ الناس يزعمون أنَّك التالي الشاهد في قوله: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ﴾، فقال: وددت أنِّي هو، ولكنَّه لسان رسول ا لله ﷺ، وهو ردٌّ لِمَا روي عن بعض أهل البيت عنه ﷺ: **«من كان على بيِّنة من ربِّه أنا ويتلوه شاهد علي»** وإنَّ بعض

الشيعية وضعه عن بعض أهل البيت، ليستدلُّوا به على أنَّ الإمـام عليـًّا هـو أهـل للإمامة قبل الصدِّيق، **ولا دليل لهم فيه.**

﴿**وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰٓ**﴾ عطـف على ﴿كَانَ عَلَىٰ بَيِّـنَةٍ﴾ على أنَّ «مَنْ» اسم موصـول، أو نكـرة للتعظيـم موصوفـة، أو حـال، ويتعيَّـن الحـال إن جعلت شرطيَّـة، والهاء للبيِّنة بمعنى القرآن، أو للشاهد كذلك، والكتاب: التـوراة تتلو لرسول الله ﷺ، أو تتلو القرآن أي تتبعـه بـالتصديق، أو تقـرأه بمعنـى أنـَّه يُذكر فأسند إليها قراءته.

والحاصل أنَّ التوراة تصدِّقه، والجملة مبتدأ وخبر، و«كِتَـابُ مُوسَـى» معطوف على «شَاهِدٌ» و«مِن قَـبْلِهِ» حَال مـن «كِتَـابُ مُوسَـى»، وقيـل: مبتدأ وخبر غير متَّصل بما قبله، ويدلُّ للاتِّـصال نصب «كِتَـابُ» في قـراءة عطفا على هاء «يَتْلُوهُ»، أو نُصبا بـ«اذكـر» محذوفـا. وذكـر التـوراة دون الإنجيـل لاتِّـفاق اليهـود والنصـارى عليهـا، فتقـوم الحجَّـة عليهـم بخلاف الإنجيل فإنَّ اليهود جحدوه.

﴿**إِمَامًا**﴾ حال من ضمير الاستقرار، ومعناه متبوعـا في الدين ﴿**وَرَحْمَـةً**﴾ دِينِيَّة ودُنـيَوِيـَّة وأخرويـَّة لأهل التوراة والإنجيل قبل نـزول القـرآن، وأمَّـا بعـده فالرحمة القرآن وما وافق القرآن، وإنَّما هو رحمة من حيث إنَّ القـرآن لم ينسـخه لا باستقلاله، نعم هما رحمة بعد نزوله أيضا، لأنَّهما يرشدان إلى الإيمان بـه، ولا شكَّ أنَّ ما لم يحرَّف ولم يخالف القرآن رحمة إلى يوم القيامة دينا ودنيا.

﴿**أُوْلَئِكَ يُومِنُونَ بِهِ**﴾ الإشارة إلى من كان على بيِّنة، والهـاء للبـيِّنة بمعنى القرآن، أو أحد معانيـه السـابقة، إلاَّ أنَّ القـرآن أولى لأنَّ هـاء مـن قبلـه تناسـب القرآن، إذ لا يترجَّح هنا بأن يقال: ومن قبـل محمَّـد ﷺ كـتاب موسـى، ومـن يؤمن بالقرآن فموعده الجنَّة، وقيل: الهاء لكتاب موسى عليه السلام لقربه، ولا يناسـبه ما بعد، وقيل: لرسول الله ﷺ.

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الاَحْزَابِ﴾ الجماعات المتحزِّبة أي المتجمِّعة على الكفر من أهل مكّة وغيرهم، وقيل: الكفّار مطلقا لتحزُّبهم على الكفر، وقيل: اليهود والنصارى، وقيل: قريش وقيل: كفّار بني أميَّة وبني آل المغيرة المخزومي وآل بني طلحة بن عبيد الله، **والتعميم إلى يوم القيامة أولى.** ﴿فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ لا يتخلَّف عنها، وهو اسم مكان الوعد لَكِنَّ الوعد لم يعقد في النار بل أزليٌّ، فالمعنى: إنَّ النار مكان تعلُّق الوعد، ويجوز أن يكون مصدرا ميميًّا بمعنى الموعود به.

﴿فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾ شكٍّ ﴿مِّنْهُ﴾ من القرآن أو من الموعود، والخطاب في «تَكُ» للنبيء ﷺ زيادة في تقوية يقينه، أو لمن يصلح للخطاب، وهكذا يجوز في كلِّ ما لا يتصوَّر منه ﷺ أن ينهى، ويبقى على ظاهره تأكيدا في جميع القرآن، مثل: ﴿وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (سورة يونس: ١٠٥) في وجه.

﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ ويجوز عود الهاءين للشاهد بمعانيه، ولكنّك تعرف أنَّ الراجح عودها إلى بيِّنة بمعنى القرآن ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُومِنُونَ﴾ لإهمالهم التدبُّر.

﴿وَمَنَ اَظْلَمُ مِمَّنِ اِفْتَرَىٰ عَلَى اَللَّهِ كَذِبًا اُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ اُلَاشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ اِلذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اُللَّهِ عَلَى اَلظَّٰلِمِينَ ۝١٨ اَلذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اِللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝١٩ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي اِلَارْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اِللَّهِ مِنَ اَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ اُلْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ اَلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ۝٢٠ أُوْلَٰٓئِكَ اَلذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ

وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُواْ إِلَى رَبِّهِمْ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

الكافرون والمؤمنون وجزاء أعمال كلٍّ منهم

﴿وَمَنَ اَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى ا للهِ كَذِبًا﴾ من إثبات الشريك والولد، ونفي إنزال ما أنزل ونسبة ما لم ينزل إليه، ومن ذلك إثبات البحيرة ونحوها وتحريم ما أحلَّ، وتحليل ما حرَّم، وقول عبد ا لله بن سعيد بن أبي سرح الذي [كان] يكتب لرسول ا لله الوحي[1]، وقول اليهودي: ﴿مَآ أَنزَلَ ا للهُ عَلَى بَشَرٍ مِن شَيْءٍ﴾ (سورة الأنعام: ٩١).

ويجوز أن يكون المراد لا أظلم منّي إن كذبت على ا لله تعالى بأنّه أرسلني وأنزل عليَّ كتابا، وأن يكون المراد لا أظلم منكم في نفي أن يكون القرآن من ا لله ﷻ.

﴿اوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ﴾ عرضا يترتّب عليه العذاب، ويفتضحون به عند الخلائق، فإنّه لا يسعد أحد إلاّ نودي في الموقف: «سعد فلان سعادة لا شقاوة بعدها» نداء يسمعه أهل الموقف كلّهم، وكذلك الشقي.

ومعنى عرضهم على ا لله عرض أعمالهم، وحكمة ذكرهم دون ذكر أعمالهم أنَّ عرض العامل بعمله أفظع عليه من عرض عمله مع غيبته، وا لله متنزِّه عن المكان وعالم بكلِّ شيء، وذلك مجاز في الإسناد أو كناية بأن

١- راجع الحادثة في ج٤/ ص٣٨١.

شبَّه حالهم بحال الجند المعروضين على السلطان أو نائبه، لا ليعرفهم بل ليأمرهم، وذلك على حذف مضاف كما رأيت، وقيل: لا حاجة إلى تقديره لأنَّ عرضهم يتضمَّن عرض أعمالهم، وقيل: عرضهم مجاز عن إظهار أعمالهم، وقدَّر بعض مضافا أيضا في قوله: ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي على ملائكة ربِّهم أو على أنبياء ربِّهم، واختار ذكر الربِّ ردًّا عليهم في دعوى أرباب من دونه ﷻ.

﴿وَيَقُولُ الاَشْهَادُ﴾ جمع شهيد كشريف وأشراف، أو شاهد كصاحب وأصحاب، وهذا مرجوح لضعف جمع فاعل على أفعال، والأوَّل أولى على أنَّ شهيد بمعنى شاهد، لا بمعنى حاضر، لأنَّ المراد الشهادة لا الحضور كما يناسبه قوله: ﴿هَؤُلَآءِ الذِينَ...﴾ الآية.

لكن إن كان المراد بالأشهاد الجوارح فالحضور أنسب، إلاَّ أنَّ القول منها بلسان الحال مجاز، فنقول: ينطقها الله ﷻ، والمتبادر أنَّ الأَشْهَاد غيرهم، وهم الملائكة والأنبياء، قيل: والمؤمنون، وقيل: أهل الموقف، والعطف على «يُعْرَضُونَ». **﴿هَؤُلَآءِ الذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ, أَلاَ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾** هنا تمَّ كلام الأشهاد، أو عند قوله: ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ وقوله: ﴿أَلاَ...﴾ من الله، قاله قبل يوم القيامة، إخبارا بأنَّهم ملعونون من الله قبل يوم القيامة، وقيل: تمَّ في قوله: ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ وأنَّه دعاء بمضاعفة العذاب **وليس بشيء، والأوَّل أولى لأنَّه أشدُّ عليهم**، وهو الوارد في قوله ﷺ: **«إنَّ الله تعالى يدني المؤمن يوم القيامة فيستره من الناس، فيقول عبدي أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول نعم، فيقرِّره بذنوبه ويرى في نفسه أنَّه هلك، فيقول الله ﷻ: قد سترتها عليك في**

الدنيا، وقد غفرتها لك اليوم»[1] ثمَّ يعطى كتاب حسناته، أمَّا الكافر والمنافق فيقول الأشهاد: ﴿هَؤُلَآءِ الذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، وعن ميمون بن مهران[2]: إنَّ الرجل ليقرأ أو يصلِّي ويلعن نفسه في قراءته، يقول: ﴿أَلاَ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ وهو ظالم، و«الظَّالِمِينَ» عامٌّ فيدخل الذين كذبوا على ربِّهم بالأولى، أو هم المراد فيكون من وضع الظاهر موضع المضمر.

﴿**الذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ**﴾ دين الإسلام، يُعرِضون عنه، أو يمنعون الناس عنه بالتكذيب والشبه، وإطلاق سبيل الله على دينه تعالى في القرآن مجاز استعاريٌّ، وفي كلامنا حقيقة عرفيَّة عامَّة، وقد يقال بأنَّه فيه حقيقة عرفيَّة خاصَّة وذلك لتكرُّره فيه. ﴿**وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا**﴾ يطلبون له عوجا فحذف الجار قبل الهاء، أو يصفونها بالعوج، وإطلاق الطلب على الوصف إطلاق للسبب على المسبَّب، أو ينسبونها للعوج فحذفه قبل عوجا، والأخفش يقيس ذلك، وعلى عدم قياسه يكون شاذًّا قياسا، فصيحا استعمالا، والعوج: الانحراف عن الحقِّ. والسبيل يؤنَّث كما هنا ويذكَّر، وقد قيل: يبغون أهلها بأن يعوجوا بالرِّدة، وقيل: يطلبونها معوجَّة.

١- رواه **البخاري** في كتاب المظالم والغضب (٣) باب قوله تعالى: ﴿أَلاَ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ رقم٢٣٠٩. ورواه **مسلم** في كتاب التوبة، رقم٤٩٧٢، مع زيادة في آخره. من حديث ابن عمر.

٢- أبو أيُّوب الجزري الرقي، تابعي فقيه من القضاة، روى عن عائشة وأبي هريرة وابن عبَّاس وابن عمرو ﷺ، وعنه ابنه عمرو وحميد الطويل البناني وغيرهم قال العجلي والنسائي: جزري تابعي ثقة، وقال أبو المليح: ما رأيت رجلا أفضل من ميمون. توفي سنة ١١٧هـ (الموسوعة الفقهية الكويتية، ج١٠/ ص٣٣٤).

﴿وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ﴾ تأكيد لِلأوَّل بلفظين ﴿كَافِرُونَ﴾ وقدَّم بالآخرة على الكافرون على طريق الاهتمام وللفاصلة لا للحصر، لأنَّهم كفروا بغير الآخرة أيضا، نعم تقديم «هُمْ» يلوِّح إلى اختصاصهم بالكفر بالآخرة، كما يقال: أنا سعيت في حاجتك، بمعنى لا غيري، كأنَّ كفر غيرهم بها في جنب كفرهم ليس بكفر.

﴿أُوْلَئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ﴾ الله ﴿فِي الأَرْضِ﴾ أن يعاقبهم في الدنيا، ولكن أخَّر عذابهم إلى الآخرة فإنَّه لا قوَّة لهم ولا مهرب عن أرضه لسعتها، ولو هربوا لم يجدوا غيرها، ولو وجدوا فكلُّ موجود ملك لله، ويجمع ذلك كلَّه أن تجعل الأرض عبارة عن الدنيا التي بمعنى الحياة، ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللهِ مِنَ اَوْلِيَآءَ﴾ يمنعونهم من العذاب في الدنيا، أو من العذاب الموعود لهم في الآخرة، أو أريد بالأولياء آلهتهم التي يدعونها أولياء، وعلى كلِّ حال تكون الآية بيانا لسقوط آلهتهم عن رتبة الولاية، إلاَّ أنَّ ذلك على التفسير الثاني أظهر.

﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ لمضاعفة كفرهم في نفسه، ولأنَّهم ضلُّوا وأضلُّوا، ولأنَّهم لا يشتغلون بسماع الحقِّ، أخَّر عذابهم ليكون مع شدَّته دائما، وهذه المضاعفة هي نفس المماثلة في قوله تعالى: ﴿فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا﴾ (سورة الأنعام: ١٦٠) فلا منافاة، وقيل: المضاعفة لكراهتهم الحقَّ أشدَّ كراهة، وافترائهم وكذبهم على ربِّهم، وصدِّهم عن سبيل الله، وبغيهم إيَّاهَا العوج، وكفرهم بالآخرة.

وزعم بعض أنَّ المضاعفة لحفظ الأصل الذي هو ما دون المضاعفة إذ لولا ذلك لم يبق عذاب، لأنَّهم يألفونه لطول الأبد، وهذا خطأ لأنَّ العذاب الشديد لا يؤلف، وإنَّما يؤلف ما وضع من أوَّل الأمر على الإطاقة، وأيضا الله قادر على أن يبقيهم على التألُّم الأوَّل، ولكن جاء في الأثر: إنَّ عذاب أهل النار

ونعيم أهل الجنّة لا يزالان يزدادان.

﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ للحقِّ ﴿وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ يعقلون لإعراضهم هُم في الحقِّ كمن هو أصمٌّ وأعمى، وكأنّه استحال سمعهم وإبصارهم؛ أو الضمائر للآلهة، وكانت بصيغة ضمائر العقلاء مجاراة للكفّار في نسبة ما للعاقل إليها، حتّى اتّخذوها آلهة، كما أنَّ مستحقَّ الأُلُوهِيَّة عالم، [قلت:] وهذا ضعيف لأنَّ السوق لذمِّ الكفرة وبيان استحقاق مضاعفة العذاب، وللزوم تفكيك الضمائر بعضها للكفرة وبعضها للآلهة.

(أصول الدين) وعدم الاستطاعة حقيقة في الآلهة مجاز في الكفرة، فإنّهم مستطيعون استطاعة غير مؤثّرة، والله ﷻ خلق في العبد قدرة واختيارا، وزعم أكثر المعتزلة أنَّ أفعال العباد واقعة بقدرة العبد وحدها استقلالا، وأقلُّهم أنّها بقدرة العبد وقدرة الله ﷻ، والمجاز المذكور استعارة مفردة لا تمثيلية، وذلك أنّهم يصعب عليهم السمع حتّى كأنّهم لا يطيقونه، وفي التمثيلية هنا تكلُّف.

﴿أُوْلَئِكَ الذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ﴾ أضاعوها إلى النار، وأضاعوا منافعها إذ لم يستعملوا أعضاءهم فيما ينفع من الإيمان، وأضاعوا ما لهم في الجنّة، وأضاعوا الفطرة التي فطروا عليها.

وهذا أولى من قول أبي حيّان إنّه على حذف مضاف، أي خسروا سعادة أنفسهم، وهو قول حسن لا بأس به، وقال: لأن أنفسهم باقية معذّبة، أي فليسوا متلفين لها ومفنين، ويعني أنَّ الآية ليست على الإتلاف والإفناء، ولم ينصف من تعقبه بأنَّ الإبقاء في العذاب كلا إبقاء، لأنَّ قول هذا المتعقّب إنَّ بقاءه كلا إبقاء يناسب الفناء المناسب لعدم التألُّم، وهو باطل، وأولى من أن

يقال: خسران النفس إهلاكها.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من شفاعة الآلهة في الدنيا لو كانت تشفع فيها لشفعت لهم في الآخرة، أو الكلام على سبيل الفرض، إن كان البعث حقًّا شفعت لنا آلهتنا، أو ضاع عنهم ما لهم في الدنيا من مال وجاه وأعوان لم ينفعهم في الآخرة، أو لم ينفعهم الكفر الذي اختاروه عن الإسلام لأنفسهم.

﴿لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الاَخِرَةِ هُمُ الاَخْسَرُونَ﴾ لا بدَّ، أو لا مَنْع من أنهم في الآخرة هم الأخسرون فإنَّهم...الخ، خبر لا على تقدير «من»، وقيل: كذلك، إلاَّ أنَّ «جَرَمَ» بمعنى القطع، جرمت الشيء: قطعته.

(نحو) وقيل: الخبر محذوف أي واقع، أو موجود، وعليه فاسمها مشبه بالمضاف لتعلّق «من» المقدَّرة به، وبني مع ذلك أو أعرب ولم ينوَّن، كما لا ينوَّن المضاف لشبهه به، أو «لاَ» نفي لِمَا ظنُّوا. و«جَرَمَ»: فعل ماض بمعنى حقَّ. و«أَنَّهُمْ...» في تأويل مصدر فاعله، أي ليس الأمر كما تقولون، وحقَّ أخسريَّتهم في الآخرة، وهذا مذهب سيبويه.

وإذا لم يكن كلامٌ بعد «لاَ جَرَمَ» على هذا كانت «لاَ» زائدة للتأكيد، أو نفيا لضدٍّ ما بعدها، و«لاَ» زائدة، أو لنفي ما قبل، و«جَرَمَ» بمعنى كسب، و«أَنَّهُمْ» مفعول به له، والفاعل مستتر عائد إلى ما قبل، أي كسب خسرانهم ذلك، وقيل: «لاَ» نافية لمحذوف، أي لا ينفعهم فعلهم، ونقل عن سيبويه والخليل أنَّ «لاَ جَرَمَ» كلمتان ركِّبتا وجعلتا بمعنى فعل ماض بمعنى حقَّ.

و«فِي الاَخِرَةِ» متعلّق بـ«الاَخْسَرُونَ» قدِّم للفاصلة، وقد يستدلُّ به على جواز تقديم معمول اسم التفضيل عليه غير من التفضيلية ومدخولها، إلاَّ أنَّ هذا المعمول ظرف، وهم يتوسَّعون في الظروف، وأمَّا «الـ» فليست موصولة في

اسم التفضيل، والمراد أنّهم أكثر خسرانا فالزيادة في الكمِّ، أو أكثر شدَّة فالزيادة في الكيف.

﴿إِنَّ الذِينَ ءَامَنُواْ﴾ صدَّقوا بقلوبهم وألسنتهم ﴿وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾ بجوارحهم ﴿وَأَخْبَتُواْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ اطمأنُّوا من تحقيق القلوب إلى صدق وعده عَجَلَّ بالثواب على الأعمال، وإلى إكثار ذكره، أو ﴿أَخْبَتُوا﴾: خشعوا، بحيث يخافون أن لا تقبل أعمالهم، وكما يقال: أخبت له بمعنى خشع، يقال: أخبت إليه بمعنى خشع، فإنَّ الخشوع لا يخلو من معنى إلى، وأصل خبت: نزل في الخبت من الأرض أو أتاه، وهو المنخفض، فأطلق على الاطمئنان وعلى الخشوع استعارةً، تشبيها للمعقول بالمحسوس، ثمَّ صار حقيقة شَرعِيَّة فيهما، أو في معنى أناب.

﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ دائمون لكونهم نووا العمل الصالح والتقوى دائما، ما داموا أحياء بلا حدٍّ.

﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾ المؤمنين والكافرين، أي صفتهم الشبيهة بالمثل في الغرابة والعجب ﴿كَالاَعْمَىٰ وَالاَصَمِّ﴾ كمثل الأعمى والأصمِّ، قدّم ما للكافرين مراعاة لِمَا تقدَّم، ولأنَّ السياق لبيان حالهم، وقدّم الأعمى على الأصمِّ لكونه أظهر وأشهر في سوء الحال. ولَمَّا ذكر انسداد العين عقَّبه بذكر انسداد الأذن، وكذا ذكر انفتاح الأذن فعقَّبه بانفتاح العين ﴿وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾ الكافرون كالأعمى وكالأصمِّ، والمؤمنون كالسميع وكالبصير، كلُّ فريق شبِّه باثنين فذلك أربع تشبيهات.

ويجوز أن يكون الأصمُّ هو الأعمى، اتَّصف بالصمم كما اتَّصف بالعمى، والبصير هو السميع اتَّصف بالبصر كما اتَّصف بالسمع، وفي هذا تنزيل تغاير الصفتين منزلة تغاير الذات، فساغ العطف، كأنَّه قيل: كمثل الإنسان الجامع بين

العمى والصمم، والإنسان الجامع بين السمع والبصر، فالأصل: كالأعمى الأصمِّ والسميع البصير، بغير عطف الأصمِّ وبغير عطف البصير، فشبَّه كلَّ واحد من الفريقين بواحد جامع بين الصفتين، والأوَّل هو الأصل.

ولا يعتبر صمم الديانة وعماها وسمع الديانة وبصرها، بل المراد عمى العينين وصمم الأذنين وسمعهما، وبصر العينين، والألزم تشبيه الشيء بنفسه، لأنَّ ما بالديانة هو في الفريقين، والوجهان متَّحدان معنى، لأنَّ معنى الأوَّل أنَّ الكافر أخذ من الأعمى عماه ومن الأصمِّ صممه، والمؤمن أخذ من السميع سمعه ومن البصير بصره، فلا يرجِّح الثاني بأنَّ الأعمى قد يهتدي بأذنيه، والأصمَّ قد يهتدي ببصره.

(بلاغة) وفي الآية لفٌّ ونشر لا مرتَّبان ولا معكوسان لإجمالهما في الفريقين كالإجمال في واو: ﴿قَالُواْ كُونُواْ هُودًا اَوْ نَصَارَىٰ﴾ (سورة البقرة: ١٣٥) ولو قال مثل الكافرين والمؤمنين لكان مرتَّبا، أو مثل المؤمنين والكافرين لكان معكوسا، وفي الآية الطباق مرَّتين وهو الجمع بين متقابلين بالتضادِّ، إذ جمع بين الأعمى والبصير، وجمع بين الأصمِّ والسميع، وفيها المقابلة وهي أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو أكثر، ثمَّ يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب، وهو داخل في الطباق وأخصُّ منه، وفيها تشبيه مركَّب.

﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ أي الفريقان، وهذا إنكار للاستواء لا يستويان، والحال أنَّ أحدهما كالأعمى والأصمِّ والآخر كالسميع والبصير، فَلَكَ ردُّ ضمير «يَسْتَوِيَان» للأعمى والأصمِّ فهُما واحد، وللسميع والبصير فهما آخر. ﴿مَثَلاً﴾ تمييز محوَّل عن الفاعل، ومعناه: تمثيلا، فهو اسم مصدر، أو معناه صفة، أو معناه حال.

﴿افلا تذكّرون﴾ بضرب الأمثال وتصريف الآيات والدلائل بالتأمُّل في ذلك. الاستفهام للإنكار منسحب على المحذوف بعد الهمزة والمذكور بعدها، أي أتشكُّون في عدم الاستواء فلا تذكّرون؟ وإن قدرنا: أتسمعون هذا فلا تذكّرون؟ انسحب على المذكور بعدها بمعنى استبعاد التذكُّر منهم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

قصة نوح عليه السلام

(قصص) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ هو ابن لمك بن متوشلخ بن إدريس، وهو أوّل نبيء بعد إدريس ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ ابن أربعين سنة، ودعا قومه تسعمائة سنة وخمسين سنة، وعاش بعد الطوفان ستِّينَ سنة، فعمره ألف وخمسون، أو ابن مائة أو ابن خمسين أو ابن مائتين وخمسين، ودعاهم تسعمائة وخمسين،

وعاش بعدهم مائتين وخمسين، فعمره ألف وأربعمائة وخمسون، واسمه عبد الغفّار ونوح لقبه. والتقدير: ووا لله، بواو العطف وواو القسم حذفت واو القسم مع مجرورها، وبقيت العاطفة، ولا بأس باجتماع واوين ولا سيما مع حذف إحداهما، لا كما قيل: إنّه يتعيَّن القسم هنا بالباء أو التاء، كقوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾ (سورة ص: ٨٢) وقوله: ﴿وَتَا للهِ لأَكِيدَنَّ﴾ (سورة الأنبياء: ٥٧) لئلاَّ يجتمع واوان ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ مخبر لكم بالعذاب إن لم تؤمنوا، وبالنجاة إن آمنتم ﴿مُّبِينٌ﴾ أي قائلا: إنّي لكم نذير مبين، أو يقول، وهذا القول حال مقدَّرة، أو يقول استئناف بياني، أو إنّي لكم...الخ محكيٌّ بـ«أَرْسَلْنَا»، أو تفسير له لتضمُّنه معنى القول، لأنَّ معنى ﴿أَرْسَلْنَا...﴾: قل لهم إنّي لكم نذير. و«لَكُمْ» متعلّق بـ«نَذِيرٌ»، واللام للتقوية، وتعليقها هنا أولى لضعف نذير بالتقديم عليه وكونه معدولا به عن أُنذِرُ زيادة على ضعفه بالوصفيَّة.

و«مُبِينٌ» من أبان اللازم، أي ظاهر، أو المتعدِّي أي مبين وجهَ الخلاص، فحذف مفعوله، ويجوز أن يكون مفعوله هو قوله: ﴿أَن لاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ ا للهَ﴾ ويجوز أن تكون «أَنْ» مفسِّرة لـ«نَذِيرٌ»، أو لـ«مُبِينٌ»، لأنَّ فيهما معنى القول دون حروفه. و«لاَ» ناهية، أو يقدَّر بالباء متعلّقة بـ«نَذِيرٌ»؛ أو بـ«أَرْسَلْنَا» و«لاَ» نافية، ومعنى النفي أنَّه لا يليق بكم إلاَّ عبادة ا لله ﷻ.

﴿إِنِّيَ أَخَافُ﴾ لم يقل: أوقن، لإمكان إيمانهم بعدُ عنده ﴿عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ اَلِيمٍ﴾ بمعنى مؤلِم بكسر اللام كسميع إذا كان بمعنى مسمع، وكنذير بمعنى منذِر، كاستعمال مصدر الثلاثي بمعنى الرباعي فما فوقه. وأسند الإيلام إلى اليوم إسنادا عقليًّا مجازيًّا، وإنَّما هو لله ﷻ، أو بمعنى مؤلَم بفتح اللام على طريق ذلك التجوُّز، لأنَّ المؤلَم بفتحها حقيقةً هم القوم لا اليوم مبالغة، أو بمعنى المتألِّم كأنّه سرى إليه التوجُّع منهم لشدَّته، ولا داعي إلى جعله نعتا لعذاب مجرورا

للجوار، لأنَّ إسناد التألُّم أو الإيلام أو الألم غير حقيق أيضا.

والمراد باليوم يوم القيامة، أو يـوم في الدنيـا وهـو يـوم الغـرق، وهـو أنسـب بالتنكير، وعلى إرادة يوم القيامـة فالتنكـير للتعظيـم، ثـمَّ إنَّـه لا يخفـى أنَّ عقـاب الدنيا بالاستئصال ونحوه مستلحق لعذاب الآخرة أيضا.

﴿فَقَالَ الْمَلأُ الذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ﴾ الأشراف الذين يملئون العيون جمالا والقلوب جلالا والأكفَّ نوالا، أو بعض ذلـك، أو يظـنُّ الجـلال والنـوال فيهـم بالرؤية، أو إنَّهم مملوعون بالآراء الصائبة والأحلام الراجحة، وملأ يلزم ويتعدَّى؛ أو قادرون، يقال: ملأ بكذا، أي قدر عليه؛ أو إنَّهم متمـالئون أي متعـاونون؛ أو الجماعة مطلقا.

﴿مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ لست ملكـا فكيـف تختـصُّ بالرسـالة مـن ا لله، ووجوب الطاعة لك علينا؟. ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ﴾ في دينـك ﴿إِلاَّ الذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ أخسَّاؤنا بنحو نسج وحجامة وعمل الحدادة، جمـع أرذل بفتـح الهمـزة والذال، بمعنى أخسُّ.

(صرف) وأفعل يجمع على أفاعل، سواء كان اسـم تفضيـل أو اسمـا غـير صفة، ولا يختصُّ بالاسم فلا تهـم، قـال ا لله تعـالى: ﴿أَكَـابِرَ مُجْرِمِيهَـا﴾ (سورة الأنعام: ١٣٢)، وقال ﷺ: «أحاسنكم أخلاقـا»[1]؛ أو جمـع أَرْذُل بفتـح الهمـزة وضمِّ الذال جمـع رَذْل بفتحهـا وإسكان الـذال، فيكـون أراذل على هـذا جمـع

١- رواه البخاري في كتاب الأدب (٤٠) باب حسن الخلق والسخاء... رقم٥٦٨٨، من حديث عبد ا لله بن عمرو. ورواه مسلم في كتاب الفضائل، رقم ٤٢٨٥. والـترمذي في كتـاب البر والصلة، رقم ١٩٤١، مع زيادة في آخره. من حديث جابر.

الجمع، وكذا إن قيل جمع أرذال وأرذل جمع رذل، حذفت ألف أرذال في الجمع لم تقلب ياء.

﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ ظاهر الرأي من إضافة النعت إلى المنعوت، على حذف مضافين، أي تظهر خسَّتهم بلا تأمُّل، وذلك مبالغة في ذمِّهم، ونصب على الظرفيَّة، أي وقت حدوث الرأي البادئ، أو يقدَّر حدوث الرأي البادئ، لأنَّ حدوث مصدر ينصب على الظرفيَّة، وجاز نصبه على الظرفيَّة مع أنَّه اسم فاعل لا مصدر لأنَّه مضاف للمصدر، نحو: جئت بادي طلوع الشمس.

وبادي الرأي: ما لم يتعمَّق فيه بالفكر وهو متعلِّق بـ«أَرَاذِل» فيما قيل، وفيه أَنَّهُ لم تحدث رذالتهم وقت حدوث بادي الرأي، بل يتعلَّق بـ«اتَّـبَعَكَ» أي اتَّبعوك في ظاهر رأيهم، أو في أوَّله بلا تأمُّل أو تعمُّق، أو اتَّبعوك في ظاهر رأيهم أو أوَّله وليسوا معك في الباطن والحقيقة؛ أو يتعلَّق بمحذوف حال من الكاف في «اتَّـبَعَكَ»، أي اتَّبعك حال كونك مكشوف الرأي، أو بمحذوف نعتا لـ«بَشَرًا» أو بـ«نَرَى»، كقولك: ما قام إلاَّ زيد أحد في عمل ما قبل إلاَّ فيما بعده، مع أنَّه غير مستثنى، أو بنسبة الكلام، أي محكوما عليهم في بادي الرأي أنَّهم أراذلنا.

(صرف) وياء «بَادِي» عن واو، لأنَّه اسم فاعل "يبدو"؛ أو عن همزة من "البدء" كما قرأ أبو عمرو وعيسى الثقفي بالهمزة. والرأي: مصدر "رأى يرى" والمادَّة في المواضع الأربعة من معنى العلم، لا من معنى الإبصار، لأنَّ ذلك مِمَّا لا يدرك بالعين، نعم تدرك الوسائط فباعتبارها يجوز أن تكون بصريَّة والموضع الرابع قوله:

﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ من نحو مال وملك وغيرهما تستحقُّون به التقدُّم علينا، ووجوب اتِّباعكم، وعن ابن عَبَّاس: خَلْق وخُلق، وعن

بعضهم: كثرة مال وملك، وقيل: الفضل التفضُّل، لم تتفضَّلوا علينا فنتَّبعك يا نوح في نبوءتك، ولو كنت مثلنا، ونتّبعكم على ما أنتم عليه معشر أتباعه، ولو كنتم أراذل.

وقيل: الخطاب للأتباع، والمعنى: لم تتفضَّلوا علينا بشيء، و«لَكُم» مفعول ثان و«فَضْلٍ» أوَّل، و«عَلَيْنَا» حال من «فَضْلٍ»، أو متعلّق بـ«لَكُمْ» أو بمتعلّقه، وإن كان «نَرَى» بصريًّا فـ«فضْل» مفعوله، و«لَكُمْ» متعلّق بـ«نَرَى» أو بمحذوف حال من «فَضْلٍ»، أو بـ«فَضْلٍ» لأنَّه ولو كان مصدرا لكن لا ينحلُّ إلى فعل وحرف مصدر، فساغ تقدُّم معموله ولا سيما أنَّه ظرف.

﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ في دعوى الرسالة التي يدَّعيها نوح لنفسه وتدَّعونها له، وإنَّما أدرجوا القوم المؤمنين معه في الخطاب بـ«لَكُمْ» و«نَظُنُّكُمْ» لأنَّه ومن آمن به كواحد لاتّحاد دعواهم، وتمسُّكهم بها كتمسُّك واحد وما يترتَّب عليها هم مشتركون فيه.

والمراد في الآية: إنَّك لا تثبت لك النبوءة لأنَّك بشر مثلنا، ولا مزيَّة تخصُّك بالنبوءة من مال وجاه، ولو كان كانت النبوءة لكنَّا أحقَّ بها، لأنَّا ذوو مال وجاه وأتباع شرفاء. والخطاب تغليب على الغيبة، وقيل: الخطاب لهم دون نوح عليه السلام، وعبَّروا بالظنّ تجوُّزا عن أن ينسبهم نوح وأتباعه إلى المجازفة، ومجاراة على طريق الإنصاف، كما لم يصرّحوا أوَّلا بالتكذيب بل عرَّضوا، احتجُّوا بثلاث شبه: بـ﴿مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا﴾ وردَّها بقوله: ﴿وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ وبـ﴿مَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ...﴾ وردَّها بقوله: ﴿لاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ وبـ﴿مَا نَرَى لَكُمْ...﴾ وردَّها بقوله: ﴿وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي...﴾ وردَّهنَّ إجمالا بقوله:

﴿قَالَ يَاقَوْمِ أَرَآيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أخبروني إن كنت

على بيِّنة من ربِّي، والاستعلاء مجاز كأنَّه قيل: متمكِّن على بيِّنة كالتمكُّن على فرس، أو على بمعنى مع، والبيِّنة: البرهان والحجَّة في أنَّه رسول من الله.

﴿وَءَاتَانِي رَحْمَةً﴾ نبوءة، فيما روي عن ابن عَبَّاس، وقيل: الرحمة البيِّنة، بمعنى أنَّ البرهان بيِّنة ونعمة عظيمة، وقيل: البيِّنة دليل العقل. ﴿مِّنْ عِندِهِ فَعَمِيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ أي البيِّنة وهي غير الرحمة، فإنَّ الرحمة: النبوءة، والبيِّنة: الحجَّة على ثبوتها، وهذا أولى من جعلهما معا بمعنى البرهان.

وإفراد الضمير باعتبار أنَّ المراد واحد ولو اختلف المفهوم، لأنَّ الأصل في العطف التغاير، وأولى من تقدير: على بيِّنة من ربِّي فعميت عليكم، لأنَّ الأصل عدم الحذف، وأولى من ردِّ الضمير إلى «رَحْمَةً» لأنَّ النبوءة تثبت بالبرهان، فنسبة الخفاء إليها أولى من نسبته إلى النبوءة المعبَّر عنها بالرحمة، فإنَّ معنى ﴿عَمِيَتْ﴾: خفيت مجازا، لأنَّ العمى حقيقة فيمن له العين، وذلك استعارة مفردة، شبَّه الخفاء بالعمى؛ أو مركَّبة، شبَّه عدم الاهتداء بالحجَّة لخفائها بسلوك مفازة لا تعرف طرقها، ولا يخالف هذا ظاهر الآية؛ أو مجاز مرسل، لأنَّ الخفاء لازم للعمى.

﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ أنجعلها لاصقة بكم، ونجعلكم مهتدين بالإجبار عليها، لا قدرة لنا على ذلك، ولم يأمرنا الله تعالى بذلك. ﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ نافرون عنها مبغضون لها، بحيث لا تلتفتون إليها ولا تتأمَّلون فيها، وحاصل المعنى: أَنْ أجبركم على قبولها، أي قبول البيِّنة، أو قبول الرحمة أو كلتيهما أو على فهمها، وأنتم لا تختارونه، لا يتصور الإلزام مع ذلك، والصادر عنه الحثُّ الشديد على الإيمان دون الإكراه.

والمراد بالإلزام ما مرَّ لا القتل، لأنَّه لم يؤمر به، ولا يقدر عليه، ولا الإيجاب

لأنَّ الإيجاب واقع، و«هَا» في الموضعين للبيِّنة أو للرحمة، وتقدَّم قول: إنَّهما شيء واحد، وقيل: «هَا» للنبوءة على حذف مضاف، أي قبول نبوءتي وهو غير ظاهر.

وضمير التكلُّم لنوح ومن آمن به، أو لنوح إعظاما لمقام النبوءة، أو له ولملائكة الوحي كأنَّهم خاطبوا معه، وهم جبريل وإسرافيل، أو لنوح وجبريل.

﴿وَيَاقَوْمِ﴾ ناداهم لطفا بهم واستجلابا وتليينا لشدَّتهم، وكذا أعاد النداء بعد لذلك، وللإشارة إلى أنَّ ما بعد النداء علَّة مستقلَّة بوجه مخصوص ظاهر الدلالة على وجوب الامتناع من الطرد ﴿لَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي على التبليغ للرسالة، لأنَّه معلوم من المقام وإن لم يجر له ذكر، ودلَّ عليه ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ...﴾ أو الضمير عائد إلى: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ...﴾ وقيل: الضمير للإنذار، وقيل: للدعاء إلى التوحيد، والأمر بالعبادة وحدها هو الأصل المقصود من التبليغ وإرسال الرسل. ﴿مَالاً﴾ تأجروني به بعد إيمانكم فيكون أجرا لي، كما أشار إلى ذلك بقوله:

﴿إِنَ اَجْرِيَ﴾ للتبليغ، أو الإنذار، أو الدعاء إلى التوحيد، أو للطاعة مطلقا، فيدخل ما ذكر بالأولى. ﴿إِلاَّ عَلَى اللهِ﴾ وهو الجنَّة، وفي التعبير بالأجر تلويح بأنَّ المال لا يفي بأجرتي ولو الدنيا كلُّها وأكثر، وإنَّما يفي بها أجر الله لي بالجنَّة، وقد سألوه طرد الأراذل وهم المؤمنون الفقراء وليسوا أراذل، فنؤمن بك نحن ونجالسك، كما قال قريش لرسول الله ﷺ، فقال ما ذكره الله عنه بقوله: ﴿وَمَآ أَنَا بِطَارِدِ الذِينَ ءَامَنُواْ إِنَّهُم مُّلاَقُواْ رَبِّهِمْ﴾ فيخاصمونني على طردهم فلا أجد حجَّة، وإنَّهم يلاقونه بالفوز للإيمان فكيف أطردهم عمَّا به يفوزون وبه أمرهم الله عَجَلَّ، وهذا المراد للمقام، وإلاَّ فكلُّ أحد يلقى ربَّه بالموت، وقيل:

المعنى لا أطردهم لأنَّهم مصدِّقون في الدنيا با لله تعالى، عالمون أنَّهم ملاقوه، وهو خلاف الظاهر لاحتياجه إلى التأويل باعتقدوا أنَّهم ملاقوا ربِّهم.

وقيل: المعنى يلاقون ا لله فيجازيهم إن صحَّ إيمانهم كما ظهر منهم، أو يطردهم إن كان إيمانهم الظاهر غير محقَّق في قلوبهم، وهذا غير متبادر وهو مبنيٌّ على تفسير ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ بالإيمان بلا تأمُّل وتعمُّق، أو بالإيمان منافقة ولا يأباه ترتُّب غضب ا لله تعالى، لأنَّه يبنى في الكلام على حسب ما يظهر له.

(نحو) واسم الفاعل في الموضعين للاستقبال ومع ذلك أضيف، لأنَّ الأصل أن يضاف لمفعوله كما قال أبو حيَّان، ألا ترى أنَّ عمله للإلحاق بالمضارع لا بذاته؟ وألا ترى أنَّه كثيرا ما يرد غير عامل مع وجود شرط العمل؟.

﴿وَلَكِنِّيَ أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ قَدْرَ المؤمنين وعقاب طردهم، فإنَّهم أولياء ا لله وخير منكم، أو تجهلون لقاء ربِّكم بإنكار البعث وهم يؤمنون بالبعث، ويأملون الثواب الجزيل الدائم، أو تجهلون في التماس طردهم أو في تسميتهم أراذل وهم غير أراذل، فإنَّ أتباع الرسل في أوَّل أمرهم الفقراء، ومن ليس مقدَّما لعدم خوف من زوال جاه ورياسة لعدمهما، وعدم حسد، لأنَّ الأكبر لا ينافسه المتَّضع، بل يؤمنون توفيقا من ا لله إلى حبِّ الحقِّ واختياره. وقد يؤمن الإنسان ليرتفع من خمول ثمَّ يخلص لله.

والجهل يطلق على السفه بقول أو فعل وعلى عدم العلم، فيجوز أن يكون المعنى: تسفهون عليهم كما قال الشاعر [عمرو بن كلثوم في معلَّقته]:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلين

﴿وَيَاقَوْمِ مَنْ يَنصُرُنِي﴾ يخلِّصني بنصره ﴿مِنَ ا للهِ﴾ من عذاب ا لله ﴿إن

طَرَدتُّهُمْ﴾ وهم مؤمنون، لا ناصر لي من عذابه وهو واقع لا محالة إن طردتهم، والاستفهام إنكار.

﴿أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ أي فألاَّ تذَّكرون، أو أتغفلون فلا تذَّكرون، أو أتستمرُّون على جهلكم فلا تذَّكرون، أو أتأمرونني بطردهم فلا تذَّكرون أنَّ ذلك خطأ وقبيح، وأنَّ توقيف الإيمان على طردهم سفه، وتوقيفه عليه ولو كان غير نص في القرآن لكن مفهوم من طلب الطرد وهم مترّئسون.

﴿وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللهِ﴾ ردٌّ لقولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ كالمال. وخزائن الله: أمواله، لم أدعكم إلى اتِّبَاعي لكثرة أموالي أستتبعكم بها لي، فإنِّي لست بذي مال، بل أدعوكم لأنَّ الله أمرني بدعائكم. والجملة معطوفة على قوله: ﴿وَيَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً﴾ والمعنى: لا أسألكم مالا ولا حاجة لي به، لأنِّي أريد الله، لا لكون خزائن الله عندي لأنَّها ليست عندي.

وسمِّيت الأموال خزائن لأنَّها تخزن، أو الخزائن: مقدورات الله تعالى أي لا أقول لكم حين أدَّعي النبوءة عندي مقدورات الله تعالى أفعل منها ما أشاء، أو الخزائن: الغيوب والوجهان ضعيفان.

وعلى الأخير سمِّيت الغيوب خزائن، لأنَّها تخفى كما يخفى المخزون، فيكون راجعا إلى قوله: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الذِينَ هُمُ, أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ على أنَّ المعنى اتَّبعوك في الظاهر لا في الحقيقة، فأجابهم بأنَّ الغيب لله وما يدريكم بذلك، فلعلَّهم في الغيب كالظاهر.

وكذا قوله: ﴿وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ عطف على «لاَ أَقُولُ»، أو على

مدخوله، وعليه فأعاد لا دفعا لتوهُّم أنَّ المنفيَّ المجموع، وعليه فيكون المعنى: ولا أقول أعلم الغيب، وهذا والجملة قبله متواردان ردًّا على قولهم: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الذِينَ هُمُ, أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ بمعنى اتَّبعوك في بادي الرأي لا في الحقيقة، فقال: «لاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ» لعلَّهم في الغيب كالظاهر. والغيب: ما لم يوحَ به ولم يقم عليه دليل. وإذا كان العطف على «لاَ أَقُولُ» فإنَّما لم يقل: ولا أقول أعلم الغيب مبالغة في أنَّه لا يمكن لأحد أن يدَّعي القول بالغيب.

﴿وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ ردٌّ لقولهم: ﴿مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾، لم أدَّع أنِّي ملك فضلا عن أن تردُّوا عليَّ بقولكم ﴿مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ فإنِّي مقرٌّ بأنِّي بشر مثلكم.

﴿وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ﴾ تحقرهم ﴿لَنْ يُّوتِيَهُمُ اللهُ خَيْرًا﴾ توهَّموا أنَّ الله لا يعطي الأراذل خيرا في الآخرة على تقدير صحَّة البعث في دعوى نوح، فقال: إنَّ رذالتهم بالفقر ونحو الحجامة لا تمنعهم من خير الآخرة مع إيمانهم وعملهم الصالح.

أو أرادوا لن يؤتيهم الله خيرا في الدنيا، فأجابهم بِأَنَّ الأصل أن تراعوا خير الآخرة، وأنا أطمع لهم فيه، أو فيهما، واللام ليست لام التبليغ والخطاب، وإلاَّ قال: لن يؤتيكم بالكاف، بل بمعنى في، أي في شأن الذين، ويضعف ما قيل: للتعليل، أي لا أقول لكم لأجل الذين...الخ.

(لغة) و«تَزْدَرِي»: تفتَعِل من زرى، أبدلت التاء دالا لتوافق الزاي في الجهر. وإسنادُ الازدراء إلى العين مجازٌ عقليٌّ للمبالغة، وحقيقته لقلوبهم، والعين

واسطة، بالغت قلوبهم في الاحتقار حتَّى اتَّصل بعيونهم على طريقة معناه في القلب، أو إسناده إليها لظهور أثره فيها بالإعراض عنهم بها، وبلحظ السوء، وللتنبيه على أنَّهم استحقروهم لبادي المعاينة لرثَّة حالهم، وفي ذلك تجهيل لهم وتحميق، لأنَّهم استرذلوهم بمجرَّد فقرهم ورثَّة حالهم.

﴿اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ من الخصال الحميدة والإخلاص في الإيمان، هذا جزم من نوح بذلك لهم بإخبار الله عَجَلَّ، أو بما في أنفسهم من خير أو شرٍّ مجاراة للكفار وإرخاء للعنان، أو ليس احتقاركم ينقص عنهم ثواب الله أو يبطله إن كانوا على حقٍّ، وإنَّما الحكم للذي يعلم ما في نفوسهم لا لي، وإذا كان الكلام على سبيل الإنصاف في الكلام لم يناف جزمه بأنَّهم أولياء الله إن داموا على ما هم عليه، أو جزمه بذلك لوحي من الله الرحمن الرحيم.

﴿إِنِّيَ إِذًا﴾ إذ قلت على فرض صدور القول ومضيه، أو إذا قلت: لن يؤتيهم الله خيرا إذ جزمت لهم بعدم الخير جهالة للغيب، أو مناقضة لِمَا عند الله من الخير لهم، **وهذا لقربه وتبادره أولى.**

أو إذا قلت: عندي خزائن الله، أو أعلم الغيب، أو لن يؤتيهم الله خيرا، أو ذلك كلَّه ـ والأعين والأنفس جُمِعَا قلَّةً استُعمِلاَ في الكثرة ومعناهما النفوس والعيون ـ ﴿لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لهم، أو من الظالمين لأنفسهم وفيه تعريض بأنَّهم ظالمون بذلك القول.

﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٣٢ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ٣٣ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ

أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

استعجال قوم نوح العذاب ويأسه منهم

﴿قَالُواْ يَانُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾ عطف مفصَّل على مجمل، فإنَّ الجدال يقبل القلّة والكثرة، وبيَّنه بقوله: ﴿فَأَكْثَرْتَ﴾، أو المراد: جادلت فزدت جدالا كثيرا، أو زدت جدالا يكون هو وما سبق كثيرا، أو معنى «جَادَلْتَ»: شرعت في الجدال، أو أردت الجدال فأكثرت. والجدال: الخصام، وإكثاره: الإتيان بأفراد كثيرة منه، أو بأنواع منه، أو بتكرير فرد أو نوع أو كليهما، أو كلُّ ذلك؛ وأصله مِن جدلت الحبل أحكمت فتله، والمخاصم يحكم أمر خصامه قدر طاقته، وأيضا يريد فتل خصمه عَمَّا أراد؛ أو من الجدالة وهي الأرض، كأنَّه يريد صرعه على الأرض.

﴿فَاتِنَا﴾ عطف على «أَكْثَرْتَ» عطف طلب على إخبار، أو على محذوف، أي: اترك الجدال فأتنا ﴿بِمَا تَعِدُنَآ﴾ في قولك: ﴿إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ اَلِيمٍ﴾ حملوا خوفه على اليقين منه، أي بما تعدناه من العذاب، كقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (سورة الفتح: ٤٨) بالتعدية إلى اثنين، وهذا أولى من تقدير: تعدنا به، لعدم اتحاد متعلَّق الموصول والعائد، ولو قلنا بجواز حذف المعلوم مطلقا، وأولى من جعلها موصولة حرفيَّة، أي بوعدنا، لأنَّ هذا المصدر يحتاج إلى التأويل بمفعول، وقد أغنى عن ذلك جعل «مَا» اسما موصولا فلا تهم.

﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في وعدك، أو في دعوى الرسالة، أو فيما

جئت به، أو في العذاب، وأمَّا جدالك فلا نكترث به.

﴿قَالَ إِنَّمَا يَاتِيكُم بِهِ﴾ بما أعدكم ﴿ا للهُ﴾ عاجلا أو آجلا، وليس بمقدور لي ﴿إِن شَآءَ﴾ وهذا قبل أن يعلم أنَّ ا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد شاء، والخوف في كلامه على هذا عدم اليقين بوقوعه في الدنيا، وإلاَّ فقد شاء، ولا يصحُّ الشكُّ، أو «إِنْ» بمعنى قد، أو المعنى: إن شاء أن يعجِّله ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ بغالبين ا لله بالهروب عن عذابه، أو بغالبين إيَّاهُ بدفع عذابه عنكم.

﴿وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِيَ﴾ اجتهادي فيما يصلحكم، والنصح: قصد فعل أو قول فيه صلاح، أو إعلام بالسوء ليتَّقى، وبالخير ليُقتفى. ﴿إِنَ اَرَدتُّ أَنَ اَنصَحَ لَكُمُ،﴾ أغنى عن جوابه قوله: ﴿وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِيَ﴾ ومجموع ذلك دليل جواب قوله: ﴿إِن كَانَ ا للهُ يُرِيدُ أَنْ يُّغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ﴾ كأنه قيل: إن كان ا لله يريد أن يغويكم فإن أردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحي، فالشرط الثاني قيد لمجموع الشرط الأوَّل وجوابه، ومجموع الأول وجوابه جواب في المعنى للثاني.

ولو قال الرجل لعبده: أنت حرٌّ إن دخلت الدار إن كلَّمت زيدا فدخل ثمَّ كلَّم لم يعتق لعدم شرط كون الدخول مستلزما للعتق، لكن إن كلَّم ثمَّ دخل يعتق فلا يحكم بتحقُّق الجزاء إلاَّ عند وجود الشرط الأوَّل بعد وجود الشرط الثاني، ففي قولك: إن كلَّمت زيدا إن دخلت الدار فأنت حرٌّ، إن كلَّمه ثمَّ دخل الدار لا يعتق.

والشرط المؤخَّر في اللفظ مقدَّم في الوجود مثل: أنت حرٌّ إن دخلت الدار، فإنَّ المفهوم كون العتق من لوازم الدخول، لكن إن ذكر بعده شرط آخر مثل إن كلَّمت زيدا، كان المعنى أنَّ تعلُّق ذلك الجزء بذلك الشرط الأوَّل مشروط بحصول الشرط الثاني، والشرط مقدَّم على المشروط في الدخول فإن حصل

الشرط الثاني وهو تكلُّم زيد تعلّق ذلك الجـزاء وهـو العتـق بذلـك الشـرط الأوّل، وهو دخول الدار، وإذا لم يوجد الشرط الثاني لم يتعلّق ذلك الجزاء بذلك الشـرط الأوّل.

[قلت:] والذي عندي أنّه يقع الحكم إن اجتمع الشرطان ولـو بـلا ترتيـب، إلاّ إن شرط المتكلّم الترتيب كما إذا كان الشرط الثـاني بالفـاء، وكذلـك ثلاثـة شروط فأكثر، وذلك إذا كان الشرط الثـاني ومـا بعـده بـلا عطـف، وإن كـان بـ«أو» فالجواب لأحدهما بلا تعيين، وإن كان بالواو وثـمَّ أو غيرهـا فـالجواب لهما إلاّ إن كان بالفاء فالجواب للثاني.

(أصـول الديـن) والله سبحانه وتعالى يريد الكفر والإيمـان كمـا قـال: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُّغْوِيَكُمْ﴾ إذ لا يكون شيء إلاّ بقضائه وقدرته وعلمه وخلقه ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيعاقبكم على كفركم.

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ أي: بل أيقول كُفَّار مكّـة، أو بـل يقولـون ﴿افْتَرَاهُ﴾ أي القرآن، وذلك أنَّ قصَّة نوح كلّها معترضة تقويـة في شـأن رسـول الله ﷺ مع قومه، كما اعترض بـين قصّـة إبراهيـم في سـورة العنكبـوت بقولـه ﷻ: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ (سورة العنكبوت: ١٨)، ثمَّ رجع الكـلام بعـد هذا إلى نوح إذ قال: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ﴾ وهـذا الرجـوع يقـوّي أنَّ ضمـير «افْتَرَى» لنوح، والهاء لِمَا يقوله من الوحي، فيجوز أن يعـود ضمـير «افْتَرَى» لنوح والهاء لِمَا يقوله من الوحي.

﴿قُلِ اِنِ افْتَرَيْتُهُ, فَعَلَيَّ إِجْرَامِي﴾ كسبي، أي جـزاء كسبي، أو إجرامـي جزائي، تسمية للمسبَّب اللازم وهو الجزاء باسـم المسبّب الملزوم، وكسـبه هـو افتراؤه حاشاه أن يفتري، والمعنى: إن تحقّق أنّي افتريته فيما مضى فعليَّ لا عليكم إجرامي.

﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ مِمَّا تجرمونه أي تكسبونه، أو من إجرامكم أي من جزاء إجرامكم، أو جزاء ما تجرمون، أو مِمَّا ترتّبونه على أنفسكم من العذاب، والمعنى: وإن كنت صادقا فكذّبتموني فأنا بريء مِمَّا تجرمون عليَّ.

والمراد بإجرام نوح جميع ذنوبه، فيدخل فيها أوَّلاً وبالذات ما ادَّعوه عليه من الكذب على الله بالرسالة على زعمهم حاشاه، وبإجرامهم ذنوبهم كلُّها، فيدخل فيها أوَّلاً وبالذات ذنبهم بتكذيب نوح، ويجوز أن يراد بإجرام نوح ذنبه بالكذب على الله بالرسالة على زعمهم، حاشاه، وبإجرامهم ذنبهم بتكذيب نوح.

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾

نهي نوح عن الاغتمام بهلاك قومه وأمره بصنع السفينة

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ الإيمان يتعدَّد من المؤمن فإنّه كلّما فعل أو قال ما يسمَّى إيمانا صحَّ الإخبار عنه أنّه آمن، فالمعنى أنّه لا يصدر إيمان من قومك إلاّ مِمَّن آمن قبل، فإنّه يتجدَّد إيمانه وأمَّا

غيرهم فلا يصدر منه إيمان ولا يتكرَّر، وأمَّا قولك: إلاَّ من استمرَّ أو استعدَّ على الإيمان ففيه تأويل لـ﴿ءَامَنَ﴾ فقط دون قوله: ﴿لَنْ يُّومِنَ﴾ وأمَّا جعل الاستثناء منقطعا فلا وجه له البتَّة، لأنَّ معناه: لكن من آمن، فيبقى «يُؤْمِنُ» بلا فاعل، وقد صحَّ أيضا أنَّ التفريغ لا يقع في الانقطاع، والداعي إلى التأويل أنَّ من آمن لا يتصوَّر إيمانه لاستحالة تحصيل الحاصل.

﴿فَلاَ تَبْتَئِسْ﴾ لا تكن بئيسا متغيِّرا بالبأس، نهاه عن أن يتأثَّر بالبأس وأمره بإلغاء البأس وعدم الاكتراث، وكأنَّه قيل: لا تحزن بلقاء هذا المكروه. ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ من التكذيب والإيذاء، أو من فعلهم وهو التكذيب والإيذاء، والمضارع للاستمرار، أو بمعنى الماضي.

(قصص) كانوا يضربونه حتَّى يشرف على الموت أو يظنُّوه ميِّتا فيلقوه في المزبلة، ويضربونه كذلك ويلفُّونه في ثوب ويلقونه في بيته، ويرجع يدعوهم. وبلغوا من الكفر به أنَّهم يوصون بالكفر به، حتَّى إنَّه يجيء الرجل بولده فيقول: لا يغرنَّك هذا، فيقول: يا أبي ناولني العصا، فيضربه بها فيشجُّه، وقد يسيل دمه وقد يضربه ضربة يظهر بها عظم رأسه، كان ذلك فقال: «يا ربِّ قد ترى ما فعلوا فاهدهم، أو صبِّرني إلى أن تحكم فيهم» فأوحى الله تعالى إليه: لم يسبق في صلب ولا رحم من يؤمن بك، وأقنطه من إيمان من لم يؤمن، وسلاَّه وبشَّره بقوله:

﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ والأمر للوجوب على ظاهره وحفظه لنفسه ولمن آمن معه واجب، [قلت:] والقول بأنَّه للإباحة وأنَّه لو شاء لم يصنعه فينجِّيه الله ومن معه بما شاء، كجمود الماء لهم في حقِّهم خاصَّةً، وكجعل سفينة من ماء تجري في الماء **خطأ لا دليل له** مع أنَّ الله تعالى قادر على ذلك، كما جعل الماء دائرا كالحائط بمن آمن ولم يحضر هناك.

والفلك: السفينة، و«أَعْيُنِنَا»: بحفظنا عن إفساد قومه لها، وعن الزيغ في صنعها، أو بمرأى منّا، أي بعلم مِنَّا، لا تخفى عنّي مصالحك، وذلك أنَّ العين يكون بها الحفظ والعلم، تعالى الله عن صفات الخلق.

(بلاغة) وعرَّف الفلك مع أنَّه لم يتعارف عندهم لكونه معروفا عنده بالوحي قبل، كما يناسبه قوله: ﴿بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ فـ«الـ» للعهد، فَإِنَّهُ أوحى إليه أنَّه ينجِّيه في شيء يصنعه بتعليم الله يسمِّيه فلكا، وقيل: للجنس إذ لم يعرف الفلك و لم يأمره الله إلاَّ بصنعه هكذا، وعلَّمه كيف يصنع.

(قصص) وروى الطبري والحاكم عن عائشة عنه ﷺ أنَّ نوحا غرس في آخر عمره شجرة بأمر الله تعالى، فذهبت كلَّ مذهب وقطعها، وجعل يعملها سفينة، فقالوا له أتعمل سفينة في أرض بعيدة عن الماء؟ وهذا نصٌّ في أنَّهم عرفوا السفينة وأنَّها كانت قبل نوح، وقيل: أوَّل من عملها نوح ولا تعرف قبله وعليه الجمهور، والله أعلم بذلك.

(بلاغة) والباء للملابسة وجمع العين مبالغة في الحفظ والعلم، لأنَّ الحفظ والمراقبة بلا عين أبلغ منهما بعين أو عينين، وفي ذلك استعارة تمثيليَّة، شبَّه حفظه أو مراقبته بحراسة الحراس بإمعان العيون، وكمال التيقُّظ في حفظ الشيء المحروس، بحيث لا يظفر قاصده ولا يرام طالبه، لكمال بأسه عن تناول لكثرة حرَّاسه، وقيل: «أَعْيُنِنَا»: ملائكتنا، تشبيها لهم بالأعين للحفظ، وقيل: «أَعْيُنِنَا»: رقبائنا على سبيل التجريد بأَن جرَّد من نفسه تعالى رقباء، وهو أن ينزع من الشيء آخر مثله في صفته مبالغة في كمالها.

[قلت:] والصواب منع ذلك في حقِّ الله سبحانه لخروجه عن الأدب في حقِّه، وإنَّما يقتصر على ما ورد مِمَّا يجوز ظاهره كعين الله ويده وليس هذا

الوارد تجريدا، وأمَّا التجريد في حقّه تعالى بقوله:

أفات بنو مروان ظــلما دمــاءنا وفي ا لله إن لم يعدلوا حَكَمٌ عَدْلٌ

فلعدم فقه قائله، أو يقدَّر مضاف أي بدل حكمٍ عدلٍ.

﴿وَوَحْيِنَا﴾ إليك كيف تصنعها. عن ابـن عَبـَّاس: لم يـدر كيـف يصنعهـا فأوحى ا لله ﷿ إليه أن يصنعها مثل جؤجؤ الطائر أي صدره، أي اصنعـه حـال كونك أو كونه محفوظا عن إفساده أو عن الزيغ في عمله، وعدم إتمامه، ومتعلّمـا عمله من وحينا.

(قصص) أتاه جبريل بعد مقاساة الشدائد منهم، يضربونـه حتّى يسكن ويلفّونه، ويأتيهم من الغد يعظهم، ويقول: «اللهــمَّ اهدهـم فـإنَّهم لا يعلمـون»، وكانوا يوصون أولادهم قرنا بعد قرن على مخالفته، فكلُّ قرن أشدُّ عليه من قرن قبلـه، حتّــى شــكى إلى ا لله: ﴿إِنِّـي دَعَـوْتُ قَوْمِـي لَيْــلاً وَنَهَــارًا... رَبِّ لاَ تَذَرْ...﴾ (سورة نوح: الآيات ٥-٢٦) ، فقال له: «إنَّ ربَّكَ يأمرك أن تصنع الفلك» فقال: «كيف أصنع ولست نجّارا؟» فقـال: «إنَّ ربَّـك يـأمرك أن تصنـع الفلـك بأعيننـا»، فـأخذ القـدوم وجعـل ينجـر ولا يخطـئ، ويـروى أنَّ جـبريل يعلّمــه، ويروى أنَّ الملائكة تعلّمه، وأنَّ ا لله ﷿ أمره أن يطليها بالقار ولا قار في الأرض ففجَّر ا لله تعالى له عين القار.

﴿وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الذِينَ ظَلَمُواْ﴾ من قومـك، ظلمـوا أنفسـهم والمؤمنـين وإيّـاك بالإشراك وغيره من المعاصي، لا تدْعُني باستدفاع العذاب عنهم، بَـالغ في إثبات إهلاكهم، كأنّه قيل: لو دعوتــني مع منزلتك عنـدي في دفـع العـذاب لم أستجب لك، كقوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيـدًا...﴾ (سورة المدثر: ١١) وإلاّ فهو داع عليهم بالهلاك.

وقد يقال علم الله منه رقّة البشر تدركه حين يدركهم الهلاك فيدعو لهم، فنهاه عن الدعاء لهم، كقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَاخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ (سورة النور: ٢) نهاه الله تعالى أن يخاطبه فيهم ولو لم يتكلّم له في إنجائهم بعد إقناطه من إيمانهم، كما تقول: دعوني أضربه، ولو لم يمنعوك قبل.

وقيل: المراد بـ«الذِينَ ظَلَمُوا»: زوجه واعلة وابنه كنعان، يدعو لهما فنهاه الله ﷻ، وهو قول ضعيف، ووجهه أنَّ الدعاء لهما أنسب به مع تبادر أنَّه دعا لهما، أو أراد أن يدعو من قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُخَاطِبْنِي...﴾.

(أصول الدين) وظاهر هذا جواز أن يقال: خاطبت الله، فإنه إذا قيل: لا تضرب عمرا، جاز أن يقال: ضربت عمرا، وكذا في كلِّ نهي، ونصَّ أصحابنا على عدم جوازه.

﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ اسم مفعول للاستقبال أو للحال، تنزيلا للمستقبل منزلة الحاضر المشاهد أو الماضي لتحقُّق الوقوع، أو مضيه بمعنى: محكوم عليهم في الأزل، أو في اللوح بالإغراق، ولا يردُّ قضائي، وروي أنَّه لَمَّا قال له: «اصْنَعِ الْفُلْكَ...» الخ قال: يا ربِّ أين الماء؟ فقال: إنِّي قادر.

﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ﴾ عطف على محذوف مستأنف، أي يتهيَّأ للصنع بعد أمرنا له به ويصنع، وهو لحكاية الحال الماضية كأنَّها حاضرة يشاهدها سيِّدنا محمد ﷺ وغيره، أو بمعنى الماضي، أو المضارع بمعنى الماضي، اشتغل بعمل السفينة وكفَّ عن دعاء قومه بأمر الله له عن الكفِّ، وجعل يغرس الشجر ويقطع الخشب ويجفّفه ويهيِّء القار.

(قصص) ومرَّ رواية أنَّه تعالى أنبع له عين قار وكلَّ ما تحتاج إليه السفينة من المسامير وآلات العمل، أمره الله أن يعملها من الساج فغرسه و لم يقطعه

حتّى طال أربعمائة ذراع، والذراع إلى المنكب في أربعين سنة وهذا تخليط، وقيل: من الشمشاد من جبل لبنان، قيل في التوراة: من الصنوبر، ويقال: بقي مائة سنة يغرس ويقطع وييبِّس، ويقال: عمل معه في صنعها سام وحام ويافث بالنحت، وأجراء على النحت وأمره الله عَجَلَّ أن يطليها بالقار خارجا وداخلا، ويجعل طولها ثمانين ذراعا وعرضها خمسين، وإلى السماء ثلاثين، بذراع أهل ذلك الزمان مقدار قامتنا بعدهم إلى المنكب، أو طولها ثلاثمائة ذراع وعرضها خمسون، وإلى السماء ثلاثون، أو طولها ألف ذراع ومائتا ذراع، وعرضها سبعمائة ذراع، وروي: ستُّمائة.

(قصص) وجعلها ثلاثة بطون وفيها كُوًى وبابها من عرضها، في البطن الأوَّل الوحوش والسباع والهوام، وفي الأوسط الدوابُّ والأنعام، وفي الأعلى الناس، وما يحتاجون إليه من طعام وغيره، وقيل: الطبقة الأولى للناس، والعليا للطير، وكثر روث الدواب فأوحى الله عَجَلَّ إليه أن اغمز ذنب الفيل فوقع منه خنزير وخنزيرة، ومسح على الخنزير فخرج الفأر فأقبلت تأكل الروث، وأفسدت الفأر وأقبلت تأكل الحبال، فأوحى إليه الله عَجَلَّ أن اضرب بين عيني الأسد فخرج من منخره سنُّور وسنُّورة، وبين الأسد والسنُّور شبه، وكذا بين الفيل والخنزير، فأقبل السنور والسنورة على الفأر، [قلت:] وهذا على أنَّ في سفينة نوح حبالا وكأنَّها تجري بالقلوع والريح، وعلى أنَّها مفتوحة إلى السماء، وقيل: مغلقة، وقيل: تجري بين ماء السماء وماء الأرض مغلقة، وأنَّ الخنزير والفأر والسنُّور غير موجودة، قبل والأكثرون على خلاف ذلك، ولعلَّها وجدت ولم يحملها لأمر الله، أو لعدم إتيانها بأمره تعالى.

(قصص) وروي أنَّه قال عليه السلام: يا رَبِّ كيف يجتمع الهرُّ والحمام والأسد والبقرة والعناق والذئب؟ فقال الله عز وجل: أنا ألقيت بينهنَّ العداوة وأنا ألقي بينهنَّ الصلح، فقال: يا ربِّي الأسد والفيل؟ فألقى عليهما الحمَّى فلا يضرَّان، وأمكنه حملهما.

(قصص) ويقال: قال الحواريون لعيسى عليه السلام: لو بعثت لنا رجلا يصف السفينة لنا، فانطلق بهم إلى كثيب، فأخذ كفًّا فقال: أتدرون من هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: هذا كعب بن حام، فضرب بعصاه فقال: قم بإذن الله، فإذا هو حيٌّ ينفض التراب عن رأسه وقد شاب، فقال له: أهكذا هلكت؟ قال: لا متُّ شابًّا ولكن ظننت الساعة قامت فشبت، فقال: حدِّثنا عن سفينة نوح، فقال: طولها ألف ومائتا ذراع وعرضها ستُّمائة، وفيها طبقة للدوابِّ والوحوش، وطبقة للناس، وطبقة للطير، ثمَّ قال له: عد بإذن الله ترابا فعاد، وأين طبقة الجنِّ؟ ولعلَّهم إن كانوا فيها مسلمين يكونوا حيث شاءوا.

وشرع في خدمتها وكانت في سنتين، وعن كعب: في ثلاثين سنة، وقيل: في أربعمائة سنة، وقيل: في أربعين سنة، وقيل: ستِّين، وقيل: مائة، وقيل: ثلاث سنين، وكانوا يفسدونها فأمره الله أن يتَّخذ لها كلبا، وعملها في هند أو الكوفة أو الشام أو الجزيرة [قلت:] **روايات لا ندري صحَّتها ولا دليل فيها ولا حديث، وكذا روايات طولها وعرضها وارتفاعها، وشجرها وموضع صنعها ومدَّة المكث فيه ولا يقبل العقل كثيرا منها ونؤمن بنفسها.**

كانوا يمرُّون عليه ويقولون: صرت نجَّارا بعد النبوءة! كما قال عز وجل:

﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ﴾ استهزءوا به فيقولون متضاحكين: أنجارة بعد نبوءة؟ وما هذا البناء الذي تبني لا عاقبة له محمودة إلاَّ

التعب، فإن كان للماء كما تزعم أنَّ الغرق يأتينا فكيف تبنيه في موضع بعيد من الماء، وفي وقت عزَّة الماء عزَّة شديدة، كما قيل: سخروا منه واستجهلوه لذلك، ولقوله إذا قالوا له: ما لهذه الألواح؟ إنّي أبني بها بيتا يمشي على الماء.

(لغة) والملأ: الجماعة مطلقا، أو في ترفُّع، ولعلَّ غيرهم كالفرد لا يجترئ على ذلك، و«كُلَّ» ظرف لإضافته إلى مصدر مؤوَّل من «مَا» والفعل، نائب عن الزمان متعلّق بـ«سَخِرُوا».

﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا﴾ في الدنيا **﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾** فيها عند الغرق، وفي الآخرة عند الحرق **﴿كَمَا تَسْخَرُونَ﴾** إذا أخذكم الغرق وأحرقتم فيه وفي الآخرة، ونجونا دنيا وأخرى، وهذا مستأنف جواب، كأنَّه قيل: فماذا يقول لهم إذا سخروا منه؟ فقال الله ﷻ: **﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا...﴾** وهذا أولى من تعليق «كُلَّمَا» بـ«قَالَ» وجعل «سَخِرُوا» نعتا لـ«مَلأٌ» أو حالا أو بدل من «مَرَّ...» اشتماليًّا، لأنه لم يجر ذكر لـ«سخر الملأ منه»، إلاَّ في قوله: **﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ﴾**. وسخرياء نوح منهم: استجهالهم في كفرهم، أو فرحه بهلاكهم، إذا هلكوا، وإلاَّ فالأنبياء لا يسخرون، وقد قيل: إطلاق السخرياء على الاستجهال إطلاق للمسبَّب على السبب، أو ذلك للمشاكلة وأجاز بعض أن يكون حقيقة وأنَّها تجوز في حقِّ النبيء انتقاما من فاعلها، قلت: لا يصحُّ هذا، والأنبياء لا تنتقم، اللهمَّ إلاَّ إن أمره الله ﷻ بها انتقاما لدينه.

ويجوز أن يراد بسخريائه: الجزاء على سخريائهم، قيل: أو الشتم بهم عند الغرق. وَلَمَّا يئس من إيمانهم لم يبال بإغضابهم وكفَّ عن دعائهم إلى الإيمان.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾

(نحو) «مَنْ» استفهاميَّة عَلَّقَتْ «تَعْلَمُ» عن نَصْبِ مفردين إلى نصب محلِّ جملة قامت مقامهما وهي «مَن يَأْتِيهِ» من المبتدأ والخبر، أو علَّقت «تَعْلَمُ» ـ بمعنى تعرف ـ عن نصب مفرد إلى نصب جملة قائمة مقامه؛ أو «مَنْ» موصولة و«تَعْلَمُ» بمعنى تعرف، وإن كان على بابه قدِّر مفعول ثان بعد «مُقِيمٌ» معلوم من المقام، أي: فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه...الخ مَن هو.

(بلاغة) والعذاب المخزي: الغرق، والمقيم: عذاب الآخرة، و﴿يَحِلُّ﴾: ينزل، أو يحلُّ حلول أجل الدَّين، على الاستعارة المكنية، شبَّه عذاب الآخرة المؤجَّل بالدَّين المؤجَّل، ورمز لذلك بلازم الدَّين المؤجَّل وهو الحلول، ويجوز حمل ذلك على الاستعارة التمثيليَّة، ويجوز حمل العذاب المخزي على العموم، والمقيم على عذاب الآخرة، تخصيصا بعد تعميم، وتهويلا لعذاب الآخرة لشدَّته ودوامه، وهذا أبلغ، والأوَّل أظهر لتبادر أنَّ الأصل عدم العموم ثمَّ التخصيص. [قلت:] وفي الآية ردٌّ عليهم إذ زعموا أنَّ اشتغاله بغرس الأشجار وقطعها وعمل السفينة عذاب عظيم بلا فائدة، بأنَّ العذاب هو عذابهم المخزي والمقيم لا ما هو فيه، فإنَّه لنجاة الدنيا وفوز الآخرة الدائم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ غاية لـ«يَصْنَعُ» وما بينهما، مستأنف معترض؛ أو حال من ضمير «يَصْنَعُ».

(نحو) سواء جعلنا «حَتَّى» جارة لـ«إِذَا» وهو مرجوح، أو ابتدائيَّة والابتدائيَّة لا تخلو من غاية كالجارَّة فإنَّ بين المفرَّع والمفرَّع عليه تناهيا برجوع المفرَّع إلى المفرَّع عليه. ما زال يصنع حتَّى حصل أوَّل أمر الله، أو قرب جدًّا وهو نزول العذاب، وهو واحد الأمور، وقولنا بركوب السفينة أو بالفوران أو بالإرسال للسحاب أو للملائكة فيكون واحدا لأوامر، وليس المراد: حتَّى إذا حصل وقت أمرنا، لأنَّ الوقت في «إِذَا» والظرف لا يكون ظرفا للظرف، اللهمَّ

إلاَّ باعتبار وسط الظرف فيعتبر بـ«إِذَا» ظرف أوسع لِمَا بعد المجيء وقبله، كالساعة من يوم الجمعة.

﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾: نبع بالماء، كارتفاع الماء في القدر بالغليان.

(قصص) والتنُّور: تنور الخبز من حجارة، كان لنوح من أمِّنا حواء، فاض الماء من حيث تكون النار خلاف للمعتاد، وهو في موضع مسجد الكوفة، أو على يمين داخل الكوفة مِمَّا يلي باب كندة، أو في الهند، أو بعين وردة من أرض الشام، أو في أرض الجزيرة جزيرة ابن عمر، وتلك الأقوال للجمهور.

وقيل: **المراد الجنس، فالماء فار من التنانير أين هي لا من تنُّور واحد،** ولا ينافي فوران الماء من التنُّور قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا الاَرْضَ عُيُونًا﴾ (سورة القمر: ١٢) لأنَّ الحاصل أنَّه خرج من الأرض ومن التنُّور، إلاَّ أنَّه منه بالفوران ومن الأرض بالتفجير. أو التنُّور: وجه الأرض، أو أعلى موضع منها، على خلاف المعتاد أيضا من نبع الماء من أسفل لا من أعلى.

وعن الإمام عليٍّ أنَّ المراد تنوير الصبح، ويحسن أن يكون «فَارَ التَّنُّورُ» كناية عن اشتداد الهول، كقوله ﷺ: **«الآن حمي الوطيس»** أي اشتدَّ الحرب.

(صرف) وزنه [التنُّور] تفعول من النور، أصله: تنوْوْر، قلبت الواو الأولى همزة، فقلبت ألفا وحذفت تخفيفا، وشدّد النون تعويضا عمَّا حذف، قاله ثعلب، وفيه أنَّه إذا أريد التخفيف فكان الحذف لأجله فلم ثقِّل بالشدِّ؟ وقال الفارسي: فعُّول، وليس في كلام العرب نون قبل راءٍ، وأمَّا "نرجس" فمعرَّب، فتنُّور معرَّب، وقيل: اتّفقت فيه لغة العرب والعجم كالصابون.

وكان فوران التنُّور علامة على دخول السفينة وركوبها، وأعلمته امرأته به،

وكان ذلك في ثالث عشر من أبيب في شدَّة القيظ. وإسناد الفور إلى التنُّور مجاز عقليٌّ، والفائر الماء منه وفيه.

﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا﴾ في السفينة ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾ شيئين متقارنين، فذلك ذكر وأنثى من كلِّ نوع، إلاَّ ما يتولَّد من التراب أو العفونة أو الماء.

(قصص) ويقال: حمل العقرب والحيَّة على أن لا تضرَّا إذا خرجتا من يَذكُر نوحا، ويقال: لم يدخل فيها ما لا يتوالد وما يضرُّ، ولم يدخل البغل والبغلة لأنَّهما يتوالدان من الحمار والفرس، وأدخل الأسد والنمر، وعلى أنَّ الهرَّ والخنزير والفأر لم يكن قبل فالمراد من كلٍّ زوجين موجودين.

﴿اثْنَيْنِ﴾ فردين ذكر وأنثى مفعول به لـ«احْمِلْ»، فالزوجان الحقيقة، والاثنان شخصان منها، وقيل: يشمل الزوجان ما كان من نبات كالعجوة واللوز والرمَّان الحلو والحامض، و«كُلّ» هنا للأفراد النوعيَّة.

(قصص) قال: يا رَبِّ كيف أحمل فيها ذلك؟ فحشر إليه الحيوانات، فجعلت تلحس قدميه تطلب حملها، فقال: أمرت باثنين فقط من كلِّ زوجين، فيضرب يديه فتقع يمناه على الذكر ويسراه على الأنثى، وأوَّل ما حمل الذرة، وآخر ما حمل الحمار، قيل: وتعاصت العنز فجذبها بذنبها فصار أبدا منفرجا عن مخرجيها، وتساهلت النعجة فمسح على ذنبها فستر فرجها.

(قصص) وتعاصى الحمار بتعلُّق إبليس بذنبه ونوح يجذبه من أذنه، فقال: أدخل وإن كان الشيطان معك، فدخل إبليس، وقيل: قال للحمار: أدخل يا شيطان، فدخل معه إبليس، فقال: أخرج يا عدو الله ما أدخلك؟ فقال: ألم تقل ولو كان معك شيطان، لا بدَّ من أن تحملني، وقيل: طلب الدخول معتذرا بأنَّه من المنظرين فأدخله على عمد، ولا نعتقد أنَّ نوحا قال للحمار: يا شيطان،

وقيل: كان على ظهر السفينة، واعترض بأنّه ناريٌّ هوائيٌّ لا يفرُّ من الغرق، ويجاب بأنَّ ما كان كذلك ليس يقبل طول المكث في الماء، وأيضا هذا ماء العذاب ليس كسائر المياه، وأيضا الماء ينافي النار فإن كان الجنُّ في زمان الغرق كلُّهم مشركين غرقوا، وإلاَّ نجا مؤمنهم إلى السفينة، ولو لم يرهم نوح، وعلى فرض كفرهم كلّهم ففي فخذي إبليس ذكر وفرج يتوالد منهما، **وقيل: لم يعمَّ الطوفان الأرض** فإنّما حمل من كلٍّ زوجين اثنين لئلاَّ يحتاج الأمر في ذلك إلى ما في الأرض البعيدة[1].

﴿**وَأَهْلَكَ**﴾ بنيك المؤمنين وأزواجهم المؤمنات، وزوجك المؤمنة وغرقت الكافرة ﴿**إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ**﴾ منهم بالإهلاك وهم زوجه واعلة، أو والعة بالعين المهملة فيهما وهي الكافرة، وابنه منها كنعان الكافر، إحمل أولاده ساما أبا العرب وحاما أبا السودان، ويافثا أبا الترك، وأزواجهم. والاستثناء متّصل إن أريد بالأهل الأهل إيمانا، ومنقطع إن أريد قرابته.

﴿**وَمَنَ ـ امَنَ**﴾ عطف على «**أَهْلَكَ**» وهم سائر من آمن ﴿**وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُ, إِلاَّ قَلِيلٌ**﴾ جملتهم تسعة وسبعون وتمَّ بنوح ثمانون، أربعون رجلا وأربعون امرأة وصحّح هذا، فنزلوا في موضع بعد الخروج وبنوا فيه مدينة فسمِّيت ثمانين، وهي أوَّل مدينة بعد الطوفان لأنّها لثمانين، وذلك في أرض الموصل، قرب الجبل، وعن ابن عَبَّاس: بنى كلٌّ منهم بيتا فسمِّيت سوق الثمانين، وظاهر الرواية هذه كلُّهم رجال وأمَّا نساؤهم فزيادهم على ذلك، وروي: لَمَّا ضاقت بهم أرض الموصل تحوَّلوا إلى بابل فبنوها، وعن كعب الأحبار رحمه الله: أوَّل حائط وضع على وجه الأرض بعد الطوفان حائط حرَّان ودمشق ثمَّ بابل؛ وقيل: جملتهم ستّة

١- وهو ما يرجّحه اليوم علماء الآثار.

رجال وستٌّ نسوة نساؤهم، فهم اثنا عشر، والمشهور الأوَّل تسعة وسبعون زوجه المسلمة وبنوه الثلاثة ونساؤهم، واثنان وسبعون رجلا وامرأة من غيرهم؛ وقيل: زوجه المسلمة وأبناؤه الثلاثة وكنائنه الثلاث، وقيل: خمسة رجال وخمس نسوة وقيل: عشرة رجال وعشر نسوة وقيل: ثمان وسبعون[1].

﴿وَقَالَ﴾ الله لنوح ومن معه، أو قال نوح لمن معه، ويدلُّ له: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ولو كان الضمير لله ﷻ لقيل: إنّه لغفور رحيم. ﴿ارْكَبُواْ فِيهَا﴾ تغليبا للذكور العقلاء على غيرهم بأن وجَّه الخطاب إلى الكلِّ، لأنَّ الكلَّ في معرض الركوب وعند السفينة، أو الخطاب لنوح والمؤمنين من الله، أو للمؤمنين من نوح.

وَلَمَّا ركبوا أدخلوا الحيوانات، وقد لا تدخل الحيوانات في الخطاب بـ«ارْكَبُوا» بل شأنها في قوله: ﴿احْمِلْ فِيهَا﴾ فحملها قبل ركوبهم أو بعده. وتعدَّى «ارْكَبُوا» بـ«في» لأنَّه في معنى: كونوا أو ادخلوا.

(بلاغة) والركوب: العلوُّ على الشيء وغلبته فيتعدَّى بنفسه، كقوله تعالى: ﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾ (سورة النحل: ٨) ولَمَّا أريد المحليَّة والمكانيَّة تعدَّى بـ«في» استعارة، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي الْفُلْكِ﴾ (سورة العنكبوت: ٦٥) وقوله ﷻ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ﴾ (سورة الكهف: ٧١) فإنَّهم في داخل البطن

١- ينبغي العدول عن هذه التفاصيل الجزئيَّة ومستتبعاتها، لأنَّ ذلك مِمَّا يلهي ويبعد المرء عن الاعتبار والموعظة، وهو الهدف والغاية من ذكر الله ذلك وإفادتنا به ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الأَلْبَابِ﴾ (سورة يوسف: ١١١) وربَّما يُؤَدِّي ذلك إلى الرجم بالغيب، وللشيخ رحمه الله العذر في ذلك فقد جارى الأقدمين فيما يذكرونه. وقال أيضا فيما سيأتي في آية ٤٤ من السورة: إنَّما أنقل ذلك ترويحا وتخفيفا على القارئ والمستمع، فله قصده رحمه الله.

الأعلى، أو في الوسط، وليسوا على أعلاها، كما يكون الراكب على أعلى الدَّابَّة، شبِّهوا براكب الدَّابَّة.

وقيل: استعارة مكنيَّة، وقيل: الركوب العلوُّ على شيء يتحرَّك حقيقة مطلقا، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ﴾.

(قصص) ركبوا في السفينة وركبوا في يوم الجمعة العاشر من رجب، وطافت بالبيت أسبوعا، وسارت مائة وخمسين يوما، واستقرَّت على الجوديِّ شهرا، وخرجوا يوم عاشوراء، وليس في الدنيا سواهم وسوى ما معهم وسوى قوم مؤمنين لم يغرقوا، لَمَّا كان الطوفان أحاط بهم الماء كالجدران ولم يدر بهم نوح حتَّى خرج من السفينة، ويقال: أمره الله بحمل جسد آدم فحمله معترضا بين الرجال والنساء بوصيَّة منه عليه السلام، والماء دخل الحرم ورفع البيت أو هدِّم، وقيل: خبِّئ الحجر في أبي قبيس واستشكل الرفع والخبء، وعن مجاهد: لم يدخل الماء الحرم فلا رفع ولا خبء. ويقال: طافت الأرض كلَّها ولم تدخل الحرم وطافت به أسبوعا. ويقال: نجا عوج لأنَّه حمل خشب الساج من الشام إلى نوح عليه السلام وهو كافر، وصل الماء إلى حجرته.

﴿بِسْمِ اللهِ﴾ متعلِّق بحال محذوفة مقارنة وصاحبها واو «ارْكَبُوا»، أي مصاحبين لاسم الله وقت إرسائها ووقت إجرائها كما قال: ﴿مُجْرَاٰيهَا وَمُرْسَاهَآ﴾ مصدران ميميَّان منصوبان على الظرفيَّة متعلِّقان بمصاحبين، أي إرساءها وإجراءها، كقولك: جئت طلوع الشمس، وأمَّا أن يكونا ظرفين ميميَّين زمانيَّين أو مكانيَّين فلا، لأنَّ عاملها ليس من معناهما، كقولك: رميت فرمى زيد.

أو «بِسْمِ اللهِ» متعلّق بقائلين حالا محذوفة، أي اركبوا فيها قائلين بسم الله لإرسائها وإجرائها، فهما أيضا مصدران نابا عن الزمان متعلّقان بقائلين، أو قائلين: بسم الله نستجلب النجاة والخير وقت إجرائها وإرسائها.

ويجوز أن يكون صاحب الحال هاء من « فِيهَا » فيقدَّر: اركبوا فيها كائنا باسم الله إجراؤها وإرساؤها، فيكون «مُجْرَاهَا» و«مُرْسَاهَا» فاعلا لكائنا، أو باسم، أو «بِاسْمِ» خبر لـ«مُجْرَاهَا». والجملة مستأنفة أو حال من هاء في فيها، والحال مقدَّرة، لأنَّ إجراءها وإرساءها لم يكن عند الركوب بل بعد الاستقرار فيها.

وروي أنَّه إذا أراد أن تجري قال: «باسم الله»، وإذا أراد أن ترسوَ قال: «باسم الله». ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قاله نوح للمؤمنين معه، إذ نجّاهم الله من الغرق مع فرطاتهم لكثرة مغفرته ورحمته وحكمته، لا لاستحقاقهم النجاة بإيمانهم، إذ لا واجب على الله، أو لا تخافوا الغرق لأنَّ الله غفور رحيم، أو اركبوا فيها لأنَّ الله غفور رحيم، ولولا غفرانه ورحمته لم تركبوا فتغرقوا.

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ

أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾

انتهاء الطوفان ونجاة نوح ومن معه

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ﴾ حال، حذف عامله وصاحبه، أي فركبوا وهي تجري بهم، وهي حال مقدَّرة، وشُهِرَ أنَّ الجملة لا تكون حالا مقدَّرة، وإنَّما قلت: مقدَّرة، لأنَّها وقت إيقاع الركوب قارَّة. ﴿فِي مَوْجٍ﴾ متعلّق بـ«تَجْرِي»، وهي مياه مضطربة مترافعة، كلُّ موجة كالجبل كما قال: ﴿كَالْجِبَالِ﴾ نعت «مَوْجٍ»، ولا يثبت ما قيل: إنَّ الماء طبق ما بين السماء والأرض وجرت في وسطه، وعلى تقدير صحَّته الله قادر أن يكون الموج داخل الماء، وأن يجريها فيه، أو ذلك قبل التطبق.

(قصص) والمشهور أن الماء علا على كلِّ جبل أربعين ذراعا، وقيل: خمسة عشر ذراعا، وروي أنَّ الله ﷻ أرسل الماء أربعين يوما وليلة، نصف الماء من الأرض ونصف من السماء، ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا﴾ (سورة القمر: ١١).

(قصص) وروي أنَّ امرأة أحبَّت صبيًّا لها حبًّا شديدا فارتفعت به إلى الجبل، فما زال يرتفع فترتفع هي حتَّى بلغ الماء أعلى الجبل، فلمَّا بلغ الماء رقبتها رفعته بيديها فأغرقهما الماء، فلو رحم الله أحدا منهم لرحمها وصبيَّها، وهذا ينافي ما شهر أنَّ الله أعقم أرحام نسائهم أربعين عاما ليغرقوا على أبلغ العقل

كافرين، ولعلّه لم يصحَّ هذا، أو لم يصحَّ شأن الصبي، أو خصَّت بالولادة.

وألغز بعضهم في السفينة:

ومكسحة تجري ومكفوفة ترى وفي بطنها حمل على ظهرها يعلو
فإن عطشت عاشت وعاش جنينها وإن شربت ماتت وفارقها الحمل

أي إن دخلها الماء غرقت ومات من فيها.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ اِبْنَهُ,﴾ قبل أن ينقطع الطريق إلى الفلك، أو مطلقا لقدرة الله أن يحمله على الماء إليها، والأوَّل أولى؛ وقيل: وهذا قبل الركوب فيها. ﴿وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ وهو ابنه كنعان بن امرأته الخائنة في دينه، وقيل: ربيبه سمَّاه ابنا، وهو ضعيف.

(صرف) و«مَعْزِل»: اسم مكان ميميٌّ، أي في موضع عزل عن السفينة، وذلك حقيقة، وقيل: في موضع عزل عن دين نوح، وذلك الموضع هو دين الكفر، سمَّاه موضعا مجازا، أو هو مصدر ميميٌّ، أي في عزل عن دين نوح، وقيل: كان في موضع عزل لم يتناوله الخطاب بـ«ارْكَبُوا»، على أنَّه لم يكن عند أبيه وإخوته وقومه، وكان ينافق بإظهار الإسلام فظنَّه مؤمنا، وإلاَّ فإنَّه لا يحبُّ نجاته.

ومعنى: "لم يتناوله الخطاب" أنَّه لا يسمعه، وقيل: كان يجانب الكفار ولا يكون معهم ليظنَّ أبوه أنَّه مؤمن، أو طمع أن لا يدخل في إجمال من سبق عليه القول، وقد يمكن أن يناديه لغلبة الشفقة على الولد وحبِّه، بحيث لا يملك نفسه، أو ظنَّ أنَّه يسلم حين رأى الغرق والهول، أو معنى ﴿ارْكَبْ مَعَنَا﴾: أَسْلِمْ، لأنَّ الإسلام سبب للركوب وملزوم له.

﴿يَابُنَيِّ﴾ الأصل "بُنَيْوِي" قلبت الواو وهي لام الكلمة ياءً وأدغمت فيها

ياء التصغير، وحذفت ياء الإضافة، ودلّت عليها الكسرة ﴿ارْكَبْ مَعَنَا﴾ معشر المسلمين في الفلك، ولم يذكره لحضوره، ولأنّه لا مركب حينئذ إلاّ هو ﴿وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾ في الدين والانعزال عن السفينة.

وكأنّه قيل: فبم أجاب؟ فقال: ﴿قَالَ سَئَاوِي﴾ ألتجئ ﴿إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَآءِ﴾ لعلوه فلا أغرق وذلك إسناد إلى السبب، والأصل: أعتصم به من الماء، ولا يدري أنَّ ذلك ماء الغضب لا ينجو منه المغضوب عليه بالصعود في الجبل، ولم يستحضر أنّه إن نجا من الغرق فما يأكل في الجبل حتّى يزول الماء؟ مع أنَّ ذلك الماء ماء غضب لا ينجّي من العطش، وهو كافر إجماعا. لَكِنَّ صعوده إلى الجبل لا يلزم أن يكون صريح عناد لاحتمال أنّه أراد الجبل لتوهُّمه أنّه أنجى من السفينة، أو لكراهة الاحتباس في السفينة.

﴿قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنَ اَمْرِ ا للهِ﴾ بمعنى أنَّ اليوم يوم شدَّة لا تجَاوُز فيه، فليس قيدا يحترز به عن أن يكون راحم غير ا لله في غير اليوم، ولا أن يرحمهم ا لله بعد ذلك اليوم. وأَمْرُ ا لله: إهلاكه بالإغراق، وهو الأمر في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَآءَ اَمْرُنَا﴾.

(نحو) و«الْيَوْمَ» خبر، وجاز ولو كان إخبارا بزمان عن جثّة ولا سيما لأنّه أفاد أن لا عاصم لا نسلّم أنّه جثّة بل أعمُّ منها، و«مِنَ اَمْرِ» متعلّق به، أو بمتعلّقه ولو قُدِّر الخبر محذوفا ـ أي موجود ـ وعلّق «الْيَوْمَ» و«مِنَ» بـ«عَاصِمَ» لنُوِّنَ «عَاصِم» ونُصِبَ؛ وقيل: يتعلّقان به وبناؤه باق، وقيل: معرب ولم ينوَّن للتخفيف ولشبه الإضافة، والخبر مقدَّر كما رأيت، وأجيز كون «الْيَوْمَ» نعتا لـ«عَاصِمَ» على حدٍّ ما مرَّ في الإخبار به.

﴿إِلاَّ مَن رَّحِمَ﴾ ا لله، والاستثناء منقطع، لأنَّ من رحم ا لله ليس من جنس

العاصم، بل معصوم، أي لكن من رحمه ا لله يعصمه ا لله، وذلك بالإسلام، وكأنَّه قيل: لا عاصم إلاَّ مرحوم، والمرحوم ليس عاصما، وكذا يكون الاستثناء منقطعا إن قلنا عاصما بمعنى معصوم، فإنَّ «مَن رَّحِمَ» هو ا لله، ولا يتصور أن يكون معصوما فإنّه العاصم.

(نحو) ويجوز أن يكون الاستثناء متّصلا، بأن يكون «عَاصِمَ» للنسب، أي لا ذا عصمة إلاَّ ا لله الراحم، أو على أصله أي لا عاصم إلاَّ ا لله الراحم، وهو أولى، أو ﴿لاَ عَاصِمَ﴾: بمعنى معصوم، فكأنَّه قيل: لا معصوم إلاَّ المرحوم الذي رحمه ا لله، ويدلُّ له قراءة بناء «رَحِمَ» للمفعول، كدافق بمعنى مدفوق، أو لا مكان عاصم إلاَّ مكان من رحمه ا لله، وهو السفينة، فيكون ردًّا لقول ابنه: إنَّ لي مكانا عاصما غير السفينة، وهو الجبل ردَّ إفراد.

وحاصل ذلك أنَّ «عَاصِمَ» على أصله، أو للنسب، أو بمعنى مفعول، و«مَن رَّحِمَ» هو ا لله، أي ا لله الراحم لغيره، أو «مَن رَّحِمَ» هو المخلوق، أي إلاَّ المخلوق الذي رحمه ا لله. وضمير «رَحِمَ» عائد إلى ا لله، والهاء المحذوفة الرابطة تعود إلى المخلوق، والحاصل والزيادة لا عاصم لكن من رحم ا لله معصوم با لله، ولا ذا عصمة أي معصوم إلاَّ من رحمه ا لله، أو لا معصوم إلاَّ الراحم، أي لكن الراحم يعصم ولا عاصم إلاَّ مكان من عصمه ا لله تعالى، وهو السفينة، أو لا معصوم إلاَّ مكان مَن رحمه ا لله وهو الفلك، فينجو من فيه، أو لا عاصم اليوم أحدا أو لأحد إلاَّ من رحمه ا لله، أو لمن رحمه ا لله.

﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا﴾ بين نوح وابنه، وهذا لقربه أولى من أن يرجع الضمير لابنه والسفينة، ووجه هذا أنَّها محلُّ الامتناع فساغ اعتبارها، وكذا يجوز أن يراد بين ابنه والجبل بأن لم يصل الجبل بل غرق قبل صعوده، كما روي أنَّه على فرس معجبا بنفسه بَطِرًا فجاءته موجة فأغرقته قبل تمام جوابه، كما قال ا لله

ﷺ : ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا **الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ**﴾ بالماء.

﴿**وَقِيلَ يَآ أَرْضُ ابْلَعِي مَآءَكِ**﴾ خاطبها أوّلا لأنَّ الماء نبع منها، أوّلا قبل نزول ماء السماء، أي الماء الذي فيك منك، أو من السماء، والمراد بـ«أمْر» في ﴿جَآءَ اَمْرُنَا﴾ و﴿مِنَ اَمْرِ اللهِ﴾: الإهلاك لا الماء، فضلا عن أن يقال عبَّر بالأمر في ذلك للتهويل عن الماء، وهنا بالماء لأنَّ المقام للنقص. ﴿**وَيَا سَمَآءُ اَقْلِعِي**﴾ أمر السماء بالإقلاع حين علا الماء على الجبل الأعلى أربعين ذراعا، وكانت السفينة تجري بعد ذلك، وقد كفَّت السماء، وبعد ذلك بمدَّة أمر الأرض بالبلع فقدَّم ما أخّر وأخّر ما قدَّم، ويجوز أن تكون السماء ما زالت تنزل في غير السفينة مع جريان السفينة، إلى أن أراد الله فأمر السماء بالكفِّ والأرض بالبلع.

ولعلَّ الأرض أيضا ما زالت تنبع كالسماء فأمرها ببلع ما عليها من مائها وماء السماء، وقيل: ماء السماء صار بحارا، وقيل: البحار من الماء الذي عليه العرش، والبلع وظيفتها، وليس للسماء بلع ولكن كفٌّ فكفَّت، وحذف ذكر أن يقول للأرض: أقلعي.

(لغة) والبلع: إدخال الطعام أو الشراب في البطن تشبيها بأكل الحيوان ما يأكل أو يشرب، وهو حقيقة فيهما، وقيل: حقيقة في الطعام فقط، وليس كذلك، وزعم بعض أنَّ البلع بمعنى الازدراد لغة حبشية، وبعض أنَّه بمعنى الشرب، لغة هندية، [قلت:] **وكلٌّ من فسَّر القرآن بغير لغة العرب فهو من المغرقين في الجهل إلاَّ ما قام دليله.** والإقلاع: الكفُّ، وتقدير الكلام: «وقال الله» أي أمر بالبلع والإقلاع فبلعت وأقلعت.

(بلاغة) شبَّهها بالعاقل الممتثل، أو خلق فيهما العقل والتمييز، وعلى

الأوَّل استعارة تمثيليَّة شبَّه الهيئة المنتزعة من كمال قدرته من إدخال ما على الأرض من الماء فيها، وقطع انصباب الماء من السماء لتعلُّق إرادته بذلك بلا مهلة، بالهيئة المنتزعة من أمر الآمر المطاع، وطاعة مأمور مطيع للآمر بلا توقُّف، والجامع: مطلق الانقياد على عجل إعظاما وخوفا.

(بلاغة) أو شبَّه الأرض والسماء بالعاقلين المميزين ورمز لذلك بلازم العاقل الذي هو أن ينادى، وهو تخييليَّة، والبلع: ترشيح، أو القول عبارة عن الإرادة والقرينة خطاب الجماد، كأنَّه قيل: أريد أن يرتدَّ ما انفجر من الأرض وينقطع طوفان السماء، والبلع استعارة لغور الماء، ولكن تقرَّر أنَّه لا يصار إلى الاستعارة في المفردات ما أمكنت الاستعارة التمثيليَّة بلا تكلُّف.

﴿وَغِيضَ الْمَآءُ﴾ نُقِصَ ـ بالبناء للمفعول ـ كما يقال: غاض الماء ونَقَصَ بالبناء للفاعل واللزوم.

﴿وَقُضِيَ الاَمْرُ﴾ أحضر الله لنوح والمؤمنين ما أوعد من إهلاك الكافرين، وإنجاء المؤمنين، وقيل: أُتمَّ الأمر، ومكثت السفينة على الماء خمسة أشهر، وعلى الجودي شهرا أو أربعين يوما، وقيل: جرت ستَّة أشهر.

﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ استقرَّت عليه، وإذا أريد القصد تعدَّى بإلى نحو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَآءِ﴾ (سورة البقرة: ٢٩، وسورة فصلت: ١١).

(قصص) و«الجودي»: جبل بالموصل، أو بالشام، أو بآمُد بالمدِّ وضمِّ الميم ويجوز فتحها، وبعض يقول: آمُل باللام، وقيل: جبل بالعراق، وخرجوا منها في عاشر المحرَّم، وقد ركبوها في عاشر رجب، أو حادي عشر منه، وصاموا بقيَّة يومهم، أو نووا الصوم من قبل فجره، وذلك شكرا لله تعالى على إنجائهم وإهلاك عدوِّهم، وقيل: صام معهم الوحش

يأوي إلى جبل ظنًّا أنَّ الجبل ينجِّيه، وأنَّه إنَّما اختـار النجـاة بـالجبل عـن النجـاة بالسفينة لكراهة أن يحتبس فيها، وأنَّ الجبل أقوى في النجاة منهـا، فلـوَّح إلى ا لله أن ينجِّيه في الجبل، أو يمكِّنه من دخول السفينة وهذا النداء توسُّـل واستعطاف، كقوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (سورة الأنبياء: ٨٣).

ويجوز أن يكون هذا القول من نوح تفويضا إلى ا لله تعـالى، والمعنـى: إن لم تنجِّه فلا اعتراض ولا عجب، لأنَّك أحكم الحاكمين، ففي عدم تنجيته حكمـة خفيَّة، وبحث بأنَّه يعارضه: ﴿إِنِّيَ أَعِظُكَ...﴾ إلاَّ أن يكون كمـا شـكى نبيء العراق القمَّل فأوحي إليه إن عدت إلى هذا محوتـك مـن الأنبيـاء وهـذا علـى أنَّ ذلك التضرُّع تلويح بالدعاء.

﴿قَالَ يَانُوحُ إِنَّهُۥ﴾ إنَّ ابنك ﴿لَيْسَ مِنَ اَهْلِكَ﴾ النـاجين، أو مـن أهلـك المؤمنين الذين أمرت بحملهم، أو مـن أهـل دينـك، أو أهلـه هـم المؤمنـون، وأمَّـا الكُفَّار فقد قطع الكفر بينه وبينهم، وابنه ذلك ليس مؤمنا، وذلك فصل عظيم حتَّى إنَّه لا يتوارث أهل ملَّتين ولو كافرتين، قال أبو فراس:

كانت مودَّة سلـمان له نسـبا ... ولم يكن بين نوح وابنه رحـم[1]

أي كأنَّه لم يكن بـينهما رحـم، وذلـك كمـا قـال: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ الهـاء للعمـل، أو يقـدَّر مضـاف، أي إنَّ عملـه، أو جعلـه نفـس العمـل الفاسد لأنَّه بالغ في الفساد، كما يقال: زيـد صـوم، إذا بـالغ في الصـوم، وكمـا قالت الخنساء في وصف ناقة تتردَّد في ولد فقدته لمـوت أو ذبـح أو نـدٍّ: «فإنَّمـا

١- من قصيدة له في مدح الشيعة، يشير إلى قوله ﷺ: «سلمان مِنَّا آل البيت». وقبله:

هيهات لا قربت قربى ولا رحم ... يوما إذا أقصيت الأخلاق والشيم

هي إقبال وإدبار»[1]. أو يقدَّر: إنَّه ذو عمل غير صالح، أو «عَمَلٌ» بمعنى عامل، أي عامل عمل غير صالح، أو عامل غيرَ صالح في عمل.

وقيل: المراد أنَّ ترك ركوبه عمل غير صالح، وقيل: إنَّ نداءك لتنجية ابنك عمل غير صالح، ونسب هذا لابن عَبَّاس، ولا يصحُّ عنه، لكن يناسبه ما في مصحف ابن مسعود: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ أَنْ تَسْأَلَنِّي...﴾.

﴿فَلاَ تَسْأَلَنِّي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أنَّه صواب أو خطأ فقف عن السؤال فيه، ونجاة ابنك من ذلك، فقف في شأنها وسلِّم لإهلاكه، فإنَّه أهل للإهلاك، أو لا تسألني ما لم تعلم أنَّه صواب أو غير صواب.

وليس نداؤه استفسارا عن سبب عدم إنجائه مع تحقُّق سبب الإنجاء فيما عنده كما قال به بعض بناء على أنَّه كان بعد الغرق، بل دعاء بإنجائه حين حال الموج بينهما بتقريبه إلى الفلك بالموج أو بتقريب الفلك إليه، أو بسبب آخر، لكن ذكر الوعد في الدعاء يتبادر يناسب النجاة في الفلك.

وقيل: النهي عن سؤال ما لا حاجة إليه لأنَّه لا يهمُّ، أو لأنَّه قامت القرائن على حاله من أنَّه لا ينجو، أو أنَّه مات كما هو المتبادر من إحاطة الموج به، وليس النهي عن السؤال للاسترشاد، وأمَّا أن يقال: نوح كان [سؤاله] بعد علمه بموت ابنه عتابا لله سبحانه لا استرشادا **فمحرَّم إجماعا**، ومن قال به أخطأ أو تأوَّل.

١- الشطر من قصيدة للخنساء مطلعها:

قذىً بعينك أم بالعين عوار ... أم ذرَّفت إذ خلت من أهلها الدار؟

وقبل هذا الشطر:

وما عجول على بوٍّ تطيف به ... لها حنينان: إصغار وإكبار

ترتع ما رتعت، حتَّى إذا ادَّكرت ... فإنَّما هي إقبال وإدبار

مؤمنا، وأمَّا أولاده ومن معهم في السفينة فالبركات والسلام لهم ضمنا إذ كانوا مع نوح في الإسلام والسفينة.

و«مِن» متعلّق بمحذوف، أي متولّدة مِمَّن معك، فـ«مِنْ» للابتداء، أو المراد: أمم من ذرِّيَّة من معك، أو للبيان، أي أمم هم من معك، فتكون البركات والسلام على من معه في السفينة من بني آدم، وسمَّاهم أمما لأنَّهم من قبائل، أو لتشعُّب الأمم من مجموعهم.

وروي أنَّ جميع من في السفينة من بني آدم هم من صلبه، ومن صلب ذرِّيَّته، وأنَّه لا يختصُّ النسل بعد بأولاده الثلاثة، وهو غير مشهور مع أنَّه نسب لأكثر المفسرين، فيتحصَّل أنَّ من معه ولدوا وتناسلوا، وكذا من لم ينله الغرق في أيِّ موضع، وعلى كلِّ حال جميع من في الدنيا من نسل نوح أو من نسله ونسل غيره على ما مرَّ، وقد سمِّي آدم الأصغر وآدم الثاني لذلك. وبينه وبين آدم ألف سنة وثمانية أجداد.

﴿وَأُمَمٌ﴾ كثيرة عظيمة ﴿سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ خبر «أُمَم» أو نعته على أن يكون «أُمَمٌ» مبتدأ خبره محذوف تقديره: وَمِمَّن معك أمم نمتّعهم في الدنيا، وقدَّر بعض: ومنهم أمم، بمعنى أنَّه يتشعَّب منهم من يكفر، وقدَّر بعض: وأمم منهم سنمتّعهم، على أنَّ الخبر «سَنُمَتِّعُهُمْ».

(نحو) و«مِنْهُمْ» نعتٌ. وعَطَف بعضُهم «أُمَمٌ» على ضمير «اهْبِطْ» ويردُّه أنَّ من في الفلك مؤمنون، اللهمَّ إلاَّ أن يقال: يكفر بعض بعد الهبوط، وهو بعيد وخلاف الظاهر.

وهو عامٌّ للأمم الأشقياء، وقيل: المراد قوم هود وقوم صالح وقوم شعيب، والعموم أولى لعدم داع إلى التخصيص، ثمَّ إذا صير إلى التخصيص فَلِمَ لاَ يذْكَر فيهم فرعون

ومن معه مع أنّه في القرآن صريحا؟ وأمّا قوم نمرود معه فلم يذكر هلاكهم في القرآن، وعمّم بعض حتّى قال بشمول الآية أمما من الحيوانات التي معك.

وعن محمّد بن كعب القرظي[1]: دخل في ذلك السلام والبركات كلّ مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة، ودخل في ذلك المتاع والعذاب كلّ كافر وكافرة إلى يوم القيامة ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ اَلِيمٌ﴾ في الآخرة لكفرهم، أو في الدنيا قبل الآخرة كما ذكر الله هلاك تلك الأمم بالعذاب الدنيوي.

﴿تِلْكَ﴾ القصّة وهي قصّة نوح المشتملة عليها هذه الآيات، وقيل: الإشارة إلى آيات القرآن المخبرة بالغيوب، أو غيب قصّة نوح، وهو مبتدأ خبره قوله: ﴿مِنَ اَنبَآءِ الْغَيْبِ﴾ أخبار الخفاء، أو أخبار الأمور الغائبة. و«مِنْ» للتبعيض، وقيل: غيب عن غير أهل الكتاب كما قال: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا﴾.

﴿نُوحِيهَآ إِلَيْكَ﴾ (نحو) خبر ثان، وضمير النصب لـ«تِلْكَ»، فالموحى هنا قصّة نوح، أو حال من الأنبياء فضمير النصب للأنباء، فالموحى هنا مطلق الأنباء لا خصوص قصّة نوح، أو هو الخبر و«مِنَ اَنبَآءِ» حال من ضمير النصب، أو متعلّق بـ«نوحِي» و«مِنْ» للابتداء، أي نوردها من أنباء الغيب.

وقوله ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا﴾ خبر ثالث، أو ثان، الضمير لقصّة نوح، أو حال من ضمير النصب، أو من كاف «إِلَيْكَ»، وهذا إشارة إلى الإيحاء أو إلى هذا المنزّل في شأنها، والمعنى واحد: لا علم لك ولا لقومك ولست مِمّن يخالط من يعلمها، وهم مع كثرتهم لم يعلموها فكيف أنت لولا الوحي؟ وقيل: الإشارة إلى العلم، وقيل: إلى القرآن، وقيل: إلى العلم المكسوب بالوحي.

١- تقدّم التعريف به، انظر تفسير الآية ١٢٩ من سورة التوبة، ص١٦٢.

﴿فَاصْبِرْ﴾ على أذى قومك في التبليغ كما صبر نوح على أذى قومه على التبليغ. ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ﴾ المحمودة، وهي الظفر في الدنيا والفوز في الآخرة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ للشرك والكبائر، فالمراد: الدرجة الأولى من التقوى، فيدخل ما بعدها بالأولى، وقيل: الدرجة الثالثة، على أنَّ المراد عدم الحصر فيها، والجملة تعليل لـ«اصْبِرْ».

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾

قصَّة هود عليه السلام

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ اَخَاهُمْ هُودًا﴾ عطف على ﴿نوحًا اِلَى قَوْمِهِ﴾ عطف معمولين على معمولي عامل واحد، و«هودًا» عطفُ بيان، وجاز ذلك العطف مع طول الفصل لظهور المعنى، واختار بعض تقدير "أرسلنا"، ووجهه طول الفصل مع أنَّه يحضر في القلب تقدير "أرسلنا"، ولو لم يحضر في القلب آية نوح، ولكن يبقى أنَّ الواو عاطفة لما علمت أنَّ الواو لا تكون للاستئناف، فلا تجد معطوفا عليه أنسب من قوله: ﴿نوحًا اِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ فعدنا إلى الوجه الأوَّل.

والواحد من القبيلة يسمَّى أخاها، كما تقول لرجل من العرب: يا أخا العرب، وعادٌ أبو قبيلة منها هود، وعاد من ذرِّيَّة سام، وبين هود ونوح ثمانمائة سنة وعاش أربعمائة سنة وأربعا وستِّين.

﴿قَالَ يَاقَوْمِ﴾ النداء استعطاف ﴿اعْبُدُواْ ا للهَ﴾ لا تعبدوا غيره ولا تعبدوه مع غيره بل وَحْدَهُ، وعلَّل ذلك بقوله: ﴿مَا لَكُم مِّنِ اِلَـهٍ غَيْرُهُ,﴾ نعت على محلِّ «اِلَهٍ» كما يدلُّ له قراءة الكسائي بالجرِّ، كيف تعبدون من ليس بإله؟ ﴿إِنَ اَنتُمُ, إِلاَّ مُفْتَرُونَ﴾ كاذبون في قولكم: إنَّ الأصنام تستحقُّ العبادة، وإنَّها تشفع لكم، وإنَّ ا لله أمركم بها أو رضيها، وكاذبون في أفعالكم من عبادة غير ا لله وسائر معاصيكم، فإنَّ الافتراء كالكذب يستعمل في القول والفعل.

﴿يَاقَوْمِ﴾ استعطاف ثان ﴿لَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي على قولي لكم «اعْبُدُواْ ا للهَ...» أو على التوحيد، يقول ذلك كلُّ نبيء لأمَّته ولو لم يقولوا: تريد الأجر بما تقول لنا، ولا اتَّهموه، إزاحةً لِمَا قد يحدث لهم من التوهُّم، أو كان ولم يظهر له، وإمحاضا للنصح، وإخبارا بإمحاضه، وذلك أدعى للقبول وأشدُّ

في التأثير، فإنَّ النفس ما دامت مشوبة بالمطامع بعيدة عن التأثير. والأجر: المال والرياسة وسائر المصالح.

﴿إِنَ اَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى الذِي فَطَرَنِي﴾ خلقني وهو الله لا إله إلا هو، أخرجني من العدم إلى الوجود، ويبقيني مدَّة، فلا شكَّ أنَّه قضي لي فيها رزقا، وفي آية أخرى: ﴿إِنَ اَجْرِىَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة الشعراء: ١٢٧) ولا يخفى أنَّ السيد يقوم بمصالح عبده، ومَأْصَدَقُ الآيتين واحد، والمعنى: عبَّر عنه بمتعدِّد، تارة بلفظ وتارة بآخر، أو لفظ واحد هو أحدهما ذكره الله في موضع بمعناه.

﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ أي أتغفلون فلا تعقلون؟ أو أتجهلون كلَّ شيء فلا تعقلون؟، أي تستعملون عقولكم فتميِّزون الحقَّ كقولي من الباطل كقولكم.

﴿وَيَاقَوْمِ﴾ استعطاف ثالث ﴿اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾ اطلبوا المغفرة من ربِّكم لِمَا مضى منكم بالإقلاع عن الشرك وسائر المعاصي، وكون الإسلام جبًّا لِمَا قبله لا يمنع من الاستغفار مِمَّا قبله، وقيل: الاستغفار الإيمان، ويردُّه أنَّه يغني عنه قوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ لأنَّ معناه وحِّدوه، وقيل: الاستغفار من الشرك والتوبة مِمَّا دونه ﴿ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ﴾ ارجعوا إليه بالعبادة، أو توسَّلوا إليه في تحصيل مطالبكم بالتوحيد والعبادة.

ولا يخفى أنَّ التوبة والبَرْءَ من عبادة غير الله تعالى مُتَأَخِّران بالذات والرتبة عن الإيمان بالله والرغبة فيما عنده، ولذلك عطف بـ«ثُمَّ»؛ أو التوبة مجاز عن التوصُّل إلى المطلوب لأنها السبب والملزوم، فـ«ثُمَّ» على ظاهرها. ﴿يُرْسِلِ السَّمَآءَ﴾ المطر ﴿عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ كثير الدرور، أي السيلان، وإن أريد بالسماء السحاب أو الفلك كان مجازا بالحذف، أي يرسل ماء السماء، أو مرسلا تسمية للحالِّ باسم المحلِّ، والحالُّ الماء.

(نحو) و«مِدْرَارًا» حال، وهو مفعال للمبالغة فلا يؤنَّث، ولـو اعتبرنـا تأنيث من اتَّصف به حتَّى إنَّهُ لو قلنا: مدرارة لقلنا: التاء للمبالغة لا للتأنيث.

وكانوا قحطوا وأعقموا ثلاث سنين، وقيل: أعقموا ثلاثين سنة فرغَّبهـم في الإسلام بالمطر الكثير، وزيادة القوة المؤدِّية إلى كثرة النسل كما قال: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ مُنضَمَّة أو مضمومة إلى قوتكم، أو مـع قوتكـم، والأوَّل أولى لبقائه على الأصل ورجحان معناه، والمراد قُوَّة البدن.

وقيل: القُـوَّة العزُّ، وهـو بالمـال والبنـين، كمـا فسَّـرها الضحَّـاك بـالخصب، ويكون المال به، وكما فسَّرها عكرمـة بولـد الولـد وذلـك كلُّـه في قولـه تعـالى: ﴿وَيُمدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ (سـورة نـوح: ١٢)، وقيـل: القُـوَّة الأولى في الإيمـان يزيدهم الله على ما فيهم من قُوَّة البدن، والثانيـة قُـوَّة البـدن، وكـانوا أصحـاب بساتين وزروع وماشية فرغَّبهم بالمطر.

﴿وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ﴾ لا تصيروا بعد هذا الوقت أو لا تذهبوا عن مواضعكـم الـتي أنتم فيها حالَ وعظي إيَّـاكم ﴿مُجْرِمِينَ﴾ مشركين، بل اذهبوا عنِّي مؤمنين لا مصرِّين على الإجرام، أو لا تصيروا مجرمـين بإنكـار مـا قلـت لكـم، الآن زيـادة على كفركم السابق، أو لا تذهبوا مجرمين بإنكاره زيادة.

﴿قَالُواْ يَاهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَـةٍ﴾ حجَّة ظاهرة تصرفنا بهـا عـن عبـادة غـير الله، وقد جاءهم بآيات واضحات ولو لم نعرفها، وعاندوا أو لم يفهمـوا لشـدَّة جهلهم وشدَّة إعراضهم عن التأمُّل.

وعنه ﷺ : «**ما من نبيء إلاَّ أتى قومه ببيِّنات يؤمن بها البشر كلُّهـم لو سمعوها كلُّهم إن تأمَّلوا**»[1]، ولو تـأمَّلوا لعلمـوا أنَّ عجزهـم عـن قتلـه

١- أورده **الألوسي** في تفسيره، ج٤/ ص٨١. وابن **كثير** في كتابه البداية والنهاية، ج٦/ ص٢٩٠.

أخبر الله سبحانه وتعالى عنه عليه السلام أنّه استعجل قومه، وهم أقوى البشر وكثيرون ليظهر لهم عجز أنفسهم، وعجز آلهتهم عن أن تنصر نفسها، وتدفع عن عابديها، فكيف يعبدونها ؟ أو الخطاب في «كِيدُونِي» و«لاَ تُنظِرُونِ» لقومه خاصَّة، فإذا عجزوا فكيف تنتصر آلهتهم وهي جماد، وذلك إمَّا مدح لهم بأنَّه أظهر الإيمان والاستيثاق بالله الراسخين، وإمَّا مدح له بأنه عليه السلام تعرَّض لإراقة دمه في الله حبًّا له وثقة به، ولو قيل: آمن معه أربعة آلاف، لأنَّه برز بهذا اللفظ وحده ولا يمنعونه من ضرٍّ ولو وقع به، وأيضا قال هذا القول قبل أن يكون معه هؤلاء، ولما ذكر من الإيمان والثقة قال:

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ اِلاَّ هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ تعليل جمليٌّ معنويٌّ، كأنَّه قيل: لا أبالي بكيدكم ولا أخافه لأنِّي ﴿تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ...﴾ فإنَّه مالكي ومالككم، فلا تقدرون على مضرَّتي إن لم يقدِّرها، وإنِّي واثق بمن هو كذلك سبحانه.

واختار الماضي لأنَّه أدلُّ على الإنشاء، فهو إنشاء للتوكُّل لا ينقطع، والإخبار بالإنشاء جائز نحو: زيد هل قام؟ وبرهن على ذلك بقوله: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ...﴾ وأنتم من جملة الدوابِّ فلا يفوته عقابكم على ظلمكم، ولا تضرُّون ولا تنفعون إلاَّ بإذنه عز وجل، وقدَّم «رَبِّي» على «رَبِّكُم» لأنَّ المقام للمحافظة على نفسه وللنعي عليهم بأنَّ الربَّ واحد، وهو مقرٌّ به.

والمراد بالدَّابَّة هنا ما له روح وينتقل، ولو طائرا أو حوتا أو ملكا أو جنًّا.

(بلاغة) والأخذ بالناصية كناية عن التملُّك التامِّ، شبَّه أثر قدرته على كلِّ شيء وتصرُّفه وملكه له بتمكُّن الإنسان من آخر بحيث لا يردُّه عمَّا أراد، وذلك استعارة تمثيليَّة، والناصية مقدَّم الرأس، جلد أو مع شعر، وإطلاقه على

الشعر خاصَّة مجاز، وقولهم: تسمية للحالِّ باسم المحلِّ كأنَّه صريح في أنَّ الناصية موضوع لجلد مقدَّم الرأس خاصَّة، وعلى ما ذكرت تسمية للبعض باسم الكلِّ. وياؤه عن واوٍ قلبت لكسر ما قبلها، يقال: نصوته بمعنى أخذت بناصيته.

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ على الصواب والعدل، لا يجور بترك ظالم مصرٍّ بلا عقاب، ونقص مظلوم حقَّه، كمن وقف على الطريق الجادَّة يمنع المارَّة من الفساد، ويمنع عنهم الضرَّ، مثل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ (سورة الفجر: ١٤) فذلك استعارة تمثيليَّة، وقيل: المعنى إنَّ مصيركم إليه تعالى للجزاء بالحقِّ.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ تتولوا عن الإيمان، مضارع حذفت إحدى تاءية، وقيل: ماض، وعليه ففيه التفات عن الخطاب إلى الغيبة باعتبار ما قبله، وفيما بعده التفات إلى الخطاب عن الغيبة، وإن قدِّر: "فقل قد أبلغتكم" فلا التفات، والأصل عدم الالتفات وعدم التقدير، ولا سيما مع عدم ظهور فائدة لذلك.

والخطاب في ذلك وفي ما يأتي من هود عليه السلام لقومه، وقيل: الخطاب في قوله: ﴿وَرَبُّكُم...﴾ من النبيء ﷺ لقريش، كأنَّه قيل أخبرهم عن قصَّة هود وادعهم إلى الإيمان با لله عز وجل لِئَلاَّ يصيبهم مثل ما أصاب قوم هود، والصحيح ما مرَّ، والجواب محذوف تقديره: فلا همَّ عليَّ، أو لم أعاتب أو لم أعاقب، أو يعذرني، ونابت عنه علَّته وهي قوله: ﴿فَقَدَ اَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ أي لأنِّي قد أبلغتكم...، وعليكم الهمُّ الكبير، وأمَّا تقدير: "فقد أدَّيت" فلا يكفي فإنَّه كلا تقدير، لأنَّه يستدعي معلولا أيضا فلا تهم.

نعم يجوز أن يجعل المذكور جوابا بحيث إنَّ نفس الإبلاغ وإن لم يترتَّب على التولِّي لَكِنَّ الإخبار بالإبلاغ يترتَّب عليه، وكما يقصد ترتُّب المعنى يقصد

ترتُّب الإخبار، كقوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ﴾ (سورة النحل: ٥٣) وقيل: الجواب «قَدَ اَبْلَغْتُكُمْ» باعتبار لازم معناه المستقبل باعتبار ظهوره، فإنَّ معناه: لا تفريط منِّي ولا عذر لكم، وعلى هذا النمط بلا مانع من قول أبي حيَّان: إنَّه الجواب، لأنَّ تبليغه تضمَّن عذاب الاستئصال، وكأنَّه قيل: استؤصلتم بالعذاب، وَيَدُلُّ له قوله تعالى:

﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ في أموالكم ومساكنكم يعبدونه أو يعصونه، ويفعل بهم ما شاء، عطف على قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا...﴾، أو على الجواب ولو رفع، لأنَّه لم يظهر الجزم في الجواب، كما يجوز رفع الجواب إذا لم يظهر الجزم في الشرط، ويدلُّ له قراءة: «وَيَسْتَخْلِفْ» بالجزم، و«لاَ تَضُرُّوهُ» بحذف النون، ولا يقدح في ذلك أنَّه لو كان شرطا لم يقرن، وهنا تقدُّمت الفاء فكأنَّه قرن بها، لأنَّا نقول: لم يكن جوابا بالذات بل بالعطف، وأيضا يجوز عطفه على مدخول «قَدْ» لا عليها مع ما بعدها، فقد تسلَّط عليه معنى «قَدْ» على هذا.

﴿وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئًا﴾ مفعول مطلق، أي ضرًّا ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ رقيب لي فلا تقدرون على ضرِّي و[رقيب] عليكم لا يخفى عنه عملكم ولا يفوته عقابكم، وذكر بعض أنَّ هاء «تَضُرُّونَهُ» لله ﷻ. و﴿حَفِيظٌ﴾: بمعنى حافظ مُسْتَوْلٍ، ومن هو كذا لا يَضُرُّه شيء.

﴿وَلَمَّا جَآءَ امْرُنَا﴾ واحد الأمور وهو العذاب، أو ضدُّ النهي أي أمرنا بالعذاب، أو مأمورنا، والأوَّل أوفق بقوله: ﴿مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ ومجيء العذاب استعارة لحضوره أو وقوعه في الجملة أو تنقُّله إليهم، والمعنى على الثاني: مجيء أمر الملائكة بالعذاب، أو مجيء وقته الموعود في الأزل.

وذلك العذاب هو بالريح شديدة الحرارة ترى فيها نار كما ورد في الأثر، وقيل: باردة سخَّرها عليهم سبع ليال أصابتهم صبيحة الأربعاء لثمان بقين من شوال يدخل الريح من أنف أحدهم ويخرج من دبره، فيرفعه في الجوِّ ويسقط على الأرض متقطِّع الأعضاء، وتضربهم على وجوههم فيكونون كأعجاز نخل منقعر.

(قصص) انبسطوا في الأرض بين عمان وحضرموت وكانت لهم أصنام يعبدونها: صدا وصمود والهبا، فبعث الله إليهم هودا وكان أحسنهم جسما ونسبا وكذَّبوه، وطغوا على الناس، فأمسك الله عنهم القطر ثلاث سنين حتَّى جهدوا، وكان الناس إذا نزل بهم البلاء توجَّهوا إلى مكَّة مسلمهم وكافرهم، وطلبوا من الله الفرج فبعثوا من أفاضلهم إلى مَكَّة سبعين رجلا اسم رئيسهم قيل، فدخلوها فقال قيل: اللهمَّ أسق عادا ما كنت تسقيهم، فأنشأ الله سحابات حمراء وبيضاء وسوداء، فناداه ملك من السماء: يا قيل اختر لنفسك ولقومك، فقال اخترت السوداء فإنَّها أكثر ماء فخرجت على عاد من وادي المغيث، فاستبشروا قالوا هذا عارض ممطرنا، فجاءتهم منها ريح عقيم، فأهلكتهم، ونجا هود والذين آمنوا وهم أربعة آلاف وما أصابهم من الريح إلاَّ ما يلين أجسادهم، وذهبوا إلى مَكَّة يعبدون الله فيها إلى أن ماتوا.

﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَالذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ﴾ أربعة آلاف، أو ثلاثة آلاف **﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾** أي لم يموتوا كما مات هؤلاء، والباء متعلِّق بـ«نَجَّيْنَا» أو بـ«ءَامَنُوا» **﴿وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾** العذاب بتلك الريح، أو نجِّينا هودا... من عذابهم، ثمَّ بيَّن أنَّ عذابهم غليظ نجا هود ومن معه منه، ومن غلظه أنَّه تدخل الريح من أنوفهم وتقطِّع أمعاءهم، وتخرج من أدبارهم، ولا تكرير في ذلك على التحقيق بل بسط.

أو التنجية الأولى من عذابهم بالريح في الدنيا والثانية من عذاب الآخرة بصيغة الماضي لتحققها، كأنه قد وقعت، وكأنها حضرت حين مجيء أمره تعالى، أو يفسِّر ﴿نَجَّيْنَا﴾ بحكمنا بمجموع التنجيتين، أو تبين ما يكون لهم من التنجية في الآخرة، لأنَّ ما في الدنيا أمارة للآخرة، **وما تقدَّم أولى**، أو المعنى: وحكمنا بتنجيتهم من عذاب غليظ يصيب قومهم أيضا يوم القيامة.

﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾ إشارة إلى كفَّارهم لسيِّدنا محمَّد ﷺ كأنه يراهم وقومه لأنَّهم متحقِّقون، ولأنَّ آثارهم ترى ﴿سِيرُواْ فِي الاَرْضِ فَانظُرُواْ...﴾ (سورة آل عمران: ١٣٨) وقيل: أصحاب تلك: عاد.

وما قيل من أنَّ الإشارة إلى قبورهم مشكل، لأنَّ هودا ومن معه لم ينقل إلينا أنَّهم دفنوهم اللهمَّ إلاَّ أن يقال دفنوهم، ثمَّ مضوا إلى مَكَّة، أو دفنهم سائر الناس، أو لعلَّ بعضا لم يهلكوا لعدم شدَّة شرِّهم فدفنوهم، و لله أن يعمَّ بعذاب وأن يخصَّ كما قيل إنَّه قيل لعجوز منهم: أيُّ عذاب ا لله أشدُّ ؟ فقالت: كلُّه شديد لكن سعد يوم لا ريح فيه. وأيضا القبور والآثار لا تجحد آيات ا لله ولا تعصي فتحتاج إلى تكلُّف المجاز بتقدير الإضافة أو المجاز الارسالي لأنَّ الضمائر بعدُ تنافي ذلك إلاَّ بالتجوُّز، وكذا لو قيل: عاد بمعنى قبورهم وآثارهم.

﴿جَحَدُواْ بِئَايَاتِ رَبِّهِمْ﴾ تعدَّى بالباء لتضمُّنه معنى كفر، كما يعدى كفر بنفسه لتضمُّنه معنى جحد، أو كلاهما يتعدَّى بالباء وبنفسه.

﴿وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ﴾ هو هود عليه السلام، لأنَّه كالرسل كلِّهم، وكلُّ واحد من الرسل ككلِّهم، لأنَّه يجيء بالوحي من ا لله كما جاءوا ولو اختلفت شرائعهم، وَاتَّفَقُوا في بعض وفي التوحيد وخصاله ومكارم الأخلاق فعلا ومساوئها تركا، أو عصوا سائر الرسل لأنَّ الكافر برسول كافر بجميعهم، وقيل: الرسل هود

ومَن قَبله، قيل: ومَن بعدَه أيضا، أو المراد بالآيـات: الدلائـل المنصوبـة للتوحيـد، أي لم يمعنوا النظر فيها، التي في الآفاق، والتي في أنفسهم وما احتجَّ عليهم به مـن غير ذلك، أو صحف شيت.

﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ من رؤسائهم، والعنيد: الطاغي المتجاوز في الظلم، وهم معاندون للحقّ، وذلك من إسناد ما للبعض إلى الكلّ.

﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ يلعنهـم النـاس بعدهـم، والجنُّ والملائكـة والأنبياء في الوحي وكتبهم، وقيل: جعلـت اللعنـة كشـخص يتبـع آخـر ليهلكـه بالقتل أو ليلقيـه في هـوة، فذلـك تمثيـل، والضمـير لعـاد مطلقـا، وقيـل: لمتـَّبعي الجبَّارين منهم.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يلعنهم من ذكر وبعضهم بعضا، أو يقدِّر: وأتبعوا لعنة يوم القيامة، أو عطف على «هَذِهِ» لأنَّه على معنى "في" ولو نصب. ﴿أَلاَ إِنَّ عَـادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ﴾ جحدوه أو كفروا بـه، أو كفـروا نعمـه ﴿أَلاَ بُعْـدًا لِّعَـادٍ قَـوْمِ هُودٍ﴾ بعدوا بعدا، كـرَّر ذكـر هلاكهـم وذكـر اسمهـم، سمُّـوا باسـم جـدٍّ لهـم، وأظهر، وذلك لمزيد التشنيع عليهم، والتحذير من فعلهم، وذلك إخبار لا دعـاء، لأنَّ الله هو المالك لكلِّ شيء القادر على كلِّ شيء.

وقد يقال: أمر الخلق يدعون بذلك تعبُّدا. وهـم عـاد الأولى، ونبيئهـم هـود ، وأضافها إلى هود احترازا عن عاد الثانية: عاد إرم، وإرم جـدٌّ لهـم يقـال عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي

أو ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾: من العمرى كما تقول في الحديث: هي لك عمرى أو عمرك، أي جعلكم تسكنون فيها أعماركم، ثمَّ تتركونها لغيركم بالموت، أو جعلها لكم عمرى ويرثها بعد انصرام أعماركم.

﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ من الإشراك والمعاصي وآمنوا به وحده ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ بالطاعة. و«ثُمَّ» لعلوِّ مرتبة التوحيد، والتخلِّي عن سائر المعاصي ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ﴾ أي ليس غائبا عن استغفاركم وتوبتكم ودعائكم، فهو نافعكم لعلمه بذلك، أو قريب الرحمة كما قال: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة الأعراف: ٥٦) ﴿مُّجِيبٌ﴾ لداعيه، وقيل: «قَرِيبٌ» متعلّق بـ«تُوبُوا»، و«مُجِيبٌ» متعلّق بـ«اسْتَغْفِرُوا».

﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا﴾ نرجوك للأمور العظام كالنفع بالرأي والمال والرئاسة لِمَا رأوا منه من حسن العشرة ومكارم الأخلاق، كالموافقة في الدين ورفع شأن الأصنام، وقيل: مرجوًّا للملك بعد ملكهم، لأنَّه ذو حسب وثروة، وقيل: مرجوًّا مؤخّرا غير معتبر لحقارتك ﴿قَبْلَ هَذَا﴾ أي قبل هذا الوقت الذي جئتنا فيه بالتوحيد وما تدَّعيه من الله ﷻ، أو قبل المجيء بذلك، أو قبل قولك هذا، ولَمَّا رأينا منك ذلك انقطع رجاؤنا منك.

﴿أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ من الأصنام مع قدمهم وكثرتهم، وجودة رأيهم، وطول أزمنتهم؛ فـ«يَعْبُدُ» لحكاية الحال الماضية. ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ من التوحيد والطاعة والإيمان برسالتك ﴿مُرِيبٍ﴾ موقع في الريب لنا، من أراب المتعدِّي، فيكون من الإسناد إلى السبب، أو ذي ريب، من أراب اللازم.

وكلٌّ من كون الشك ذا ريب، أو موقعا في الريب للمبالغة، كقولك: ظلٌّ ظليل أو مظلّل، أو المراد: إنَّ ذلك الشكَّ يورث الريبة وهي غيره، فإنّه التردُّد،

وهي بعده: ترجيح السوء والاتّهام به، أو القلق والاضطراب، ومورث ذلك حقيقة هو الله ﷻ.

﴿قَالَ يَاقَوْمِ أَرَآيـْتُمْ, إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ حجّة قاطعة واضحة، وأداة الشكّ مراعاة باعتبار المخاطبين المشركين ﴿وَءَاتَانِي مِنهُ رَحْمَةً﴾ نبوءة، أو أعمّ ﴿فَمَنْ يَّنصُرُنِي مِنَ اللهِ﴾ عدّاه بـ«مِن» لتضمّنه معنى: يمنعني من عذابه، أو النصرة مستعملة في لازم معناها ﴿إِنْ عَصَيْتُهُ,﴾ بالإشراك وغيره، وبعدم التبليغ وعدم أمركم ونهيكم، فإنّ عذابه واقع لا محالة إن عصيته، فإن تكفّلتموني بدفعه أمكن لكم دعائي إلى معصيته، فيقولون: لا نقدر على دفعه، أو يقولون: نقدر، وهم كاذبون، أو مجازفون بلا تروٍّ، فلا وجه لقولكم.

﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي﴾ بقولكم ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ أي تضليل عن منافعي بإبطال ما أعطاني الله تبارك وتعالى، وبالتعرّض لعذابه، أو غير نسبتكم إلى الخسران تطلبون قربي إليكم وأنتم تباعدون عنّي، كفسّقه بمعنى: نسبه إلى الفسق، أو ما تزيدونني من أنفسكم في جوابكم لي إلاّ خسارا سألتكم أن تعطوني الإيمان فأعطيتموني الخسار باتّباع آبائكم، قاله مجاهد، ومثله لابن عطيّة. وقيل: فما تزيدونني غير تخسيري إيّاكم، وكلّما ازددتم تكذيبا ازددتم خسارة، والوجه ما مرّ أوّلاً.

وقد طلبوا قبل في جدالهم إيّاهُ عليه السلام أن يخرج لهم ناقة وبراء عشراء حاملا من هذه الصخرة، لصخرة عظيمة منفردة، فتمخضت الصخرة كالمرأة حين الولادة فخرجت منها ناقة على ما وصفوا، لَمَّا خرجت ولدت، وقيل: شرطوا أن تخرج منها وولدها يتبعها، فكان ذلك، فقال صالح: ﴿وَيَاقَوْمِ هَـٰذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمُ, ءَايَةً فَذَرُوهَا تَاكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَاخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ أشار إلى الناقة بعد خروجها من الصخرة.

(نحو) و«ءَايَةً» حال من «نَاقَةُ»، وعامل «نَاقَةُ» متضمِّن معنى الفعل وهو أشير، وأيضا هاء التنبيه في معنى أنبِّه، وهذا التنبيه متسلِّط على مدخوله، فكأنَّه معنى لمدخوله. و«لَكُمْ» حال من «ءَايَةً»، ولو نكرة لتأخُّرها، وذلك حال من الحال، ولا بأس به، وكلُّ الحالين مبيِّنة لهيئة صاحبها، أو «لَكُمْ» حال و«نَاقَةُ» حال من ضمير الاستقرار.

ومعنى ﴿لَكُمْ﴾ أنَّها نفع لكم للإيمان وحلب اللبن والعسل منها، ونهاهم عن مضرَّتها وهي حرام، ولا سيما فيما لم يجر عليه ملكهم وهي الناقة، هي ملك لله تأكل من ملك الله وهي الأرض، وتشرب منها، ولا مؤونة لها عليكم، وأوعدهم على مسِّها بسوء، كقتل وجرح وحبس عن مرعى ومشرب، بعذاب قريب أي عاجل، هو لا يتأخَّر عن ثلاثة أيَّام بل يكون في آخرهنَّ أو عقبهنَّ.

ومضت مدَّة ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ عقرها منهم قُدار بضمِّ القاف، فمنهم آمر ومنهم راض، ومنهم غير ناه فكلُّهم عقروها، ضربها في رجلها فوقعت على الأرض فذلك عقرها، فذبحوها وقسَّموا لحمها ﴿فَقَالَ﴾ صالح ﴿تَمَتَّعُواْ﴾ عيشوا، وفي الآية أنَّ الحياة مطلقا تمتُّع ولو تكدَّرت بنحو خوف، فإنَّهم إذا رأوا أمارة العذاب تنغَّصت عيشتهم، وأيضا قد علموا منه الصدق في أموره عليه السلام، أو التمتُّع بمعنى التلذُّذ، تهكّم عليهم، أو تلذَّذوا بما شئتم ﴿فِي دَارِكُمْ﴾ في بلدكم، ويسمَّى البلد دارا لأنَّه يتصرَّف فيه، ويقال لبلادهم ديار بكر[1]؛ أو أريد دار كلِّ أحد كلٌّ يتمتَّع في داره ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ ثمَّ تهلكون، الأربعاء

١- تقدَّم أنَّ ديارهم كانت بين الحجاز والشام، وهو المكان المسمَّى الآن مدائن صالح، ولعلَّ قول الشيخ بلادهم في ديار بكر أنَّهم نزحوا إليها قبل نزول العذاب عليهم.

والخميس والجمعة، فجاءهم العذاب آخر يوم الجمعة أو ليلة السبت، وقيل: صبيحة السبت، قالوا: وما العلامة؟ قال: تصفرُّ وجوهكم في الأربعاء وتحمرُّ في الخميس وتسودُّ في الجمعة.

(قصص) وَلَمَّا رأوا العلامة قصدوه بالقتل فهرب إلى أخواله في الصحراء، وليسوا في طغيان عاد، و لم يقدروا عليه، والفصيل رغا ثلاثا ـ عدد الأيَّام الثلاثة ـ لَمَّا رأى قتل أمِّه، فقيل: قصدوا قتله أيضا فهرب، فدخل تلك الصخرة، وقيل: طلع الجبل، فقال صالح: إن أدركتموه تائبين فلعلَّكم تنجون، فأوحى الله إلى الجبل أن تطاول فتطاول حتَّى لا تدرك قنتَّه، وفيها الفصيل؛ وقيل: قتلوه بعد أمِّه.

﴿ذَٰلِكَ وَعْدٌ﴾ ذلك العذاب وعدٌ، أي موعود؛ أو ذلك الإخبار المعلوم من المقام ﴿غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ أي غير مكذوب فيه، فذلك من باب الحذف والإيصال، وذلك أنَّ نفس الوعد لا يتَّصف بالصدق أو الكذب حقيقة إنَّما يتَّصف بهما المتكلِّم، أو شبَّه الوعد بالمخاطب ورمز إلى التشبيه باللازم وهو غير مكذوب تخييلا، و كأنَّه قال له واعدٌ: أفي بك، فإنَّ وفى به صدَقه ـ بتخفيف الدال ـ فهو مصدوق غير مكذوب، وإلاَّ كذَبه ـ بتخفيف الذال ـ فهو مكذوب، وذلك كقوله تعالى: ﴿صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ (سورة الزمر: ٧٣) .

وقيل: ﴿مَكْذُوبٌ﴾ بمعنى باطل ومتخلِّف، على المجاز الإرسالي، أو هو مصدر بوزن مفعول كالمفتون إذا قيل بمعنى الفتنة، وكالمجلود والمعقول بمعنى الجلد والعقل، والمنشور والمغبون بمعنى النشر والغبن.

﴿فَلَمَّا جَآءَ اَمْرُنَا﴾ مثل ما مرَّ في قصَّة هود: عذابنا، أو أمرنا بنزوله، ﴿نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ,﴾ من العذاب وهم أربعة آلاف ﴿بِرَحْمَةٍ

مِّنَّا﴾ بسبب رحمة مِنَّا ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمَئِذٍ﴾ مثل ما مرَّ في قِصَّة هود، والتقدير: ونجَّيناهم من خزي، وهو العذاب بالصيحة، كما قال: ﴿وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾، ولا يقبل تعليقه بـ«نَجَّيْنَا» على أنَّ الواو زائد. والخزي: ذلك العذاب الدنيويُّ مفسَّر به.

ومعنى ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: يوم إذ جاء أمرنا ذلك، أو إذ قامت الساعة ولو لم يجر لها ذكر، لأنَّ العقل يستحضرها عند ذكر هلاك الأشقياء، وكأنَّها حضرت، وهو ضعيف، أو إذ أهلكنا المكذِّبين بعد الثلاثة، أو إذ هي إذا حذفت ألفها، فيكون المراد الاستقبال المنزَّل ـ لتحقُّقه ـ منزلة الماضي.

(نحو) «يَوْمَ» في محلِّ جرٍّ بإضافة «خِزْيِ» وبني لإضافته إلى «إذٍ» المبنية النائب تنويها عن الجملة، فكأنَّه أضيف "يوم" إلى جملة ماضوية، كما بني "حين" لإضافته للجملة في قوله: «على حين عاتبت المشيب على الصبا»[1].

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمَّد ﴿هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ لا يردُّ عَمَّا أراد ﴿وَأَخَذَ الذِينَ ظَلَمُواْ﴾ مقتضى الظاهر: وأخذهم، لكن ذُكروا بصفة القبح الموجبة لهلاكهم. ﴿الصَّيْحَةُ﴾: جنسها، وهي صيحة جبريل عليه السلام من السماء، وصيحة كُلِّ حيوان في الأرض، أو صوت من السماء فيه شبه أصوات حيوان الأرض كلِّه، أو صيحة من السماء فيها كلُّ صاعقة وصوت مفزع، وفي الأعراف: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ (سورة الأعراف: ٧٨) ولعلَّ الرجفة وقعت بعد الصيحة المستتبعة لتموج الهواء، فتقطَّعت قلوبهم في ضحوة يوم الرابع بعد أن تكفَّنوا بالأنطاع، وبعد ذلك ذهب صالح من أخواله إلى مَكَّة، وقيل: إلى فلسطين.

١- البيت للنابغة وتتمَّته: «فقلت ألَمَّا أصح والشيب وازع؟». شواهد ابن عقيل، ص٢٨٨.

﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ صاروا، أو الصباح ما قبل الزوال وبعد الفجر، والديار: المنازل، و﴿جَاثِمِينَ﴾: باركين على ركبهم ميِّتين، أو ساقطين على وجوههم، ويطلق الجثوم على السكون، ثمَّ إنَّ العرب أطلقته على سكون الميِّت.

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ﴾ لم يلبثوا ﴿فِيهَآ﴾ في ديارهم، غَنِيَ بالمكان بكسر النون يَغْنَى بفتحها: أقام فيه، وكذا غني ضدُّ الفقر، و«كأنَّ» مهملة لَمَّا خفِّفت، أو اسمها ضمير الشأن، وهو المشهور.

﴿أَلآَ إِنَّ ثَمُودَا﴾ نوِّن لمعنى القوم والحيِّ، أو لأنَّه الأب الذي سمِّيت به القبيلة على حذف مضاف، أي أولاد ثمود، أو نسل ثمود، وقيل: نُوِّن نظرا لأوَّل وضعه، وإن كان المراد هنا القبيلة، وكذا نوَّن الكسائي ثمود في قوله: ﴿أَلاَ بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾. ﴿كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ مثل ما مرَّ في قصَّة هود عليه السلام.

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (٧٣) فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ الرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ (٧٥) يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُ قَدْ جَآءَ أَمْرُ

﴿حَنِيذٍ﴾ مشوي في حجارة محماة، أو مطبوخ، والأوَّل أولى، أو يقطر دسمه بعد شيِّه أو طبخه، يقال حنذتُ الفرس إذا ألقيت عليه ما يعرق به كالجل.

(قصص) وكان عَامَّة ماشية إبراهيم البقر فيما قيل، والمشهور الغنم. قيل: مكث عليه السلام خمسة عشر يوما لم يأكل مع الضيف، إذ لم يجده، ولَمَّا جاءه الملائكة ظنَّهم أضيافا فعجَّل إليهم فرحا، وكان لا يأكل إلاَّ مع الضيف ما وجده، وفي مجيئه بعجل مع أنَّه يكفي بعضه سنَّة تقديم أكثر مِمَّا يأكل الضيف بكثير لينبسط في الأكل، ولا يستحيي، ويسنُّ للمضيِّف النظر إليه مسارقة ليقوم لهم بالأصلح، لا مواجهة لِئَلاَّ يستحيوا.

﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ أي إلى العجل الحنيذ إذ لم يمدُّوها إليه، لأنَّ الملائكة لا تأكل، وذلك بعد أن قربه إليهم، وقال: ﴿أَلاَ تَاكُلُونَ﴾ (سورة الذاريات: ٢٧) كما في سورة أخرى، وقيل: لا تصل لأنَّهم يتناولون بغيرها، وهو باطل لأنَّ الملائكة لا تعبث وتنزه عن إفساد الطعام، ولو خيّلوا له الأكل بذلك لم ينكرهم و لم يقل لهم: «أَلاَ تَاكُلُونَ؟». ﴿نَكِرَهُمْ﴾ توحَّش منهم و لم تطمئنَّ نفسه إليهم، حتَّى خاف أن يكونوا عدوًّا أرادوا قتله إذ لم يأكلوا، لأنَّ الجائي إلى ضرٍّ لا يأكل ما قدَّم إليه المجيء إليه، وأيضا دخلوا بدون استئذان وفي غير وقت المجيء، وأيضا لا يعرف سلاما في زمانه، وفي أرضه.

وقيل: علمهم ملائكة وخاف أنَّه بدَّل فجاءوا لإهلاكه، خاف على نفسه لأمر لم يرضه الله تعالى منه، أو على قومه، أو عليه وعليهم، وللملائكة اطّلاَع على ما لم يطّلع عليه الإنسان، وفي حديث البخاري: «**قالت الملائكة: ربِّ إنَّ عبدك هذا**

يريد أن يعمل بسيِّئة...»[1]، وذلك بأمارة لا باطّلاع على ما في القلب.

﴿**وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ**﴾ أضمر أو بلغ، فإنَّه من نُكْرِهِ لهم بلغ الخوف وأدركه ﴿**خِيفَةً**﴾ نوعا من الخوف قويًّا أو ضعيفا أو متوسِّطا، ولو علمهم ملائكة لم يقدِّم لهم مأكولا، ولا خاف منهم، ولا سيما أنَّهم في صورة حسنة ﴿**قَالُواْ**﴾ لِمَا أحسوا منه من الخوف، إلهاما من الله لهم، أو لِمَا رأوه من أثره في وجهه وكلامه، ثمَّ تذكَّرت أنَّه صرَّح لهم بالخوف كما في آية أخرى: ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ (سورة الحجر: ٥٢) .

وعن ابن عبَّاس أنَّه عَلَيْهِ السَّلَامُ أحسَّ بأنَّهم ملائكة كما قالوا: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ﴾ فهو عرفهم ولم يعرف فيم أرسلوا، فأخبروه، فالإنكار المدلول عليه بنكرهم غير الإنكار المدلول بـ﴿سَلاَمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ (الذاريات: ٢٥) ، وهو هنا بعد إحضار الطعام وهناك قبله، أو ما هنا راجع إلى حالهم حين إحضار الطعام، وما هناك متعلّق بهم لا بعدم الأكل، ولا يخفى أنَّ المتبادر أنَّه لم يعرفهم ملائكة حتَّى قالوا: ﴿لاَ تَخَفِ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ﴾ ولو عرفهم ملائكة لم يقدِّم إليهم الطعام، فما عرفهم إلاَّ بعد تقديمه، وذكر بعض أنَّه لم يعرفهم ملائكة حتَّى مسح جبريل على الحنيذ فأسرع يرضع أمَّه.

﴿**لاَ تَخَفِ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ**﴾ بالعذاب، ولم نأكل طعامك لأنَّا

١- رواه مسلم في كتاب الإيمان: «إذا همَّ العبد بحسنة كتبت وإذا همَّ بسيِّئة لم تكتب». رقم ٢٠٥ (١٢٩). وأوَّل الحديث عنده: قال ﷺ: قال الله عزَّ وجلَّ: «إذا تحدَّث عبدي بأن يعمل حسنة فأنا أكتبها له حسنة ما لم يعمل، فإذا عملها فأنا اكتبها بعشر أمثالها وإذا تحدَّث بأن يعمل سيِّئة فأنا أغفر له ما لم يعملها فإذا عملها فأنا أكتبها له بمثله». وقال ﷺ: قالت الملائكة: «ربِّ ذا عبدك...». وتمام الحديث هو: «... وهو أبصر به، فقال ارقبوه فإن عملها فاكتبوها له بمثلها، وإن تركها فاكتبوها له حسنة، إنَّما تركها من جرَّائي...».

ملائكة، لا نأكل لا لإرادة سوء بك، ولوط هو ابن أخي ابراهيم وهو لوط بن هاران وهاران أخو إبراهيم، وفي سورة أخرى: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ (سورة الذاريات: ٣٢-٣٣).

﴿وَامْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ﴾ قال ابن مسعود: قائمة وهو قاعد، تخدمهم بنحو الإطعام والشراب، ولعلَّ نساءهم لا تحجب، ولا سيما العجائز وهي عجوز، وقيل: قائمة وراء الحجاب تستمع كلامهم، والستر اتِّفَاقي، وقيل: لوجوب الستر عليهنَّ.

وقال ابن اسحاق: قائمة تصلّي، ولا دليل له، وقال المبرّد: قائمة عن الولادة، وهو بعيد، ولم تعلم هي ولا إبراهيم أنَّهم ملائكة ولو علما ما فعلا، لأنَّهما يعلمان أنَّ الملائكة لا تأكل ولا تشرب، ولا مانع من أن يعلما من ذلك الوقت مع عدم علمهما من قبل أنَّهم ملائكة، [قلت:] وقيام المرأة بأمر الضيف جائز غير مكروه على عادة العرب.

(قصص) واسمها "سارَّة" ـ بشدِّ الراء ـ تسرُّ من رآها لمزيد جمالها، لفظ عربيٌّ، أو "سارت" بتخفيفها وجر التاء في السطر لفظ عجميٌّ في هذا الوجه الأخير، وأصله على هذا "يسارت" بمثنَّاة تحتيَّة أسقطت، وزيدت في اسم ابنها حي بن زكرياء فصار يحيى، وهو ابنها بوسائط، وهي بنت عمِّ إبراهيم: سارة بنت هاران بن ناحور.

والواو للحال، وصاحبها واو «قَالُوا». ﴿فَضَحِكَتْ﴾ فرحا بزوال الخوف الذي أوجسه إبراهيم عنه وعنها، وقد خافت أيضا كخوف إبراهيم أو لخوفه وفرحا بإهلاك أهل الفساد، وهم قوم لوط، أو لذلك كلّه وكانت شديدة

الإنكار عليهم، وفرحا بموافقتها أمر الله ﷻ إذ كانت تقول لإبراهيم في ما مضى وقبل دخول الملائكة: أضمم إليك ابن أخيك لوطا فإنَّ الهلاك ينزل عليهم، فضحكت إذ قالوا: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ...﴾، وقيل: لوط ابن أخي إبراهيم، وقيل: ابن خالته، ويقال: أخي سارَّة، قيل: مصدِّقا لكلامها.

(قصص) وبعد تمام قولها لإبراهيم دخل الملائكة وكان قولهم ذلك وفرحا بقول الملائكة حقيق لهذا أن يتَّخذه الله خليلا، لَمَّا قال: ﴿أَلاَ تَاكُلُونَ﴾ (سورة الذاريات: ٢٧) قالوا: لا نأكل طعاما إلاَّ بالثمن، فقال: ثمنه أن تذكروا الله أوَّله وتحمدوه آخره، فقال جبريل ومكائيل عليهما السلام: لَحُقَّ لمثل هذا الرجل أن يتّخذه الله خليلا، وقيل: نظر جبريل إلى مكائيل فقال: لَحُقَّ...، والمعنى: لو كنّا نأكل لأكلنا بالثمن.

وقيل: ضحكت فرحا بالولد، ويردُّه أنَّ الضحك وقع قبل علمها بالولد، لعطف التبشير بالفاء المرتّبة، إلاَّ أن يتكلّف أنّها بمعنى الواو، وهو محتاج إلى دليل، وكذا قول من قال: ضحكت تعجُّبا من التبشير بالولد مع أنَّها عجوز وزوجها شيخ.

وقيل: في الآية تقديم وتأخير وقيل: ضحكت تعجُّبا من خوفه من ثلاثة وهو في حشمه وخدمه وأهله، وأنَّه وحده يغلب أربعين، وقيل: مائة، وقيل: تعجُّبا من غفلة قوم لوط عن قرب العذاب، وقيل: ضحكت من حياة الحنيذ بمسح الملك عليه، وقيل: تعجُّبا من أنَّهم لا يأكلون مع أنَّها أحسنت خدمتهم، يا عجبا لأضيافنا نخدمهم بأنفسنا تكرمة لهم وهم لا يأكلون طعامنا !.

وقيل: «ضَحِكَتْ»: حاضت كقول الشاعر:

وعهدي بسلمى ضاحكا في لبابة ولم يعد حقًّا ثديها أن تحلّما

وفيه أنَّه لا يعرف قائل البيت، ويقال: ضحكت السمرة أي سال علكها، ولعلَّه مصنوع، وكذا قوله:

وإنِّي لآتي العرس عند طهورها وأهجرها يوما إذا تك ضاحكا

وجمهور اللغويِّين أثبتوا «ضَحِكَتْ»: بمعنى حاضت، وضحكت الأرنب: حاضت، وفيه أنَّ المعروف: حاضت السمرة، ولعلَّ المفسِّر الأوَّل ذكر حاضت إخبارا بأنَّها حاضت بعد كبر السن، لا تفسيرا لضحكت بمعنى حاضت، فتوهَّم الناس أنه تفسير. ومعنى البيت أنَّ وصلي بسلمى حال ما حدث لها الحيض في بدء بلوغها دخلت في جملة نساء لبابة أي خالصة عَمَّا يكدِّر أبدانهنَّ من نوائب الدهر، فإنَّ لباب كُلِّ شيء خالصه، وتحلَّم الثدي: بدت حلمته.

واعترض تفسير الضحك بالحيض بأنه لا يلائمه تعجُّبها بعد إذ قالت: ﴿ءَالِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ...﴾ لأنه لو حاضت قبل التبشير لم تتعجَّب من الولادة، لأنَّ الحيض معيار الولادة، وأجيب بأنَّ التعجُّب من التبشير بالولادة مطلقا لا بقيد الحيض، وأنَّه لا يلزم من الحيض الولادة، وأنَّها تعجَّبت لكبر سنِّها وسنِّ زوجها ولمجيء الحيض في غير أوانه.

﴿**فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ**﴾ ولدته بعد التبشير بسنة، وبعد إسماعيل بأربع عشرة سنة، وبثلاثة عشر قبل وقوعه في البطن ﴿**وَمِن وَرَآءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ**﴾ أي ويعقوب ثابت بالولادة، أو مولود بعد إسحاق، وهذا متضمِّن للتبشير بيعقوب على تقدير القول، أي قائلين: من وراءه يعقوب مولودا له، أي لإسحاق، أو ضمَّن "بشَّر" ذكرنا لها إسحاق ولدا ملوَّحا بابنه يعقوب بعده، وهي مبشَّرة بولد من بطنها وبولد من ذلك الولد تعيش حتَّى تراه، وذلك يناسب أنَّ لها رغبة

وحرصا في الولادة «أَحبُّ شيء إلى الإنسان ما منعـا». وقـدَّر بعض: ويحدث من وراء إسحاق يعقوب.

ويجوز كما هو ظاهر الآية أنَّ يعقوب ليس من التبشير لكن أخبرنـا الله أنّه بشَّرها بإسحاق، وأخبرنا أنّه يكون منـه يعقـوب، وقيـل: ﴿وَرَاء﴾: بمعنى ولـد الولد لا على معنى أنَّ من ولد إسـحاق يعقـوب، لأنَّ يعقـوب ولـد إسـحاق لا ولد ولده بل على أنّه وراء إبراهيم من جهـة إسـحاق، فهـو وراء إسـحاق مـن حيث إنّه وراء إبراهيـم، فـأضيف لإسـحاق تقيـيدا بـأنَّ هـذا الـوراء الـذي هـو لإبراهيم معتبر بإسحاق لا بإسماعيل، **وذلك تكلُّف يجتنب**، وكما بشِّرت بشِّر إبراهيم، كأنّه قيل: هذا ولد مبشَّر به يكون منها فإنّه ينتظر ذلك وزيادة إذ قـال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ (سورة البقرة: ١٢٣) إلاّ أنّها أشدُّ حرصا لأنّهـا لم تلـد قـطُّ، وهـو قد ولد إسماعيل، أو مع غيره، ولو كان أشدَّ حرصا منها من حيث قصد الإمامة لكنّه لم يدر في الوقت أنَّ هذا الولد إمام ولو علم بعد ذلك.

﴿**قَالَتْ يَاوَيْلَتَىٰ**﴾ يا هلكتي، هذا أصله، والمراد: الأمر المهول خيرا أو شرًّا، والتـاء للوحـدة والألـف عـن يـاء المتكلّمـة. ﴿**ءَالِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ**﴾ بنـت تسـع وتسعين، وقيل: بنت تسـعين ﴿**وَهَـٰذَا بَعْلِي شَيْخًا**﴾ ابـن مائـة علـى أنّهـا ابنـة تسعين، أو ابن مائة وعشرين على أنّها ابنة تسع وتسعين، روايتان فيهما.

(نحو) و«شَيْخًا» حال من الخبر، وعامل الخبر هو المبتدأ، والمبتـدأ هـو العامل في الحال لتضمُّنه معنى أشير، وفي الهاء أيضا معنى أنبِّه، وقال الكوفيُّـون: هذا في مثل هذه العبارة تعمل عمل كان.

(لغة) و﴿بَعْلِي﴾: زوجي، سُمِّيَ الزوج بعلا لاستعلائه علـى امرأتـه، لأنَّ البعل هو المستعلي على غيره القائم به، كما أنَّ الرجل قائم بـأمر امرأتـه مـن

نفقة وغيرها، كما سُمِّيَ صنم بعلا لادِّعائهم أنَّه قائم بأمر عابده، وقيل: هـو في الأصل: الزوج وَسمِّيَ غيره به تشبيها.

(نحو) «وَأَنَا عَجُوزٌ»: حال من ضمير «ءَالِدُ». «وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا»: معطوف علـى الحاليـة، وحاليتـه بـالعطف لا بـالواو، لأنَّ واو الحـال لا تتكـرَّر، وهذه الواو عاطفة لا حالية، إلاَّ إن لمحت في «عَجُوزٌ» ضميرا ردًّا إلى أصله مـن الوصفيَّة، فجعلت «هَذَا بَعْلِي شَيْخًا» حال من الضمير فتكون الواو للحال.

﴿إِنَّ هَذَا﴾ أي ما ذكر من الولادة من الهرمين، وأيضا أحدهما عقيم أو في هذا الولْد بإسكان اللام على المصدَرِيَّة، أو هذا الذي يولد، أو حصول الـولادة، وقيل: الإشارة إلى أنَّ «ءَالِدُ» باعتبار مصدره المؤنَّث وهو الـولادة، لأنَّ المصـدر بالتأويل لا يؤنَّث ضميره نحـو: أعجبـني أن تقيـم لا يقـال أعجبتـني، ولـو أردت التأويل بـ"إقامتك" لا بـ"إقامك". ﴿لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ تعجَّبت من خلاف العادة، مستعظمة للنعمة مصدِّقة بقدرة ا لله ﷻ، وكذلك الاستفهام في «ءَالِدُ» تعجُّب وتعجيب، ولا إنكار.

﴿قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنَ اَمْرِ ا للهِ﴾ مـع أنَّ قدرتـه صالحـة لخـرق العـادة، وهـذا إنكار لأن يكون تعجُّبها لائقا، أرادوا منها أن يكـون قلبهـا مطمئنـًّا إلى المعتـاد وخلاف المعتاد على حدٍّ سواء لكمال قدرته، وكثرة خوارق العادة ومشـاهدتها في جنب إبراهيم وغيره وعلمُها بها كالوحي، وعلمها بأنَّه قبل تزوُّجه إيَّاها ألقي في النـار ولم تحرقـه. ويقـال: نشـأت وشـابت في ملاحظـة الآيـات، لَمَّـا شـاب إبراهيم كان أهل زمانه ومن بعده يشيبون، أو أريد بشيبها أوانه لا وقوعه منها.

﴿رَحْمَةُ ا للهِ وَبَرَكَاتُـهُ, عَلَيْكُـمُ, أَهْـلَ الْبَيْـتِ﴾ إخبـار، وقيـل: دعـاء مـن الملائكة بالرحمة تحضر ـ وهي مزيد الإنعام ـ وبالبركة بعدُ بأن تنمو تلك الرحمة، وتتوالد له ولذرِّيَّته، وكلٌّ من الرحمـة والبركـات عمـوم، ومـن الرحمـة الـولادة،

وقيل: الرحمة النبوءة، والبركات الأسباط من بني إسرائيل، والأنبياء منهم غالبا، وهم من ولد إبراهيم الكليلا، وقيل: رحمته تحيَّته، وبركاته فواضل خيره.

(نحو) والنصب على الاختصاص، كقوله ﷺ: «**نحن معاشرَ الأنبياء إخوة**»[1] بنصب معاشر، أي أخصُّ أهل البيت، والاختصاص وضعٌ لا على تضمُّن مدحٍ أو ذمٍّ، أو النصب على المدح بأن وضع على رسم المدح كما هنا، أو الذمِّ، أو النصب على النداء.

و﴿الْبَيْتِ﴾: بيت إبراهيم، والمراد: آله بيت نسب لا بيت طين وخشب، وقيل: هو المراد، وعلى الأوَّل تدخل الزوجة وهي سارَّة، والزوجة تدخل في أهل البيت قبل هذه الآية، وفيه أنَّها ـ قيل ـ هي بنت عمِّ ابراهيم وهي من نسبه، فلا دليل، وقيل: المراد بيت الطين والخشب فتدخل بأنَّها فيه، وإنَّما الدليل على أنَّ زوجة الرجل من آله آية الأحزاب: ﴿يرِيدُ اللّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ...﴾ الآية (سورة الأحزاب: ٣٣) . وزعمت الشيعة أنَّها لا تدخل في آل زوجها وأهل بيته إلاَّ إن كانت من نسبه، واخرجوا عائشة رضي الله عنها من هذه الآية.

ولم يحيُّوها بالسلام كإبراهيم بل بالرحمة والبركة تفنُّنا، أو لأنَّه لم يكن تَحِيَّة أهل الأرض، وجمع وذكَّر لإبراهيم والملائكة ولذرِّيَّتها، أو لأنَّها كجملة رجال عقلاء.

واستدلَّ بالآية على انتهاء السلام في البركات، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ومثله في الردِّ، فإن زاد لم تردَّ عليه الزيادة للنهي عن هذه الزيادة، وقيل: تردُّ لقوله تعالى: ﴿بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَا﴾ (سورة النساء: ٨٦) ويجاب بأنَّ

١- أورده **ابن الجوزي** في تفسيره زاد المسير، ج٢/ ص٣٧٣.

المراد: بأحسن منها فيما لم يرد النهي فيه بأن يردَّ بغير هـذه الزيـادة، وذلـك أنَّـه ﷺ قيل له: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ومغفرته ورضوانه فغضب حتّـى احمرَّت وجنتاه وقـال: «**ما هـذا السـلام؟ إنَّ الله تعـالى حـدَّ السـلام**» وقـرأ: ﴿رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ, عَلَيْكُمُ, أَهْلَ الْبَيْتِ﴾[1].

﴿**إِنَّهُ حَمِيدٌ**﴾ محمـود، لا يوجـد في ذاتـه أو فعلـه أو وصفـه مـا يـذمُّ، بـل صفاته ذاته فهو محمود في السرَّاء والضرَّاء، أو عظيم الحمد وكثيره لعبـاده بمعنـى حامد، أي مجازيهم على الخير، ومنه هبة الولد حين الإيَّاس، فهو يدعـو للحمـد لا لتعجُّب ﴿**مَّجِيدٌ**﴾ جواد كريم، أو رفيع الشأن.

﴿**فَلَمَّا ذَهَبَ**﴾ بالتبشير بالولادة، وقول الملائكة: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْـنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ ﴿**عَنِ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ**﴾ الخوف من الملائكة الجائين ولم يـأكلوا طعامه، ولا يعرف أنَّهم ملائكة ﴿**وَجَآءَتْهُ الْبُشْرَىٰ**﴾ بالولادة على ما مرَّ. ﴿**يُجَادِلُنَا**﴾ جواب «لَمَّا»، وكان مضارعا لأنَّه للتجدُّد، كأنَّه قيل: تكـرَّر جدالـه حـين ذهـب... بـأن يقـول: فيهـم لـوط وهـو مؤمـن! أو لإرادة استحضار الحال الماضية، أو بمعنى: جادلنا كما تردُ "لـو" المضـارع بعدهـا للماضي، كقوله تعالى: ﴿قُل لَّوَ اَنتُمْ تَمْلِكُونَ﴾ (سورة الإسراء: ١٠٠) أي لو ملكتم، أو الجواب محذوف والجملة خبر له، أي جعل يجادلنا، أو محـذوف والجملة مستأنفة، قيل: أو حال من «إِبْرَاهِيم»، أو من هـاء «جَآءَتْـهُ»، أي اجترأ على الجدال أو فطن له، أو **يقـدَّر: أقـبل يجادلنا**، فـ«يُجَادِلُ» حـال من ضمير "أقبل". ﴿**فِي قَـوْمِ لُوطٍ**﴾ في شـأنهم كيـف يهلكـون كلُّهـم؟ وفيهم ثلاثمـائة مؤمن، و«يُـجَادِلُنَا» على حذف مضـاف: يجادل رسلنا،

١- أورده **الألوسي** في تفسيره أثرا عن ابن عبَّاس، ج٤/ ص١٠٢.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ...﴾ إلى ﴿...لُوطًا﴾ (سورة العنكبوت: ٣١).

﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ**﴾ صبور لا يرغب في الانتقام، فهو يحبُّ تأخير العذاب عنهم لعلّهم يؤمنون ﴿**أَوَّاهٌ**﴾ كثير التوجُّع عن الذنوب والتأسُّف عن الناس لذنوبهم ﴿**مُّنِيبٌ**﴾ راجع إلى الله عن كلِّ شيء.

وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ...﴾ بيان لحامله على المجادلة، وهو شدَّة رأفته، ومن تكريره معهم أنَّه قال: أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن؟ قالوا: لا، قال: فقرية فيها مئتا مؤمن؟ قالوا: لا، قال فأربعون؟ قالوا: لا، قال: فأربعة عشر؟ قالوا: لا، قال: فواحد؟ قالوا: لا، قال: إنَّ فيها لوطا.

وعن حذيفة: أرأيتم إن كان فيها خمسون من المسلمين أتهلكونها؟ قالوا: لا، قال: فثلاثون؟ قالوا: لا، قال: فعشرون؟ قالوا: لا، قال: فعشرة؟ أو قال فخمسة؟ ـ شكَّ الراوي ـ قالوا: لا، قال: فواحد؟ قالوا: لا، قال: إنَّ فيها لوطا، قالوا: نحن أعلم بمن فيها، وذلك جدال بنفي العذاب، وهم قالوا: نحن أعلم منك بمن لا يستحقُّ العذاب وهم لوط وأهله، إلاَّ امرأته كما في آية أخرى، وبمن يستحقُّه. وقيل: الجدال طلب الشفاعة، وقيل: سؤاله العذاب واقع لا محالة؟ أم على سبيل التخويف ليرجعوا. وَلَمَّا طال جداله قالت الملائكة بأمر الله:

﴿**يَآ إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَآ إِنَّهُ, قَدْ جَآءَ امْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ, ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ**﴾ فذلك مفعول لقول محذوف، أي قالوا يا إبراهيم أعرض عن هذا الجدال إنَّه قد جاء أمر ربِّك، وهو عذابه لهم الذي تعلَّقت به الإرادة الأَزَلِيَّة لأوانه كسائر المخلوقات، **والأمور لأوانها**. فالأمر واحد الأمور، أو هو القضاء بمعنى متعلَّقه، أو الإرادة بمعنى متعلَّقها، والقدَر: تعلُّق الإرادة بالأشياء في أوقاتها.

و﴿غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾: غير مصروف بجدال، كما قال: ﴿يُجَادِلُنَا﴾، ولا بفَوْتٍ ولا دعاء، كما قال: ﴿مُنِيبٌ﴾ فإنَّ المنيب يدعو المناب إليه، كما قال: ﴿أَوَّاهٌ﴾، أو غير ذلك كالتحسُّر. ومعنى ﴿جَآءَ﴾: استقبل، أو شارف الحضور، فلا ينافي قوله ﷻ: ﴿ءَاتِيهِمْ﴾ والأولى تفسير الأمر بالقضاء لا بالعذاب، لذكر العذاب بعد، وعلى كلِّ حال في قوله ﷻ: ﴿وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ...﴾ تأكيد أو تفسير لِمَا قبله، وزيادة، أو المجيء توطئة لقوله: ﴿غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾.

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾

قصَّة لوط عليه السلام مع قومه

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ﴾ لإهلاك قوم لوط ﴿رُسُلُنَا﴾ أي الملائكة الذين بشَّروا إبراهيم عليه السلام بالولد، وخاطبوا زوجه المسلمة رضي الله عنها، وقيل: خاطبوا بنتا له وجدوها تستقي من عين سدوم، فسألوها من يضيِّفهم فخافت عليهم،

فقالت: مكانكم، فأخبرته فجاءهم. ﴿لُوطًا﴾ قيل: أتوه نصف النهار وهو يعمل في أرض له، وقيل: يحتطب، وقيل: عشاء، وبين قرية إبراهيم التي جاءوا منها وقرية لوط ثمانية أميال، وقيل: نصف نهار، وقيل: أربعة فراسخ كما روي عن ابن عَبَّاس.

﴿سِيٓءَ﴾ مِن "ساء" المتعدِّي، ففيه ضمير لوط نائب الفاعل، أي ضُرَّ وأُحزن، أي ساءه الله ﴿بِهِمْ﴾ كما يدلُّ له الإضمار للوط في قوله: ﴿وَضَاقَ﴾ فلا داعي إلى جعله من اللازم وجعل «بِهِمْ» نائبا، وهاء «بِهِمْ» للملائكة الرسل، ووجه سوئه بهم أنهم في صورة غلمان مرد لهم جمال لم ير مثله، وخاف أن يفحش بهم قومه، ويعجز عن دفعهم كما قال: ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ تمييز محوَّل عن الفاعل، أي ضاق بهم ذرعه، أي ضاق.

(لغة) وأصله مِن ذرع البعير بيديه على قدر خطوه وطاقته، مأخوذ من الذراع، فاستعمل بمعنى الطاقة، فقيل: ضاق ذرعه كما إذا حمل عليه أكثر من طاقته قصرت خطاه ومدَّ عنقه، والأصل أنَّ الذراع الطويل ينال ما لا ينال القصير، فضرب ذلك مثلا في القدرة والعجز، ويفسَّر بالقلب مجاز، أو ضيقه كناية عن شدَّة الانقباض للعجز عن مدافعة المكروه.

﴿وَقَالَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ معصوب عليه بالسوء، أي شدَّ عليه السوء، فهو من الحذف والإيصال، أو معصوب بالسوء. والإسناد إلى اليوم مجاز، والمراد: شدَّة ما فيه من النوائب لقوَّة قومه وشدَّة خبثهم، مع انتهاء هؤلاء الأضياف إلى غاية من الجمال، ولمزيد الضرِّ ذكَّر بهم مرَّتين وزاد: ﴿هَـٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾.

﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ وهو في بيته مع الأضياف لأجل الفحش بالأضياف

﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ كأنَّه أهرعهم إليه أي جمعهم إليه جامع بإسراع، كأنَّهم قهرهم على الإسراع قاهر، وذلك كناية عن شدَّة إسراعهم باختيارهم، كما أنَّ ﴿ضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ كناية عن شدَّة الانقباض للعجز عن دفعهم عن أضيافه، وقيل: أهرعهم كبيرهم وساقهم، أو الطمع، أو أهرع بعض بعضا، ويقال أيضا: اللفظ للمفعول ولا يوجد له فعل مبنيٌّ للفاعل والمعنى البناء للفاعل، أي مسرعين، كأُولِع وزُكِم وعُنِي به وزُهِي عمرو.

(لغة) وقيل: في «يُهْرَعُونَ» أنَّه الارتعاد ضرورة من خوف أو برد أو علَّة، كما يقال: أُرعد بالبناء للمفعول في ذلك، وأوَّل بعضهم ذلك بأولعه طبعه، وأرعده غضبه أو خوفه، أو نحو ذلك، وجعله جهله أو ماله زاهيا، وأهرعه حرصه وهكذا...

﴿وَمِن قَبْلُ﴾ قبل مجيئهم لوطا أو قبل إرسال الله تعالى لوطا إليهم ﴿كَانُواْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي هم معتادون لأعمال اللواط لا يستحيون ولا يستخفون، ولذلك قصدوا ضيفك، والجمع باعتبار الأدبار، وإلاَّ فالمراد نوع واحد، وهو إتيان أدبار الذكور، ولذا ذكر في أكثر المواضع بالفاحشة بالإفراد، وَالسَّيِّئَات: إتيان النساء في الأدبار والذكور، والمكاء والصفير واللعب بالحمام والقمار والاستهزاء بالناس.

(قصص) روي أنَّه لَمَّا أتاه الملائكة الذين كانوا عند إبراهيم على جمال فائق في الأرض التي يعمل فيها، أو في احتطابه، استضافوه فمشى بهم ساعة، فقال لهم: أما بلغكم أمر هذه القرية؟ قالوا: وما أمرها؟ قال أشهد بالله أنَّها لشرُّ قرية في الأرض عملا، قال ذلك أربع مرَّات، ومرُّوا معه حتَّى دخلوا منزله، وقد قال الله للملائكة: لا تهلكوهم حتَّى يشهد عليهم لوط أربع شهادات، وقيل: مرُّوا معه من أرضه أو احتطابه على جماعة من قومه فتغامزوا، فقال لوط

عليه السلام: إنَّ قومي شرُّ خلق الله، فقال جبريل: هذه واحدة، ثمَّ مرُّوا على أخرى كذلك إلى أربع، يقول ذلك في كلٍّ، فقال جبريل للملائكة: اشهدوا، وقيل: خرجت امرأته من البيت بعد إذ دخلوه، فأخبرت قومها أنَّ فيه من لم يروا مثله جمالا، ولم يعلموا، ويجمع بأنَّها أعلمت من لم يعلم بهم أو لم تعلم أنَّهم علموا.

﴿قَالَ﴾ لوط من وراء الباب ﴿يَاقَوْمِ هَؤُلَاءِ﴾ الإناث مشيرا إلى بناته من صلبه، ومن توالد من أولاده إن كان ذلك ﴿بَنَاتِي﴾ فتزوَّجوهنَّ لست أبخل عنكم بهنَّ، وإنَّما مرادي منع ما منع الله، ولم يحرم يومئذ تزويج مشرك بمؤمنة.

(سيرة) كما زوَّج صلى الله عليه وسلم بنتيه بابني أبي لهب وهما مشركان: عتبة وعتيبة، وبنته زينب من ابن أبي العاصي مشركا، ثمَّ حرَّم الله ذلك، ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا﴾ (سورة البقرة: ٢٢١) إلاَّ أنَّ عتبة لم يدخل برقيَّة، لنهي أبيه له حين نزل: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ (سورة المسد: ١) فارقها وتزوَّجها الإمام عثمان بن عفَّان، ودخل ابن أبي العاصي بزينب، وأسر يوم بدر، وفادى نفسه، وأخذ النبيء صلى الله عليه وسلم عنه العهد أن يرسلها إلى المدينة إذا عاد، وأرسل صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة ورجلا من الأنصار ليأتيا بها، فجاءا بها، ثمَّ إنَّه أسلم وأتى المدينة، فردَّها صلى الله عليه وسلم بنكاح جديد أو بدونه على الخلاف.

ويقال كانوا يطلبونه قبل ذلك أن يزوِّجهم بهنَّ، فيأبى لخبثهم، ولَمَّا اشتدَّ الأمر فدى بهنَّ أضيافه، يرى تزويجه إيَّاهُم بهنَّ سهلا ولو كانوا مشركين غير أكفاء، ولا يصحُّ ما قيل: إنَّ تزويجه بناته المسلمات بهم حرام لشركهم، ولكن تعرَّض لهم بهنَّ مبالغة في تحريم اللواط، ولشدَّة كراهته اللواط، حتَّى أباح ذلك، حاشى نبيء الله أن يعترض بما لا يجوز، وقيل: عرض عليهم بناته بشرط أن يسلموا.

ويقال: بناته نساء قومه، لأنَّ كلَّ نبيء أبو أمَّته بالشفقة والرحمة والتعليم،

وهذا أولى لأنَّ بناته أقلُّ مِمَّن يعمل اللواط لا يكفينهم، وقد قيل: له بنتان قط: زعوراء وزيتاء، عبَّر عنهنَّ بالجمع، لَكِنَّ ظاهر الآية ما فوق الاثنتين، ولا حجَّة على أنَّهما اثنتان فقط، وعن ابن عَبَّاس: هنَّ ثلاث، وأقرب ما يقال: إنَّ عددهنَّ بقدر اللواطين، وإنما هلك أهل البلاد كلُّهم لرضاهم أو إعانتهم أو لعدم النهي، وأمَّا استبعاد تزويجه بهنَّ للأراذل فلا يتمُّ لأنَّه يفدي الأضياف بتزويجهنَّ، وبعضُ الشرِّ أهون من بعض.

وقد قرأ أُبَيٌّ: «وَأَزْوَاجُهُ, أُمَّهَاتُهُمْ وَهُوَ أَبٌ لَهُمْ» (سورة الأحزاب: ٦) ، أي بالشفقة والرحمة لا بالنسب كما قال: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ اَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ (سورة الأحزاب: ٤٠) ، وقرأ ابن مسعود أيضا: «وَهُوَ أَبٌ لَهُمْ»، بعد قوله: ﴿...أَنفُسِهُمْ﴾ (سورة الأحزاب: ٦) ويبحث بأنَّ المراد أب للمؤمنين والمؤمنات، وكيف يكون لوطٌ أبًا للكافرات والكافرين فإنَّه بعيد، ولو بالشفقة والتعليم والرحمة.

والإضافة مجاز، على أنَّ المراد: نساء أمَّته، أو «بنات» استعارة، ولا يقال: عَرْضُ نساء أمَّته عليهم قليل الجدوى لتمكُّنهم منهنَّ، لأنَّا نقول: عرضهنَّ عليهم على طريق التذكير والنصح، كما قال:

﴿**هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ**﴾ أنظف حالا من الأدبار على فرض أنَّ في الأدبار طهرا، أو هنَّ طاهرات، والأدبار خسيسة على خروج اسم التفضيل عن بابه، أو أراد النظافة بحسب العقل وقلَّة استفحاش الطبع، ولا شكَّ أنَّ إتيان النساء في القبل أزيد في الطهارة بهذا المعنى بالنسبة إلى اللواط، كما تقول: الميتة أطيب من المغصوب، وأحلُّ منه بحسب نظر بادي العقل، ولو كان لا حلَّ ولا طيب في الشرع للمغصوب والميتة، والفحش في اللواط أشدُّ.

(نحو) «هَؤُلَآءِ بَنَاتِي» مبتدأ وخبر، و«هُنَّ أَطْهَرُ» مبتدأ وخبر

مستأنف، أو خبر ثان، أو حال، أو «بَنَاتِي» بدل أو بيان، وجملة «هُـنَّ أَطْهَـرُ» خبر، أو «هُنَّ» فصل و«أَطْهَرُ» خبر «هَؤُلاَءِ».

﴿فَاتَّقُواْ اللّهَ﴾ بترك السَّيِّئَات، أي اللواط، وباختيار تزوُّج النساء، أو بترك الشرك وهو أعظم، لَكِنَّ المقام لتحريم اللواط. ﴿وَلاَ تُخْزُونِ﴾ ولا تفضحوني بعد كوني مستورا بعدم هذا اللواط الذي قصدتم الآن فأذلَّ بالفضيحة؛ أو لا تخجلوني، من الخزاية بمعنى الحياء، أي تفعلوا ما أستحيي منه ﴿فِي ضَيْفِيَ﴾ أي في شأن ضيفي، أو سبب ضيفي، وإخزاء ضيف الرجل إخزاء للرجل.

(صرف) والضيف يطلق على الواحد فصاعدا، لأنَّ أصله مصدر، وسمع جمعه على ضيوف وأضياف وضيفان، فتحمل هذه الجموع على أنَّها جموع للضيف المستعمل في الواحد. يقال: خَزِيَ بالكسر يَخزَى بالفتح بمعنى ذلَّ، أو استحيى، وهنا تعدَّى بالهمزة فإنَّه مضارع "أخزاه" بمعنى صيَّره ذليلا أو مستحييا.

﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ يأتي الصواب من تحريم اللواط وتركه والنهي عنه، والاستفهام توبيخ وتقرير وتذرُّع إلى التعجُّب.

﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ شهوة احتجنا إليها وأثبتناها، وهو واحد الحقوق، وليس المراد ضدُّ الباطل، اللهمَّ إلاَّ أن يريدوا بذلك أنَّه لا يحلُّ لنا في شرعك تزوُّجهنَّ، لأنَّهنَّ مؤمنات، كما قيل بذلك في شرعه ﷺ، وقيل: كان في سنَّتهم إنَّه من خطب امرأة وردَّ عنها حرمت هي عليه، وقيل: إنَّ عادتهم أن لا يتزوَّج أحد إلاَّ واحدة وهم متزوِّجون، وضعف القول بأنَّهم يرون نكاح الإناث غير حقٍّ. و«مِنْ» صلة للتأكيد،

و«حَقٍّ» مبتدأ، و«لَنَا» خبر أو فاعل لـ«لَنَا»، أو لثابت أغنى عن الخبر.

﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ﴾ بتجربة أحوالنا ومشاهدتها ﴿مَا نُرِيدُ﴾ من وطء الذكران. و«مَا» اسم أو حرف مصدر، أي إرادتنا، لا اسم استفهام، لأنَّ تأكيد العلم باللام وإنَّ ينافيه.

﴿قَالَ لَوَ اَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ لو للتمنّي والمصدر من خبر «أَنَّ» فاعل ثبت، و«بِكُمْ» بمعنى عليكم يتعلّق بمتعلّق «لي»، أو بـ«لِي» أو بـ«قُوَّةً» لأنّه مصدر لا ينحلُّ إلى أنْ والفعل، وأيضا يتوسَّع في الظروف، أو حال من «قُوَّةً»، والمراد: القُوَّة على أن يدفعهم عن اللواط بنفسه أو بغيره كما قال: ﴿اَوَ - اوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ أنضمُّ إلى قوم أقوياء أدفع بهم أشدَّاء ثابتون كالركن للبيت، بل ركن الجبل، قال رسول الله ﷺ: «**رحم الله أخي لوطا كان يأوي إلى ركن شديد**»[1] رواه البخاري ومسلم قال ذلك ترحُّما عليه وشفقة عليه لا استضعافا لقوله.

(قصص) وكان هو وإبراهيم من بابل من أرض العراق، من قرية تسمَّى كوتا، أتيا الشام وهما فيه غريبان، وأمَّا قوله تعالى: ﴿أَخُوهُمْ لُوطٌ﴾ (سورة الشعراء: ١٦١) فأُخوَّة بالرسالة إليهم، وأخوَّة بلد لا في الدين أو النسب، وهو ابن أخي إبراهيم، وقيل: ابن أخته، أرسله الله إلى أهل سدوم من أرض الشام، ويقال أيضا: سمِّي أخا لهم لمجاورته لهم ومصاهرته لهم، ولولادته منهم أولادا،

١- رواه **البخاري** في كتاب الأدب المفرد، (٢٣٦) باب من دعا في غيره من الدعاء، رقم٤٧٢ (٦٠٥)، وفي كتاب التفسير (يوسف) (٥) باب ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ الرَّسُولُ...﴾ رقم٤٦٩٤، مع زيادة في آخره. ورواه **مسلم** في كتاب الإيمان، رقم٢٦١. من حديث أبي هريرة. ورواه **السيوطي** في الدر، ج٣/ ص٣٧٢.

وإقامته فيهم مدَّة طويلة.

وقيل في قوله ﷺ: «**رحم الله أخي لوطا...**» إشارة إلى أنّه لا ينبغي للوط أن يقول ذلك، لأنَّ ظاهره إقناط كلّيٌّ من أن يجد ناصرا من الناس، وقد قال شعيب: ﴿أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ﴾ (سورة هود: ٩٢) ولا أقوى من الله ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ (سورة الزمر: ٣٦)، [قلت:] والإيَّاس من الناس جائز والممنوع الإيَّاس من الله عَجَّلَ، وما تقدَّم أولى، فإنَّ التمنّي للركن تمنٌّ لأمر شرعيٍّ يثاب عليه، كمن تمنّى سيفا يجاهد به، وقد قيل: أراد بالركن العشيرة.

وأجيز أن تكون «لَوْ» شرطيَّة على حدِّ ما مرَّ من تقدير الفعل، فيقدَّر لها جواب، أي لدفعتكم، كقوله تعالى: ﴿وَلَوَ اَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ (سورة الرعد: ٣١) وعطف «آوِي» على ثبت المقدَّر والمضارع للتجدُّد، أو على «قُوَّةً» بتقدير "أَنْ" الناصبة حذفت ورفع الفعل، أي قُوَّةً أو أَوْيـًا، وَالقُوَّة بنفسه في الدفع، والأَوْيُ في الدفع بغيره، والشرط أولى من التمنّي لأنَّ جوابه المقدَّر يقبل أنواعا كالدفع كما ذكرته، والمنع والبطش.

ويجوز أن يكون الركن الشديد الله، على أنَّ «أَوْ» بمعنى بل، فيكون قوله ﷺ: «**رحم الله أخي...**» مدحا، وهو خلاف المتبادر من الآية، وَلَمَّا قال من وراء الباب مستترا: ﴿هَؤُلَآءِ بَنَاتِي﴾ وتضرَّع إليهم بالوعظ، وذكر الأَوْي إلى ركن شديد من الناس، ولم يجده علموا أنّه ضعيف فتسوَّروا عليه، أو أرادوا التسوُّر، ورأى الملائكة كربه، قالوا له ما ذكر الله عَجَّلَ عنهم في قوله:

﴿**قَالُواْ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ**﴾ ملائكة أرسلنا الله إلى إهلاكهم، فافتح الباب لهم، وقيل: كسروا الباب ﴿**لَنْ يَّصِلُوا إِلَيْكَ**﴾ بإضرارنا لأنَّ مضرَّة أضيافه مضرَّة له، فقالوا: لن يصلوا إلى مضرَّتك، فدخلوا ودعا جبريل عليه السلام

ا لله أن يأذن له في إعمائهم فضربهم بجناح أخضر فعموا، كما قال ﷻ ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ (سورة القمر: ٣٧) فقالوا: النجاء النجاء! إنَّ في دار لوط سحرة، فستعلم يا لوط ما نعاقبك به غدا، وقال لوط لهم: متى هلاكهم؟ فقالوا: الصبح، فقال: أريد إهلاكهم قبل ذلك، أريد إهلاكهم الآن، فقالوا: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

﴿فَاسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ في بعض من الليل، وقيل: نصف الليل، أو في ظلمة من الليل، وعن ابن عَبَّاس: آخره، قال ا لله تعالى: ﴿نَجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾ (سورة القمر: ٢٤) ويجاب بِأَنَّهُ سرى أوَّل الليل ووقعت نجاتهم بسحر، إذ جاوزوا البلد المقلوع، وذلك السرى لِئَلاَّ يسمعوا أصوات العذاب الذي يقع صبحا، وسرى بأهله في حينه، وطوى ا لله لهم الأرض في وقتهم، ووصلوا إبراهيم ونجوا. سَرَى وأَسْرَى بمعنىً، وقيل: أسرى أوَّل الليل وسرى آخره.

﴿وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ قال قتادة: لا ينظر إلى ورائه فيلحقه العذاب الذي يصيب القوم والخطاب للأهل.

(بلاغة) ومقتضى الظاهر: ولا يلتفت منهم أحد بالغيبة وذلك على طريق الالتفات، وناسبه ذكر لفظ «يَلْتَفِتْ»، وَيُسَمَّى ذلك تسمية النوع، وهو أن يؤتى في العبارة بنوع من البديع، ويذكر اسمه فيها نحو جرَّدت الأسود مِنِّي إلى العدوِّ.

﴿إِلاَّ امْرَأَتَكَ﴾ استثناء من «أَحَدٌ» بالنصب لأنه فصيح، ولو كان الإبدال أفصح لتقدُّم السلب، ولا مانع من اتِّفَاق الجمهور على وجه مرجوح مع اتِّفَاق حقيقة المعنى، والمراد: إنَّكم نهيتم عن الالتفات بعد الخروج إلاَّ هي فلم تنه، فالتفتت وقالت: واقوماه! فضربت بحجر وماتت. ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعا، أي لكن امرأتك تهلك كما هلكوا، أو تلتفت فتصاب، ولو

خرجت معكم، كما قال:

﴿إِنَّهُۥ﴾ أي الشأن ﴿مُصِيبُهَا﴾ خبر مقـدَّم للاستقبال ﴿مَآ أَصَابَهُمْ﴾ مبتدأ مؤخّر ومعناه الاستقبال، ووجه لفظ المضيِّ الإخبار بأنّهم يصابون بالعذاب قبلها، وتَحَقُّقُ الوقوع، والجملة خبر «إِنَّ».

(نحو) ولا تقل كما قال بعض المحقّقين: «مُصِيبُهَا» مبتدأ و«مَا» خبر، ولا تقل «مُصِيبُ» خبر «إِنَّ» و«مَا» فاعله، لأنَّ ضمير الشأن لا يفسِّره إلاّ جملة صريحة خلافا للكوفيِّين، إذ أجازوا أنّه ما قائم أخواك، ويجوز إجماعا: إنّه ما قائم أخواك، وما قائم أخوك على أنَّ "أخوك" فاعل "قائم".

ويجوز أن يكون استثناء من «أَهْل» فيتعيَّن النصب، كما قرأ ابن مسعود وكتبه في مصحفه: «فَاسْرِ بِأَهْلِكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ» فيكون لم يسر بها، لكن اتَّبَعَتهم بلا أمر منه ، وبلا علم منه باتِّباعها، أو مع علمه إذ لم يأمرها فلا يضرُّه اتِّبَاعها، فكانت خلفهم، فقالت: واقوماه! لَمَّا التفتت وأصيبت، وهذا ما ظهر لي، وقيل: لم تخرج والاستثناء من أهل.

وقيل: المعنى ﴿وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمُۥ أَحَدٌ﴾ أمر بالإسراع فإنَّ الالتفات ينافيه، ويجوز كون معنى ﴿لاَ يَلْتَفِتْ﴾: لا يتخلّف، كما روي عن ابن عَبَّاس، يقال: لفته عن الأمر أي صرفه عنه، فتكون غير منهيَّة عن التخلُّف، فلم تسر، أو سرت وأهلكت على كلِّ حال. والاستثناء من «أَهْلِ» أو من «أَحَدٌ» على ما مرَّ، وتقدَّم أنه أراد عجلة العذاب في الحين.

فقال ما ذكر الله ﷻ بقوله ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ زمان موعدهم، أي موعد عذابهم، قال ما موعدهم؟ قالوا: صبح هذه الليلة، قال أريد أسرع من

ذلك قالوا ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ جواب لاستبطاء غير مذكور.

﴿فَلَمَّا جَآءَ امْرُنَا﴾ هو واحد الأمور أي شيء من أشيائنا، وهو إهلاكهم، أو أمرنا للملائكة بإهلاكهم، وهو ضدُّ النهي مصدر أمر يأمر، وهو أولى لأنَّه الأصل الحقيقة، والأوَّل مجاز أو حقيقة أصلها مجاز، وإسناد المجيء للأمر بالمعنيين مجاز عقليٌّ، أو المجيء مجاز بالاستعارة، كذا قيل، ومعنى ﴿جَآءَ﴾: حان أو استقبل فحضر، وقيل: جاء وقت أمرنا، أو أردنا مجيء أمرنا.

﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ قلبناها، والأصل: "جعلوا" أي الملائكة أو واحد منهم، ﴿عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾: بإدخال ريشة واحدة أو يد جبريل، وقيل: جناح من سبع أرضين، أو من أسفل أرضهم، أو من داخلها فرفعها إلى أن سمع أهل السماء نباح الكلاب وصياح الديكة فقلبها، وأتبعوا بالحجارة قبل تمام القلب، أو شقَّت الأرض إليهم.

(بلاغة) وأسند الجعل إلى الأمر به والمسبَّب له وهو الله سبحانه وتعالى تهويلا للأمر كما هو بما يتلى، ولم يقل: جعلنا سافلها عاليها ولو استلزم ما يتلى، لأنَّ التصريح بجعل العالي الذي هو مستقرهم سافلا أشقُّ، وكذا إذا كان الأمر واحد الأمور أسنده لذلك إلى مالك الأمور. و«هَا» للأرض، أو للمدائن المعلومة من المقام، وكذا في قوله:

﴿وَأَمْطَرْنَا﴾ فيه ما في قوله: ﴿جَعَلْنَا﴾. ﴿عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾.

(قصص) والمدائن خمس: ميعة وصعرة وعصرة ودوما وسدوم، وقيل: سبع، وأعظمها سدوم، وفيها لوط، وفيها أربعة آلاف ألف إنسان، أو ما شاء الله تعالى، وقيل: هذا العدد في المدائن. وقيل: «هَا» في عاليها عائدة على البيوت الشاذَّة عن القرى المتتابعة لها الخارجة عنها، وعلى هذا فالمقلوبون غير

مرجومين والمرجومون غير المقلوبين. قلبت القرى، ورجمت البيوت الخارجة عنها، ومن غاب عنهم في بلاد أخر، حتَّى إِنَّهُ دخل رجل منهم الحرم فانتظره ملك بحجر، حتَّى خرج منه فأوقعه عليه.

(لغة) والإمطار مجاز عن الإرسال استعاريٌّ للشبه، أو إرساليٌّ للإطلاق والتقييد. و﴿سِجِّيل﴾: الطين المتحجِّر بالإحراق، كما قال ابن عَبَّاس رضي الله عنه: هو حجر من طين كالآجر المطبوخ، وكما في آية أخرى: ﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ (سورة الذاريات: ٣٣). وأصله ــ قيل ــ سِنكِيل بالفارسيَّة، وعرِّب إلى سجِّيل؛ أو هو من أسجله إذا أرسله، كأنَّه قيل من مثل الشيء المرسل؛ أو من مثل العطيَّة في الإدرار؛ أو من السجل بمعنى الكتابة، أي مِمَّا كتب الله أن يعذِّبهم به، أو مِمَّا كتب عليه، فإنَّه كتب على كلِّ حجر اسم صاحبه؛ أو أصله سجِّين وهو جهنَّم، أو واد فيها أبدلت النون لاما.

﴿مَّنضُودٍ﴾ مركَّب بعضه على بعضا، ثمَّ فرِّق على أصحابه، أو جمع لعذابهم، أو أتبع بعضه بعضا في الإرسال إليهم به كالمطر في التتابع والكثرة، أو كلُّ حجر ألصق أجزاؤه بعضها ببعض إلصاقا عظيما فهو شديد. ﴿مُسَوَّمَةً﴾ معلَّمة، كلُّ واحد مكتوب عليه اسم صاحبه الذي يرمى به، أو مميزة بما يُعلَم به أنَّها ليست من حجر الأرض، أو مخطوطة بخطوط بيض وحمر، أو معلَّمة للعذاب.

(قصص) وعن ابن عَبَّاس: منها أبيض فيه نقط سود، أو أسود فيه نقط بيض، ويقال: بعضها كرأس البعير، وبعضها كمبركه، وبعضها كقبضة الرجل، وعن الحسن والسدِّي: كان عليها أمثال الخواتم كالطين المختوم، قال أبو صالح[1]: رأيت منها عند أمِّ هانئ، وكان عليها خطوط حمر على هيئة الجزع،

١- انظر التعريف به في ج٤/ ص٤٦.

[قلت:] الذي يقرب أن يكون عند أمِّ هانئ حجارة أصحاب الفيل.

(نحو) وهو نعت لـ«حِجَارَةً»، ولا بأس بتقديم النعت غير الصريح، وهو «مِن سِجِّيلٍ» عليه، ولك جعله حالا من ضمير الاستقرار في «مِن سِجِّيلٍ»، أو حالا من «حِجَارَةً»، لوصفه بـ«مِن سِجِّيلٍ».

﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ يا محمَّد ﷺ، أي في خزائنه، والعنديَّة عنديَّة ملك، وهو لفظ مستعار للمكان المتخيَّل للغيوب، استعارة مصرَّحة وهو متعلِّق بـ«مُسَوَّمَةً»، أو بمحذوف نعت لـ«حِجَارَةً»، وقال بعض: جاءت من عند ربِّك. ﴿وَمَا هِيَ﴾ أي الحجارة ﴿مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ متعسِّر، والظالمون: هم قوم لوط المقلوبون، ذكرهم باسم الظلم تشنيعا عليهم بموجب هلاكهم، وهو ظلمهم باللواط، وهذا تأكيد لِمَا قبل، أي أصابهم به ذلك الهلاك، وهم أهل له لاَ بُدَّ لهم به، وهذا معنى البعد المنفيِّ.

وفي الآية وعيد لكلِّ ظالم لنفسه أو غيره باللواط أو غيره، وقد قيل: المراد بالظالمين من يعمل عمل قوم لوط بعدهم، أي: وما عقوبتها، بردِّ الضمير للعقوبة.

وقيل: إنَّه ﷺ سأل جبريل عن الظالمين فقال: هؤلاء كفَّار أمَّتك المكذِّبين، كلُّ واحد يرقبه حجر إذا مات، أو كان في النزع رمي به، فقد رمي من مات منهم في **بلد واحد** مثلا على كفره، وقيل: من شأنهم الرمي عند احتضارهم، ولكن لم يقع؛ وقيل: المعنى أنَّ الحجارة أصابت من غاب منهم كما أصابت من حضر كما مرَّ.

وقيل: **الضمير للقرى**، والمعنى: ما قرى قوم لوط بعيدة المشاهدة عن الظالمين من قومك، فإنَّهم يشاهدون محالَّها، وما بقي مِمَّا يليها في مسيرهم إلى

الشام. والباء صلة، وذكّر «بَعِيد» لتأويل هي بالحجر جنس الحجارة، أو تأويل القرى بالمكان، وكذا إن رجع الضمير للعقوبة يؤوَّل بالعذاب أو العقاب، أو لأنَّ بعيدا بوزن المصدر كالصهيل، أو الباء بمعنى في، وبعيد نعت لمحذوف، أي وما هي في مكان بعيد.

[تمَّ بحمد الله وحسن عونه الجزء السادس من تيسير التفسير، ويليه بحول الله الجزء السابع، وأوَّله تفسير قوله تعالى:

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنِ اِلَهٍ غَيْرُهُ، وَلاَ تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ... ﴾ (الآية : ٨٤)]

الفهارس

الفهرس التفصيلي للمسائل الأصولية

الفهرس التفصيلي للمسائل الفقهية

فهرس بعض مختارات الشيخ

الفقه

اللـــغة

البلاغة

النــحو

تفسير سورة يونس عليه السلام

تفسير سورة هود عليه السلام

التعريف بالمفسِّر*

• في سنة ١٢٣٧هـ، ١٨١٨م بمدينة غرداية العريقة شمال صحراء الجزائر، وُلد الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش.

• في سنة ١٢٤٣هـ،١٨٢٧م حفظ القرآن الكريم في بني يسجن - بلده الأصلي -، واشتغل بحفظ المتون الدينية واللغوية على يد شقيقه الأكبر إبراهيم اطفيش، وعلى غيره من مشايخ المنطقة، ونبغ في فروع الثقافة الإسلامية نبوغا كبيراً.

• في سنة ١٢٥٣هـ،١٨٣٧م جلس للتدريس والتعليم في داره ببني يسجن، ثمَّ في مدينة بنورة لفترة من الزمن، ثمَّ عاد إلى بني يسجن وواصل نشاطه الدؤوب في معهده، وتولَّى مهمَّة الوعظ والإرشاد والفتوى في المسجد.

• منذ سنة ١٣٠٠هـ،١٨٨٢م قاوم الاستعمار الفرنسي عند دخوله إلى وادي ميزاب، وتولَّى إحباط خططه وتصرفاته، وله زيارات ميدانية للدعوة والإرشاد والتعليم إلى جميع قرى وادي ميزاب.

• في سنة ١٣٠٤هـ،١٨٨٦م زار البقاع المقدَّسة للمرَّة الثانية، وفي طريقه زار جامع الزيتونة بتونس، وجامع الأزهر بالقاهرة، واستمع

* انظر تفاصيل ترجمته في مقدِّمة الجزء الأوَّل من هذا التفسير.

لعلمائها، وألقى دروسا في الحرم المدني، تشريفا وتقديرا له من علمائه.

• له مراسلات هامَّة إلى علماء عصره جاب بها الشرق والغرب، وترك في كلِّ فنٍّ تأليفا أو أكثر يشهد له بالتفوق والإتقان.

• تخرَّج من معهده عدد كبير من الدعاة والقضاة والعلماء، وإليه يرجع الفضل الكبير في بثّ الوعي الديني، ونشر الروح العلمية في هذه الربوع وفي غيرها بأبحاثه وتآليفه القيِّمة، وبتفانيه في التدريس والتعليم.

في سنة ١٣٣٢هـ،١٩١٤م اختاره الله إلى جواره في مركز نشاطه بني يسجن، رحمه الله وأرضاه وجعل الجنَّة مثواه.